آياتها	ســـورة مريـــــم	رقمها
98	ـــــ مكيّة ـــــ	19

سمّيت هذه السورة باسم "مريم"، وقد سمّاها النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بهذا الاسم على ما روي عنه، وذلك لأنّها تبسطت في ذكر قصة "مريم" عليها السلام بدءًا من تبشيرها باصطفائها، إلى خبر حملها بعيسى عليه السلام، وما تبع ذلك من وضعه، وخبر نطقه في المهد، ثم التبليغ بنبوّته ورسالته. وقد اِستدلّ بها جعفر بن أبي طالب لدى النّجاشي –عظيم الحبشة– عند هجرة المسلمين في هجرتهم الأولى إلى الحبشة. ذكرت هذه السورة أربع معجزات في خلق الآدميين :

أولاها: ولادة يحيى عليه السلام من أمّ عاقر، وشيخ طاعن في السنّ.

ثانيها: ولادة عيسى عليه السلام بدون أب، ولد بكلمة : "كن" كانت نفخة في جيب مريم عن طريق ملك.

ثالثها : كلام عيسى في المهد لتبرئة أمّه، وللتبشير بنبوّته.

ورابعها: الإشارة لولادة إسحاق بن إبراهيم عليه السلام من اِمرأة عاقر، ونبيّ متقدّم في السنّ.

وفي هذه السورة تنويه بصفات الأنبياء والمرسلين من أسلاف آل عمران، وتمجيد أخلاقهم لردّ الشبهات عنهم قصد تنزيه الله تعالى عن اِتّخاذ الصاحبة والولد للرّدّ على القائلين بأنّ عيسى ابن الله سبحانه عمّا يصفون، وإنّما هو ابن مريم بكلمة الله تعالى. فيها تنويه باعتزال إبراهيم لأبيه وقومه وموطنه نبذا للشرك وأهله.

وفي هذه السورة – شأنها في ذلك شأن السور المكيّة – الدعوة للتوحيد، وفيها وعد ووعيد، وفيها الدعوة للإيمان بالبعث، مع التنويه بالقرآن الكريم وهديه.

وتتميّز هذه السورة بجمال أسلوبها، وجمال إيقاع فواصلها، وقصر الآيات ممّا يجعل من اليسير حفظها، إلى جانب جزالة اللفظ وسهولة الاسترسال في عرض أحداث قصص بعض الأنبياء.

- كٓهيعٓصٓ (1) ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ (2) إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا (3) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا (4) :

كهيعص: حروف مقطّعة لا يعرف معنى هذا الافتتاح إلاّ الله سبحانه. هذا ذكر رحمة الله بعبده زكرياء عليه السلام، وزكرياء هو زوج خالة مريم، وهو نبيّ من أنبياء بني إسرائيل، عاش يخدم الهيكل، وكان نجّارا يأكل من عمل يده.



وأذكر إذ دعا زكرياء ربّه دعاءً خفيا مستترا تجنّبا لهزء الهازئين. دعا ربّه شاكيا وجعه وألمه من ضعف قواه وبدنه ومن وهَنِه بسبب تقدّمه في السنّ وشيخوخته، وراجيا أن يستجيب لدعائه مقرّا بفضله السابق عليه، ولم يكن بفضل الله عليه شقيا محروما، ولا خائبا.

- وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا **(5)** يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا **(6)** :

وشكا ربّه خوفه من أبناء عمومته وعصبته فيما سيفعلون برزقه من بعد موته، وخوفه ممّا سيفعلون من بعده بشرع الله الذي أوصاهم بحفظه، وذكر أنّ اِمرأته عاقر، لا تلد، وطلب من ربّه أن يهبه ولدا صالحا يلي الأمر من بعده في الدّين والرّزق، ويرث من آل يعقوب النّبوّة والحكمة، والملك، وسأل ربّه أن يكون هذا الولد مرضيا في دينه وخُلُقه. كان عمر زكرياء – على قول بعضهم – لمّا مات قد تجاوز التّسعين بخمس سنوات، وعلى هذا يُتوقّع أن يكون دعاؤه هذا حين تجاوز السبعين من عمره.

والمُستفاد من هذا العرضِ أنّ طلب زكرياء كان طلبا يستحيل تحقيقه عقلا وموضوعيا، فالرجل شيخ عجوز وهَنَ عظمه، واِمرأته عاقر، فيها عَيْبٌ خَلقي يجعلها لا تلد مطلقا، هذا طلب يستحيل تحقيقه حسب النّواميس الكونية، إلاّ إذا أُخترقت، ولا تُخْتَرَقُ إلاّ بقدرة خالق هذه النّواميس.

- يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا **(7)** :

وجاءته البُشرى اِستجابة لدعائه بأنّه سيولد له ولد يسمّيه يحيى، وهو اِسم لم يُسَمَّ أحد من قبله بهذا الاسم. وفي هذه البشارة اِختراق للسُّنَنِ الكونية ليعلم النّاس أنّ الله لا يعجزه شيء، وأنّ القدرة الرّبانية خارقة لكلّ عادة، وليعلم النّاس أنّ الله تعالى لا يخيّب رجاء أوليائه الصالحين، وأراد الله تعالى أن تكون ولادة يحيى آية من آيات قدرته، وآية من آيات تكريمه لعباده المقرّبين.

- قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا **(8)** :

واِستغرب زكرياء من البشارة رغم أنّها كانت اِستجابة لدعائه ورجائه فقال: كيف يكون لي ولد واِمرأتي عاقر وأنا شيخ عجوز...

- قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا **(9)** :

فجاءه الوحي بأنّ الأمر سيكون على رغم العقم والشيخوخة، فالخلق عند الله تعالى أمر هيّن سهل بمثل ما خُلق من قبل ولم يكن شيئا قبل ولادته، كان في العدم ثم صار موجودا.

- قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا **(10)** :

وسأل زكرياء ربّه أن يؤتيه علامة يعرف منها وقوع الحمل، فأوحي إليه أنّ علامته ستكون في اِنحباس لسانه عن الكلام رغم سلامته من الخرس والبكم لمدة ثلاث ليال تامّات.

- **خَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا (11) :**

فخرج على قومه من المصلّى لمّا اِنحبس لسانه، وعلم منه أنّ الحمل قد وقع، فأشار عليهم بالإشارة للمداومة على التّسبيح طرفي النّهار: عند طلوعه، وعند العشيّ.

- **يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا (12) :**

ووُلد يحيى من أمّه: إيشاع بنت فاقوذا بنت عمران، وهي من ولد سليمان بن داود وهو من ولد يهوذا بن يعقوب، وهي خالة مريم التي هي ابنة أختها: حنّة. وأبوه زكرياء، وهو من ولد هارون أخي موسى، وهذان من ولد لاوي بن يعقوب.

وقد أوتي يحيى النّبوّة وهو صبيّ، لم يبلغ سنّ الاحتلام، و(ٱلۡكِتَٰبَ)هو التوراة. (وأخذه بقوّة) يعني العمل بشرع الكتاب بجدّ واجتهاد، وقد أوتي (ٱلۡحُكۡمَ) أي العلم بالكتاب، والفهم بما جاء به، وفهم مقاصد العبادة، وهو في سنّ الصبا لم يبلغ بعد سنّ البلوغ.

وقد ذُكر في قصّة حياته أنّه كان تقيّا صالحا منذ صباه، عالما بارعا في الشريعة، ومرجعا في أحكامها، وكان يدعو النّاس إلى التوبة. ويعمد إلى فرض الاغتسال على أتباعه في نهر الأردن للتوبة من الخطايا، وقد أخذ النّصارى طريقته، ويسمّونه (يوحنّا المَعْمَدان). وقد قُتل ذبحا على الصخرة ببيت المقدس بأمرٍ من حاكم فلسطين (هيرودوس) في عهده. ولا يسلم الشّرفُ الرّفيعُ من الأذى.

- **وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا (13) :**

وكان رحيما بالنّاس، ولطيف المعشر والمعاملة، وكان عطوفا، ورقيقا بما أودع الله تعالى في نفسه من رقّة إحساس، وطهّر الله تعالى نفسه وسلوكه وروحه من كلّ ما يعيبها، (وَكَانَ تَقِيّٗا) مطيعا لله عزّ وجلّ، ممتثلا لأمره، مجتنبا لمعصيته، يرجو رحمته ورضوانه، ويتّقي ما يغضب ربّه. ثلاث صفات ترفع القدر والمنزلة عند الله تعالى وعند النّاس: اللطف أو الحنان، ونقاوة السريرة أو الطهر، والتّقوى.

- **وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا (14) :**

وكان اِبنا مطيعا لوالديه العجوزين، يكرمهما، ويسعى لخدمتهما، ولم يكن مع النّاس متعاليا، أو ظلوما، أو متكبّرا، وما كان يعصي ربّه في أمر أو نهي. ثلاث صفات راقية: واحدة مع الوالدين، والثانية مع النّاس، والثالثة مع الله عزّ وجلّ.

- **وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا (15) :**

وثلاث في السلام عليه: سلام عليه يوم ولادته، وآخر عند موته، وثالث عند بعثه. والسلام هو الأمان، له الأمان في حياته منذ ولادته من مكدّرات الحياة الدنيوية. وأمان له من مخاوف

الموت والتآمر عليه، يموت آمنا غير خائف، وغير حزين، وآمنا من كلّ تعذيب أو عذاب، ويوم البعث يبعث آمنا. اللهمّ أمّنّا إذا حضرنا الأجل، ويوم نبعث...

- وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا (16) :

هذه الآية إلى الآية 40 في نبذة من قصة مريم عليها السلام، وتميّزت هذه النّبذة بذكر حملها، وتكريمها عند الوضع، وفي شهادة ابنها المولود لها عند قومها لتَبْرِئتها ممّا يتّهمونها وفي تبرّؤ عيسى عليه السلام اِدّعاء قومه في بنوّته.

وأُذكر في القرآن خبر مريم عليها السلام بنت حنّة من آل عمران من سلالة سليمان بن داود عليهم السلام أجمعين إذ اِعتزلت قومها، واِنفردت عنهم من الجانب الشّرقي، والملاحظ أنّ النّصارى اِتّخذوا قبلتهم عند المشرق، لقول بعضهم: لو كان شيء من الأرض خيرا من المشرق لوضعت مريم فيه.

- فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا (17) :

واِتّخذت عند اِعتزالها عن قومها ستارا بينها وبينهم، فأرسل الله تعالى إليها جبريل عليه السلام فتصوّر لها في صورة إنسان مستوي الخلق.

- قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا (18) :

فقالت له إنّي أستجير بالله عزّ وجلّ منك إن كنت ذا تقوى، وكنت تخشى الله كيلا تنال منّي ما حرّم الله. جاء في الآية ذكر الله عزّ وجلّ باسمه "الرّحمان"، والملاحظ أنّ هذه السورة دون سواها قد جاء فيها ذكر اِسمه الرّحمان: خمس عشرة مرّة فإذا أضفنا اِفتتاحها بـ "بسم الله الرّحمان الرّحيم" ذكرنا اِسمه الرّحمان : ستّ عشرة مرّة.

- قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا (19) :

قال جبريل إنّما أنا رسول من عند الله سبحانه لأمنحك ولدا طاهرا من الذنوب والعيوب.

- قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا (20) :

فأجابت: كيف يكون لي مولود ولم يقرب منّي رجل بالزّواج، وليس من خلقي أن أبغي الرجال للفاحشة.

- قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا (21) :

وأجاب جبريل عليه السلام أنّ هذا من أمر الله تعالى وهذا قضاؤه، وهذا الخلق أمر عليه يسير وسهل، وأراد تعالى أن يكون خلقه وولادته من أمّ بدون أب ودون زواج برهانا للنّاس على عظيم قدرته وتمامها، ومعجزة بيّنة، وسيكون وجوده رحمة للنّاس ولأتباعه لهديهم للدّين الحقّ وللاستقامة عليه، وكان أمر الله تعالى نافذا، وواقعا لأنّه أمر كان مقدّرا في اللّوح المحفوظ.



- فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا (22) :

وحملت مريم، ولمّا بدأت تثقل اِبتعدت عن مكان تواجدها، واِعتزلت النّاس فرارا من تعييرها بحملها، والطعن في شرفها وعفّتها، وأقامت في أقصى الوادي، وهو واد ببيت لحم بأرض فلسطين.

- فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا (23) :

وأَوَتْ مريم لمّا جاءها ألم الوضع والولادة إلى جذع نخلة للاتّكاء والاستلقاء، وودَّتْ وقتئذ لو أنّها ماتت قبل هذا الحمل وهذا الوضع اللذين عاشتهما وحيدة متخفّية عن أعين النّاس، وتمَنَّتْ لو كانت متروكة، لا يُنظَر إليها، ولا يفكِّر فيها أحد.

إذا وقف المؤمن عند هذه الآية بمشاعره، ناهيك عن المؤمنة التي عرفت آلام الحمل والوضع، وسأل نفسه عمّا سيكون طعامُ هذه الأمّ الصغيرة العذراء، وعن نومها كيف كان، وعن قضائها نهارها بدون من يُعيلُها ومن يؤنسها، وبدون مأوى، لأنّها كانت معتزلة عن الأهل والقوم خوفا من اتّهاماتهم في عفّتها، وهي المؤمنة حسيبة النّسب والشّرف، وهي الطاهرة العابدة، المتنسّكة، خادمة بيت العبادة، وهي التي أنبتها الله نباتا حسنا، ولْنتصوّرْ ما كان حالها عندما جاءها المخاض وألم الوضع – وهي وحيدة – فمن يتلقّى المولود؟ ويقطع حبل الصرّة؟ من يغسله ويمدّه لها؟ من يقوم به ليسقيه ويكسوه ويلفّه؟ ومَنْ بالأم ليريحها ويُؤْويها ويغطّيها ويطعمها ويواسيها ويقوم على أمرها وعلى أمر نزيفها؟ اِمرأة تلد وليدا بدون مساعدة! وبدون راعية ومعينة!؟ إنّ كلّ مَنْ يتمثّل هذا الوضع المُميت والمؤلم جدا يدرك تمنّيها الموت قبل حصول ما حصل وتمنّيها أن تكون مهملة غير مذكورة، وما أظنّ أنّ أيّ مؤمن – ناهيك عن المؤمنة – إذا تمثّل هذا الوضع لا تدمع عيناه من شعوره بالإشفاق على هذه الأمّ الصغيرة العذراء العفيفة، وهي الأثيرة عند الله تعالى، ومن شعوره بالإشفاق على الوليد الصغير الذي وُلِدَ في العراء تحت ظلّ نخلة!! هل يتمالك نفسه عن البكاء أم هل تتمالك نفسها عن البكاء والشعور بالألم، ثمّ إذا كانت هذه المرأة المؤمنة في شدّة عظيمة وقامت بقياس شدّتها بهذه الشدّة التي عاشتها هذه الصغيرة الأمّ العذراء في هذه الظروف بدون أن تكون معها أم، لأنّها يتيمة، ولا أيّ اِمرأة، إذا قاست شدّتها مهما بلغت من الصعوبة والقسوة بهذه الشدّة الّتي عاشتها مريم على صغرها ويتمها من أبويها الاثنين فهلاّ صبرت واِسترجعت، ودعت الله تعالى أن يكشف كربها عن عجل.

ليس من سيرة أقدس في الطهارة، والصبر، والطاعة، وفي تخصيص حياتها لخدمة بيت الصلاة، وفي عبادتها، ورقّتها من سيرة مريم عليها السّلام. وليس من سيرة مؤثّرة على المشاعر تدمع الأعين من سيرتها، ولدت بعد وفاة أبيها، ثمّ ماتت أمّها وعاشت يتيمة الأبوين منذ صغرها، كفلها زوج خالتها، ثمّ حملت وهي عذراء، وولدت صغيرها وحيدة تحت ظلّ شجرة، ولم يكن معها طعام ولا ولية أو معينة، وهي المصطفاة التي كانت آية من آيات الله تعالى، عليها السلام.

• ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا (24) وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا (25)﴾ :

(السري) في اللّغة العربية: هو الجدول الصّغير، ذو الماء الفاتر، الصالح للشرب وللاغتسال. ويفيد لفظ (تَحۡتَكِ) القرب، وعلى إمتداد اليد.

وبهذا يكون المعنى بأنّ الله سبحانه قد أجرى في المكان الذي أوت إليه "مريم" عليها السلام جدولا صغيرا، لا تجد عناء ومشقّة في أن تمدّ إليه يدها لتشرب منه أو تغسل وتنظّف ما تريد رفعه عنها.

وعند العرب، في لسانهم فإنّ (السريّ) عندهم هو الرجل السيّد، العظيم في قدره وخصاله، الذي يُسَرُّ بالانتساب، وبالقرب منه، وبحضور مجلسه. ويُفيد لفظ (تَحۡتَكِ) على هذا المعنى أنّه خارج من صلبها، فهي الأمّ للرجل السيّد العظيم. وبهذا المولود (تقرّ عين الأم) بإنجابه، وبأن تكون أمّا للسيّد العظيم الذي سيعظّم من شأنها ومن ذكرها. وتقرّ عين "مريم" عليها السلام بإنجابه حتّى لا تغتمّ ولا تحزن لولادته من غير أب، وهي البتول، ذات العفّة التي أحصنت فرجها.

وقد سمعت مناديا يناديها (مِن تَحۡتِهَآ)، قد يكون هذا المنادي : "عيسى" عليه السلام عند خروجه من تحتها، أنطقه الله تعالى، وبهذا تكون قد هُيّئت للأمر الذي سيأتيها عند تَهَيُّئِها للعودة لأهلها لئلاّ تتكلّم للدفاع عن عفّتها وطهارتها وهي تحمل المولود، ولتشير لوليدها ليتكلّم عنها تبرئة لها من القذف، وقد يكون هذا المنادي ملكا أرسله الله تعالى إليها لطمأنتها، ولإنزال السكينة عليها في قلبها حتى لا تعودنّ لتَمَنّيها : (يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا)، ولمؤانستها كذلك حتّى تعلم أنّها ليست وحدها عند ولادتها.

كلّ هذه الاحتمالات لمعاني هذه المفردات معقولة لأنّ لها قرائنها في النصّ، وهذه هي لغة القرآن الكريم، وهذا من مظاهر إعجازه، ولذلك جاء فيه تحدّي جميع الخلق: إنسًا وجنّا لأن يأتوا بمثله، ولن يأتوا بمثله في مثل هذه الصيغ وهذه المفردات المرتبطة بقرائنها ولو كان بعضها لبعض ظهيرا.

ولْيتَمَثَّلْ المؤمن من حال "مريم" عليها السلام، وهي تضع مولودها وحيدة في مكان بعيد عن ذويها وأحبّائها، وهو مكان خال... بماذا يمكن أن تشعر به من آلام الوضع، وَفَقْدِ المعينة عند نزول المولود –وهي البِكر– وعند الحاجة للطعام والشراب والاغتسال والراحة عند نفاسها وما يلزم كلّ هذا من فراش وغطاء...

صُوَرٌ لا تُحْتمل في التصوّر البشري، ولا يستطيع المرء إلاّ أن يقول : "سبحان الله"، و"لله في خلقه شؤون". وما أعظم تجلّد "مريم" عليها السلام.. وكذا تكون المعجزات.

المعجزة عمل ربّاني خارج عن طاقة إستيعاب البشر...



- فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا (26) :

وأمرها الصوت بأن تأكل من الرّطب، وأن تشرب من ماء الوادي الذي يسري من حولها. طيبي نفسا، واِفرحي بالمولود والولادة السليمة، ولا تحزني.

ووصّاها الصوت عند عودتها لقومها ومعها المولود بأن تمسك عن الكلام، وتصمت إذا استُوقِفَتْ وسئلت عن المولود من طرف النّاس وتكتفي بالإشارة للمولود، وبإشعار السائلين بأنّها صائمة عن كلام النّاس طاعة لله تعالى.

- فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا (27) يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (28) :

وعادت مريم بعد الولادة، وبعد نفاسها إلى المقرّ الذي كانت تتعبّد فيه في دار العبادة ومعها الوليد بين ذراعيها، ولمّا اِلتقت بالقوم قابلوها باستعظام أمرها، وهي عندهم الراهبة خادمة بيت العبادة، وظنّوا بها السوء من الفعل، بل رموها بما ليس فيها فقالوا لها مستنكرين: لقد أتيتِ بفعل عظيم المنكر والباطل والسوء، يا سليلة هارون أخي موسى، ذلك الرّجل النّبيّ العابد الصالح، لم يكن أبوك رجلا فاجرا، بل كان عبدا صالحا، وما كانت أمّك من ذوات الزّنى وعمل المنكرات، مِمَّنْ ورثتِ هذا العمل السّيّء؟ ممن هذا الولد، ومن أبوه؟ وماذا حدث؟

- فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا (29) :

لم تتكلم مريم، ولم تنطق بشيء، وإنّما كانت تشير إليه ليسألوه. اِستغربوا من صمتها وإشارتها، فقالوا لها: كيف نسأل وليدا في المهد، رضيعا، وكيف نكلّمه؟

- قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32) وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33) :

ونطق المولود وهو بين ذراعي أمّه بصوت سمعه جمعهم فقال إنّي عبد الله قضى بأن ينزّل عليّ كتابا فيه هديه وشرعه، واِصطفاني لأن أكون نبيّا أبلّغكم شريعة ربّي. فظهرت للنّاس من حول مريم ووليدها حادثة خارقة أذهلتهم وأخرستهم، فجثوا على ركبهم. علموا أنّ أمر هذا الصبيّ على عكس ما كانوا يظنّون، لأنّ النّبيّ لا يولد من سفاح، ولمّا كانوا من أهل كتاب، وعرفوا أنبياء كثرا في تاريخهم، وكان زكرياء آخرهم فيهم، فلذلك عرفوا أنّ وجوده فيهم، وأنّ نطقه وهو لم يتخَطَّ الشهر الثاني من ولادته أنّه آية من آيات الله المعجزة.

وأضاف بأنّه حيثما يحِلُّ ويوجد تَحِلُّ البركة، ويحلّ الخيرُ واليُمْن، وقد أوصاني الله بالبرّ بوالدتي، ولم يجعلني ظالما متكبّرا وعاصيا. في وصية الله تعالى لعيسى: المحافظة على الصلاة



أولا، وهي لله عزّ وجلّ، وإيتاء الزّكاة ثانيا، وهذه لمؤازرة ذي الحاجة وللتعاون وللرّفق بضعاف الحال، والثالثة تخصّ الأم، والرابعة في المعاملة مع النّاس، والعمل بهذه الوصايا ليست بشاقّة على كلّ مؤمن.

ثمّ أردف يقول: وأمان الله تعالى عليّ يوم ولدت، ويوم مماتي ويوم البعث.

لقد اِنفرد القرآن الكريم بذكر خبر ولادة عيسى وخبر نطقه في المهد بهذه الوصايا، ولم يَذكرها أيّ إنجيل من الأناجيل السبعة في العهد الجديد.

- ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ **(34)** :

هذا خبر حمْل مريم بعيسى عليهما السلام، وخبر ولادة عيسى، وخبر تبرئته لأمّه ممّا اتّهمت به من عمل السوء، وهي العذراء الطاهرة العفيفة، وهذا خبر معجزة ولادته من غير أب، فقد خلق آدم من غير أب وأمّ، وخلقت حواء من غير أم، لم تأت من رحم أم، وولد إسحاق من عاقر وشيخ عجوز، وكذلك يحيى، فَلِمَ الاختلاف في مَا قدَّر الله، إنّه إذا أراد شيئا أن يقول له كُن فيكون، وكان عيسى بكلمة الله : كن؟

هذا هو الخبر اليقين في شأن ولادة عيسى الذي يشكّ فيه من لا يصدّق بقدرة الله ومعجزاته، ويختصم فيه المعاندون والنّاكرون.

- مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ **(35)** :

وهذه الآية من كلام الله ليَعُوه ويفهموهُ وليذكروه، وحتّى لا يُخطئوا في شأن من شؤونه تعالى، ولينزّهوه عن الشّرك، وعن كلّ نقص، وحتّى لا يفتروا على الله ما ليس لهم به علم.

والمعنى: (مَا كَانَ لِلَّهِ أَن) أسلوب للنّفي المؤكّد، القاطع. لا يمكن أن يكون لله ولد، تنزّه عن الحاجة للصّاحبة والولد. إنّه إذا قضى أن يجد شيئا فإنّما يقول لما شاء : كُن، فيأتيه ما شاء ويكون كما أراده، وكما أمر، وكما شاء، ويوجد.

- وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ **(36)** :

عودة لما أخبر به عيسى قومه. قال لهم: إنّ الله تعالى هو ربّي وهو ربّكم، فاعبدوه وحده، وهذا هو الدّين الحقّ، دين لا يقوم على الشّرك. وفي هذه الآية تأكيد على ما قاله في المهد بأنّه عبد الله، ومن اِدّعى غير ذلك فقد اِفترى على الله تعالى الكذب، ونسب إلى عيسى ما لم يقل به، بل نسب إليه عكس ما أقرّ به.

- فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ **(37)** :

ولقد اِختلف قوم عيسى في حياته وبعد رفعه إلى السماء، وتفرّقوا أحزابا، فمنهم من رفض الإيمان بنبوّته وبرسالته، ومنهم من آمن به واِتّبعه. وبقيت طائفة على ملّتهم متمسّكين بالتّوراة، ولا يؤمنون بكتاب عيسى: الإنجيل، ولمّا جاءهم النّبيّ الأميّ محمد صلّى الله عليه وسلّم اِزدادوا



كفرًا، فلم يؤمنوا به، ولم يصدّقوا بكتابه القرآن. وسمّى أتباع عيسى أنفسهم نصارى، وكفروا بالتوراة، ولمّا جاءهم القرآن، منهم من آمن به، ومنهم من كفر. واختلف كذلك في نسبة عيسى عليه السلام طوائف، منهم من قال هو ابن الله، ومنهم من قال: ثالث ثلاثة، ومنهم من قال هو ابن زنى من يوسف النّجار الذي كان مصاحبا لمريم عليها السلام، رغم أنّ عيسى كان يقول لهم: أنا عبد الله ورسوله. وهذا لأنّهم يرفضون التّصديق بما جاءهم به رسلهم من الوحي، ومن الدين الحقّ.

(فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ) هذه في تهديد من قال في عيسى بغير ما قال الله تعالى فيه، والويل يدلّ على الإنذار بشدّة العذاب. وصنّفوا من الكافرين لأنّهم يقولون فيه الكذب والقول الباطل، ولا يقولون ما قاله الله فيه، وما بلّغهم به عيسى نفسه، وهو الحقّ بأنّه عبد الله ورسوله، خلق بكلمة "كن" من مريم العذراء البتول.

- **أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ (38) :**

(أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا) هذه في شدّة ما سينال المكذّبين بنبوّة عيسى، وبنسبته إلى عباد الله الذين خلقوا بتقدير من الله عزّ وجلّ، وما سينال القائلين بألوهيته فأشركوا بربّهم ما ليس بحقّ، وذلك يوم القيامة حين يُلْقَى بهم في جهنّم، ويُسلّط عليهم العذاب الموجع المؤلم، يومئذ ستُسمع أنفاسهم اللاّهثة، وأصوات صراخهم عن بعد، وانتظروا لتُبْصِرُوا ما سيجري عليهم من الشدائد.

(لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ) فهؤلاء اليوم في حياتهم الدنيوية يعيشون في اِنحراف واضح عن الحقّ، وعن اِتّخاذ السبيل القويم لأنّهم أشركوا بالله وهذا ظلم عظيم.

- **وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ (39) :**

وأنذر – يا محمد – الظّالمين بالحساب يوم القيامة، فمن لم يصلح معتقده الباطل ولم يتدارك أمره فإنّ يوم الحساب سيكون له يوم نَدَمٍ وحسرة على ما فاته من الانتباه لخطئه وضلاله. يومئذ لا عودة للتدارك، ولا ينفع النّدم، قضي الأمر واِنتهى، قد كانوا في غفلة من حقيقة الأمر، ولم يكونوا يصدّقون بحقائق الأمور.

- **إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ (40) :**

إنّ الله سبحانه يميت جميع الخلق على وجه الأرض، وتبقى له وكلّ ما فيها، هو تعالى الوارث لها ولكلّ مَنْ عليها من النّاس ومن الجنّ وما عليها من الكائنات غير العاقلة. وجميع المخلوقات عائدون إليه للحساب يوم القيامة لمجازاة الكُلّ بعمله.

- **وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا (41) :**

هذه إلى الآية 58 في الثّناء على صفات بعض النبيئين، وفي تكريمهم، وأولهم أب الأنبياء (إِبۡرَٰهِيم) صلّى الله عليه وسلّم، إذْ رفع ذكر إبراهيم في القرآن. إنّه كان صادقا في إيمانه، وفي دعوته للدين الحقّ، وكان صادقا في طاعته، وعمله، وقوله وعهده، والصدّيق صفة لمن كان

صادقا في وجوه كثيرة من سلوكه في حياته مع ربّه، ومع نفسه، ومع النّاس، وكان ملتزما بالصدق، وعرف به، لا يميل عنه. وكان نبيئا يوحى إليه، وأرسل تعالى إليه الصُحُف، وكان داعيا للتّوحيد.

- **إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا (42) :**

وأُذكر إذ قال لأبيه ناصحا ومرشدا يريد هديه للحقّ والصّواب: يا أبتِ كيف تقدّس شيئا لا يسمع منك دعاءك، ولا تسبيحك وذكرك، ولا يرى عبادتك له وطاعاتك له، ولا ينفعك بشيء لحياتك لعجزه. فهذا تقديس عبثي (وكذلك الطاعة، وتوقّع دفع الضرّ من جماد).

- **يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا (43) :**

يا أبتِ إنّي أعلم ما لا تعلم. لقد تفضّل الله تعالى عليّ بالنّبوّة، وعلم الشّريعة، وكلّفني بالرّسالة، فاتبعني فيما أدعوك إليه للدين الحقّ تَسْتَقِمْ على الطريق المستوي الذي يبلّغك ما ينفعك.

- **يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (44) :**

يا أبت لا تتّبع الشيطان في ما يوسوس لك به، فإنّ الشيطان كثير العصيان للرّحمان، وعاق لأمر ربّه، فلا تسمع لتدبيره، ولا تطعه فيما يزيّنه لك لتعمله فإنّه لا يحبّ الخير للإنسان.

- **يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا (45) :**

يا أبت إنّي أخشى عليك من أن يلحقك عذاب من الله تعالى، فتكون للشيطان في النّار قرينا وصديقا.

- **قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) :**

(رغب عن الشيء) أعرض عنه وكرهه. قال له أبوه: أكاره أنت آلهتي يا إبراهيم، لئن لم تكفّ عن تعييبها، وعن الإعراض عنها وهجرها لأرمينّك بحجر، وأُخرج عنّي، وابتعد عنّي بعيدا.

- **قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا (48) :**

فما كان من إبراهيم إلاّ أن غادر المكان، وخرج وهو يودّعه: سلام عليك. سأظلّ أطلب لك مغفرة ربّي. وهذا من أعمال البرّ إذا كان أحد الوالدين أو كلاهما عاصيا لربّه. إنّ ربّي كان وما يزال لطيفا بي، ورحيما يُجيب دعائي. وأغادر البلاد وآلهتكم التي تعبدون من دون الله سبحانه، وأطلب رحمة ربّي وعونه راجيا أن لا أكون بدعائي لربّي خائبا ولا ضائعا.

- **فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49) :**

فلمّا غادر القرية والقوم وآلهتهم التي يعبدونها من دون الله هروبا بدينه، ومحافظا على سلامة عقيدته أكرمه الله تعالى بالبُشرى بمنحه إسحاق من زوجته سارّة، ويكبر إسحاق ويتزوّج، وينجب له حفيدا هو يعقوب، ويزيد الله في رفع منزلة إبراهيم وتكريمه بأن جعل إسحاق وابنه يعقوب كليهما نبيئا، وهذا من أجلِّ مَنَاطِ التكريم.

- وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا (50) :

وشملهم الله تعالى بهديه فعلّمهم علما يرفع مكانتهم وذكرهم من بعدهم ذكرا لا ينقطع إلى يوم القيامة، وذكرا طيّبا في أهل كلّ دين مع الثّناء الحسن.

- وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا (51) :

وارفع ذكر موسى عليه السلام في القرآن، فقد كان مخلصا في تنفيذ أوامر ربّه، ومخلصا في دعوته، واِصطفاه الله بالرّسالة التي ضمّنتها التّوراة والألواح وبالنّبوّة ليرشد قومه لدين الله الحقّ والقيام على شريعته.

- وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا (52) :

ولمّا حان زمن دعْوَتِه للرّسالة ناداه ربّه من جانب الجبل على يمين اِستراحة موسى وزوجه عند سفرهما للعودة إلى مصر الفرعونية، وكلّمه تعالى تكليما مباشرا.

- وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا (53) :

وأيّدناه بأخيه هارون، وجعلناه له وزيرا، ووهبنا لأخيه النّبوّة.

- وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا (54) :

وأُذكر في القرآن خبر إسماعيل عليه السلام لرفع ذكره، وهو ابن إبراهيم من هاجر المصرية. قد كان محافظا على العهد وَفِيًا. وقد ظلّت هذه الصّفة من أهمّ ما يُمتدح من الصفات عند العرب الذين هم من نسل إسماعيل، وكان رسولا إلى قوم جرهم، وكان نبيئا.

- وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا (55) :

وكان حريصا على حضّ زوجته وأبنائه وأمّته على أداء الصلاة في وقتها، وعلى المداومة عليها وعلى أداء الزّكاة لتكون الصلة بين أفراد المجتمع متينة قائمة على التآخي والتآزر ليس فيها حسد ولا أحقاد، وكان إسماعيل مرْضيا عنه عند ربّه، ومن أكبر فضائل ربّه عليه أن جعل من نسله النّبيّ الخاتم محمدًا صلّى الله عليه وسلّم النّبيّ الرّسول للنّاس كافّة.

- وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا (56) وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا (57) :

وأُذكر خبر إدريس عليه السّلام، وهو جدّ أبي نوح، وهو المسمّى في التوراة (أُخْنُوخ). وقد كان نبيئا من بعد آدم عليه السلام، وقبل نوح عليه السلام، وكان صادقا في إيمانه، وفي عمله، وفي طاعاته لربّه، وقد رُفع مكانا عليا عند ربّه وعند النّاس لأنّه كان يعلّمهم شريعة ربّهم، وقيل قد نفعهم باكتسابه مهارة الخياطة وبناء أسس البيوت، كان خيّاطا ماهرا وبنّاءً، وقيل هو أوّل من علّم النّاس الخطّ، وهذه روايات نُقِلَتْ إلينا بغير مصدر وثيق.

- أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا (58):



أولئك الذين تفضّل الله عليهم بالنّبوّة من ذرّية إدريس من آدم، ومن ولد من أولاد نوح الذي حملهم معه في الفلك ونجوا من الفيضان العارم، ومن ذرّية إبراهيم، إسماعيل ومحمد صلّى الله عليه وسلّم، ومن ذرّية يعقوب، وممن هدينا للإسلام، واصطفينا بالعلم والحكمة إذا تتلى عليهم آيات الله الرحمان سجدوا لله خاشعين. باكين خوفا وطمعا. وهذه آية من آيات سجود التّلاوة اقتداء بأنبياء الله تعالى عليهم السلام. وممّا يُستفاد من هذه الآية أن يتدبّر المؤمن آيات الله إذا تُليت عليه، فقد كان الأنبياء عليهم السّلام إذا تليت عليهم آيات الله خرّوا سجّدا وبكيّا، فكيف لا يتأثّر بها المؤمن إذا سمعها!

- فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا **(59)** :

فجاء من بعدهم قوم أضاعوا المداومة على الصلاة وهجروها وفرّطوا فيها أو أخّروها لزمن العجز والكبر في السنّ والفراغ من العمل مؤمّلين طول العمر، ودوام الصحة، وانغمسوا في المعاصي، وفي اللهو، والانشغال بالكسب ورغباتهم، فهؤلاء سوف يلقون خسرانا وعذابا.

- إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا **(60)** :

هذه في التّرغيب للتعجيل بالتوبة وتدارك ما فرط بصالح الأعمال. فمن تاب وآمن بما أنزل الله وعمل بشرعه عملا صالحا وحافظ على الطاعات فإنّه لا يلقى في آخرته الخسران، وإنّما يدخل الجنّة، ولا يظلم في أجره وثوابه على الطاعات شيئا ولو كان يسيرا.

- جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا **(61)** :

هؤلاء يدخلون بساتين الخلود التي يقيمون فيها إقامة أبدية التي وعد بها الرّحمان عباده وهم لم يروها، ولا يعرفونها ولا يعرفون ما فيها من تكريم. إنّ وعد الله تعالى واقع حتما وآتيهم يوم يلقونه.

- لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا **(62)** :

لا يسمعون في جنّاتهم هذرا، وباطلا من الكلام إلاّ سلامهم على بعض من الودّ ومن المحبّة، وسلام الملائكة عليهم تشريفا وتكريما، ولهم فيها كلّ ما يشتهون من الطعام والثمار في كلّ وقت وحين، على الدوام.

- تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا **(63)** :

تلك الجنّة بما فيها من نعيم من نصيب عباد الله المتقين الذين كانوا في دنياهم يطلبون رضوان ربّهم ويخافون عقابه في صلواتهم وأدعيتهم وطاعاتهم.

- وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا **(64)** :



هذه في طمأنة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، فقد كان يستبطئ أحيانا نزول جبريل عليه السلام فجاءه هذا الوحي بأنّ الملائكة لا تنزل إلاّ بأمر الله تعالى. هو المتصرّف التّصرّف التّامّ في تنقّلاتهم، لا يتحرّكون إلاّ بأمره، وما كان ربّك – يا محمد – بناسيك، أو تاركك.

- رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا **(65)** :

هو مالك العوالم العلوية، والمتصرّف فيها، وسيّدها، وهو مالك الأرض وما عليها وما فيها، وكذلك هو سيّد ما بينهما من طبقات الأجواء والمتصرّف في الفضاءات بين الكواكب فداوِمْ على عبادته وتقديسه وتسبيحه وطاعته، اِجتهد كلّ الاجتهاد في تحمّل مشاقّ الطاعات من مثل الصيام، وفي المحافظة على أداء صلاة القيام، وفي مقاومة شحّ نفسك لأداء زكاتك. (هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا) اِستفهام إنكاري للإقرار لله وحده بالألوهية، فالمؤمن الحقّ لا يسمّي أحدا غير الله باسم الإلاه. لا إلاه إلاّ هو سبحانه، ولا صحّة لوجود إلاه آخر غيره يسمّى باسم الله.

- وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا **(66)** :

ويتعجّب ناكر البعث الذي لا يصدّق بقدرة الله تعالى على إعادة الحياة لمن خلقه، فيقول: أبعد موتي ودفني في الأرض واِندثار بدني أُخْرَجُ منه حيّا: لحما وعظاما ودما؟ واِستفهامه اِستفهام الاستبعاد لحصول هذا الأمر واِستحالته.

- أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا **(67)** :

وهذه للردّ عليه: أيستبعد حصول إعادته بعد مماته، وهو الذي خُلق من قبلُ وكان في العدم، لم يكن موجودا ولم يكن مذكورا قبل إنشائه في رحم أمّه.

- فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا **(68)** :

قسما بربّك – يا محمد – لنبعثنّ المكذّبين بالبعث جميعهم مع شياطينهم الذين زيّنوا لهم التّشكيك في قدرة الله ووعده، ثمّ لنجمعنّهم مع بعض حول جهنّم باركين على ركبهم ليروا ما ينتظرهم من الهول ليعلموا أنّ وعيد ربّهم حقّ ثم يحشرون فيها حشرا أبديا.

القسم في هذه الآية بـ (فَوَرَبِّكَ) وكاف الخطاب للنّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم فيه تشريف كبير للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالإضافة لربّه سبحانه.

- ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا **(69)** :

ثمّ نفصل من كلّ طائفة، وكلّ جماعة من هؤلاء المكذّبين من مختلف الأمم، وعلى مختلف الأزمان أشدّهم عصيانا للرحمان، وأشدّهم تكذيبا بوعد الله تعالى ووعيده ليلقى عذابا أشدّ إيلاما، وأقسى أوجاعا.

- ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا **(70)** :

ثمّ سيعرف الذين هم الأجدر بأن يعذّب في جهنّم عذاب الصّلي، وهو عذاب بحرّ النّار ليذوب بها ذوبانا بتؤدة، ثمّ يعاد لحاله بعد ذوبانه ليذوب بحرّ النّار ثانية، (كما يفعل بالطعام المصلّى). هناك عذاب الشِّواء، وعذاب الكيّ، وعذاب الصُّلي... وأنواع أخرى عديدة، والعياذ بالله، اللهمّ أجِرنا من كلّ عذاب.

- **وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا (71) :**

وهذه في وعيد جميع المشركين والمكذّبين والمستهزئين بالوعيد، ولا تخصّ عباد الله المؤمنين الذين لا يعصون الله ما أمرهم به، فهؤلاء لهم الأمن والأمان من عذاب ربّك قال تعالى: (ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ)(الأنعام الآية 82) أمّا أولئك فهم جميعا مارّون على الصراط الذي يدفعهم إلى جهنّم. كان هذا قضاء قد قدّره الله تعالى قضاءً واقعا حتما، لاشكّ فيه.

- **ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا (72) :**

وأمّا المتّقون فهم ناجون من أهوال العذاب، وعذاب جهنّم، ويظلّ الكافرون الظالمون أنفسهم بالمعاصي باركين على ركبهم في نار جهنّم يقاسون أهوالها.

- **وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا (73) :**

هذه في اِستكبار الكافرين الأغنياء وأصحاب الجاه والقوّة على فقراء المؤمنين. فإذا تتلى عليهم آيات الله الواضحة في الوعد والوعيد قال الكافرون للمؤمنين – وخاصة الفقراء منهم – أيّنا أحسن حالا في سكناه وإقامته وحياته وكسبه، وأيّنا أحسن قدرا ومقاما في قومه وأحسن مجلسا وناديا، وأفضل صحبة.

- **وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا (74) :**

هذه للاعتبار بالسابقين، فكم من أقوام كانوا أحسن من هؤلاء المستكبرين مقاما ومالا وجاها ومنظرا وقوّة في عصور سابقة هلكوا بعذاب فما أغنت عنهم مقاماتهم ولا أموالهم لتنجيهم من عذاب الله عزّ وجلّ.

- **قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا (75) :**

أَخْبِرْ المكذّبين بالوعيد والمستمرّين في الهزء بالوعيد، أنعموا حاليا بالإمهال والاستدراج الذي أمدّكم به الرّحمان مدّا كما تشاؤون، وإنتظروا ما سيلاقيكم من عذاب القتل، أو عذاب الأسر والذلّ، فإن فاتكم هذا العذاب أو نجوتم منه فلن تفلتوا منه عند قيام الساعة، وستلقونه يومئذ،



وعندئذ ستعرفون من هو أسوأ مكانا وقدرا، أنتم أم فقراء المؤمنين الذين كنتم بهم تستهزئون؟ وسترون من أضعف ناصرا، وأنصارا، وأعوانا...

- **وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (76) :**

وأمّا الذين تعرّفوا على الله عزّ وجلّ، واِهتدوا إليه، وطلبوا قربه ومرضاته، فالله يزيدهم هدى إليه بتعليمهم شرعه، وما يقرّبهم إليه من الطاعات لينالوا رحمته وثوابه وقربه وتكريمه. واِعلموا أن كلّ عبادة يُقصد بها وجه الله تعالى من صلاة وصيام وحجّ وتسبيح وذكر وصدقات والتّعامل مع النّاس بالحسنى، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإخلاص في القول والعمل والدين هي عند الله عزّ وجلّ من خير الأعمال التي يُتَقَرّب بها إليه، وهي من خير ما يتزوّد بها الإنسان لآخرته ليجد بها عند ربّه المرجع الحسن والعاقبة الحسنة.

- **أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (77) :**

هذه في التعجّب من إغترار الكافر بالله تعالى والهازئ بالوعيد، ما أعجب أمره حين يقول: إذا كان يوم الحساب واقعا فَسَأُعطَى مالا والولد والأعوان، وهذا كقول صاحب الجنّتين في : (وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا)(الكهف الآية 36).

- **أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا (78) :**

هل عنده علم من علم الغيب فعرف منه ما أُعِدّ له في آخرته، أم تراه تَلَقّى وعدا من لدن الله تعالى لحسن إيمانه، وحسن طاعاته، ووفرة أعماله الصالحات ليقول بأنّه سيؤتى مالا وأنصارا؟

- **كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا (79) :**

كلاّ – لن يؤتى شيئا ممّا يتوهّم، وسنحاسبه عمّا قال من البُهتان والهزء، وسنوفّي له من العذاب ونذيقه منه ألوانا، ونُطيلُه عليه.

- **وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (80) :**

ونرث بعد إهلاكه ماله وولده، ويحضر بين أيدينا للحساب بمفرده بلا مال ولا أنصار.

- **وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا (81) :**

هؤلاء الهازئون بالوعيد مشركون بالله تعالى، اِتّخذوا آلهة لأنفسهم من زعمهم يعبدونها ويقدّسونها ويتوهّمون أنّها ستكون لهم شافعة من العذاب وستكون لهم نصيرة عند الحساب.

- **كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (82) :**

كلاّ، لن يكون ما يرجون من آلهتهم التي يدعون، بل ستتبرّأ من عبادتهم لها، وسيتخاصمون فيما بينهم، وبدل أن تكون لهم عزّا ستكون عليهم عند الحساب ضدّا.

- **أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (83) :**

ألا تلاحظون أنّ الشياطين قد سُلِّطت على الكافرين، لتحرّكهم بالإغواء وتهيّجهم بالوساوس والإغراءات ليتمادوْا في غيّهم وفي عنادهم وفي كفرهم ومعاصيهم.

- فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا (84) :

فلا تستعجل لهم بالعذاب، إنّما نؤخّرهم ليزدادوا إثما وذنوبا نحصيها عليهم.

- يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا (85) :

ويوم الحساب يتقدّم المتّقون إلى الميزان في وفود: في جماعات كما يحضر الأشراف للملوك ويقدمون عليهم.

- وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا (86) :

ويومئذ يساق المجرمون الكافرون للحساب كالدّوابّ العطاش التي تساق إلى مورد الماء لتُسْقَى وهي تلهث.

- لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا (87) :

يومئذ لا أحد يملك حقّ الشُّفْعَةِ لأحد إلاّ من وعده الله بأن يأذن له بالشّفاعة. قال تعالى في آية الكرسي في سورة البقرة: (مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ)(البقرة الآية 255) قال ابن عبّاس ومقاتل: "العهد هي شهادة أن لا إلاه إلا الله"، وقال غيرهما: الأنبياء هم الشّفعاء وفي مقدمتهم صاحب الشفاعة الكبرى : محمد بن عبد الله صلّى الله عليه وسلّم، وكذلك الملائكة المقرّبون حملة العرش، والشّهود من أهل العلم والصلاح وأهل الفضل أصحاب أعمال البرّ والصدقات الجارية، والقرآن قيل يشفع لقارئه والعامل به، وأهل الذكر، قيل يُشَفَّعون فيَشْفَعُون.

- وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا (88) :

وقالت طائفة من اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: عيسى ابن الله، والله ثالث ثلاثة، وقال مشركو العرب: الملائكة بنات الله. سبحانه تنزّه عن الصاحبة والولد.

- لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا (89) تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا (90) أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا (91) وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (92) :

هذه في الردّ على القائلين بنسبة الولد إلى الله تعالى لإبطال زعمهم وليصحّحوا معتقدهم، وليوحّدوا الله عزّ وجلّ، ولينزّهوه عمّا يقولون، وعمّا يصفون كذبا. لقد قلتم قولا منكرا وقولا باطلا لا صحّة له، تكاد السماوات تنشقّ من شناعة ما تنسبون إلى الله كذبا، وتكاد الأرض تتصدّع وتنقسم، وتكاد الجبال تسقط ردما مهدّمة من عظيم الافتراء على الله الواحد الأحد، ومن ادّعاء نسبة الولد للرّحمان، وهو الغنيّ عن الصاحبة والولد، ولا يصحّ للرّحمان أن تنسبوا إليه الحاجة للولد، سبحانه لم يلد ولم يولد.



- إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا (93) :

إنّ كلّ من في السماوات والأرض إلاّ عائد يوم القيامة إلى الله تعالى، وسيحضر بين يديه للحساب وهو مقرٌّ بعُبُودِيَتِهِ لله عزّ وجلّ، فإنّه تعالى هو الذي خلقه.

- لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا (94) وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا (95) :

من أسماء الله الحسنى: المُحْصِي، إنّه تعالى عليم بجميع مخلوقاته، فلا يغيب عنه أحد من خلقه يوم الحساب. وجميع الخلق واقفون بين يديه تعالى يوم القيامة، وكلّ واحد مُحَاسَبٌ عن عمله بمفرده، لا يصحبه أحدٌ من الأنصار، ولا يصحبه مال ولا جاه، ليس معه إلاّ سجلّ عمله الذي سَيُحاسب على ما فيه من أعمال الخير والبرّ، أو أعمال المعاصي والمنكرات.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا (96) :

وعلى عادة القرآن في الجمع بين الوعد والوعيد، فإنّ هذا في وعد المؤمنين العاملين الصالحات بأداء الطاعات بأن يجعل لهم الله عزّ وجلّ برحمته، وهو الرّحمان، مودّة ومحبّة رِباطُها الإيمان.

- فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا (97) :

ولقد بعثناك – يا محمد – برسالتنا، وأنزلنا عليك كتابك بلغتك العربية لتكون لقومك بشيرا للمؤمنين المتقّين بفضل الله عليهم لهديهم ليكونوا يوم الحساب من الفائزين، ولتنذر به القوم، الذين يجادلون بالباطل ويخاصمون في الحقّ ويرفضون اِتّباعه، بعذاب الله تعالى إن لم يؤمنوا ويتوبوا عن غيّهم ونصرتهم للباطل.

- وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا (98) :

ولقد أهلكنا كثيرا من الأمم السالفة بسبب عنادهم وكفرهم ورفضهم للاهتداء للحقّ، فهل تشعر بأيّ أحد منهم، لقد هلكوا جميعا واِنتهوا، وهل تسمع لأحدهم صوت وقع قدم؟ ماتوا هلكى، ويوم القيامة يلقون مصيرا أشدّ بأسا ونكرا.

ولعلّ المقصود من ختم السورة بهذا التذكير التّحذير الشّديد لأهل قريش من الإنتهاء إلى ما اِنتهى إليه من كان قبلهم من المكذّبين برسل الله تعالى، وبوعيده، وبكتبه. لقد أهلك الله تعالى من قبلهم قرى كثيرة على مدى الزّمان، وإنّ هؤلاء لا يُعْجِزُونَهُ.

وفي هذا التحذير الشديد لأهل قريش من مشاقّة رسولهم محمد صلّى الله عليه وسلّم بالتكذيب والإعراض عنه وجْهٌ آخر فيه تأييد للرسول صلّى الله عليه وسلّم، وتبشير للمؤمنين الذين آمنوا به واتّبعوه بالأمان من عذاب الاستئصال الذي لا يبقي ولا يذر.



رقمها	سورة طـــــــه	آياتها
20	ـــــ مكيّة ـــــ	135

سُمّيت هذه السورة باسم الحرفين المنطوق بهما في أوّلها : "طه" نزلت بمكّة قبل إسلام عمر أبن الخطّاب رضي الله عنه، روي أنّه لمّا قرأ صدرا منها إنشرح لها صدره وقال : "ما أحسن هذا الكلام وأكرمه" ثمّ أكرمه الله تعالى بأن أشهر إسلامه، فبدأت شوكة الإسلام تقوى بإسلامه.

ومن أهمّ مضامينها: عرض قصّة موسى عليه السلام إذ ناداه ربه بالوادي المقدّس طوى، وكلّمه تكليما، وكلّفه برسالته إلى فرعون، وقد أيّده بمعجزتين، ثمّ عاضده بأخيه هارون وجعله نبيئا ليستخلفه، وإنفردت هذه النبذة من قصته بذكر فعل السّامريّ في غياب موسى فصنع ذاك العجل لبني إسرائيل النّاجين من إستعباد فرعون، والذين رأوْا قضاء الله تعالى في عدوّهم إذ أغرقه في اليمّ على أنظارهم، ودعاهم لعبادته، وفيها قصة عمل السحرة وقصّة إيمانهم وما توعدهم به فرعون.

وفي السورة – شأنها في ذلك شأن السّور المكيّة – التّنويه بالقرآن، والتّذكير بالبعث، وبالوعيد لغير المؤمنين، وعرضت جملة من المواعظ البليغة. وذكّرت بضعف عزم آدم عليه السلام الذي أغراه الشيطان بالخلود فعصى أمر ربّه، وذلك للاعتبار.

- **طه (1) :**

قيل هو إسم من أسماء الله تعالى، وقيل إسم من أسماء محمد صلّى الله عليه وسلّم، وقيل: هما للقسم، وقيل هما بمعنى: يا رجل. وكلّها أقوال ضعيفة، ولا تستند إلى قول، ولا إلى رأي ثابت وصحيح، وخير ما قيل في (طه) هو قول أبي بكر الصّديق رضي الله عنهما : "هو من الأسرار" (ذكره الغزنوي، ورواه القرطبي في تفسيره الجامع ج11 ص 165 ط. مصر). والمعتمد عند القرّاء أنّهما حرفان مقطعان، كشأن بعض السور التي أفتتحت بحروف مقطّعة.

- **مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ (2) إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ (3) :**

الخطاب في الآيتين موجَّه للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم للرّفق به، فقد كان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يتحسّر كثيرا على رفض قومه الاستجابة لدعوته، وكان يتعب في تبليغهم، وكانوا يشاقّونه بالإعراض عنه، أو بالهزء به. والمعنى: ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب، ولتكلّف نفسك ما لا تطيق، إن عليك إلاّ أن تبلّغهم ما يوحى إليك، وإنّه لتذكير من يخاف عذاب ربّه ليستقيم على الطاعات حتى يفوز بنعيمه ورضوانه.



- **تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى (4) ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ (5) :**

إنّ هذا القرآن تنزيل ممن خلق الأرض والسماوات العليا. وهذا للتّنويه بمنزلة القرآن، فقد نزل من عند العظيم، ونزل من العُلا. والغرض الإقبال على فهم ما جاء به وتدبّره. والذي أنزله هو (ٱلرَّحۡمَٰنُ) وهذا لتعلموا أنّ إنزاله على محمد صلّى الله عليه وسلّم ليبلّغه للنّاس كافّة كان برحمة منه ليهتدوا بهديه، ولينقذوا أنفسهم من الضلالات. وهذا للتّرغيب في الإقبال عليه لقراءته وتدبّره وللعمل به، وللتّأكيد على التّنويه بشأنه. وأمّا مفهوم العرش فعِلْمُه عند الله تعالى، وكذلك الاستواء عليه. قال الإمام مالك: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب".

- **لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ (6) :**

ولله ملك كلّ ما في السماوات وكلّ ما في الأرض، وكلّ ما في الفضاء الذي بينهما، وكلّ ما تحت الأرض في باطنها، فتعرّفوا على ربّكم وعظمته وقدرته وبسط ملكه حتّى لا تخطئوا في اِتّخاذ إلاهٍ آخر لا يملك شيئا، ولا ينفعكم بشيء، وليس له قدرة عليكم.

- **وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى (7) :**

هذه للدلالة على سعة علمه تعالى ودقّته، وأنّه لا يخفى عليه من أمر خلقه شيء وإن كان ممّا يسرّونه، ولا يحبّون الجهر به، فإنّه تعالى عليم به، يسمع ما يُقال جهرا، ويعلم ما يكتم في السرّ، وما يخفى من رأي أو تدبير وما يخطر على الفكر، إنّه تعالى الحقيق بالطاعة وبالعبادة لأنّه يسمع دعاءنا، وهو الحقيق بالخشية لأنّه لا يخفى عليه ما نخفي في الصدور.

- **ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ (8) :**

هذا هو الله الحقيق بالطاعة والألوهية، وهو إلاه واحد، لا شريك له. وهو المتّصف بجميع صفات الكمال من صفات الجلال والجمال، ليس لغيره تمام هذه الصفات مجتمعة. وعنده تعالى أسماء حسنى مخصوصة له وحده دون سواه من مثل: الله، الرّحمان، القدّوس، ذو الجلال والإكرام، الحميد.... وهي الأسماء الدّالة على الكمال المطلق في الصفة، لا يقال لغيره: هو الله، ولا يقال لغيره: الرّحمان.

- **وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ (9) :**

هذه لغاية الآية عدد 98 في نبذة من قصة موسى عليه السلام في عناصر كثيرة سبق ذكرها في تقديم هذه السورة، وفيها الكثير من وجوه الاعتبار تعرف تباعا عند متابعة أحداثها. والمعنى: وهل جاءك خبر ما حدث لموسى؟ والاستفهام للترغيب في المعرفة.

- **إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى(10) :**



مرّ موسى ذات يوم برجلين يتخاصمان بشدّة: أحدهما من قومه، والثاني مصري، واِستغاث الإسرائيلي بموسى. فلمّا وكز موسى المصري أرداه قتيلا على وجه الخطإ. حين كشف خطأ موسى نصحه ناصح بأن يهرب من مصر قبل القبض عليه، وتنفيذ القضاء فيه بإعدامه. وفعلا خرج موسى من مصر متخفّيا حتى بلغ "مدين" بلاد شعيب عليه السلام. هناك أمن على نفسه، وعمل راعيا عند شعيب سنوات مقابل زواجه بإحدى ابنتيه كمهر لها. وكان الأمر كذلك ولمّا انقضت مدّة العهد تزوّج موسى بإحدى اِبنتيه، ثمّ بدا له بعد مدّة أن يزور أمّه بمصر رفقة زوجه واِبنين لهما أو أكثر. أثناء سفرهم في طريقهم إلى مصر، وعندما بدأ الليل يُرخي ستاره، رأى موسى أن يستريحوا في جانب وادٍ مرّوا به، وكان الطقس وقتئذ باردًا.

عِندما اِستراحوا رأى موسى نارا عن بُعد، فقال لزوجه: اِبقوا هنا، لقد أبصرت نارا، سأذهب حيثما هي لأحضر منها شعلة أو جمرة أو فتيلا أو عودا لأشعل به نارا من حولنا للضوء والتدفئة ولطعام ساخن، أو قد أجد من حولها شخصا يعرف الطريق الأيسر والأقرب لبلوغ مصر ليرشدنا إلى اتّباعه.

وذكر الشّيخ محمد الطاهر ابن عاشور في تفسيره (التحرير والتنوير ج16 ص195): "وإظهار النّار لموسى رمزٌ ربّاني لطيف، إذ جعل اِجتلابه لتلقّي الوحي باستدعائه بنور في ظلمة رَمزا على أنّه سيتلقّى ما به إنارة ناسٍ بدين صحيح بعد ظلمة الضلال وسوء الاعتقاد".

- **فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ (11) إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى (12) وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ (13) :**

وخطا موسى خطواته في الاتجاه الذي يرى فيه النّار، فسمع من يناديه باسمه ويقول له: إنّ الّذي يكلّمك، ويخاطبك هو ربّك، فاخلع نَعْلَيْكَ، إنّك موجود الآن بالواد المقدّس طوى. هذا المكان غير معلوم لحدّ الآن. ولم يُكشف، الله أعلم به. و(طُوًى) يعني المطوي، لعلّه سمّي بهذا الاسم لأنّ موسى قد طواه بسفره.

ومن المُستفاد من الآية استحباب نزع النّعل عند الدخول للمكان المقدّس تعظيما له، ولذلك لا يدخل أحد الحرم المكي، أو الحرم المدني لاَبِسًا نعليه، ولا أحد يطوف بالبيت بنَعْلَيْه، ولا نصلّي بالنّعلين. وسمع موسى تعالى يقول له : وأنا اِصطفيتك، فأنصت لما يقال لك، ولما تؤمر به ويقذف في قلبك، ويثبت في صدرك فإنّه من كلام ربّك.

- **إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ (14) :**

وأُخْبِرَ موسى بأنّ الّذي يكلّمه هو الله عزّ وجلّ، ولذلك ينعت موسى بأنّه كليم الله. قال تعالى (وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا)(النساء الآية 164). وقوله تعالى (إِنَّنِيٓ أَنَا) لزيادة تقوية الخبر وتأكيده بأنّ

الذي يكلّمه هو الله عزّ وجلّ. وأخبره أنّ الله تعالى لا إلاه إلا هو، ليس معه إلاهٌ آخر، هو واحد أحد. فأخِصَّه وحده بالعبادة، وأقِمْ الصلاة لذكره وحده، ولا تصلّ لأحد غيره، وأذكر ربّك في صلاتك بالتّسبيح والحمد والاستغفار.

- إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ (15) :

وأخبره تعالى بأنّ الرّكن الثّاني من أركان العقيدة السليمة قائم على الإيمان بالبعث والقيام للحساب حين تقوم الساعة، وأنّ الساعة واقعة بلا ريب، يوشك أن يستر أشواطها حتّى تأتي النّاس فجأة لتثاب كلّ نفس بحسب عملها من خير أو شرّ.

- فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ (16) :

واحذر أن يدفعك أحد عن الاستعداد لها والتأهّب والإعداد لها بالتزوّد بخالص الطاعات وأصدقها وصالح الأعمال وأزكاها. لا يصرفك عن ذكر الساعة والإعداد لها إلاّ من لا يؤمن بالبعث، ولا يعتقده، ويتّبع هواه في إتيان الشهوات والمعاصي، فإن فعلت ولم تُعِدَّ لها لها فإنّك ستهلك. صيغة الآية لا تخصّ وعظ موسى بمفرده فحسب، وإنّما هي موعظة تفيد كلّ مؤمن.

- وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ (17) :

وسئل موسى عمّا يمسك بيمينه.

- قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ (18) :

أجاب موسى بأنّها عصاه يستعين بها على السير، ويستعين بها عند رَعْيِه بغنمه، وذلك بأن يضرب بها ورق الشجر فتتساقط لترعاه أغنامه، ويقضي بها حاجات أخرى. كان النّاس قديما يستعينون بعصيهم ليطردوا بها الكلاب السائبة، أو لقتل هوام الأرض وتستعمل لتعليق المخلاة أو صرّة الملابس على العَاتِق..

- قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ (19) فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ (20) قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ (21) :

وأمره تعالى بأن يرميها من يده، فلمّا رماها تحوّلت بقدرة الله إلى حيّة تتحرّك، فقد قُلِبَتْ أوصافها ومادّتها وأعراضها، فلا يعجز الله شيء. ولحق موسى ما يلحق البشر حين يرى حيّة أمامه تتحرّك: خاف، وفزع، وهرب، فنودي بأن لا يخاف، وأمر بأن يأخذ عصاه ويمسك بها، فستعاد إلى عصا كما كانت على هيئتها الأولى.

- وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ (22) لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى(23) :



وَضَعْ يدك تحت عضدك إلى جنبك، ثمّ أظهِرْها ترَها بيضاء (قد كان موسى أسمر البشرة). ﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾ من غير برص أو عاهة معجزة أخرى، لنريك من دلائل قدرتنا ومعجزاتنا الكبرى العظمى.

- ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (24)﴾ :

وأمره تعالى بأن يتوجّه إلى فرعون الذي تجاوز حدّه في الظلم والقهر والتسلّط والكبرياء والتّعاظم الذي جعله يدّعي لنفسه الربوبية فقال لقومه: أنا ربّكم الأعلى.

وكان هذا الأمر شديدا على موسى، كيف يتوجّه إلى الحاكم المستبدّ برجليه وهو المطلوب للقصاص منه لقتله المصري. وكيف يتوجّه إليه بدعوته للإيمان بالله وحده وإطاعته وهو المتعاظم الذي يدّعي الربوبية، فلذلك توجّه موسى لربّه بتوسّلاته هذه:

- ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي (25) وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي (26) وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي (27) يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي (28) وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي (29) هَٰرُونَ أَخِي (30) ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي (31) وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي (32) كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا (33) وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا (34) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا (35)﴾ :

سأل موسى ربّه أن يزيل ما في نفسه من خواطر الخوف والتّردّد، وأن يوسّع له في طاقة إِحتمال المسؤولية وما سيُواجهه من الصعوبات. وطلب أن يسهّل الله عليه أداء المهمّة التي كلّف بها. وسأله أن يطلق لسانه حين يتكلّم ويحاجج (ذلك لأنّ موسى كان ألْكَن، في لسانه حُبسَةٌ، ويتعثّر في كلامه) وذلك ليفهم النّاس عنه ما يبلّغهم به من رسالته. وطلب من ربّه أن يدعمه بأخيه هارون ليكون له (وزيرا) أي عونا ومؤازرا فقد كان هارون فصيح اللّسان ومقوالا، وكان رجلا نصوحا، وراجح العقل والرأي، وذلك ليشدّ أزره يقوّي به موقفه وحجّته، وليشاركه في أداء الرّسالة والتّبليغ وليستخلفه في قومه إذا غاب عنهم.

وعلّل طلباته وسؤاله بأن يعاضده بأخيه أن يجتهدا في تسبيحه تقديسا له تعالى، وتنزيها له سبحانه عن الشّرك، وعن كلّ نقص، وللتّعاون على ذكره تعالى للنّاس للدعوة لعبادته وحده، ولطاعته، ولإبلاغهم أمره ونهيه، ولتوسيع دائرة نشر رسالته. وتوسّل موسى لربّه بأنّه تعالى هو البصير بحالهما، وبحوائجهما للنّجاح في أداء الرّسالة، وتبليغ الدعوة.

- ﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ (36)﴾ :

فقال تعالى له قد أجبنا طلبك وأعطيناك ما سألت.

- ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ (37)﴾ :

ولقد تفضّلنا عليك مرّة أخرى بفضائل من نِعَمِنا.

- ﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ (38)﴾ :

وأُذكر إذ بلّغْنا أمرنا إلى أمّك ما وجّهْناها لفعله على لسان مَلَكٍ في منامها.

• أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ (39) :

وأمرت أمّ موسى بأن تضع مولودها في تابوت خشبي، ثمّ ترميه في ساحل البحر ليأخذه (عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥ)، وهو فرعون وكان قد رأى في منامه رؤيا ألقت في رَوْعه الذُّعْرَ، وأرْعَبَتْهُ، أوَّلَها له المُؤَوِّلون بأنّه سيولد في بني إسرائيل صبيّ يُقوّض ملكه، فأمر فرعون بقتل جميع مواليد بني إسرائيل الذكور، وأمّا الإناث فيُتْرَكْن للخدمة. وعلم بنو إسرائيل بالأمر، فلمّا حملت أمّ موسى تخفّت على أعين النّاس جميعهم خوفا من إشاعة خبر حملها فتكون محَلَّ متابعة، ولمّا قرب موعد وَضْعِها رأت في منامها هذا الأمر، فطلبت تابوتا، ولمّا ولدت موسى أرضعته جيّدا، ولفّته لفّا محكما ثمّ وضعته في التّابوت، وأمرتْ اِبنتها – أخت موسى – أن تلقي التابوت في مجرى النّهر – على ساحله، وأن تتبّع مساره بعينيها وفي تخفّ. ووضعت الفتاة التابوت – كما أمرتها أمّها – على سطح نهر كان مجراه يمرّ ببستان كبير لفرعون. وتذكر الرواية أنّ فرعون كان جالسا على رأس البركة مع زوجه آسيا، فإذا بالتّابوت يمرّ عليهما، وأبصراه، فأمر فرعون بإخراجه له، فلمّا فُتِح له وقعت عيناه وعينا زوجه على صبيّ داخله. (وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي) فلمّا رآه فرعون أحبّه وأشفق عليه، وكان هذا من تقدير الله تعالى، ومن أمره. وقيل في رواية أخرى إنّ جواري آسيا رأين التابوت في مجرى النّهر، فالتقطنه، وأخذنه لآسيا، فلمّا فتحته عثرت على الصبيّ يمصّ إبهامه فأحبّته، وسُرّت به، وأشفقت عليه، ولمّا رآه فرعون ألقى الله في قلبه محبّته فأحبّه، ووافق آسيا على رغبتها في تبنّيه، وتبنّته فعلا. (وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ) ولِتَتَرَبَّى في القصر بحفظي، وبمراقبتي، وعلى ما أريده لك لمستقبلك.

• إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ (40) :

هذه في عرض مظاهر من ألطاف الله الخفية التي حفّ بها موسى وأمّه وأهله، وفي مسار تقديره رحمة به وبأمه وتفسيرا لشيء من قوله تعالى (وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ). والمعنى: وأُذكر لمّا طلبت آسيا لك المراضع، فلم تقبل ثدي جميعهنّ، ودفعن مع الجمع أختك فلمّا أخذتك بين ذراعيها سكتّ، وكففت عن البكاء، فقالت لمن حضر: هل أدلّكم على من يكفله لكم، وهي اِمرأة نصوح، فأرسلوا إليها فإذا هي أمّك فرضعت من لبنها وقبلت ثديها، ولمّا لم ترض الإقامة عند القوم، أرسلوك معها إلى بيتها في ظلّ عناية اِمرأة فرعون ونفقاتها، وهكذا رددناك إلى حضن أمّك على أعين النّاس، وتكريما لأمّك حتى تسرّ، ولا تحزن على فراقك.

وأذكر إذ قتلت ذلك المصري، فأَمَّنَاكَ من الخوف والمحاكمة والحبس أو القتل من المصريين، وأمَّنَّاكَ كذلك من أخذك وأنت في طريقك إلى "مدين" فرارا بنفسك، ورفعنا عنك الغمّ وضيق النّفس بما فعلت وبمغادرتك لأمك وأهلك بمصر، واِختبرناك بتعب العمل سنين في أهل مدين ودَرَّبْنَاكَ على الصبر على الشدائد لِمُجابهة المحن، ثمّ جئت إلى هنا بتقدير حكيم في الوقت الذي أردناه لتحمل رسالتنا.

- وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي (41) :

واِصطفيتك للرسالة، وأنعمت عليك بِنعم كثيرة من إحساني إليك للغاية التي أريدها.

- ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي (42) ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (43) فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ (44) :

وأمره تعالى أن يذهب صحبة أخيه هارون برسالته وبالمعجزتين: العصا واليد إلى فرعون الذي تجاوز حدّه في الظلم والاستعلاء على النّاس وفي فرض تقديسه والطاعة له. وأوصاه بأن لا يضعف هو وأخوه في تبليغ الرّسالة، وبأن لا يقصّرا في ذلك، وبأن يثابرا على طاعة الله وطلب عونه وتوفيقه دون تقصير.

وأوصاه وأخاه بأن يخاطبا فرعون على طغيانه وجبروته، باللّين، ودون غلظة أو تهديد بما قد يشرح صدره لقبول الأمر، وتتفتّح بصيرته فيعرف الحقّ فيتبعه، أو يخشى حلول العذاب به وبقومه. وفي الآية إشارة لوجوب اِعتماد أسلوب الوعظ باللين دون تشدّد لاستمالة النّاس لمعرفة الحقّ وكشف الباطل رجاء أن يهتدوا للصواب، ويجب تجنّب أسلوب التّهديد وتغليظ الوعيد فإنّه أسلوب منفّر. قال تعالى: (ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ)(النحل الآية 125) فإنّ اِعتماد الحكمة في تقديم الموعظة أمرٌ مطلوب.

- قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ (45) :

ولمّا بلّغ موسى أمر الله لأخيه هارون، وتحدّثا فيما بينهما في السبيل الذي سيقابلان به فرعون. عبّرا لله تعالى عن تخوّفهما من بطش فرعون، وتعجيله بعقوبتهما، وتجاوزِ حدّه في التّنكيل بهما.

- قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ (46) :

فأوحى الله إليهما بأن لا يخشيا فرعون، فقد قضى أن يحفظهما من بطش فرعون، وأنّه تعالى معهما بالتأييد والنّصر، وأنّه سميع لما يجري بينه وبينهما ومطّلع على ما يكون وما في باطن الصدور.

- فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ (47) :



وأمرهما بأن يذهبا إلى فرعون، ويقابلاه في مجلسه، وعليهما أن يخبراه بأنّهما رسولان من عند سيّده: خالقه وصاحب الفضل عليه بما هو فيه، وهو الله تعالى الحقيق بالعبادة والطاعة. وأُطلبا منه أن يعتق بني إسرائيل من اِستعبادهم، ومن تسخيرهم للأعمال الشاقّة لفائدته فيرسلهم معكما خارج بلاده. وأخبراه أنّ الله تعالى ينهاه عن تعذيبهم، وأنّ معكما آيتين من عند الله تدلّ على صدقكما، العصا واليد. والسلامة والأمان من الله لمن اتّبع هداه وأمره.

- إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (48) :

وقال موسى: لقد أوحي إليّ وإلى أخي أنّ من كذّب برسل الله، وبآيات الله ودلائله المعجزة، وكذّب بشرعه وأوامره، وأعرض عن التّصديق بالرسالة وعن طاعة الله عزّ وجلّ فإنّه معرّض للعذاب والهلاك.

- قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ (49) :

فلمّا سمع فرعون من موسى رسالة ربّه إليه، سأله عن ربّه وربّ هارون من هو؟ وما كان سؤاله سؤال من يحبّ أن يعرف ما يجهل، ولكنّه كان سؤال من يستغرب أن يكون في قومه من يؤمن بربّ غيره.

- قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ (50) :

قال موسى ربّنا هو الذي صوّر كلّ المخلوقات من إنس أو جان، من بشر أو حيوان أو جماد على الشكل الّذي أراده لكلّ صنف من مخلوقاته، فتنوّعت مخلوقاته في الجنس والنّوع والصنف والصورة. وخلق كلّ خَلقه بغير مثال، (ثُمَّ هَدَىٰ) أي جعل لكلّ خلق من مخلوقاته الحيّة غرائز ليحيا بها، ويدافع بها عن نفسه لبقائه، وألهم كلاًّ ما ينفعه وما يضرّه، ووهبه شكلا لحركاته، فجعل منه ما يمشي على رجلين، وما يمشي على أربع وما يزحف وما يطير وما يقفز... ووهبه من الخصائص والمميّزات ومن الألوان ما جعل مخلوقاته كثيرة التنوّع، والتميّز في حياتها وطعامها وتناسلها وشرابها وسكناها...

- قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ (51) :

فسأله فرعون فما شأن الأمم السالفة؟ لماذا لم يرسل إليهم رسلا، ولم يكونوا مؤمنين بمن تدعو إليه؟

- قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (52) :

أجاب موسى: شأنهم عند ربّي سبحانه، هو أعلم بسبب ضلالهم، وكلّ ذلك عنده مُحْصَى عليهم في سجلّ الحساب على أعمالهم. لا يغيب عن علمه شيء من أمرهم ومن أمر غيرهم، ولا يخطئ في حسابهم. وهو تعالى أعلم إن كان قد أرسل إليهم رسلا أو لم يرسل، فإن لم يكن قد أرسل إليهم فليس ذلك من الخطإ ولا من النّسيان. لقد ردّ موسى أمر السّابقين إلى تدبير الله عزّ وجلّ.

- ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (53) كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ (54) :

ربّي هو الذي جعل لكم الأرض منبسطة ليُيَسّر لكم فيها الحركة والتنقّل والبناء، وهيّأ لكم فيها طرقا تسيرون فيها لقضاء شؤونكم ولسفركم، وأنزل من السماء ماء لشربكم وسقي أنعامكم ولريّ أرضكم، فأخرج لكم من زرعها ومن أشجارها نباتا وزروعا وثمارا متنوّعة ومختلفة في الشكل والطعم والمذاق واللون، وذلك لتأكلوا من خيرات الأرض ألوانا، ولترعوا أنعامكم من حشائشها. إنّ في كلّ ذلك دلائل على وجود الله تعالى وعلى فضائله على عباده، وعلى بديع صنعه، وعظيم قدرته يدركها أصحاب العقول الواعية الرّاشدة.

وفي هاتين الآيتين ما يدلّ على أنّ الّذي لم يعرف فضل الله عليه ممّا يأكل ومما يشرب وممّا تنتجه الأرض من الخيرات، لم يعرف منها عظيم قدرته فهو ضعيف الوعي، وهو أعمى البصيرة.

- مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (55) :

هذه من كلام الله عزّ وجلّ لخّصت حياة الإنسان في ثلاث: خلقه، موته، ثمّ بعثه. وأشارت إلى أنّه من الأرض خلق، وإليها يعود، ومنها يبعث. وأفادت أنّ الأفعال: الخلق والموت، والبعث بقدرة الله وحده وبأمره وبفعله، وليس الأمر بيد غيره، فوجب بهذا طاعته وخشيته مع الإقرار له بالقدرة والفضل. وجاءت هذه لتدعيم قول موسى في التّعريف بربّه وهذا ممّا غفل عن ذكره موسى. وفي هذا إشارة للمؤمنين وتنبيه ليذكروا عند ذكرِ ربّهم أنّه المحيي والمميت والباعث بعد الموت.

- وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (56) :

عودة لكلام موسى، وكلامه هذا موجّه إلى الله عزّ وجلّ يشكوه تكذيب فرعون بمعجزاته. والمعنى: ولقد بسطنا أمام عينيه آيات قدرتك – يا ربّنا– فكذّب بنا رسوليْن من عندك، وكذّب برسالتنا، وأبى أن يرسل معنا بني إسرائيل، واِمتنع عن الإيمان بك.

- قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ (57) :

وأردف موسى قائلا شاكيا لربّه: لقد قال لي فرعون، أجئتني وأخاك لتجعل النّاس يتّبعون دينك وإلاهك وأوامرك ويطيعونك، وينصرفون عن طاعتي لتخرجني وملئي من الحكم والملك والسلطان في أرضنا، ويصبح الملك لك فيها بما جئت به من السحر يا موسى.

- فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى (58) :

وتحدّى فرعون معجزتي ربّه، واِعتبرهما من عمل السحر والشعوذة لغاية الاستحواذ على الحكم، فأقسم أن ينافسه في سحره، وطلب منه أن يحدّد زمنا معيّنا ومكانا محدّدا للتّباري في السحر على أن يكون المكان مستويا وواسعا ليحضره جمع كبير من النّاس ليشهدوا المباراة في

عمل السّحر. وكان فرعون يتوقّع غلبته في أعمال السحر، ورغب في إحضار حشد من النّاس ليفضح فشله، وليبطل تأثيره على النّاس بعد فضح دجله.

- قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى (59) :

واِختار موسى يوم عيد عند الفراعنة ليكون يوم اللقاء والمواجهة، ويكون توقيت المنافسة وحشد النّاس الشّهود عند الضحى، أول الصباح.

- فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ (60) :

واِنصرف فرعون عن المجلس، وأمر بجمع السّحرة المهرة، وجمع أصحاب الكيد منهم، ويوم الموعد وفي زمنه ومكانه حضر لقاء موسى والسحرة ليشهد المواجهة مع الحشد من النّاس.

- قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ(61) :

وقال موسى وسط الحشد وفي جمع السحرة خاصّة الويل لكم من الكذب على الله تعالى بادّعاء أنّ المعجزات من أعمال السحر فيمحقكم ويستأصلكم بعذاب من عنده. وقد خسر من كذب على الله وهلك.

- فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ (62) :

فلمّا سمع السحرة مقالة موسى تحاوروا بينهم وتشاوروا سرّا فيما يريد موسى إبلاغهم به، وما كانوا يعلمون شيئا عن الله وعن تهديدهم بالويل على الكذب على الله وعن الافتراء على الله، وهم يعرفون موسى وهارون وصدقهما. وقالوا في سرّهم:

- قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ(63) فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ (64) :

قالوا في سرّهم: إنْ يريد هذان الرّجلان إلاّ أن يتفوّقا بسحرهما عليكم، فلا يكون لكم معهما رزق ولا شأن مع النّاس في هذه البلاد، ويريدان إفساد دينكم الذي أنتم عليه وشريعتكم الحسنة، فاحزموا أمركم، وأظهروا براعتكم في الخَتْل، في فنون السّحر، وأحكموا قدراتكم، ثمّ كونوا مجتمعين على غلبتهما، وقد فاز بالجائزة من تمكّن منكم بالغلبة على موسى وإبطال سحره، وأظهر تفوّقه عليه أمام فرعون والحشد.

- قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (65) :

ثمّ قالوا لموسى: إمّا أن تبدأ بإظهار ما عندك، وإمّا أن نكون نحن أوّل من يبدأ.

- قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (66) :

وقال لهم موسى: بل اِبدؤوا بإظهار ما عندكم، فرموا حبالهم وعصيهم، وتصوّر موسى ممّا تهيّأ له في خاطره أنّها صارت تزحف كالأفاعي، وما هي إلاّ تهيّؤات من خياله.

- فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ (67) :

فخاف موسى ممّا تهيّأ له، وخاف من أن يُفتنَ الملأ بهذا السحر فلا يستجيبون لدعوته إلى التوحيد.

- قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ (68) :

فأوحى إليه ربّه حينذاك بأن لا يخاف من ذلك، وأخبره بأنّه هو الغالب عليهم، والمنتصر.

- وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ (69) :

وأوحى إليه أن يرمي عصاه التي بيده لتبتلع وتلتهم بسرعة حبال السحرة وعصيهم، وهذا أمر يستحيل أن يخطر على بال أحدٍ من البشر، كيف لعصا من لوح تبتلع حبالا وعصيا وهي جماد، هذا لا يكون إلاّ بقدرة قادر معجز، وهذا أمر خارق للسنن الكونية ولجنس الجماد. فما صنعه السحرة هو من التهيّؤ، ومن الختل، والمعجزة شيء خارج عن الإدراك، وعن القياس، وخارق للأسباب. وقوله تعالى (وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ) يعني أنّ الساحر لا ينجح ولا يربح حيثما كان ممّا يفعل، وعمله وبالٌ عليه لأنّه من عمل الدجل والشعوذة والتهيّؤات، ومن عمل الحِيَلِ.

ويستشهد بهذه الجملة على تحريم السحر، وعلى توعّد السّحرة بالخَيْبَة في دنياهم، وبعذاب الله في آخرتهم، وإنّ عمل السّحر في السنّة النّبوية من أكبر الكبائر، ونهى الرسول صلّى الله عليه وسلّم المسلمين عن إتيان السحر.

- فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ (70) :

فلمّا ألقى موسى عصاه، ورأوا تلقّف العصا لعصيهم وحبالهم خرّوا سجّدا لله ربّ موسى، لما رأوه من خارق الأعمال، وأعلنوا على رؤوس الملإ أنّهم يؤمنون بربّ هارون وموسى إلاها، وكذا أقرّوا ضمنيا بأنّهم هم الخاسرون، وأنّ ربّ هارون وموسى هو الغالب، وأقرّوا كذلك ضمنيا بأنّ عمل العصا ليس من عمل السحر، وإنّما هو عمل خارق للعادة، هو عمل إلاهي، وكذا تحلّلوا أيضا من الإقرار لفرعون بربوبيته بحضوره، وهذا بكلّ تأكيد عمل يَسْتَشَاطُ منه غضبا وحنقا. قال ابن عبّاس: "كانوا أول النّهار سحرة، وفي آخر النّهار شهداء بررة".

- قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ (71) :

كان فرعون يودّ بما دبّر من جمع السحرة وحشد النّاس من حولهم أن ينهزم موسى أمام الجمع حتى يكون هزؤا، وتزداد شوكة فرعون والسحرة قوة، فلمّا وقع السحر على السحرة، وخرّوا أمامه لربّ هارون وموسى سجّدا، وأقرّوا بإيمانهم بربّهم الجديد ثارت ثورته وعظم غيظه وحنقه، وظنّ أنّ السحرة قد تآمروا عليه من ورائه، وأنّ ما جاؤوا به كان تمثيلية للإيقاع به، وإحراجه

فقال: أتؤمنون بربّ هارون وموسى قبل أن آذن لكم بذلك، إنّ هذه مكيدة قد دبّرتموها مع كبيركم هذا الذي علمكم السحر – وقصد به موسى – وحكم عليهم بأن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أي قطع اليد اليمنى مع قطع الرجل اليسرى، أو بالعكس، وكان فرعون أوّل من حكم بهذا الصنف من الحكم المقيت، ثمّ صَلَبَهُمْ جميعا في جذوع النخل لتأكل الطير من رؤوسهم، وهذا ليعلموا من هو أشدّ عذابا وإيلاما: فرعون أو ربّ موسى! وهذا من خير ما يُستدلّ به على جبروت فرعون وطغيانه، ومن خير ما يُستدلّ به على كفره.

- **قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ (72) :**

وثبّت الله تعالى عباده المؤمنين على إيمانهم، فقالوا لفرعون: لن نفضّلك على طاعة من رأينا دلائل عظمته وقدرته، وتبينّا أنّه هو الخالق الذي خلقنا، فافعل بنا ما شئت، واِحكم علينا بما تشاء، فإنّ الحياة الدنيا حياة فتنة واِختبار، وحكمك لا يتجاوز الحياة الدنيوية.

- **إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ (73) :**

وأضافوا : لقد آمنّا بربّنا الذي خلقنا طمعا في أن يغفر لنا ما فرط منّا من الخطايا والذنوب والسيّئات، وما أجبرتنا عليه وفرضته علينا من عمل السّحر. وطاعة الله خير من طاعة عبد من عباده، وأجرها ثابت ودائم، وطاعة ربّنا هي الباقية، وطاعة عبد من عباده فانية بفنائه. وفي هذه الجملة موعظة للمشركين.

- **إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (74) :**

من يكفر بربّه ويعْصِه، فإنّه حين يقوم للحساب بين يديه يحشر في جهنّم ليعذّب فيها عذابا دائما لا يموت فيها ليستريح من العذاب، ولا يحيا فيها حياة بغير ألم ووجع، ولا ينتفع فيها بحياته.

- **وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ (75) جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ (76) :**

ومن يرجع إلى ربّه في آخرته وهو مؤمن قد عمل صالحا في طاعته لربّه، وفي اِجتنابه المعاصي والمحرّمات والمنهيات فهو من الذين يفوزون بالمنازل الرّفيعة في جنّات النّعيم والرّفاه يقيمون فيها إقامة دائمة، خالدين فيها، وهذا جزاء كلّ من طهّر قلبه ونفسه من رجس الكفر والشّرك، ومن إتيان المعاصي، والذنوب.

- **وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ (77) :**



ولقد أوحينا إلى موسى أن أُخرج بأتباعك المؤمنين من بني إسرائيل ليلا من مصر، واتّخذ لهم طريقا في البحر ستلقاه جافّا ويبسا لا تغوص فيه الأرجل وستجده ممهّدا للسير، واِمض بهم فيه دون أن تخشى أن يدركك فرعون وجنده، أو تخاف من أن يلحقوا بكم، اِمض بهم فيه آمنا (سيأتي في "الشعراء" كيف تمّ فتح هذا الطريق اليَبَس).

- فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ **(78)** :

وتفطّن فرعون لخروج موسى ببني إسرائيل من مصر، وقد كان يستغلّهم للأعمال الشاقّة ويسخّرهم لها، ويسخّر نساءهم للخدمة في بيوتهم، فغاظه الأمر، واِعتبره تحدّيا لنفوذه وعصيانا فأتبعهم في كوكبة من جنده يريد تأديبهم بالقتل والأسر للاستعباد، ولمّا بلغوا عمق البحر غمرهم الماء، وعَلاَهم، وأغرقهم جميعا دون اِستثناء، وهلكوا، (ولم يَعُد منهم أحد إلاّ جثّة فرعون ألقت بها الأمواج بالساحل للاعتبار).

- وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ **(79)** :

ولقد أبعد فرعون قومه عن الرّشد، وعن الدين الحقّ، ولم يهدهم إلى الخير، ولا إلى النّجاة، وما هدى نفسه، بل أهلكها وأهلك جنده، ومن اِتّبعه من ملئه.

- يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ **(80)** كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ **(81)** :

الخطاب في الآيتين مُوجّه لبني إسرائيل لتذكيرهم بفضائل الله تعالى عليهم حين أنجاهم من الهلاك بالسيف أو الأسر لمّا لحق بهم فرعون وجنده وهم في اليمّ عند خروجهم من أرض مصر، وحين أطعمهم لمّا أضناهم الجوع زمن التّيه، والغاية من هذا التّذكير أن يكونوا عبادا شاكرين، وليتّعظوا بالأيّام السالفة ليؤمنوا بما جاءهم به الرسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وألاّ يطغوا، فإن لم يفعلوا حلّ عليهم غضب الله، وهذا وعيد للتّحذير. ففي الآيتين: تذكير للشكر، وموعظة للحذر من الوعيد، وهذا هو الهدى المبتَغَى، أليس في هذا الكتاب هدى وتذكرة وموعظة؟ ولمّا كانت الآيتان في موعظة بني إسرائيل وفي تذكيرهم، وهما من القرآن الكريم، فالمستفاد قطْعًا أنّ القرآن الكريم جاء لموعظة النّاس كافّة، ولم يكن خاصّا بالعرب ليؤمنوا ويسلموا، ولما جاء في خبر بني إسرائيل وهديهم فهذا يفيد بأنّ القرآن الكريم حقّا هو المهيمن، فيه خبر من قبلنا، وفيه هدي لأهل الكتاب، وفيه بلاغ للنّاس في العالمين.

والمعنى: يا بني إسرائيل أُذكروا نعمة ربّكم إذ أنجاكم من فرعون وجنده، وأغرق أعداءكم على أعينكم، وأُذكروا لمّا واعدنا موسى على يمينه من جبل الطور، وآتيناه التوراة، وأُذكروا لمّا كنتم في

التّيه وكدتم تهلكون من الجوع فأنزلنا عليكم طير السُّمَّانِيِّ، ورقيق الخبز لتأكلوا طعاما طيّبا ولحما طريّا ولتشكروا ربّكم (ورد ذكر هذا في أوائل سورة البقرة الآية 57) وقد نهيناكم عن البطر بالنّعمة وجحودها، وإذا جحدتم حلّ عليكم غضبي، ومن حلّ عليه غضبي فقد سقط في هاوية العذاب.

- وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ (82) :

هذه آية من آيات الرّجاء، وجاءت بضمير المتكلّم. والمتكلّم هو الله عزّ وجلّ تقدّست أسماؤه وصفاته، وفيها تذكير بصفتيه: الغفور، والتوّاب لعباده المتّصفين بأربع: التوبة، الإيمان، والعمل الصالح، والاهتداء. وهذه آية عامّة لجميع الخلق.

والمعنى: من تاب من الشّرك، فآمن بالله وحده، وملائكته، وبرسله، وبما أنزل، وباليوم الآخر ووعده ووعيده وقضائه فإنّ الله تعالى توّاب يتوب عليه، ومن عمل صالحا وداوم على أداء الطاعات فإن الله غفور يغفر له ما تقدم من ذنبه.

- وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ (83) :

جاء في تفسير التّحرير والتنوير (ج.16 ص277): أنّ الاستفهام في هذه الآية مستعمل في اللّوم، والذي يؤخذ من كلام المفسّرين وتشير إليه الآية: أنّ موسى تعجّل مفارقة قومه ليحضر إلى المناجاة قبل الإبّان الذي عيّنه الله له، إجتهادا منه، ورغبة في تلقّي الشّريعة حسبما وعده الله قبل أن يحيط بنو إسرائيل بجبل الطور، ولم يُرَاعَ في ذلك إلاّ السَّبْقَ إلى ما فيه خير لنفسه ولقومه، فَلاَمَهُ الله على أن غفل عن مراعاة ما يحُفُّ بذلك من اِبتعاده عن قومه قبل أن يوصِيَهم بالمحافظة على العهد، ويحذّرهم مكر من يتوسّم فيه مكرا... وقريب من تصرّف موسى عليه السلام أخْذُ المجتهد بالدليل الذي له معارض دون علم بعارضة، وكان ذلك سبب اِفتتان قومه بصنع صنم يعبدونه." وعموما فإنّ الآية تشير إلى وجوب التّأنّي في مغادرة القوم قبل التأكّد من اِنضباطهم لشريعتهم، وقبل الاطمئنان عليهم من الافتتان والفوضى وخرق الأوامر.

- قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ (84) :

يعود الضمير (هُمْ) إلى القوم وهُمْ السّبعون الذين اِختارهم موسى لميقات ربّه، وكان موسى عليه السّلام قد تقدّمهم يريد سبقهم، فلمّا لامه تعالى على سبقه قال موسى هم على أثري لاحقون بي، وقد عجلت إليك يا ربي طلبا لمرضاتك. قد ظنّ موسى أنّ اللوم بسبب تقدّمه السبعين رجلا، ولكنّ الوحي لامه على تعجّله للميقات قبل أن يطمئنّ لحسن تأطيره لأتباعه من بني إسرائيل الذي خلّفهم وراءه، وجعل أخاه هارون خليفته عليهم.

- قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ (85) :

فأخبره تعالى أنّ قومه أُفتتنوا في دينهم عند غيابه عنهم، وأنّ رجلا من إقليم (سامراء) قد أوقعهم في الشّرك، كان هذا الرجل يميل إلى الشّرك من ضعف إيمانه وقلّة وعيه.

ومن المستفاد من هذا الحديث أنّ الداعي إلى الرّشاد، ما يطلق عليه حديثا برجل الإصلاح، يلقى عَنَتًا وصدّا حينما يدعو للوعي، وللهدي، واِتّباع الحقّ، وترك الضلالات ومحاربة الجهالة، وأمّا المشعوذ، والداعي للتحلّل من القيم ومن الانضباط للقانون، والداعي للمفاسد في الخُلق والذوق باسم التمدّن والتحرّر يجد الآذان الصاغية، والاستجابة السريعة لدعوته واتّباعه.

- فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي **(86) :**

ورجع موسى بعد الميقات إلى قومه شديد الانفعال، والغضب، في هيجان، وخاطر منكسر وقام فيهم خطيبا، قال: يا قوم ألم يعدكم ربّكم بالنّجاة من فرعون، وتسريحكم من اِستعباده وظلمه وأنجاكم منه ومن ملئه وجنده وأنقذكم منهم وأغرقهم على أعينكم ليشفي صدوركم، ولتعرفوا فضله عليكم بالانتقام منهم، وبنصركم على أعدائكم. أفطالت عليكم المدّة على إنقاذكم ونصرتكم فنسيتم فضله تعالى عليكم، أم أردتم أن يحلّ عليكم عذابه بجحودكم وكفركم به بشرككم، فتركتم العمل بما أوصيتكم به، وبما وعدتموني به على الثبات عليه حتى أعود إليكم. (والاستفهام للتّوبيخ، وليس للتذكير).

- قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ **(87) :**

وما كان حجّة القوم إلاّ أن قالوا: ما أخلفنا عهدنا معك (بِمَلۡكِنَا) بإرادتنا، ولكنّا كنّا مضطربين، ولم نملك أنفسنا (وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ) : حين أخبر موسى قومه ليلة عزمه على الخروج بهم من مصر بوحي من ربّه، سارعت نسوة منهم إلى نساء مصريات ثريّات فَطَلَبْنَ منهنّ إعارتهنّ حُلِيّهنّ بدعوى التجمّل بهذه الحليّ لأعراس عندهنّ على سبيل الإعارة، فجمعن منهنّ كثيرا من حليّهنّ، وفي الليل خرجن مع القوم فرارا من مصر، وهذا ما قصده القوم من قولهم (وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ) والقوم ها هنا هم المصريات. (فَقَذَفۡنَٰهَا) فرموا بالحليّ في النّار لإذابته، وذلك تنفيذا لأمر السامريّ الذي دعا الجميع لإحضار ما عندهم من الحليّ لإلقائه في النّار لإذابته ليصنع لهم عجلا من ذهب، وكان القوم قد مرّوا بقوم يعبدون صنما عند خروجهم من مصر إلى جانبٍ من الطور فمَالَتْ نفس السّامريّ لأن يكون لهم إلاه مثل ما رأى عند القوم الذين مرّوا بهم.

- فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ **(88) :**

فصنع لهم السامريّ تمثالا في صورة عجل، وصبّ عليه الذهب المذاب، وجعل له فتحتين في مقدمته وفي مؤخرته، فإذا نفخ الريح في التمثال خرج منه صوت يشبه خوار العجول. وقال صانعو هذا التمثال الذي صنعوه بأيديهم للقوم: هذا معبودكم ومعبود موسى فصلُّوا له، وأُدعوه وقدّسوه، ولقد نسي موسى أن يذكر لكم أنّه إلاهه.

- أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (89) :

هذه لتأنيب جميع المشركين: عبدة الأصنام والأوثان والجمادات، أفلا يلاحظون، ويشعرون أنّ ما يعبدون لا يكلّمهم، ولا يردّ لهم جوابا، وأنّه لا يقدر لهم على شيء من الضرّ أو النّفع. فأيّ فائدة من عبادة ما لا ينفع ولا يضرّ ولا يسمع ولا يتكلّم. والاستفهام للتّوبيخ على تعطيل العقل والفهم.

- وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى(90) :

وكان هارون من قبل أن يرجع إليهم موسى قد لامهم على ما يفعلون وعمّا يقولون، ووعظهم بأنّ ما يأتون به هو من الفتنة في دينهم، وهو ممّا يردّهم إلى الكفر والشرك، وأنّ عليهم أن يحافظوا على عقيدة التوحيد، وأنّ ربّهم هو الرّحمان ولا إلاه إلاّ هو، ودعاهم لاتّباعه وللاهتداء لما يرشدهم إليه، وأن يطيعوه في هجر ما يفعلون، وفي أن يحافظوا على ما أرشدهم إليه موسى، وأن يَدَعُوا الشّرك.

- قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (91) :

فما كان ردّ القوم إلاّ أن تمسّكوا بالقيام على عبادته، وأصرّوا على ذلك في اِنتظار عودة موسى إليهم ليحتكموا إليه، ورفضوا السماع لهارون وإرشاده.

- قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ (92) أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى (93) :

وتوجّه موسى لهارون يلومه متشدّدا عليه قائلا: ما الذي منعك من أخذهم بالقوة حين رأيتهم قد حادوا عن الصواب؟ ألا تدفع الباطل بقوّة! ألا تحملهم على الإيمان الحقّ؟ أفعصيت أمري إذ جعلتك خليفتي في غيابي تقوم على أمرهم، وتحيط بهم؟ لماذا لم تزجرهم؟

- قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى (94) :

وأخذ موسى بذقن أخيه هارون وجذبه من لحيته إليه، وجرّه من شعره، فاستعطفه هارون بحقّ أخوّته من أمّه التي كان موسى يحبّها حبّا جمّا قائلا: لا تفعل هذا أمام الجمع فيشمتوا بي، ويستخفّوا بي، إنّي خفت لو أنّي فارقتهم حين عبدوا العجل لأعبّر عن تبرُّئي ممّا يفعلون، أو



حين آخذ بعضهم بالقوّة أن تتّهمني حينما تعود للقوم بأنّي فرّقت بينهم، أو بأنّي تركتهم لضلالتهم، وتخلّفت عن مسؤوليتي، وعن موقعي.

- قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ (95) :

ترك موسى أخاه هارون، وتوجّه إلى السامري بالسؤال فقال له: فما خبرك؟ وما شأن هذا العجل؟ وما فعلت؟

- قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي (96) :

قال: رأيت ما لم يره القوم (ادّعى أنّه شاهد أثر جبريل عليه السلام حين نزل على موسى) فأخذت حفنة تراب من موطئ أثر فرس جبريل، فألقيتها في النّار مع الحلي المذاب، وهذا ممّا حدّثتني به نفسي، وزيّنته لي. ومن المُستفاد من هذا أنّ دعاة عبادة الأصنام هم أهل أوهام وتهيّؤات، وليس لهم حجّة، ولا برهان.

- قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا (97) إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا (98) :

فأطرده موسى، وقضى عليه بالنفي من جمعهم، وأخبره بأنّ الله تعالى قد عاقبه بالهَوَسِ والوساوس والخوف من النّاس حتى يقول لكلّ من يحاول أن يقربه: لا تمسّني ولا أمسّك، ولا تَقْرَبْني ليكون بعيدا عن النّاس وعن مخالطتهم إلى آخر حياته، ثمّ إذا اِنقلب إلى موعد الحساب في الآخرة فسيلاقي عذابا من الله تعالى. وقبل أن يغادر المكان أمره موسى أن يبقى حتى ينظر فيما يفعله بإلاهه الذي كان يقدّسه ويعبده وحتّى يرى إحراقه فيذوب ثمّ تذرّ أشلاؤه وترابه في البحر حتى لا يبقى له أثر. قيل: أصيب السامري بداء البرص فكان النّاس يحذرون مسّه والقرب منه.

وذكّر موسى القوم بأنّ إلاههم الحقّ هو الله الذي لا إلاه إلاّ هو، وهو تعالى محيط بكلّ شيء علما، لا يفوته شيء من عمل خلقه، فلذلك يجب مراقبته في كلّ عمل وقول لأنّه لا يخفى عليه شيء. وما دامت العبرة في القصص القرآني بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، فإنّ هذه الآية لتذكرة لجميع الخلق ليعلموا أنّ الحقيق بالعبادة والتّقديس والطاعة هو الله وحده، وهو واحد أحد لا شريك له.

- كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا (99) :

وهكذا نخبرك بأخبار من كان قبلك من الأمم للعلم، وأوحينا لك بهذا الذّكر للاتّعاظ والتّدبّر ينتفع به كلّ من كان له عقل وألقى السّمع.

- مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا (100) خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلًا(101) :

فمن تولّى عن الانتفاع بهذا الذكر وتدبّره، وتمادى في غيّه وكفره ومعاصيه فإنّه يأتي يوم القيامة بذنوب ثقيلة تؤدّي به إلى جهنّم للإقامة فيها إقامة دائمة لا خروج له منها. وما أسوأ ما جاء به يوم القيامة من حمل ثقيل!

- يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا (102) يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا (103) :

يوم ينفخ في الصور النّفخة الثانية للإذن بالقيام للحساب يُحشر المجرمون المكذّبون بيوم الدين مشوّهي الخلقة بزرقة في عيونهم وعلى وجوههم من شدّة الخوف والفزع والهلع ويقال للإنسان الذي أصابه ذعر شديد وفزع: وجهه أزرق، أو وجهه أكحل.

ويتحدّثون فيما بينهم بصوت خافت بأنّ حياتهم في الدنيا مقارنة بمدّة مكوثهم في اِنتظار محاسبتهم كانت قليلة. العدد عشرة يفيد هنا القلّة. ومن ألوان العذاب في الآخرة: الانتظار المطوّل.

- نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا (104) :

والله عليم بما يسرّون به لأنفسهم، وبما يتخافتون به، ويقول فيهم الأعدل رأيًا والأصوب عقلا، إنّ الزّمن الذي قضّيناه في دنيانا، في لهونا وملذّاتنا مضى سريعا كأنّنا ما عشنا إلاّ يوما واحدا. نسأل الله تعالى لأنفسنا وأهلينا النّجاة من كلّ عذاب في ذاك المحشر.

- وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا (105) فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا (106) لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا (107) :

هذه عند قيام الساعة حينما يأذن الله تعالى بنهاية الحياة الدنيوية، فإنّ الجبال التي كانت للأرض أعمدة تتفتّت بفعل الزلزلة العظيمة، وتتحوّل إلى تراب وحصيّات صغيرة تذرّ مع الرّياح ذرّا، فلا يبقى للجبال أثر، وترى مكانها أملس، ليس فيه أودية ولا طرق ملتوية ولا روابي ولا مرتفعات.

- يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا(108) :

(الداعي) هنا هو الملك الذي ينفخ في الصور النّفخة الثانية للإذن بالقيام للحساب، والمعنى: إذا نفخ في الصور النّفخة الثانية يستجيب جميع الخلق للداعي بسرعة، وفي اِنتظام في صفوف منتظمة لا ترى فيها اِعوجاجا، (وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ) خفتت الأصوات رهبة وتقديسا لله سبحانه، وإذعانا له، فلا تسمع يومئذ إلاّ الكلام المهموس بين اِثنين.

- يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا (109) :



يومئذ لا يشفع أحد لأحد، ولا يشفع عند الله عزّ وجلّ مالٌ ولا جاه ولا نسب لأحد لينقذه من عذاب الله إن كان غير مؤمن، فإن كان مؤمنا عاصيا فلا يشفع له أحد إلاّ من أذن له الرّحمان ليشفع فيه، ورضي الله تعالى لهذا الشفيع قوله، وكان هذا الشفيع من عباد الله الصادقين في إيمانهم، والمخلصين لله في الطاعة والعبادة، وكان من الصالحين، وأوّل هؤلاء هم الأنبياء والمرسلون وأيمّة القوم الصالحون العلماء العاملون.

- يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا **(110)** :

هذه في الدلالة على سعة علم الله تعالى بشؤون عباده. والمعنى: إنّ الله عزّ وجلّ يعلم ما سيكون من أمر خلقه، وإلى ما هم صائرون إليه من العاقبة، وهو تعالى عليم بما كانوا يعملون في دنياهم، والنّاس جميعهم مهما بلغوا في درجات علومهم ومعارفهم واستقراءاتهم فإنّهم غير قادرين على معرفة قدرة الرّحمان، ولا يقدّرون عظمته وجلاله.

- وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا **(111)** :

وخشعت الرؤوس وانحنت وخضعت إجلالا لله تعالى وإذعانا وذلولا للحيّ الذي لا يموت القائم على خلقه وملكوته بتدبير أمورهم، وقد خاب وخسر من جاء بالشرك، وظلم نفسه بالتكذيب بيوم القيامة وبالوعيد.

- وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا **(112)** :

وأمّا من كان مؤمنا بالله وحده غير مشرك به وكان يعمل بالطاعات فلا يخاف عذابا يومئذ، ولا يخاف نقصا من أجره وثوابه على طاعاته.

- وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا**(113)** :

وهكذا أنزلنا هذا الكتاب بلسان عربيّ مبين لتُفهم آياته ومواعظه، ولقد تضمّن وعيدا للكافرين بأساليب مختلفة ومتنوّعة للتّحذير ولإقامة الحجّة على المكذّبين عساهم يخشون ربّهم فيستقيموا على طاعته، أو يحدث في أنفسهم وخزا أو حافزا يجعلهم يتّعظون ويعتبرون للاهتداء للصواب.

- فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا **(114)** :

كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين يتنزّل عليه جبريل عليه السلام بالوحي يتلقّى القرآن بقراءته قبل أن يفرغ جبريل من الوحي حرصا على الحفظ، ومخافة النسيان فنزلت هذه لتعليم النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كيف يتلقّى الوحي. والمعنى: جلّ الله الملك الحقّ، هو مالك الوجود كلّه بملكوتيه: العلوي والسفلي، وهو الملك الحقّ ذو السلطان في دنيا البشر والحاكم القاضي



بالعدل يوم الدين، ولا تشغل نفسك بالإسراع بحفظ ما ينزل عليك من القرآن خوفا من أن يفلت منك شيء منه من قبل أن يفرغ جبريل من إلقاء كامل الوحي إليك. وأُدع الله أن يزيدك علما ببيان معانيه ومقاصده وحكمته.

- **وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا (115) :**

هذه الآية إلى غاية الآية 127 في التّذكير بضعف عزم آدم في حفظ أمر ربّه قصد الاعتبار، وللحذر من سوء العاقبة. والمعنى: ولقد وصينا آدم بعد خلقه حين كان في جنّة الضيافة والتكريم بالملكوت العلوي بأن لا يقترب من شجرة عيّنّاها له، فلم يحفظ وصية ربّه وعهده ونسيه من ضعف عزمه، ومن قلّة حرصه على تنفيذ الأمر، ولو كان عنده حرص على تنفيذ أمر ربّه. يقال في اللّغة : لفلان عزْم، أي صبْر وثبات على التحفّظ من المعاصي حتى يسلم منها. والنسيان هنا من السهو، وصاحب العزم لا يسهو عمّا أوصي بفعله أو بتركه.

- **وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ (116) :**

وأُذكر إذ قلنا للملائكة إسجدوا لآدم لمّا خُلق فسجد الملائكة جميعهم، وكان إبليس حاضرا معهم وسمع أمر ربّه، ولكنّه رفض أن يسجد له إستكبارا وعصيانا وإمتنع عن ذلك.

- **فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ (117) :**

وأسكن الله تعالى آدم وزوجه جنّة الضيافة، ونبّه آدم من عداوة إبليس له ولزوجه حسدا، وحذّره من طاعته فيما يأمره به، ويزيّنه له فيخدعه، ويتسبّب له ولزوجه في إخراجهما من الجنّة، وحينئذ سيشقى بكسب قوته من كدِّ يديه وبعد تعبٍ وعناءٍ.

- **إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ (118) وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ (119) :**

إنّ لك في الجنّة كلّ ما تشتهي من الطعام فلا تجوع فيها، ولا يُصيبك في الجنّة عُرْيٌ، وإنّك لا تظمأ من ماء لأنّ فيها من كلّ أنواع الشراب، وإنّك فيها لا تتعرّض للشمس، ولا يُصيبك حرّها. الحياة فيها نعيم دائم، ورفاه.

- **فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ (120) :**

وجاءه إبليس فألقى في نفسه تدبيرا مهلكا يوقعه في معصيةٍ لأمر ربّه، فقال له: هل أدلّك على شجرة إذا أكلت منها فإنّك تكون مخلّدا، ولن تموت، ويكون لك ملك واسع لا ينقضي، ولا ينتهي ولا يزول.

ووجه الاعتبار في هذه الآية أنّ أكثر ما يوقع الإنسان في المعصية هو الطمع، وأكثر ما يطمع فيه الإنسان: الخلود، والمال والملك، ومن باب الطمع يدخل الشيطان في رَوْع الإنسان، ويزيّن له كلّ وسيلة ليبلغ مبتغاه، وينساق الإنسان لوساوس الشيطان، ويظلّ يخطّط ويدبّر بكلّ



الطرق المشروعة وغير المشروعة ليوسّع في مِلكه، ويجتهد لينعم بطول الحياة، وهو يعلم علم اليقين أنّ كلّ نفس ذائقة الموت، وإنّ الملك لله تعالى.

- فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (121) :

ونجح إبليس في إيقاع آدم في غَوَايته، فأكل من الشجرة التي أمره الله تعالى بأن لا يقربها، وبأن لا يأكل منها، وأكلت منها زوجته، فظهرت عورتاهما لبعض، وأخذا يلصقان ورق الشجر على عورتيهما لتغطيتهما، وهكذا خالف آدم أمر ربّه بنسيانه من قلّة حرصه على حفظه، ووقع في المعصية (فَغَوَى) فضلّ الصواب وأخطأه.

- ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (122) :

ثمّ اِصطفاه ربّه بعد معصيته فتاب عليه، وهداه بأن وَفَّقَه للتّوبة، وحفظ حدود الله تعالى، وتجنّب تجاوزها.

- قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (123) :

وأمر تعالى آدم وإبليس بالهبوط للأرض لعمارتها، ونبّه تعالى آدم بأنّ إبليس عدوّ له للحذر من وساوسه وتدبيره، وأرشده بأن يتّبع هو وذريّته من بعده ما سيأتيهم من لدنه من الهدى عن طريق رسله، ووعده بأن كلّ من يتّبع من ذريّته هدى الله: شرعه ومواعظه فإنّه لا يحيد عن الصواب في دنياه، ولا يُعذّب في آخرته.

- وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (124) :

وعلى العكس منه، فمن تولّى عن ذكر الله عزّ وجلّ، وأعرض عن طاعته، وتولّى عن اِتّباع هداه فإنّه سيلقى عيشا ضيّقا أو منغصّا لما فيه من توبيخ الضمير، أو من تتبعات زجرية إذا كان كسبه من طريق غير مشروع، ويُحشر يوم القيامة أعمى البصيرة، في حيرة، وفي تِيهٍ من أمره، وخائفا لا يرى ما حوله من ذعره، أو يكون مطموس العينين في حيرة، لا يرى نورا.

- قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (125) :

ويسأل – وهو في حيرته – ربّ لم حشرتني أعمى لا أبصر شيئا، ولا أبصر نورا، وقد كنت سليم البصر في دنياي. وسؤاله هذا يدلّ على شدّة ضيقه بذهاب بصره.

- قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (126) :

قال هذا من أثر نسيانك للعمل بالطاعات، فقد جاءتك أوامر ربّك ونواهيه فلم نجد عندك عزما للعمل بها نسيانا وغفلة، فاليوم تُلْقَى في النّار، وتُنْسَى فيها حتّى لا تخرج منها.



- ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ (127) :

وهكذا نجزي من كفر، وتجاوز حدّه في التّكذيب وإتيان المعاصي، ولم يصدّق بالوعد والوعيد، وبيوم الحساب، وإنّ عذاب الآخرة أشدّ من كلّ ما يتصوّره الإنسان، ومن كلّ ما يخطر على باله، وهو عذاب دائم لا يزول.

- ﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ (128) :

ضمير الجمع للغائب هنا يُشير لمشركي العرب المكذّبين بالوعيد. والاستفهام للتّوبيخ، وغايته: التذكير بعقاب الأسلاف للاعتبار، وللتّحذير من أن يصيبهم عذاب مثله، ولحفز همم ذوي العقول الواعية والبصائر للتوبة وللردع. والمعنى: أفلم تأتهم أخبار هلاك من كان قبلهم من المشركين المكذّبين برسلهم في الأزمان السالفة ليعتبروا بهم، وهم يمرّون على آثارهم ويرون تدمير بيوتهم، وخراب قراهم. إنّ في كلّ ما يرون من آثارهم، وما يأتيهم من أخبارهم عِبَرًا لذوي الأفهام والقلوب والعقول الواعية والبصائر السليمة ليتوبوا ويستقيموا على الدين الحقّ.

- ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى﴾ (129) :

هذه في نعمة الإمهال للعصاة والمذنبين ليثوبوا لرشدهم. والمعنى: لولا أن قضينا بالإمهال، ولكلمة سبقت من الله عزّ وجلّ إلى محمد صلّى الله عليه وسلّم الذي أعطاه الأمان للقوم الذي يكون فيهم، لأهلكهم وعذّبهم لأنّهم يستحقّون العقاب، ولولا أن قضينا بإمهالهم حتى يقوموا للحساب لعجّلناه لهم. قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ﴾ (الأنفال الآية 33).

- ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾ (130) :

هذه في تسلية النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حتى لا يحزن ولا يتألّم لما يتقوّل فيه المشركون بوصفه ساحرا مرّة، ومجنونا أخرى، ومتقوّلا على الله عزّ وجلّ... وهي كذلك في توجيهه – ومن ورائه جميع المؤمنين – للعمل الذي يرضي ربّه عنه. والمعنى: لا تأبه بما يقولون فيك، واِصبر على أذاهم، واِنشغل عن الردّ عليهم بالمداومة على الصلاة والتسبيح لله لتنزيهه عن الشّرك، وعن كلّ نقص وعيب عند الفجر والنّاس نيام، وعند العصر قبل غروب الشمس، وفي ساعات من الليل، وفي أطراف النّهار، رجاء أن تنال ما عند الله عزّ وجلّ من الثواب والأجر والخيرات الحسان حتى ترضى بعطائه.

وبالتأمّل في هذه الآية نتبيّن أوقات الصلوات المفروضة: فقد ذكر فيها صلاة الفجر أو صلاة الصبح، وصلاة الظهر في طرف من أطراف النّهار، وصلاة العصر قبل الغروب،



وصلاة المغرب عند طرف النّهار، وصلاة العشاء هي من صلاة وقتٍ من الليل. وبين هذه الصلوات تصلّى صلوات النّوافل للشكر، وللدعاء، وطلب الزلفى.

- وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (131) :

هذه في التّأديب على خلق القناعة. والمعنى: لا تتطلّع إلى ما عند غيرك من رزق واسع في سكنه وممتلكاته ووفرة ماله ومَرَاكِبه ورغد العيش ورفاهه ممّا أنعمنا به عليه لاختباره في تصرّفه فيه بالشكر أو بالجحودِ والبطر والكفر. واِعلم أنّ كلّ رزق ممّا ييسّره الله تعالى لعبده المؤمن فيؤتي حقّه من الرضا والشكر والإنفاق منه في أعمال البرّ والطاعات هو خير له في دنياه، حلال له في آخرته، وأجره على سعيه، وعلى الإنفاق منه في البرّ، وعلى شكره باقٍ له في آخرته، وهو خير له من رزق واسعٍ لا يُؤَدَّى حقُّه من الشكر لله تعالى، ويُقابل بالجحود والكفر.

- وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ (132) :

هذه في موعظة جميع المؤمنين وفي إرشادهم لما ينفعهم في حياتهم في علاقتهم بربّهم، وفي عاقبتهم في آخرتهم. والمعنى: وأمر أهل بيتك بالمداومة على الصلاة طاعة لله، وللمداومة على الطاعة والذكر والشكر والدعاء. وأهل البيت هم الزوجة والذرية. (وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا) واِجتهد في الصبر على أداء الصلاة والطاعات لحفظ النّفس من إتيان الفواحش والمنكرات، لأنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. وإذا فهمنا لفظ (أَهْلَكَ) على أنّها تعني الزّوجة، قلنا أنّ لفظ (وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا) يعني اِجتهد في الصبر على زوجك لتجعلها تحافظ على الصلاة وعلى طاعة الله ليعيش الأطفال في ظلّ أبوين محافظين على الإيمان بالله تعالى وبطاعته وبالصلاة له خشوعا للذكر والدعاء. وأُستعمل لفظ(وَٱصْطَبِرْ) على وزن "اِفتعل" الذي يدلّ على الاجتهاد في اِمتلاك النّفس للصبر على الزوجة في ما تأتي به من مخالفات حتى تهتدي للصواب بمرور الأيام حفاظا على الأسرة من التصدّع، ولربح الأجر والثواب في توجيهها وإرشادها للخير، ولصالح الذرّية. واِعتمدنا هذا المفهوم لأنّ هذه الجملة جاءت بعد آية تربّي على القناعة، وجاء في هذه الآية بعد هذه الجملة الحديث عن الرّزق، وإنّ بعض النّسوة يتكلفن النظر فيما عند غيرهنّ، ويطمعن في ما هو خير منه، ويضغطن على الزوج لينفق فيما هو للمظهر من زينة الحياة الدنيا فتفسد العلاقة بين الأزواج بكثرة ما يطلبن، فدعت الآية للاجتهاد في الصبر على الزوجة ولأمرها بالصلاة لتكون زوجة شاكرة رضية بما آتاها الله عزّ وجلّ، ولتربية الذريّة على القناعة بما آتاهم الله من فضله. والله أعلم.

(نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ) أي أنّ قسمة الأرزاق بيد الله ومن قضائه بما كتبه لكلّ فرد من خلقه، وحسن العاقبة تكون للمتّقين الذين يرضون بما قسمه الله لهم، والذين هم لربّهم مطيعون وشاكرون.

روى ابن ماجه في سننه عن زيد بن ثابت قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: "من كانت الدنيا همّه فرّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأْتِهِ من دنياه إلاّ ما كُتِبَ له، ومن كانت الآخرة نِيَّتَه، جُمع له أمرُهُ، وجُعل غناه في قلبه، وأتَتْه الدنيا وهي راغمة". وقد شكى أحدُهم إلى أحد الصالحين فقره، وفاقَتَه، وطلب نصحه، ودعاءه فقال له: مُرْ أهلك – أي زوجك– بالصلاة، ثمّ قرأ عليه هذه الآية.

- وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ **(133)** :

وقال المكذّبون برسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم، والمشكّكون في صدقه: هلاّ جاءنا بمعجزة حسيّة من عند ربّه لنصدّقه، ألا يكفيهم أنّ القرآن الكريم قد جاءهم معجزة ظاهرة فيها كلّ ما جاء في الصحف الأولى بما يدلّ على صدق الوحي، وهم يعلمون أنّ نبيّهم لم يكن له علم من قبل نزول الوحي عليه بالأديان السماوية السابقة وبكتب أهل الكتاب، وقد عاش فيهم أربعين سنة قبل نزول الوحي عليه لا يحدّثهم بشيء عن الدّين وعن الكتب السماوية، وكانوا يصفونه بأنّه الصادق الأمين.

- وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ **(134)** :

ولو أنّ الله تعالى عجّل لهم بالعذاب على شركهم من قبل أن يأتيهم محمد صلّى الله عليه وسلّم برسالته، وبكتاب الله الذي يحمل إليهم هدي ربّهم لقالوا عند الحساب: ربّنا هلاّ أرسلت إلينا رسولا ليرشدنا للحقّ والصواب حتى نتوب عن ضلالنا ونستقيم على صراطك المستقيم دون أن نحيد عنه إلى الباطل من قبل أن تعذّبنا العذاب المهين الفاضح، وأمّا وقد جاءهم الرّسول بالهدي كذّبوه، وتمسّكوا بضلالتهم. لقد قامت عليهم الحجّة، وما عاد لهم عذر عند ربّهم يوم محاسبتهم على كفرهم.

- قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ **(135)** :

قل اِنتظروا، وأنا معكم منتظر، وحين تقوم الساعة، ويأتي الجميع للميزان ليحاسب عن عمله فسيتبيّن لكم يومئذ من كان منّا على الصراط المستقيم الموصل للسعادة الأخروية، ومن كان على الحقّ والمنهج السليم.

اللهمّ اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم.



آياتها	ســـورة الأنبيـــــاء ـــــ مكيّة ـــــ	رقمها
112		21

هي سورة مكيّة، سمّيت بسورة "الأنبياء"، ولا يُعرف لها اِسم آخر غيره، وذلك لورود أسماء ستّة عشر نبيّا فيها، الأنبياء المذكورون هم: موسى – هارون – إبراهيم – إسحاق – يعقوب – لوط – داوود – سليمان – أيوب – إسماعيل – إدريس – ذو النون – زكرياء – يحيى – عيسى عليهم السلام، ورسولنا الكريم محمد صلّى الله عليه وسلّم. ويضاف لهؤلاء الأنبياء : "مريم" عليها السلام وما هي بنبيّة، وكذلك : "ذو الكفل" وهو من الصالحين. وليس في القرآن الكريم سورة أخرى ذُكر فيها مثل هذا العدد من أسمائهم، وقد وقعت الإشارة لذكر "مريم" عليها السلام دون ذكر اِسمها. وقد ذكروا بهذا العدد تسلية للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حتى يعلم أنّهم قد تعرّضوا من أقوامهم بمثل ما تعرّض من قومه من مشاقّة، وقد صبروا، وقد نصرهم الله تعالى.

ولمّا كانت سورة مكية فإنّ مواضيعها في العقيدة. جاءت بالإنذار بيوم الحساب، وحذّرت من التكذيب بالرسول صلّى الله عليه وسلّم، وبالقرآن، وأكّدت على التوحيد، ووعظت بالوعد والوعيد، وجاءت للدلالة على عظيم القدرة الربّانية وعلى وفرة نعمه وفضائله على خلقه...

- ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ (1) :

دَنَا زمنُ حساب النّاس على أعمالهم، وقرُب، وهذا يعني أنّ موعد قيام الساعة، وإن طال أمده وِانتظاره عند النّاس، إلاّ أنّه قريب عند الله تعالى لأنّ الزّمن بيد الله عزّ وجلّ. والنّاس وهم المكذّبون به، واللاّهون بمشاغلهم الدنيويّة عن موعده والذين لا يُعِدُّونَ له عدّته، غافلون، وساهون عن الاستعداد له بالعمل الصالح وحسن الإيمان بالله الحقّ. هذه المقدّمة شديدة الوقع على أنفس المؤمنين.

- مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ (2) :

وما جاءهم من خبر عن هذا الموعد من لدن الله تعالى عن طريق الوحي إلى رسوله صلّى الله عليه وسلّم وسُطِّرَ في القرآن ليحدّثهم عنه وليذكّرهم به حتى لا يغفلوا عنه إلاّ اِستمع إليه المكذّبون به، واللاّهون عنه غير مصدّقين به، أو غير مهتمّين به.

- لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ (3) :



ساهية قلوبهم، ومعرضة عن سماع القرآن وتدبّره. وتناجى الذين أشركوا فيما بينهم بالتكذيب بيوم البعث وبيوم الحساب، وقالوا فيما بينهم: أتصدّقون هذا الذي يخوّفكم به، وما هو إلاّ بشر مثلكم، لا يتميّز عنكم بشيء، أفتسمعون له وقد جاءكم بكلام مُمَوَّهٍ، لا حقيقة له، ولا صحّة، والحال أنّكم تبصرون أنّ الّذي يحدّثكم به هو من عمل السّحر، كيف يعود من صار عظاما نخرة وترابا إلى صورته الحقيقية؟

- **قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (4) :**

هذه في تحذير الذين ظلموا وأسرّوا النّجوى، وقالوا عن الرّسول ما ليس فيه ليعلموا أنّ الله تعالى عليم بكلّ قول يقولونه في النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لأنّه سبحانه سميع لكلّ ما يقال في السماء، وكلّ ما يقال في الأرض، لا يخفى عليه شيء من القول، ومن المكر السيّئ في الخفاء لأنّه يعلمه فهو تعالى العليم، فليحذروا ممّا يقولون وإلاّ فضحوا وكشفوا.

- **بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ (5) :**

هؤلاء لم يصدّقوا بالوحي والقرآن فقالوا عنه هي أخلاط أحلام رآها في نومه، وقالوا بل اِختلق محمد ما يقرأه علينا من عنده، بل قالوا هو شاعر (وعندهم الشاعر يهذي بما لا يفعل)، وقالوا: فليأتنا بمعجزة حسيّة نراها كما جاء الأنبياء المرسلون من قبله بمعجزات باهرة.

- **مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (6) :**

لقد سأل من كان قبلهم من الأمم رسلهم معجزاتهم، فلمّا جاءهم ما سألوا كفروا بها فحقّ عليهم العذاب وأهلكناهم. أفتظنّ أنّ هؤلاء المشركين المكذّبين لو جاءهم ما طلبوا هل كانوا يؤمنون ويصدّقون بما جئتهم من قرآن ويصدّقون برسالتك؟ كلاّ! إنّهم من طينة واحدة، لا يؤمنون، ولا يصدّقون. والاستفهام هنا إنكاري.

- **وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (7) :**

وما كان الرّسل الذين جاؤوا قبلك – يا محمد – إلاّ رجالا من البشر مصطفين لحمل رسالة ربّهم إلى أقوامهم، ولم يكن واحد منهم ملكا من الملائكة. وليسألوا أهل العلم من أهل الكتاب هل كان أحد من الرّسل من غير جنس البشر كما يتوهّمون ويتصوّرون؟

- **وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ (8) :**

هذه في الرّدّ على الذين قالوا: (وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ)(الفرقان الآية 7) والمعنى: وما جعلنا الرّسل أجسادا لا يحتاجون إلى طعام، وما جعلناهم من المخلّدين الذين لا يموتون، إنّ الرّسول آدمي يأكل كما يأكل كلّ إنسان ويشرب كما يشربون، وتعتريه العوارض السارّة والعوارض المحزنة كسائر البشر، ويموت كما يموت كلّ إنسان.



- ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ (9) :

ثمّ نصرناهم، وحقّقنا لهم وللمؤمنين معهم ما وعدناهم به من إظهارهم على الكافرين، وأهلكنا المكذّبين والكافرين والمستهزئين. وفي هذه الآية وعدٌ ووعيد معًا.

- لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (10) :

هذه في ترغيب العرب ليؤمنوا بالقرآن، والمعنى: لقد أنزلنا إليكم القرآن بلغتكم، وفيه أخباركم، وهذا شرف لكم وفخر. أفلا تدركون قيمة هذا الفضل، وهذا المجد؟ والاستفهام توبيخي لمن لم يدرك فضيلة تنزيل كتاب الله تعالى بلغتهم.

- وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ (11) :

وهذه في إنذار المعاندين: وكثيرا ما أهلكنا من أهل القرى التي كان فيها الشرك قائما، قصمنا ظهورهم، فلم نترك فيها ظالما حيّا، ثمّ أسكنا في تلك القرى قوما آخرين غير مشركين، فاعتبروا بمصير الأسلاف، واحذروا عقاب الله عزّ وجلّ.

- فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (12) لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ (13) قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (14) فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ (15) :

(البأس) هنا هو عقاب الله سبحانه، والمعنى: تلك القرى حين شعروا بنزول العذاب وعاينوه إذا هم يفرّون من بيوتهم، ويهربون مسرعين من أرضهم وقراهم يبحثون عن ملاذٍ لهم، ولكن لم يكن لهم من عذاب الله ملاذ ولا منجى. (وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ...) هذه الآية للتّأييس من نجاتهم، وليعلموا أنّ ما كانوا فيه من ترف ونعيم وكبرياء لم يعد ينفعهم، لا ملجأ من عذاب الله تعالى ولا منجى من عذابه إلاّ بطاعته وتقواه. والمعنى: لا تهربوا من دياركم لأنّه لا ملاذ لكم من العذاب وعودوا إلى مساكنكم عسى أن يمرّ بكم قوم فيسألونكم عن سبب ما حلّ بكم من ذعر وعذاب لتخبروهم بما كنتم عليه وبما صرتم إليه لعلّهم يتّعظون بكم.

وقالوا لمّا حلّ بهم العذاب يا حسرتنا على أنفسنا، لقد كنّا ظالمين أنفسنا بالكفر وبمعاصينا. وظلّوا يستغيثون ويصرخون حتّى حصدهم الموت وخمدوا فلم يعد لهم صوت ولا حياة.

- وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ (16) :

ولم نخلق السماء والأرض والفضاء الذي بينهما عبثا وباطلا، وبدون غرض مقصود. هذا الخلق لتعرفوا به ربّكم الخالق، ولتعرفوا عظمته، وقدرته، فهذا الخلق من دلائل وجوده لتؤمنوا به، وتطيعوه.

- لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ (17) :

هذه لتنزيه الله تعالى عن اِتّخاذ الزّوجة والولد. والمعنى: لو شئنا أن تكون لنا صاحبة للمؤانسة، وللتّسلية، ويكون لنا الولد لنتلهّى به لاتّخذناه من عندنا إن كنّا نريد ذلك، وإن كنّا فاعلين، ولكنّا لم نفعل.

- **بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (18) :**

بل نرمي بالحقّ على الباطل ليهلكه حتى يهلك ويضمحلّ ويزول. و(الحقّ) هنا هو القرآن، وحججه ومواعظه، ووعده ووعيده، و(الباطل) هو اِدّعاء نسبة الولد، أو الشريك، أو الندّ لله تعالى، وهي الشُّبَه، والمعاصي، والشيطان. وللمشركين والمفترين على الله تعالى الويل والهلاك وسوء المصير ممّا يكذبون على الله سبحانه بغير علم، ولا دليل.

- **وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (19) :**

هذه للدلالة على أنّه تعالى غنيّ عن اِتّخاذ اللهو، فَلَهُ سبحانه كلّ من في السماوات وما في الأرض، فهو غنيّ عن الصاحبة والولد وعن التلهّي بشيء، والذين هم عنده من الملائكة لا يأنَفُون عن عبادته والتذلّل له، ولا يعْيَوْنَ أو يصيبهم الكلل.

- **يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (20) :**

يصلّون بالليل والنّهار، ويذكرون الله وينزهونه دوما، لا يضعفون ولا يسأمون أو يَمَلُّونَ. فالله تعالى غنيّ عن عباده إن كانوا لا يصلّون ولا يسبّحون.

- **أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ (21) :**

واِتّخذ المشركون آلهة مصنوعة من موادّ موجودة في الأرض ومن مكوّناتها، فهل لهذه الآلهة القدرة على إحياء الموتى وبعثهم. كلاّ... فمن العبث اِتّخاذها آلهة تُعبد.

- **لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22) :**

هذه في تنزيه الله عن الأنداد، وهذا التّنزيه قائم على الحجّة العقلية والحجّة الحسيّة المُشاهَدة. لو كان في السماوات والأرض آلهة عدّة لفسدت السماوات ودمّرت، ومثلها الأرض بسبب صراعاتهم على النّفوذ، ولاختلّ نظام الكون تبعا لنزاعاتهم، ولهلك كلّ من فيهما من المخلوقات، ومادامت السماوات والأرض قائمتين، وسليمتين ومن فيهما من الاختلال والاضطراب فلابدّ أن يكون القائم عليهما واحدا، لا شريك له، وواقع الحال يثبت أنهما مستقرّتان، وأنّهما سائرتان في انتظام فالقيّوم عليهما واحد. تنزّه الله سيّد العرش، صاحب الملكوتين: العلوي والسفلي عمّا يصف له المشركون من اِدّعاء الشريك له والندّ.

- **لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ (23) :**



هذه في عزّة الله وجلاله، فإنّه الفاعل لما يريد، يفعل ما يشاء في ملكه، وهو سبحانه المتصرّف في ملكه التّصرّف المطلق، لا يسأل عمّا يفعل لأنّه الأعلى والمتعالى والعزيز الذي لا يُردّ فعلُه، وهو القاهر، قضاؤه نافذ في خلقه لا يُراجع، هو لا يُسأل عمّا يفعل لأنّه السيّد، والمالك، وصاحب المِلْك، وهو المَلِكُ، وذو السلطان، وهو الحاكم القادر، وأمّا خلقُه فهم مغلوبون، ويُسألون عمّا يفعلون، فيجازون بأمره أو يعاقبون بحكمه وعدله....

- أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ (24) :

الاستفهام في هذه الآية للتّعجّب من اِتّخاذ آلهة من دون الله، وهو تعجّب للمبالغة في التوبيخ. والمعنى: أم اتّخذوا آلهة غير الله، قل لهؤلاء المشركين: أظهروا حججكم على ما تدّعون على اِستحقاقها للتّقديس والطاعة والعبادة، وبيّنوا دلائلكم عمّا تقولون. هذا القرآن فيه الأدلّة على اِستحقاق الله تعالى للعبادة والطاعة والتّقديس، وفيه البراهين على وحدانيته، وعلى خلقه، وفيه خبر الأمم السّالفة الذين كذّبوا بوحدانيته، وأشركوا بالله الواحد الأحد وما لحقهم من عقاب الله على كفرهم، وفي القرآن الدلائل والبراهين والحجج، وفي القرى آثار عقابه للمشركين، فماذا عندكم من دلائل وحجج؟ بل أكثرهم جاهلون، ولا علم لهم بالدين الحقّ، وليس لهم أيّ حجّة أو دليل، (فَهُم مُّعۡرِضُونَ) عن سماع آيات الله، وعن تدبّر الأدلّة والحجج، وعن مراجعة أنفسهم ليعلموا أنّهم مخطئون فيما يعتقدون مكابرة وعنادا أو تقليدا لمن سبقهم.

- وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ (25) :

هذه في اِتّفاق جميع رسل الله في دعوتهم للتّوحيد الذي هو الأصل الأوّل، والمبدأ الأساسي لسلامة المعتقد الحقّ. والمعنى: كلّ الرّسل الذين أرسلناهم من قبلك – يا محمد – قد أوحي إليهم بعقيدة التّوحيد: لا إلاه إلاّ الله وحده، فادعوا النّاس لعبادته وحده وطاعته. كلّ الرّسالات اِتّفقت على عقيدة التّوحيد. وهي عقيدة أثبتتها الدلائل العقليّة، والأدلّة الكونية المشاهدة، وأثبتتها الدلائل المنقولة التي جاءت بها الكتب السماوية والرسالات الربّانية، والمشركون لا حجّة لهم ولا برهان عقلي ولا نقلي ولا مشاهد، فهم على باطل.

- وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ (26) :

وإنّ طائفة من المشركين ينسبون لله تعالى الولد كذبا وتوهّما خاطئا، تنزّه الله عن أن يكون له ولد، يقولون الملائكة بنات الله، كلاّ بل الملائكة من خلق الله عزّ وجلّ، هو الذي خلقهم، وهم عباد مكرمون لأنّهم في الملإ الأعلى ولأنّهم يفعلون ما يؤمرون، ولأنّهم يسبّحون لله تعالى بالليل والنّهار لا يسأمون ولا يفترون.

- لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ (27) :

هذه في الملائكة: لا يتكلّمون إلاّ بما أمرهم الله تعالى به، وهم بطاعته وأوامره يعملون، ولا يخالفون له أمرا، ولا يعصون.

- يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ(28):

يعلم الله تعالى ما عملوا وما يعملون في الحياة الدنيويّة، وما هم عاملون في الآخرة. (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ) هذه في الرّدّ على مشركي العرب الذين يدّعون أنّهم يعبدون الملائكة: بنات الله حسب زعمهم لتقرّبهم إلى الله زلفى، فأخبر تعالى بأنّ الملائكة لا تشفع لأحد، إلاّ لمن يرتضيه الله سبحانه من عباده المؤمنين، وإنّ الله لا يغفر لمن يشرك به أحدا. والملائكة شديدو الحذر والخوف من الله عزّ وجلّ. ومن خشي الرّحمان أطاعه طاعة خالصة، ومنضبطة.

- وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ (29) :

ومن يقل من الملائكة إنّي إلاه من دون الله تعالى – والملائكة معصومون من أن يقولوا شيئا من غير أمر الله تعالى – ولكنّ هذه الفرضية للردّ على المشركين ليعلموا أنّ ما يدّعون من أمر التّقرّب بهم إلى الله زلفى هو من اِختلاقهم، ومن الزعم الباطل، من يقل منهم ذلك يجازى بحشره جهنّم لأنّ جهنّم كتبت على الظالمين أنفسهم بالكذب على الله تعالى والافتراء عليه.

- أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (30) :

هذه الآية مع الآيات الثلاث الموالية في مظاهر من آيات عظيم القدرة، وحسن التّدبير، وآيات الفضل على الخلق ليحيوا في أمان، وهذا ليعرف بها العاقل ربّه، فيهتدي للإيمان به، ولا يعرض عن تسبيحه وشكره، وليكشف من نفسه فساد عقيدة كلّ من يعبد إلاها آخر غير الله الخالق، إلاها ليس له في جميع مظاهر الخلق الكونية أيّ دليل على فعله أو فضله، أو إبداعه. فهذه الآيات في الاهتداء للعقيدة السليمة عبر الآيات الكونية المنظورة ودلائلها.

والمعنى: أو لم يشاهد الذين يكفرون بالله الواحد الخالق ويؤمنون بغيره أنّ السماوات والأرض كانتا ملتصقتين، فرفع الله السماء، ووضع الأرض، وفتقهما بأن فصل بينهما بالفضاء. من فعل هذا غيره؟ وهو الله الذي جعل الماء أصل الحياة لكلّ شيء، وأهمّ عنصر في تكوينه، ولنموّه، أفلا يؤمنون بالخالق وبالمنعم عليهم ليحيوْا. والاستفهام للتّوبيخ.

- وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (31) :

والله الحقيق بالعبادة هو الذي جعل في الأرض جبالا ثابتة راسخة كيلا تميل بمن عليها من الخلق، ولا تضطرب، وجعل للنّاس فيها طرقا واسعة ليسلكوها عند سيرهم فيها، وهذه آيات لمن يتدبّرها بعقله، وببصيرته يهتدي بها إلى ربّه الحقّ.

- **وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ (32) :**

والله هو الذي جعل لكم السماء كأنّها سقف للبيت لحفظ الأرض من عاديات السماء، وما فيها من شُهب وغيرها. والنّاس عن تدبّر فضائلها وأهمّيتها وإدراك حكمة تقديرها غافلون، ولا ينظرون إلى ما في السماء من إيجاد للشمس والقمر، وإلى ما يجري فيها من سحب، ورياح لواقح، عن كلّ هذه الدلائل العظيمة مُتَوَلّونَ عن تدبّرها.

- **وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ (33) :**

وهو تعالى الذي خلق الليل لتسكنوا فيه، والنّهار مبصرا، وخلق لكم الشمس نورًا، والقمر لتعلموا عدد السنين والحساب، وللقمر مساره، وللأرض مسارها، وكلّ ما في السماء من كواكب تسبح في فضاء السماوات. فآمنوا بالله واعبدوه وأطيعوه، ولا تتّخذوا إلاها آخر غيره ليس له عليكم أيّ فضل ونعمة، ولم يخلق في هذا الوجود شيئا، ولا سلطان له على شيء في السماوات ولا في الأرض، فاعبدوا الله وأشكروا له.

وهذه من الآيات التي يستدلّ بها على أنّ القرآن وحي من الله تعالى إلى رسوله النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لما فيها من دلالات علمية وإشارات إلى مظاهر كونية لسير الكواكب والمجرّات ما يزال العلماء يكتشفون على مرّ الأيّام الجديد في مواقعها وأنظمتها في الحركة والسير، وممّا يزيد هذا تأكيدا اِستعمال لفظ "الفَلَك" الذي يعني مدار النّجوم، ولم يكن هذا اللفظ معهودا ولا معروفا عند العرب قبل التّنزيل. فهذه الآيات مع آيات أخرى في المظاهر الكونية دلائل على أنّ هذا القرآن معجز إلى الأبد. وما يزال علماء العصر في الفلك وعلم الطبيعة وعلم الأحياء وعلوم البحار يكتشفون أنّ ما يكتشفونه من مظاهر عجيبة في الخلق قد سبقهم القرآن في الإشارة إليها.. وما ينكر هذه الحقيقة إلاّ جاحد.

- **وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ (34) كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ (35) :**

الآيتان في خَلْق الموت. قال تعالى: (ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ)(الملك الآية 2). والموت في القرآن الكريم مرحلة اِنتقالية بين حياتين الأولى دنيوية، فانية، وهي حياة اِبتلاء بالشدّة أو الرّخاء، بالعسر أو اليُسر، بالخير والشرّ فتنة. فمن صبر في شدّته وعسره، وفي يسره ورخائه على أداء الطاعات ومسك نفسه عن اِتباع الأهواء والشهوات، وآمن وأحسن عملا فإنّه مبشّر بالفوز بالنّعيم المخلّد في الحياة الثانية التي هي حياة الخلود، وهي حياة جزاء أو عقاب، حياة تكريم أو حياة مؤاخذة. ومن أوتي خيرا ونعيما ورخاءً ويُسرا فشكر، وصدق في إيمانه، وكان من المحسنين فاز أيضا بالنعيم المقيم المخلّد في الحياة الأخروية. وأمّا من بطر بالنعمة وكفر وجحد وأفسد في الأرض وظلم خسر آخرته، وأقام مخلّدا في الجحيم خاسئا حسيرا، وكان شقيا.

ومن عجيب أمر الغافلين من النّاس أنّهم يخافون الموت ويكرهون وقوعه، وهو واقع بهم حتما عند حضور آجالهم، ويغفلون عن ذكر الحساب، وهم الأحقّ بالخوف منه لأنّ الشدّة الحقّة هي عند الوقوف عند الميزان، وعند عرض الصحف، وإنتظار المآل. وليس من حالٍ أسوأ مِن حال من أنكر البعث، وكذّب بالحساب، ولم يصدّق بيوم الدين للحساب. وأمّا المؤمنون فإنّهم لا يهابون الموت لأنّهم يعلمون أنّه نومٌ بعده يقظة للجزاء أو العقاب، وإنّهم يداومون على الطاعات طمعا في النّجاة من شدّته يومئذ، ورغبة في الفوز بنعيم الآخرة.

والمعنى: لا خلودَ لأحدٍ من البشر في حياته الدنيوية. لم يخلّد أحد قبلك – يا محمد – ولا يخلّد أحد بعدك. وإذا كان الخطاب موجّها للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لتسليته عمّا يلاقيه من معاناة ومشاقّة من قومه، فإنّه معْنِيٌّ به كلّ إنسانٍ ظُلم على هذه الأرض. وأمّا الذين ظلموك فإنّهم غير مخلّدين وإن مِتَّ قبلهم، سيموتون، وسيأتون يوم القيامة للحساب، وعندئذ يفصل بينكم بالحقّ. كلّ نفس بشرية ستموت، ولا مفرّ لأحد من الموت إذا حضر أجله المكتوب. ونمتحنكم في دنياكم بالخير والشرّ لاختبار صبركم على البلاء وعلى أداء الطاعات، وشكركم عند الرخاء ومقاومة الأهواء والشهوات، ثمّ إلى الله ترجعون يوم القيامة لمحاسبتكم على أعمالكم خيرا أو شرّا، فمن آمن وعمل صالحا وشكر فاز بالنّعيم المخلّد. ومن كفر وجحد وبطر خسر آخرته وكان من الهالكين.

- وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ (36) :

هذه لتسلية النّبيّ عمّا يُلاقيه من قومه من هزء به لدعوتهم لترك آلهتهم التي يعبدون، وليعبدوا الله تعالى الواحد الأحد. والمعنى: وحين يراك الكافرون المشركون يتّخذونك في مجلسهم بالسخرية والتندّر، ويقولون: أهذا الذي يتعرّض لآلهتكم بالسوء والاحتقار والذمّ، والحال أنّهم لا يدركون ضلالتهم حينما يكفرون بالرّحمان، ويتندّرون بالوحي، والبعث والوعيد.

- خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (37) :

جُبِلَ الإنسان على إستعجال في طلب الأشياء حتّى وإن كان وعيدا كأنّه خلق في سرعة، سأوريكم – أيّها المكذّبون بالإنذار بالعقاب دلائل صدق الإنذار فلا تتعجّلون، وهذه في الردّ على الهازئين بالرّسول، وبإنذاره وبالوعيد.

- وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (38) :

ويقول هؤلاء المكذّبون بالوعيد متى يأتينا هذا العذاب الذي تتوعدوننا به إن كنتم صادقين. والاستفهام هنا للاستبعاد لأنّهم غير مصدّقين بوقوعه. وقد جاءت الجملة (إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ)

خطابا موجّها لجميع المؤمنين الذين اتّبعوا الرسول صلّى الله عليه وسلّم، هؤلاء لم يسلموا أيضا من الهزء بهم.

- لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ(39) :

لو يعلم الكافرون حين لا يستطيعون ردّ النّار عن إحراق وجوههم وتشويهها، ولا يقدرون على منعها من إصابتها، وإصابة ظهورهم بالحرق، وحين لا يجدون أحدا يدفع عنهم هذا العذاب، أو يشفع لهم لإنقاذهم من النّار، وقتئذ سيعلمون يقينًا أنّ وعيد الله تعالى حقّ.

- بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةً فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ (40) :

بل إنّ الساعة آتية لاشكّ في ذلك، وستأتيهم فجأة وبغتة، فلا يملكون ردّ النّار عن وجوههم وظهورهم، وصرفها عنهم، وعندئذ لا يُمهلون، ولا يؤخرون لتوبة واِعتذار.

- وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ (41) :

هذه لتسلية النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ليعلم أنّ ما يُلاقيه من هزء قومه قد لقيه جميع الرّسل من قبله بمثله. والمعنى: لا تأبه – يا محمد – باستخفاف الكافرين من الوعيد، فقد اِستهزأ أمثالهم من قبلهم برسلهم، وبما جاؤوهم به من الوعيد، فأحاط بالهازئين العذاب الذي أنذروا به فهلكوا.

ولم تتوقّف الإساءة للرّسول صلّى الله عليه وسلّم عند ذاك العصر، بل كلّما وهن المسلمون وضعُفوا، وغُزُوا في ديارهم عَمَد أعداؤهم للإساءة لنبيّهم لإغاظتهم. حدث هذا عبر التاريخ الإسلامي عند غزو التّتار، ثمّ عند غزو المغول لأرض العراق، ثمّ عند غزو الفرنجة لفلسطين، ولمزيد التّشفّي في المسلمين أحرقوا الصحف والمساجد. وفي عصرنا الحاضر أقدم رسام على تصوير الرّسول على أنّه إرهابي في رسم كاريكاتوري ساخر، وما عمدوا إلى ذلك إلاّ لأنّهم يعلمون أن الرّسول صلّى الله عليه وسلّم عند المسلمين رمز للدين الإسلامي، وأنّ له مكانة أثيرة وعظيمة وجليلة في قلوب جميع المسلمين. وإنّ الهزء بالرّسول صلّى الله عليه وسلّم عند الله تعالى من الكفر، لذلك توعد الهازئين به بالعذاب بالسيف أو بالصاعقة في دنياهم، وبعذاب أشدّ وأبقى في آخرتهم.

- قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۗ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ (42) :

قل للمشركين: من غيرُ الله الرّحمان يحفظكم من العاديات باللّيل والنّهار؟ لا أحد غيره؟ ولكنّهم عن معرفة فضل الله عليهم منصرفون، وغافلون.

- أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ (43) :

هذه في إقناع المشركين بأنّ آلهتهم التي يعبدون لا تستطيع أن تنفعهم بشيء إذا أصابهم عذاب من الله عزّ وجلّ. والمعنى: هل عندهم آلهة تستطيع أن تنقذهم من عذاب الله إن جاءهم، أو تستطيع أن تدفعه عنهم، وتحميهم منه. آلهتهم التي يدعون لا تستطيع أن تدفع عنها الأذى إذا أصابها، وليس لها جِوارٌ ومنعة عند الله عزّ وجلّ.

- بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ **(44)** :

إنّ الذي حمل هؤلاء على الاستهزاء بوعيد الله هو اِغترارهم بالإمهال فحسبوا أنفسهم آمنين من أخذهم بعذاب من الله عزّ وجلّ، وطال بهم العمر وهم في أمان ونعمة، فظنّوا أنّهم مانعون من الوعيد. ألا يلاحظون ويشاهدون أنّ أرض الكفر تُنْقَصُ من أطرافها، وتخسر شيئا فشيئا حتى تضيق على أهلها، وأنّ الإسلام ينتشر، وتتّسع رُقعتُه. أفستكون لهم الغلبةُ مع هذا التّناقص والانحسار، أم هم الأخسرون، والمسلمون هم الغالبون بدخول النّاس في دين الله أفواجا.

ولعلماء الأرض، وعلماء الفلك أقوال وملاحظات جِدُّ قَيِّمَةٍ ومُبهرة في تفسير هذه الآية: (أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ)، ولهم آراء في اِنحسار الأرض بسبب ظهور عوامل بيئية متعدّدة مثل التصحّر الزّاحف على الأرض الخصبة، وبسبب عوامل أخرى بشرية كالتّوسّع العمراني... ولهم في حركة الأرض ودورانها واِقتراب بعض الكواكب منها أقوال تدلّ على الإعجاز العلمي للقرآن الكريم.

- قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ **(45)** :

أخبر هؤلاء المكذّبين أنّك لا تنذرهم بشيء من اِجتهادك، أو من تخوّفك عليهم، وإنّما أنت تنذرهم بما بلغك من الوحي، ومن كان به صمم، فلا يسمع دعوته للحذر من غضب الله، ودعوته للاهتداء حتى لا يصيبه مكروه فإنّه لا ينتفع بما تنذره به، فدَعْهُ لشأنه، وسيأتيه صدق الخبر يوم يرى ما أصمّ سمعه عنه.

- وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ **(46)** :

ولو أنّ شيئا يسيرا، ضئيلا، أو دفعة ضعيفة من عذاب الله مسّهم مسّا لصاحوا من الألم الشديد، وعندئذ يقولون يا حسرتنا على أنفسنا، لقد ظلمنا أنفسنا بالكفر بالله وبوعيده.

- وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ **(47)** :

هذه الآية في إثبات أمرين: أولهما: عرض العباد على المحاسبة على أعمالهم بين يدي الله أحكم الحاكمين يوم الدين، وهذا أمر لا ريب فيه، وقائم بلا شكّ، فمن أنكر هذا الأمر فما أعظم

خيبته يوم يفاجأ به. وأمّا الأمر الثاني: فإثبات أنّ الفصل في هذا اليوم قائم على العدل وأساس العدل: الحكم بالقسط. وممّا يُستفاد من الآية أنّ العدل قائم على أربعة عناصر: أول هذه العناصر: عرض العباد وبأيديهم سجلاّت أعمالهم على المحاسبة بميزان العدل الدقيق في تقييمه. وثانيها: دقّة الحساب، فإن ميزان التّقييم لا يضيع ميزان حبّة من خردل لا تكاد تُوزن لخفّتها. وثالث العناصر: أنّ الحكم قائم بالقسط، والقسط هو إعطاء كلّ ذي حقّ حقّه. ورابع العناصر: هو أنّ الحاكم هو الحاكم العدل، هو الله سبحانه الذي لا يضيع أجر من أحسن عملا.

والمعنى : ويوم يقوم النّاس للحساب تقام موازين أعمال العباد ليُعرض عليها جميع الخلق دون استثناء، ويومئذ يقضى في الناس بالقسط الّذي لا يضيع فيه ميزان حبّة من نبات الخردل الّتي يذرّها الرّيح لخفة وزنها ليؤتى بمثل ميزانها أجره، وهذا ممّا يدل على دقّة الحساب، والوزن بالقسط، وهذا من أرقى وجوه العدل، ولا يظلم يومئذ أحد في ثوابه وأجره على عمله إذا جاء بإيمان وعمل صالح لأنّ الحاكم القاضي هو أحكم الحاكمين، وكفى به حسيبا لأنّه الحكم العدل. قال تعالى (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ)(الزلزلة الآيتين 7-8).

- وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (48) ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (49) :

ولقد آتينا موسى وهارون عليهما السلام التوراة التي فيها أحكام ومواعظ فارقة بين الحقّ والباطل، وتنير سبيل الرّشاد والهداية، وتبدّد ظلمة الجهالة والحيرة، وفيها موعظة لأهل التقوى الذين يخافون ربّهم في سرائرهم، وخلواتهم من غير مراء، وهم وَجِلون وخائفون من أهوال يوم القيامة، وأهوال الحساب وشدّته.

- وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ (50) :

وهذا القرآن الذي جاءكم هو (ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ) فيه مواعظ ترفع عنكم حجاب الغفلة، وهو مبارك لتعدّد منافعه وكثرة خيراته لأنّ البركة تعني زيادة الخير، ومن بركته أنّ كلّ من يقرأ منه حرفًا يَنَلْ أجرا وثوابا مضاعفا، وأمّا من يتدبّر آياته فثوابه أعظم، ناهيك عن الذي يهتدي بهديه ويعمل بأحكامه، ويتّعظ بمواعظه، فإنّ مناط تكريمه في الدرجات العُلا. وهو كتاب أنزله تعالى وحيًا على عبده النّبيّ الرّسول المصطفى محمد بن عبد الله صلّى الله عليه وسلّم، أفتكذّبون به، وتتكرون على رسولكم الصادق الأمين وحيه من عند الله عزّ وجلّ؟ والاستفهام لتوبيخ المكذّبين.

- وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ (51) :

هذه إلى غاية الآية 73 في نصرة إبراهيم عليه السلام، ولقد آتينا إبراهيم الاهتداء وكمال العقل، ووضوح البصيرة، والصلاح في الدّين والعمل والرأي وحسن التدبير من قبل نبوّته، وتكليفه



برسالته، ووفّقناه للنّظر والاستدلال لمّا جنّ عليه الليل، وكنّا عالمين بأنّه أهل لإيتاء الرّشد وصالح النّبوّة.

- إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ (52) :

وأُذكر إذ قال لأبيه آزر وقومه في إستغراب ما هذه الصور الشبيهة بخلق من خلق الله التي تقومون على عبادتها وتقديسها؟

- قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ (53) :

فما كان لهم حجّة على ألوهيتها سوى تقليد آبائهم الذين كانوا يقدّسونها.

- قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ (54) :

فعبّر لهم إبراهيم عن رأيه في عبادتهم وآبائهم لها: بأنّهم في خسران لأنّها جمادات لا تنفع ولا تضرّ.

- قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ (55) :

فقال له محاوروه: أهذا معتقدك الحقّ، أن تكفر بها، أم أنت تقول هذا للمزح والعبث؟ وإستفهامهم للاستغراب واللوم معًا.

- قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (56) :

قال إبراهيم: بل ربّكم الذي خلق السماوات والأرض وأبدعهنّ من غير مثال سابق، وأنا أشهد وأقرّ بأنّه هو الله الذي يستحقّ العبادة، ولا أحد سواه. وهذا من رشده عليه السلام ومن وضوح بصيرته، وكمال عقله.

- وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ (57) :

وإنتقل إبراهيم من تغيير المنكر باللسان إلى تغييره باليد، فأقسم أن يحطّم لهم أصنامهم عندما ينصرفون عن معبدهم إلى خارج المدينة في يوم عيد عندهم.

- فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ (58) :

ولمّا خرج القوم إلى البرية، وتركوا المعبد، وإختلى إبراهيم بالأصنام قام بتحطيمها جميعها بفأسه إلا كبيرها وعظيمها، وجعلها حجارة متناثرة عسى أن يرجع القوم عن عبادة الأصنام، أو قصد أن يرجع القوم إلى صنمهم الأكبر ليسألوه عمّن فعل هذا التحطيم بآلهتهم.

- قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (59) :

ولمّا عاد القوم إلى المعبد، ورأوْا أصنامهم مكسّرة وقطعا متناثرة، وقيل رأوْا فأسا في عنق الصنم الأكبر، تساءلوا فيما بينهم عمّن فعل هذا التحطيم بآلهتهم، وتوعدوه بأقسى العذاب لأنّه من الظالمين.



- قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتًى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ (60) :

قال جمع منهم لقد سمعنا من قبل فتًى يسمّى إبراهيم يعيب هذه الآلهة ويذكرها بسوء.

- قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ (61) :

قال زعماؤهم وكبراؤهم: أحضروه على مرأى من النّاس لعلّهم يشهدون على فعلته، وليشهدوا عقوبته العلنية نصرة للآلهة، وتأديبا له، وتحذيرا لكلّ من يدبّر سوءًا لها.

- قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ (62) :

فلمّا أحضروه سألوه: أفعلت هذا التحطيم بآلهتنا؟ إستفهام للاستجواب.

- قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ (63) :

قال إبراهيم ليقيم عليهم الحجّة بأنّ آلهتهم لا تسمع ولا تجيب، ولا تستطيع نفعا ولا ضرّا بذاتها ناهيك عن إجراء النّفع لغيرها أو دفع ضرّ عنه، قال: بل كسّرها كبيرهم هذا غضبا عليها، فاسألوا آلهتكم عمّن فعل بهم هذا الفعل إن كانوا ينطقون.

- فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (64) :

فعاد بعضهم باللّوم على أنفسهم إذ كانوا يعبدون حجرا جامدا لا ينفع ولا يضرّ، وقال آخرون للقائمين على المعبد إنّكم أنتم الظالمون إذ تركتم آلهتنا بغير حراسة.

- ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ (65) :

ثمّ رجعوا إلى الباطل عنادا وخوفا من السادة بعد برهة من الزّمن من أثر قيام الحجّة عليهم، وفي تدبّر كيف الخلاص من المأزق فقالوا لإبراهيم: لقد علمت أنّ آلهتنا لا تنطق، وأنت من فعلت بها ما نراه.

- قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ (66) :

ومن نباهة إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم وشجاعته، وحسن إستغلاله للظرف، وإجتماع الأشراف والأسياد وعبدة الأصنام من حوله أنّه لم يفلت الفرصة في تنبيههم إلى أنّ الصفات المهمّة لاستحقاق الألوهية أن يكون الإلاه قادرا على إيصال النّفع لعُبّادِه، ودفع الضرّ عنهم، فإن لم يكن كذلك فإنّه غير حقيق بالألوهية وبالتّعبّد ناهيك عن أن يكون عاجزا عن دفع الضّرّ عن نفسه فقال لهم واعظا ومنبّها: أفتعبدون من دون الله الخالق ما لا يفيدكم بشيء من النّفع ولا يدفع عنكم الضرّ؟ والاستفهام للاستخفاف بهذه العبادة، وبألوهية ما يعبدون، وإستعمل إسم الموصول لغير العاقل (مَا) لآلهتهم للتحقير.

- أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ (67) :

ثمّ أردف قائلا: (أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ) للتعبير عن اِستخفافه الواضح بآلهتهم التي يعبدون، وختم كلامه بالاستفهام (أَفَلَا تَعۡقِلُونَ) للتّوبيخ عن تعطيل عقولهم، بما يدلّ على اِتهامهم بالجهل والغفلة، لا يفعل هذا في وسط الجموع الذين حضروا لمحاكمته إلاّ شجاع، قويّ الحجّة، واثق بنفسه وبوضوح بصيرته، ولا يخشى أحدا مهما كان مركزه إزاء قوّة إيمانه بأنّه له من الله ظهيرا. وقوله (أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ) يعني سُحْقًا لكم ولآلهتكم، وهذا قول شديد الأثر على النّفس.

- قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ (68) :

وحكم نمرود الملك الحاكم وملؤه على إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم حين سمعوا مقاله، وعلموا أنّه هو الفاعل لتحطيم آلهتهم بإحراقه على أعين النّاس ليرهبوا من يتجرّأ على آلهتهم بالسوء من القول أو بالسوء من الفعل، ولإعدام إبراهيم نصرة للآلهة (إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ) هذه الجملة لتحفيز القوم على تنفيذ الحكم في إبراهيم دون تشفّع فيه نُصرةً لآلهتهم، واِنتقاما لها.

- قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ (69) :

وأسرع القوم في تنفيذ أمر نمرود، أوثقوا إبراهيم في عمود خشبي وأحاطوه بالحطب، وبما يصلح للإيقاد، ثمّ أضرموا النّار في السرادق من الأخشاب الذي أحاطوه بإبراهيم. وأمر الله سبحانه النّار بأن لا تحرقه، وبأن لا تؤذيه، فلم تحرق النّار إلاّ وِثَاقه، ولم يُصَبْ كذلك بحرّها، فكانت بردًا وسلامًا على نبيّ الله، ولمّا خمدت النّار المستعرة خرج إبراهيم منها سليما معافى على أعين الحاضرين الشهود.

- وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ (70) :

هذه الآية هي محلّ الاعتبار والتدبّر ممّا تقدّم من عرض هذه النّبذة من قصّة إبراهيم. وجه الاعتبار فيها هو في إقامة الدّليل المشاهد على أنّ ربّ إبراهيم قد نصر عبده، وحفظه من السوء، ومن المكروه ومن كيد أعدائه ومعارضيه، وكشف قدرته على دفع الضّرّ عن المؤمن به بسلب المادّة خصائصها الطبيعيّة المعلومة ومؤثّراتها واِستبدالها بأضدادها حفظا لعبده، ورحمة به. وأمّا الآلهة التي تُعبد من دون الله سبحانه فإنّها لا تقدر على شيء لحفظ ذواتها من الإضرار بها وتدميرها، ناهيك عن امتلاك القدرة لحماية معبوديها وحفظهم من الضّرّ والهلاك، ولذلك من السخف وعمى البصيرة ومن الضلال والجهالة أن تُعبد، وتُقدّس، وتُدعى.

وهذا ممّا أدركه الشهود الذين حضروا المحرقة نصرة لآلهتهم، فلمّا خرج إبراهيم من المحرقة سليما معافى لم تمسسه النّار بسوء علموا أنّ ما كان يدعو إليه إبراهيم هو الله الحقّ الحقيق بالعبادة والطاعة والتقديس. وأمّا ما سواه فلا ينفع ولا يضرّ، لذلك لا يصلح لأن يكون معبودا، ولا يستحقّ



الألوهية. كانت هذه الحجّة مشاهدة عِيَانا، وكذا اِنقلب الشّهود من أنصار للآلهة إلى أتباعٍ لإبراهيم يؤمنون بالله الذي يدعو إليه ويكفرون بما وراءه من آلهة من أصنام تصنع من حجارة صمّاء، أو تكون أوثانا تُنْحَتُ من خشب، وبهذا خسر دعاة نصرة هذه الآلهة الذين أرادوا الكيد لإبراهيم بإحراقه على أعين النّاس لتأديبه، واِنتصر ربّ إبراهيم عليهم بإنجاء عبده إبراهيم من الحرق على أعين الأشهاد. واِنهزمت آلهتهم ثانية بعد تحطيمها في الأولى، وخسر أنصار الآلهة أنصارهم من أتباعهم الذين صاروا أتباعا لإبراهيم، وكافرين بهم وبآلهتهم، وبذا اِنقلب السحر على الساحر.

- وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ (71) :

وأخرجنا إبراهيم وزوجه، وابن أخيه من قريتهم حفاظا لهم من كيد الكائدين إلى أرض الشام التي باركناها بوجودهم، والتي باركناها لجميع المقيمين فيها والمارّين بها لوفرة خيراتها ولما فيها من ظروف حياتية تجعل العيش فيها مُستطابا.

- وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ (72) :

وأكرمنا إبراهيم وزوجه سارّة بإنجاب إسحاق رغم عقم زوجه وتقدّمها في السنّ، ثمّ ألحقنا بهم يعقوب من إسحاق، وهبناه لهما (نَافِلَةً) عطاءً زائدا عمّا سأل، فصار له الابن والحفيد، وزدنا في إكرامهم بأن جعلناهم جميعا (صَٰلِحِينَ) مؤمنين صادقين بارّين يعملون صالحا وجعلنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أنبياء مصطفين.

- وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ (73) :

هذه في بيان وجوه صلاح إبراهيم وابنه وحفيده. جعلهم الله تعالى قدوة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويرشدون النّاس لعبادة الله الحقّ وطاعته والعمل بشرعه، وجعلهم أنبياء مكلّفين بإقامة شريعة الله في أقوامهم، وكانوا مداومين على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وكانوا مخلصين في عبادة الله عزّ وجلّ وصادقين فيها.

- وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ (74) وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (75) :

الآيتان في إنجاء لوط عليه السلام برحمة من الله تعالى، وهما في تكريمه، وهذا للتأكيد على أنّ الله تعالى ناصر عباده المؤمنين الصالحين ومنجّيهم من كيد الأعداء، وهذا من حفظ الله وهو الحفيظ سبحانه، ورحيم بعباده المؤمنين. والمعنى: ولقد آتينا لوطا حكمة ومعرفة بشريعة الله تعالى، ولقد أخرجناه من قرية سدوم التي كان أهلها خارجين عن طاعة الله بإتيان الفاحشة المنكرة التي يأباها العقل، والعُرف، والشرع، وذلك بإتيان الذكران دون الإناث. وشمله الله تعالى برحمته، فآتاه النّبوّة، إنّه كان من عباده المؤمنين الصادقين العاملين الصالحات.



- وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ (76) وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ (77) :

وأذكر خبر نوح عليه السّلام، كان نبيّا قبل إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب، كان قد شكا ربّه أنّه مغلوب في قومه، ودعا ربّه أن ينصره عليهم، فنجّاه الله تعالى والمؤمنين معه من الغرق، ومن تكذيب قومه وهزئهم به، وهكذا نصره تعالى من قومه الذين كانوا جبابرة، وقد كذّبوا برسالة الله إليهم، وبوعيده، وكانوا لا يحتكمون إلى قانون أو شرع، وكانوا أوائل الذين ابتدعوا عبادة الأصنام، وابتدعوا الشّرك، وكانوا يحتقرون المستضعفين، فأغرقهم جميعا، صغارا وكبارا، وأماتهم. وهكذا ينجي الله عباده المؤمنين، ويعاقب الكافرين المشركين فلا تقدر لهم آلهتهم على شيء لنصرتهم. والغرض المقصود من عرض هذه النبذة وما سبق موعظة المشركين من قوم قريش ليؤمنوا بالله وحده، ويتركوا الشّرك.

- وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ (78) :

هذه إلى غاية الآية 82 في إثبات أنّ الله سميع لعباده المؤمنين ومطلع على أوضاعهم، فإذا تحيّروا في أمر أرشدهم للّتي هي أحسن، وهو تعالى لهم حافظ. وهذا للتّرغيب في الإيمان. والقضية التي تعرضها الآية هي قضية دخول غَنَمِ أحد الرعاة بلا راعيها حقل فلاح فيه زرع أو كروم (نَفَشَتْ فِيهِ) أي دخلته ليلا فَرَعَتْ فيه، وهمَلت فيه بالنّهار فأفسدت الحقل، فاختصم الفلاح لداود ومعه الرّاعي، فقضى داود بأن يدفع الغنم لصاحب الحرث، وأن يدفع الحرث لصاحب الغنم، وذلك لأنّه رأى إنتاج الحرث يقاوم الغنم، فلمّا خرج الخصمان من مجلس داود، كان سليمان عند الباب، فلمّا علم بما قضى بينهما داود، طلب منهما الانتظار، ودخل على أبيه، فقال: يا نبي الله، إنّك حكمت بكذا وكذا في الخصمين، وإنّي رأيت ما هو أرفق بالجميع. قال: وما هو؟ قال : ينبغي أن تدفع الغنم إلى صاحب الحرث فينتفع بألبانها وسمونها وأصوافها، وتدفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه، فإذا عاد الزّرع إلى الحال التي أصابته الغنم وأفسدته أعاد الحقل لصاحبه في السنّة المقبلة، وردّ صاحب الحقل الغنم لصاحبها. فقال داود: وُفّقت يا بنيّ، لا يقطع الله فهمك. وردّ داود الخصمين فقضى لهما بما قضى به سليمان. وهذا معنى الآية، وكان الله تعالى شاهدا لحكمهما ومطلعا عليه.

- فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ (79) :

فأرشدنا سليمان للحكم الصائب. ولقد آتينا كلاّ منهما الحكم والحكمة والعلم بالشريعة. قال الحسن: لولا هذه الآية لرأيت أنّ القضاة هلكوا، ولكنّه تعالى أثنى على سليمان بصوابه، وعذر



داود باجتهاده، والاجتهاد في القضاء، وفي الأحكام الشرعية التي ليس فيها نصّ صريح، ولا قياس موثوق مطلوب شرط أن يبحث المجتهد عن نصّ يعتمد، فإن لم يجد نظر في المسألة نظرة المؤمن المتّقي، والموثوق بعلمه، فمن صادف العين المطلوبة في المسألة فهو المُصيب على الإطلاق، وله أجران: أجر في الاجتهاد، وأجر في الإصابة، ومن لم يصادفها فهو مصيب في اِجتهاده، مخطئ في أنّه لم يصب العين فله أجر، وهو معذور، فإن تبيّن له بعد ذلك خطؤه وجب عليه الرجوع في القول. والمقصود بإصابة العين المطلوبة اِمتلك مَلكة الفهم، وكان من أهل الفراسة والفطنة، والله يؤتي فضله من يشاء، والله ذو الفضل العظيم (انظر صحيح مسلم وشروحه باب الاجتهاد في قوله : "إذا حكم الحاكم فاجتهد ثمّ أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثمّ أخطأ فله أجر") (وانظر تفسير القرطبي ج.11 ص 307-319).

وكان داود عليه السلام حين يمرّ بالجبال يسبّح تسبيحا تجاوب به الجبال بالترجيع، وكذلك الطير فإذا سمعت تسبيح داود غرّدت معه (وَكُنَّا فَٰعِلِينَ) وهذا من تسخير الله تعالى ومن فعله كرامة لداود عليه السلام، والله تعالى لا يعجزه شيء.

- **وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ (80) :**

وعلّمنا داود صناعة الدروع، وهو لباس حربي ليقيكم الطعن إذا لقيتم أعداءكم، وليحفظكم من إصابتكم بالسلاح في حروبكم، فاشكروا الله تعالى على فضله، ولا تكونوا من الجاحدين.

- **وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ(81):**

وسخّر الله سبحانه الرّيح لسليمان لتهبّ بأمره حتى تبلغه المقصد الذي يريده حين يركب سفينته ومعه سفن جنده تفضّلا من عنده تعالى وتكريما. ثمّ تردّه إلى الشّام بغير عناء. وقد كان سليمان رجلا يحبّ السفر بالبحر، وزيارة المدن. وكان الله تعالى عليما بتدبيره، وبجميع أمره، فييسّر له مراده.

- **وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ(82):**

وسخّر الله تعالى له الشياطين، منهم من ينزلون في أعماق البحار لاستخراج النّفائس، ومنهم من يعمل أعمالا أخرى أقلّ مشقّة من الغوص كأعمال البناء وفي الصناعة، كانوا يصنعون القوارير والصابون... وكانوا بتقدير من الله تعالى ممنوعين من الزيغ عن أمر سليمان، وكانوا مُراقَبِين لمنعهم من الإفساد، ومن الهروب.

- **وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (83) :**

وأذكر إذ دعا أيّوب عليه السلام ربّه حينما أصابه المرض والإعياء والهزال فشكا له ضعفه وطلب رحمته وهو تعالى أرحم الرّاحمين.

- فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ (84) :

فأستجاب الله – وهو أرحم الرّاحمين –لدعائه، فلطُف به، وردّ له عافيته، وأصلح له زوجه فأنجبت له ذرّية بمثل ما كان عندهما، وعوّضهما من مات من ذرّيتهما تكريما من الله وهو الكريم، ولطفا منه وهو اللطيف، ورحمةً، ولتكون سيرته عبرة للمؤمنين ليعلموا أنّ الله لطيف بعباده المؤمنين يجيب أدعيتهم ويلطف بهم. وهذا محلّ العبرة من ذكر أيّوب ها هنا.

- وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ (85) وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (86) :

الآيتان في ثلاثة من الصالحين والصابرين: أثنان منهم نبيان هما إسماعيل وإدريس، وثالثهم هو ذو الكفل، كان رجلا صالحا تكفّل لبني قومه بالقضاء بينهم بالحقّ فسمّي بذي الكفل. كانوا صابرين على القيام لصلاة الليل، ومن الصابرين على الصيام، ومن الصابرين على النّاس، فلا يغضبون. أدخلهم الله تعالى في رحمته تكريما لهم على صبرهم ولصلاحهم. ومحلّ الاعتبار أن يكون المؤمن متسامحا، عفوّا، صابرا على أذى النّاس وعلى الطاعات ليكون من الصالحين فينعم برحمة ربّه.

- وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (87) فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (88) :

(ذو النون) هو يونس بن متى عليه السلام، ويعرف كذلك بصاحب الحوت، أرسل إلى أهل قرية (نينوى) بالعراق، وقد قام في قومه داعيا إلى التوحيد، وإلى نبذ الشرك، ودعاهم إلى طاعة الله والعمل بشرعه فشاقّوه، وأغضبوه، فخرج من القرية غاضبا وحانقا على قومه من كفرهم وعنادهم من غير أن يأذن الله بالهجرة (فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ) هذه الجملة تحيّر المفسّرون في تفسيرها، وأشكلت عليهم إذ كيف يظنّ نبيّ أن لن يقدر الله عليه فتأوّلوها تأويلات متعدّدة، ولعلّ أسلمها أنّه قد وقع في نفسه لمّا أُلْقِي به في البحر، وهو مضطرب، وفي عمقه ثمّ هجم عليه الحوت والِتقمه أنّه هالك لا محالة ومُنْتَهٍ، ولا نجاة له من هذه المهالك، ونسي من إضطراب حاله قدرة الله تعالى على إنجائه مهما تعقّدت الظروف وصعبت، وأحاطت به، وإنّه في التصوّر البشري لا يمكن لأيّ إنسان مهما أوتي من قوة بدنية على السباحة في المخاطر أن يتصوّر أنّه سينجو إذا أُلْقِيَ به في لجج البحر الهائج الّذي يعوم فيه الحوت الكبير، ولكنّ قدرة الله تعالى سبحانه خارقة تخترق كلّ النواميس الطبيعية.



وسبب إلقاء يونس في البحر أنّه لمّا غادر القوم ركب سفينة للهجرة من القرية مع ربّانها وركّابها، فلمّا دخلت السفينة عمق البحر هاج البحر وماج، وشعر ركّاب السفينة بدنوّ الهلاك ورأوْا أنّ من أسبابه ثقل الحمولة فتشاوروا فيما بينهم وقرّروا أن يُلقوا بواحد من الركّاب في البحر للتخفيف من وزنها، وقرّروا أن يحتكموا إلى القرعة، ولمّا اِقترعوا وقعت على يونس في المرّة الأولى، وأعادوا القرعة ثانية فوقعت عليه ثانية، وأعادوا للمّرة الثالثة فوقعت عليه، عندئذ أذعن يونس للأمر، وألقي به في البحر الهائج وكان يسبح من حول المركب الحوتُ الكبيرُ، فوقع يونس في غار فمه الكبير، واِلتقمه الحوت.

(فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ) فدعا يونس ربّه، وهو في بطن الحوت (في ظلمته) والحوت في لجّ البحر (ظلمة ثانية)، وألقي به في ليل (ظلمة ثالثة). دعا ربّه فقال: "لا إلاه إلاّ أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين، وسرعان ما تدارك يونس أمره، وأبعد عنه الهواجس فدعا ربّه وهو في تلك الظلمات، وهو يشعر بدنوّ الأجل (لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ) ليُقرّ بأمرين: التّوحيد، وأنّه سميع لأنّه اِستعمل لفظ المخاطب أنت، وهو ضمير يُستعمل لنداء القريب الحاضر معه (سُبۡحَٰنَكَ) منزّها ربّه عن كلّ نقص لأنّه يعلم أنّه ينادي ربّه وهو في الظلمات. والقصّة مقصودة ليعلم المؤمنون أنّ الله تعالى قريب منهم وسميع لدعائهم ولنداءاتهم، وهذا مناط الاعتبار من هذه القصة. سبحان ربّنا السميع العليم المجيب، وأقرّ بأنّه من الظالمين لأنّه أيقن بأنّه خرج من القرية بدون إذن ربّه، وهو يعلم أنّ الله عليم بكلّ شيء، وبصير به، وهو الذي أرسله لقومه، فما كان له من حقّ أن يغادر من قبل أن يأذن الله له بالهجرة، ما أكثر ما يُعتبر به من هذه القصة.

فاستجاب الله له وأنقذه من كربه ومن غمّه فجعل الحوت يلفظه على ساحل البحر وخرج من بطن الحوت حيّا. لقد سبح به الحوت من اللجّ في بحر هائج وألقاه بالساحل. وكذلك ينجي الله المؤمنين.

- وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ **(89)** :

وأذكر دعاء زكرياء عليه السلام ربّه فقال: يا ربّ لا تتركني بلا عقب، بلا ذريّة يرثون عنّي العلم والنّبوّة والرّئاسة، وأنت يا ربّي الوارث الحقيقي لكلّ من في الأرض وما فيها، وهو يعلم أنّ زوجه عاقر، وأنّه قد بلغ من العمر عُتيًا.

- فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ **(90)** :

واِستجاب الله تعالى لدعائه، ومنحه يحيى نبيّا وعالما بالشريعة، وأصلح له زوجه فجعلها تحيض بعد عقمها ويأسها، وجعلها ولودا رغم ما كان عليه من شيخوخة، ذلك لأنّهم كانوا



يبادرون لفعل الخير للمصلحة العامّة، ولما ينفع النّاس، وكانوا يدعون الله تعالى ويعبدونه طمعا في ما عنده من الفضل، وإشفاقا من عذابه، وكانوا في طاعاتهم متذلّلين وخائفين.

ووجه الاعتبار في هذه الآية من كان يريد أن يكون مستجاب الدعوة فعليه بأن يكون من فاعلي الخيرات ومن العابدين في خشوع، ومن الداعين خوفا وطمعا.

- وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ **(91)** :

وأذكر مريم البتول العذراء التي حفظت فرجها ممّا حرّم الله تعالى، فَوُضِع فيها أمر الله "كن" عن طريق جبريل عليه السلام فولد عيسى عليه السلام، وبهذا جعلناها هي وابنها معجزة قائمة للنّاس أجمعين تدلّ على قدرة الله تعالى، وعلى فضله عزّ وجلّ.

- إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ **(92)** :

أيّها النّاس إنّ هذه الملّة التي جاءتكم في القرآن عبر رسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم، أو هذه الشريعة هي شريعتكم وملّتكم الحقّ، وهي شريعة الدين الإسلامي، وهي شريعة واحدة عند جميع الرّسل الذين كانوا يدعون للتّوحيد ونبذ الشرك. وإنّ الله تعالى هو ربّكم الحقّ فاعبدوه، وأقيموا الصلاة لذكره، ولا تدعوا أحدا غيره.

- وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ **(93)** :

وتفرّقوا في دينهم مللا وفِرَقًا وصاروا طوائف مختلفين، وجميع الخلق عائدون إلى ربّهم للحساب ليفصل الله بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، وليقضي فيهم بحكمه، جزاءً أو عقابا. وهذه الجملة لتهديد المبتدعين في الدين البِدَعَ الضالّة.

- فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ **(94)**:

هذه في التّرغيب في الإيمان وعمل الصالحات، والعمل الصالح هو كلّ عمل فيه طاعة لله وعبادة، ويحقّق مصلحة نافعة للنّفس حتى يعفّها وللأسرة بالإنفاق والقيام على تربية الأبناء وأعمال البرّ بالمستضعفين، وما يحقّق مصلحة عامّة للبلاد والعباد. فمن آمن وعمل صالحا فإنّه لا يُبطل ثوابه ولا يُنتقص من أجره لإحسانه وسعيه في تحقيق المنافع، وكلّ ما عمل من خير مسجّل له في سجّله ليحصل على جزائه عليه.

- وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ **(95)** :

هذه مع الآيتين المواليتين في التأكيد على تحقيق الوعيد في المشركين المكذّبين. والمعنى: ومن الأحكام الثابتة المُحَقَّقَةِ أنّ القوم الذين أهلكوا بعذاب في دنياهم لكفرهم وتكذيبهم بالوعيد وبرسلهم لن يرجعوا للحيـــاة الدنيوية ليتوبوا ويعملوا صالحا بعد أن تحقّقوا من وقوع الوعيد عليهم.



- حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ (96) :

سيظلّون أمواتا حتى تظهر علامات قيام الساعة. ومن أماراتها وأشراطها خروج يأجوج ومأجوج – وهما طائفتان من النّاس يعيثون في الأرض فسادا، ويكثرون فيها القتل والدمار، هؤلاء يخرجون من كلّ مرتفع من الأرض، يخرجون هائجين مائجين مسرعين كأنّهم جراد منتشر.

- وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ (97) :

فإذا خرجت يأجوج ومأجوج فقد اِقترب موعد القيامة بعد قيام الساعة، وهو موعد واقع حقّا، وهو موعد ثابت للحساب، فإذا قاموا وتأكّد المكذّبون بالبعث والحساب من وقوعه تشخص أبصارهم فإذا هي ثابتة لا تتحرّك من الفزع، من هول المفاجأة، ومن هول ما يرون، وممّا يتوقّعون لأنفسهم، ويقولون يومئذ: يا هلاكنا، ويا حسرتنا على أنفسنا، لقد كنّا منصرفين عن تصديق ما أبلغنا به وهازئين، لقد ظلمنا أنفسنا بمكابرتنا واِستخفافنا بالوعيد وبالإعراض عن تدبّر ما جاءنا والإمعان فيه لنعرف صدقه.

- إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ (98) :

وهذه مع الآيتين المواليتين في جزائهم على كفرهم. إنّهم واردون جهنّم ليكونوا وآلهتهم التي كانوا يعبدونها حطَبها ووَقودها الذي تهيج به نارُها.

- لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ (99) :

لو كان ما يعبدون آلهة حقّا ما دخلوا جهنّم، وما اِستقرّوا فيها اِستقرارا دائما لا يخرجون منها، ولكنّهم ضلّوا، وما كانوا يَعُون.

- لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ (100) :

أنفاسهم في جهنّم تخرج بصعوبة من شدّة الاختناق، وهي أنفاس مغمومة تخرج بصفير، وهم في جهنّم لا يسمعون ما يسرّهم لما فيها من صراخ وصخب وهيجان وتأوّهات واِختلاط أصوات الاستغاثة وأنّات الألم.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ (101) :

وعلى عادة القرآن في اتّباع الوعد بالوعيد فإنّ هذه الآيات الثلاث الموالية في وعد المبشّرين بالنّعيم المخلّد في الجنّة. (إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ) إنّ المبشّرين بالحسنى، وهي الجنّة، وهم المؤمنون العاملون الصالحات مبعدون عن جهنّم وعن كلّ ألوان العذاب.

- لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ (102) :

لا يسمعون في الجنّة صوت النّار الملتهبة، ولا أصوات المعذّبين فيها، وهم في الجنّة يتناولون كلّ ما يشتهون من الطعام والشراب، وينعمون بما كانوا يأملون من الرفاه إلى الأبد.

- لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ (103):

ويوم تقوم الساعة لا يأخذهم الفزع، ولا الخوف، ولا تشخص أبصارهم لأنّ الملائكة تستقبلهم بالترحاب عند قيامهم، وتطمئنهم بإخبارهم بأنّهم قد قاموا ليحصلوا على ثوابهم وجزائهم الذي وُعِدُوا به في دنياهم على صدق إيمانهم وحسن طاعاتهم وعلى إحسانهم...

- يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ (104) :

هذا التكريم واقع (يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ) هذه الصورة تدلّ على فناء الحياة الدنيوية، فإنّ السماء تطوى أي تذهب بانفجار عظيم عبّر عنه القرآن بالانفطار، والانشقاق، وها هنا بالطيّ للكتاب. السماء في حياتنا الدنيوية صفحات مكتوبة ومشاهدة يقرأ فيها المؤمن عظيم قدرة الله، ويقرأ فيها قيامه عليها لأنّه القيّوم، والمدبّر الحكيم، ويقرأ فيها علماء الفلك الكثير من آيات العظمة في الخلق، وسعة الملك. فإذا قامت الساعة طويت وذهب الكتاب المقروء لأنّ قراءها تحوّلوا للجزاء والفوز بالتكريم، أو للعقاب عن الغفلة وعن سوء التقدير وعن عمى البصيرة وقلّة الإدراك والفهم. وكما خلق الله تعالى الإنسان وأبدعه قادر على إعادته للحياة بعد موته، وهذا وعد من الله حقّا، وهو فاعله ليجازي عباده الطائعين بالحسنى، وليعاقب الكافرين به والجاحدين والمكذّبين بما يستحقّون من العقاب.

- وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ (105) إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ (106) :

الآيتان في إبلاغ عموم النّاس بأنّ الله تعالى قد قضى بأن يكون حكم الأرض بيد عباده المؤمنين الصالحين، ولن يكون للكافرين المفسدين في الأرض عليها سلطان، فإن حصل أن حكم فاسد كافر فإنّ حكمه آيلٌ إلى زوال، كذا قضى الله سبحانه في كتبه السالفة. (ٱلزَّبُورِ) هو كتاب داود عليه السلام، وهو مبثوث في الكتاب المسمّى بالمزامير في كتب اليهود. و(ٱلذِّكْرِ) هنا كتاب موسى عليه السلام، المحفوظ، والمعنى: ولقد قضينا في الزبور من بعد ما نزلت التّوراة أنّ الأرض التي هي ملك الله وحده يملكها عباده الصالحون ويحكمون فيها، وليس للكافرين عليها سلطان. إنّ (فِى هَٰذَا) القرآن إخبارا ووعدا بذلك لقوم عابدين لله وحده غير مشركين به، وفي هذا وعد للمسلمين بنصرهم على أعدائهم.

- وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ (107) :

هذه في الثّناء على النّبيّ الرّسول الخاتم محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وسلّم، وبه صلّى الله عليه وسلّم تختتم قائمة الأنبياء والصالحين الخمسة عشر المذكورين في هذه السورة وهم: إبراهيم،

لوط، إسحاق، يعقوب، نوح، داود، سليمان، أيّوب، إسماعيل، إدريس، موسى، هارون، ذو النون، زكرياء، يحيى، والسادس عشر هو النّبيّ الخاتم محمّد صلّى الله عليه وسلّم. وتشعرنا الآية باختتام السورة بذكر النّبيّ الخاتم صلّى الله عليه وسلّم، وإنّ محتوى الآيات الموالية لهذه الآية يذكّرنا بما جاء في بداية السورة في التصديق بهذا النّبيّ، وبالوحي الذي أنزل عليه.

وفي هذه الآية تشريف للنّبيّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وتكريم خاصّ به. التّكريم الخاصّ عبرت عنه الآية في تركيبها الذي جاء في صيغة الحصر (ما... إلاّ...) أي: لقد اِصطفيناك حصريا – يا محمّد – لتكون رسولنا برحمتنا إلى جميع الخلق. وأمّا التّشريف فقد تضمّنه معناها: أرسلناك يا محمّد برسالة الرّحمة لجميع الخلق عامّة، ولكلّ زمان، وليست رسالتك مخصوصة لقومك فحسب، فأنت رسول برسالة الرحمة للنّاس كافّة على مدى الدهر.

والمستفاد من الآية أنّ رسالة محمّد هي رسالة رحمة الله تعالى بعباده، ورسالته صلّى الله عليه وسلّم رسالة الإسلام. فمن اتّبعه وعمل برسالته فقد بلغته رحمة ربّه، وكان من أهل الرّحمة، ومن تولّى عنهما رضي لنفسه الاستغناء عن رحمة الله، ومن تولّى عن رحمة ربّه فقد شَقِيَ.

وقد جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة أنّه صلّى الله عليه وسلّم قد قال عن نفسه: "إنّما أنا رحمة مهداة". وفي رواية لمسلم في صحيحه أنّه صلّى الله عليه وسلّم قد قال: "إنّي لم أُبعث لَعَّانًا، وإنّما بُعِثت رحمة".

- **قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (108) :**

وأرشد النّاس كافّة بأنّه لا يوحى إليك إلاّ بعقيدة التّوحيد. إلاهكم الحقّ إلاه واحد، لا إلاه غيره، وما سواه إلاه باطل. هذا هو الأصل والمعتقد الثابت في الدعوة للإسلام (فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ) اِستفهام للاستبطاء، بمعنى: هلاّ أسلمتم، وآمنتم بعقيدة التوحيد، وهلا اِقتنعتم بفساد عقيدة الشّرك، وبطلانها.

- **فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ (109) :**

فإن أعرضوا عن الإيمان بعقيدة التّوحيد، وتولّوا عن أن يسلموا، فقل لهم لقد أعلمتكم بما أمرتُ بتبليغه لكم، وجميعكم على علم بهذا البلاغ. ولا أعلم متى يحلّ بكم الوعيد بسبب كفركم بالله تعالى ورسالته. والجملة الأخيرة هي للوعيد للاستحثاث على الإسراع للدخول في الإسلام.

- **إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (110) :**

واخشوا ربّكم فإنّه عليم وسميع لما تقولون في التّوحيد وفي الوعيد وفي الوحي من تكذيب، ولا يخفى عليه ما تكتمون من كيد، ومن إضمار الشرّ لأتباع هذا الدين للصدّ عنه. وهذه للإنذار والتحذير للكفّ عن الأذى، وعن الطعن في الرّسالة.

- وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ **(111) :**

وإذا تأخّر عنكم العذاب، فإنّي لا أدري سبب تأخيره: أكان اِستدراجا لكم لتزدادوا إثما ومعصية لتقوم عليكم الحجّة، أو لأنّ الله تعالى شاء أن يؤخّره لكم ليوم القيامة لتستمتعوا ببقية حياتكم إلى آجالكم؟

- قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ **(112) :**

وقل اللهم اِفصل بيني وبين قومي المكذّبين بالحقّ، فلقد بلّغت ولكنّهم تولّوا وكذّبوني. والله ربّي وربّكم وهو الرحيم الرّحمان، أستعين به لحفظي ممّا تدَّعون له من الشريك والنّدّ، وإنّي بريء ممّا تصفون له، سبحانه لا إلاه إلاّ هو.

آياتها	ســــــورة الحـــــجّ	رقمها
78	ـــــ مدنيّـة ـــــ	22

سمّيت هذه السورة بسورة "الحجّ"، ولا يُعرف لها اِسم آخر، وذلك لأنّها عرضت آذان إبراهيم للحجّ إلى بيت الله الحرام، وبعضا من مقاصد الحجّ وفضيلته، أمّا فريضة الحجّ فقد جاءت في سورتي البقرة وآل عمران.

ويرى جمهور العلماء بأنّ هذه السورة مختلطة بين ما هو مكّي وما هو مدنيّ. قال القرطبي في تفسيره الجامع (ج.12 ص1) : "وهي من أعاجيب السور، نزلت ليلا ونهارا، سفرا وحضرا، مكيا ومدنيا، سِلْمِيًا وحربيا، ناسخا ومنسوخا، محكما ومتشابها، مختلف العدد" (يقصد باختلاف العدد اختلافهم في عدد الآيات، ومن الفقهاء من جعل فيها سجدة، ومنهم من جعل فيها سجدتين).

ومن مواضيعها: التحذير من الشرك، ومن الحساب يوم البعث، وتحذير المكابرين من صدّهم عن سبيل الله. وفيها الإذن للمسلمين بقتال أعدائهم. وفيها آيات لتسلية النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عمّا يُلاقيه من قومه من تكذيب.

ولئن بدئت السورة بالتشديد على الكافرين المكذّبين بالدعوة، إلاّ أنّها ختمت بفتح باب الرجاء، وبموعظة المؤمنين بذكر البعض من نعمه عليهم ليكونوا عبادا شاكرين ليكون الله تعالى لهم وليا ونصيرا.

- يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ **(1)** :

الخطاب في هذه الآية والآية الموالية مُوَجَّه للنّاس. وحين يوجّه الخطاب للنّاس في القرآن فإنّه عادة ما يكون خطابا للمؤمنين ولغير المؤمنين: للكافرين، والمكذّبين، والملحدين. الخطاب الموجّه للمسلمين يكون بـ : يا أيّها الذين آمنوا، أو قل للمؤمنين والمؤمنات... ويُخاطب أهل الكتاب بـ: يا أهل الكتاب، أو إنّ اليهود والنّصارى. فهذه الآية لموعظة المنصرفين عن الإسلام والإيمان ليتقوا الله تعالى خوفا من أن تفاجئهم الساعة وهم كافرون، فيومئذ يشهدون هولا عظيما، شديد الوقع على النفس، يجعل النّاس في خوف وهلع، ويؤمئذ يفوتهم الاستغفار والتوبة وتفوتهم فرصة الإيمان ليكونوا آمنين من هول ذلك اليوم. وإنّ من أمارات قيام الساعة وقوع زلزلة عظيمة وشديدة تدكّ كلّ شيء قائم، ويحدث إنفجار عظيم للأرض فيختلط ماؤها بيابسها، وتُدَكُّ الجبال، ويهلك كلّ ما عليها من مخلوق.

- يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ (2) :

يوم تحضرونها تشرد المرضعة عن إرضاع وليدها وتنشغل عنه لشدّة ما يصيبها من الكرب الشديد والهلع، وتسقط الحامل جنينها وتطرحه من هول ما ترى من مشاهد مفزعة مؤذنة بالهلاك المحتّم، ويومها ترون النّاس يتحرّكون مختلّي التوازن، لا يثبتون في مشيهم، أو في وقوفهم لأنّ الأرض تميد بهم وتميل، يمشون كالسكارى وما هم من المخمورين الذين شربوا الخمرة، ولكنّ عذاب الله شديد الوقع على النّفس وشديد الهول والفزع. ثلاث صور، وثلاثة أوضاع مفزعة نسأل الله تعالى الأمن والأمان من كلّ هول وفزع، ومن كلّ شدّة وكرب.

- وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ (3) :

الجدال هو النّقاش الحادّ الذي فيه رفع الصوت كأنّه المخاصمة، ويكون قائما غالبا على العناد، ورفض القبول بالرأي المخالف. ولقد كان بعض مشركي قريش يجادلون الرّسول صلّى الله عليه وسلّم في مسألة بعث الأموات. كانوا لا يصدّقون بإحياء العظام وهي رميم وتحوّلت الجثث إلى تراب إلى حدّ تكذيب الرسول صلّى الله عليه وسلّم فيما يقرأه عليهم من الوحي في الاستدلال بإحياء الأرض بعد موتها لإقناعهم بقدرة الله تعالى على إحياء الموتى. كانوا يرفضون الاقتناع بهذا الأمر من غير أن يكون لهم علم ولا دليل ولا حجّة على نقيضه واِستحالة وقوعه، وبدون أن تكون لهم دراية بقدرة الله تعالى وعظمته، ليس لهم إلاّ وساوس وآراء قذفها فيهم الشيطان المتمرّد على الله سبحانه ليجادلوا بها. وما أكثر ما ترى من أهل الجهالة الذين يرون أنفسهم أكثر علما ومعرفة من أهل العلم المختصين جِدالاً حادّا إذا خالفت آراء العلماء وآراءهم، وتراهم يرفعون الصوت ويقطعون الكلام عن صاحب الرأي المخالف مكابرة، وفي حنق، وتجرّؤ على العلم القائم على الحجّة والدليل، وهم لا يملكون عمّا يقولون حجّة ولا دليلا سوى المخاصمة الحادّة.

- كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ (4) :

ومن يتَولَّ الشّيطان فإنّه يضلّ الصّواب، ولا يهتدي إليه، بل إنّ الشيطان لا يهدي أتباعه إلاّ إلى عذاب جهنّم وعذاب النّار الحارقة الملتهبة يوم القيامة.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ (5) :



هذه في الرّدّ على ناكري البعث الذي هو إعادة الحياة بعد الممات. وقد أُستُدِلّ على وقوعه بآية خلق الإنسان، وآية إحياء الأرض. وهذه من الآيات العلمية، ومن آيات الاستدلال على عظيم القدرة وحسن التّدبير. وخير من يفسّرها هم العلماء المختصّون في علم الطبّ والأجِنَّة وعلم الأحياء الطبيعيّة لما فيها من أسرار في إبداع الخلق ودقّته في النّشوء وفي التوقيت، وأمّا المفسّر فحَسْبُهُ بيان دلالة اللفظ، وإبراز الحجّة.

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ) يا أيّها الذين ترتابون في البعث ولا تصدّقون به أُنظروا في خلقكم، وفي تقديره، (فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٍ) إنّ أصل خلقكم من آدم، وخُلق آدم من تراب، ولم يكن شيئا قبل خلقه وإبداعه. (ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٍ) ثمّ خلقنا نسله، وأنتم من نسله بالتناسل، بوقوع منيّ من ذكر في بويضة اِمرأة فنشأت نطفةٌ. (ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٍ) وبتفاعلها وتكاثر الخلايا داخل البويضة تحوّلت النّطفة إلى قطعة دم جامد عَلَقت برحم المرأة، وتفاعلت الخلايا داخلها وتكاثرت فتحوّلت بعد مدّة معلومة إلى قطعة لحم صغيرة بقدر مضغة تمضغ بالفم (وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٍ) غير مصوّرة، وبعدها صارت (مُّخَلَّقَةٍ) أي مصوّرة على شكل تام بتشكّل العروق والرأس والأطراف. ونذكّركم بهذه الأطوار لتعرفوا كمال قدرة الله في الخلق، وفي تصريفه أطوار خلقكم، فلا يعجزه أن يعيدكم للحياة بعد الممات بعد أن خلقكم من عدم، ولم تكونوا شيئا مذكورا. (وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ) ونثبّت في الأرحام ما نقدّر له الحياة والوجود فلا يسقط ولا يطرح أثناء الحمل، وما لم نقدّر له الحياة، ولم نشأ إيجاده يطرح دما فاسدا. (إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى) ونحدّد له نشأته في الرّحم: سبعة أشهر أو تسعة. (ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلًا) ثمّ تُولدون على ما قدّرنا تصويركم طفلا: ذكرا أو أنثى بحسب المشيئة التي أردناها له. ومنكم من يحيا ويبلغ شدّة قوته في جسمه، ويبلغ اِكتمال عقله، ومنكم من يموت قبل أن يبلغ سنّ النّضج، ومنكم من نقدّر له أن يُعمّر طويلا حتى يبلغ الهرم والخرف فيعود كهيئة صباه، ضعيفا، لا يعقل، يحتاج إلى رعاية كبيرة وعناية فائقة لطعامه وشرابه ونظافته والقيام بأمره لأنّه يفقد ذاكرته ويغدو لا يعرف أحدا ممن كان يعرف من أهله وذويه، ولا يعرف شيئا ممّا كان عليه وممّا عنده. وهكذا فكلّ إنسان قد خضع قبل ولادته لمشيئة الله وتقديره، وقد خضع لإرادة الله وتقديره بعد ما وُلد، فاعرفوا قدرته وآمنوا به ولا تجحدوا خلقه ومشيئته وتقديره.

وأنظروا في الأرض من حولكم فإنكم ترون أرضا يابسة قاحلة جافّة ميّتة ليس فيها نبات جرداء، فنُنْزِل عليها ماءً من السماء فإذا هي تهتزّ بإنبات الحشائش، وتربو، تنفش وتنتفخ ويتحسّن وضعها، وتنمو، وتصبح أرضا حيّة خصبة منتجة تنبت من كلّ نوع حسن من النبات، وتُغرس فيها الأشجار فتزهر وتؤتي ثمارها. بمثل ما يحيي الله الأرض بعد موتها يحييكم بعد مماتكم.

- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (6) وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ (7)﴾ :

الآيتان في النّتيجة المستخلصة ممّا سبق ذكره في الآية السّابقة. النّتيجة المستفادة هو أنّ خالق الأجنّة في بطون أمهاتهم، وأنّ محيي الأرض الميّتة بالماء الذي ينزله من السماء هو الله الحقّ، الحقيق بالألوهية والعبادة والطاعة والتّقديس، وأنّ ما سواه ادّعاء باطل، إذ لا أثر لخلقه ولا لفضله. والله الحقّ الذي خلق الإنسان من عدم ثمّ أوجده من نطفة بتقدير منه وبمشيئته قادر على أن يحيي الموتى بمثل ما ترون من إحيائه للأرض الجدباء التي تتحوّل إلى أرض خصبة، والله الحقّ على كلّ شيء قدير، قد خُلِقْتُمْ بقدرته وبلَغْتُمْ أشدّكم بقدرته، وكنتم ذكورًا أو إناثا بقدرته وبمشيئته، لذا لا يعجزه أن يحييكم بعد مماتكم، وقد قضى أن يجعل لكم يوما لبعثكم فهذا اليوم آتٍ لا ريب فيه، وأبْلَغكُم بأنّه سيبعث من في القبور، وإنّ هذا البلاغ واقع.

- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ (8)﴾ :

هذه في الذين يجادلون في صفات الله تعالى، وفي الوحي، وفي صفة النّبيّ البشرية، وفي البعث، وفي الوعيد. وهذه كالآية السابقة عدد 3، وجاءت كأنّها تكرار لما سبق، وما هي للتكرار، وإنما جاءت للمبالغة في الذمّ، والمبالغة في الذمّ تعني التّوبيخ.

يجادلون في صفات الله تعالى وفي دينه وفي التوحيد وفي الوحي وفي إرسال رسوله، وفي وعيده (بِغَيۡرِ عِلۡمٖ) أي بجهالة بغير دراية، وبغير معرفة، ولا اِطلاع. (وَلَا هُدٗى) ولا بصيرة، أو منطق، وبغير حجّة بيّنة أو دليل، ولا برهان واضح. (وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ) ويجادلون وهم لا يملكون نصوصا ثابتة قطعية ليثبتوا أقوالهم، ورَفْضهم لهذا الدين في كتاب مقدّس يوضّح الحقّ ويكشفه، ويبيّن جوانب الباطل. هم يجادلون مكابرة وعنادا، ونصرةً لآلهتهم ومكاسبهم، وخوفا على ضياع مكانتهم في النّاس بعد أن فضح الوحي ضلالتهم واِستكبارهم.

- ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ (9) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ (10)﴾ :

الآيتان في اِستحقاقات المكذّب بالدّين. هذا المكذّب تراه حين يسمع القرآن وما يدعو إليه من الإيمان والتّقوى ونبذ الشّرك، ويلوي عنقه معرضا عن سماعه ومنصرفا عنه ليصدّ عن دين الله الحقّ. هذا الصنف من الكافرين له عذاب الهون والإذلال في دنياه. ولقد لقي معظم المكذّبين بدين الله المجادلين فيه يوم بدر عذاب السيف، وفي أيام أُخَر، ويوم القيامة يذوقون عذاب الحريق بنارِ جهنّم. اِستحقُّوا هذا المصير السيّئ بما كسبوا من المعاصي والصدّ عن دين الله، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.



- وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ (11) :

هذه في صنف آخر مما يعبد النّاس. مِن هؤلاء من يعبد الله (عَلَىٰ حَرۡفٖ) في تردّد، وعلى شكّ، وطمعا في قضاء مصالحه، وقلبُه غير مطمئنّ بالإيمان. فإن أصاب غايته، واتّسع عيشه، ونال رغائبه داوم على إيمانه بربّه وعلى طاعته، وإن اُفتُتِن فأصابه مكروه أو شدّة وضيق ولم يدرك مصالحه من إيمانه وطاعته ارتدّ إلى الكفر، ورجع إلى ما كان عليه. هذا الذي يعبد الله لمصلحة يبتغيها، وهو مرتاب خسر دنياه لأنّه لن ينال خيرا، وخسر آخرته لأنّه سيعاقب على اِرتيابه، وشكّه في الدّين، وهذا هو الخسران الواضح في الدنيا والدّين والآخرة.

- يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ (12) :

إنّه يدعو من دون الله تعالى إلاها آخر لا يقدر على نفعه، ولا على ضرّه، وهذا هو البعد عن الصواب والضياع البعيد عن الحقّ والصراط السويّ.

- يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ (13) :

من قِصَر نظر هؤلاء، ومن قلّة وعْيِهم أنّهم يعبدون آلهة سيتضرّرون بعبادتهم لها يوم الحساب، ولن تنفعهم بشيء يومئذ. بئس ما يختار الإنسان لنفسه ناصرا يخذُلُه عند طلب نصرته، وما أسوأ اِختياره لعشير يصاحبه في حياته، وفي أزمته يغيب عنه، ويتبرّأ من صحبته. العاقل هو من يقرأ حسابا لمن سيحاسبه عن عمله.

- إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ (14) :

هذه في تبشير الذين آمنوا وعملوا الصالحات بتكريمهم بإيوائهم في جنّات مرفّهة لينعموا بخيراتها، والله سبحانه فعّال لما يريد.

- مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ (15) :

هذه في بعض من الأفراد من المؤمنين اِستبطؤوا نصرة الله تعالى لنبيّه، ويستعجلون الغلبة على الكافرين وقهر زعماء الشّرك.

والمعنى: من كان يظنّ أنّ الله سبحانه لن ينصر نبيّه صلّى الله عليه وسلّم ليعلي دعوته، ويقهر معانديه والمكذّبين به فليربط نفسه بحبل إلى سقف عالٍ ببيته يشدّه إلى عنقه، ثمّ ليَشْنِقْ نفسه ويخنقها، ثمّ فليتأمّل هل يذهب اِختناقه وصنيعُه بنفسه غيظَه. والمطلوب أن يصبر المؤمن على تحمّل الأذى حتى يأتي الله بأمره، أو يقضي أمرا آخر بأن يهدي من كان عاصيا إلى التوبة



والإيمان. إنّ إرادة الله تعالى غير خاضعة لمشيئة بعضٍ من عباده، إنّه تعالى فعّال لما يريد وقت ما يشاء، وكيفما يشاء.

- وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ (16) :

وهكـذا أنزلنا هذا القرآن فيه الدلائل والحجـج التي تقنع العاقل بوحدانيّة الله في وجوده وفي ما خلق، وفيه ما يرشد الإنسـان للحقّ والصواب. والله يهـدي من يريد الاهتـداء إلى ربّه الحقّ.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (17) :

هذه في الفصل بين طوائف النّاس المختلفين في المعتقد فيما اِختلفوا فيه بالحقّ يوم القيامة. والمعنى: إنّ المؤمنين بالله الحقّ وبرسله وبكتبه، واليهود، وعبدة الملائكة والكواكب، والنصارى أو المجوس عبدة النّار، والمشركين بالله سيحشرون يوم القيامة بين يدي الله جلّ وعلا، وسيقضي فيهم الله فيما ادّعوا،وفيما حرّفوا في كتبه، ويقضـي فيهم على تكذيبهم بالوحي، وبرسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم،إنّ الله مطلّع على أعمالهم، وعليم بما كانوا يعملون وبما كانوا يقولون ويدّعون.

- أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ (18) :

السجود هنا بمعنى الخضوع لما أُمِر به، ولما سُخِّر له. والآية في تنبيه الغافلين بأنّ كلّ ما خُلِقَ في السماوات وفي الأرض من خلق عاقل أو غير عاقل، خلق متحرّك وحيّ أو جامد، خلق بروح أو بغير روح خاضع لأمر الله تعالى، وُجد بأمره، ومُنْتهٍ بأمره، إذا كان متحرّكا مثل الأرض أو القمر فإنّما يتحرّك بتسخير الله، وإذا كانت الشمس موجودة ومشعّة، وإذا كانت الجبال راسية فبأمر الله تعالى. كلّ ما في هذا الكون من مخلوق يدبّ مثل الدوابّ أو ينمو مثل الشّجر هو خاضع لما أمر به.

وكثير من النّاس مؤمنون خاضعون لأمر الله عزّ وجلّ يقدّسونه ويعبدونه ويطيعونه وله يسجدون بجباههم وأيديهم وأرجلهم في خضوع وخشوع. ومن النّاس من لا يسجد لله في صلاة وعبادة لأنّه غير مؤمن. ولكنّه خاضع لإرادة الله في حياته ورزقه ومماته، ووجب عليه العذاب فيما دعاه لطاعته فلم يُطِعْه. ومن شقي وتَعِس فلا أحد يجلّه ويسعده وينعم عليه ليكشف عنه كربه إلاّ الله سبحانه. إنّ الله يفعل في مُلكه وفي مخلوقاته ما يريد من تسخير.

وهذه الآية موضع سجود عند الفقهاء.



- هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ (19) يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ (20) وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ (21) كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (22) :

هذه في وعيد الكافرين بالعذاب الشديد يوم القيامة للإنذار، ولإقام الحجّة عليهم يوم الدين حتّى لا يقولوا ما كنّا نعلم بهذا. والمعنى: هذان فريقان تجادلوا في ربّهم: فريق يؤمن بالتّوحيد، ويصدّق بالرّسل، وبيوم البعث، وبالحساب، وفريق ثان مشرك بالله، كافر بوحدانيته، أو ملحد مكذّب بربّه وبالوحي والرّسل وبيوم البعث والحساب، ويقول: "وما يهلكنا إلاّ الدهر". هذا الفريق يوم القيامة تكسوه النّار في جهنّم من كلّ جانب كما يكسوه لباسه، ويُصَبّ فوق رأسه ماء يغلي شديد الحرارة يُذيب ما في بطنه من شحوم وأمعاء، ويسلخ جلده وينزعه، ويُطرق بمطارق أو بسياط من حديد، ويضرب بها حين يحاول الهروب من موضعه ليُعاد إليه، وحتى لا يحاول الهروب من جهنّم، وكلّما أراد الفرار من عذابها أعيد بالسياط الحديدية الكاوية إليها، ويذاق عذاب الحريق، أعاذنا الله من جهنّم، وأجارنا منها ومن عذابها.

- إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (23) :

وبعد ذاك الوعيد يأتي هذا الوعد ليُبشّر المؤمنين الذين يؤدّون الطاعات بأن يدخلهم الله تعالى يوم يلقونه جنّات النّعيم والرّفاه، يلبسون لباس الملوك في زنودهم أساور من ذهب تدلّ على سلطانهم وشرفهم، ويتزيّنون بأحجار كريمة تدلّ على رخائهم ورفاههم وثرائهم، ويلبسون الحرير الفخم.

- وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ (24) :

هؤلاء أرشدوا للقول الحقّ الطيّب فشهدوا أن لا إله إلاّ الله وقالوا بالتّوحيد في إيمانهم، وهدوا إلى طريق الدين المحمود: الإسلام الذي هو دين الله الواحد الأحد.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (25) :

هذه في وعيد الكافرين بتوحيد الله والكافرين برسوله، الذين يمنعون النّاس عن الإسلام واِتّباع الرّسول بما أوتوا من جهد وكذب واِتّهام لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، والذين يمنعون المسلمين عن الاعتمار إلى المسجد الحرام على نحو ما منعوا الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه من القصد لبيت الله الحرام للعمرة عام الحديبية، والحال أنّ المسجد الحرام قد جُعل مقصدا لعبادة الله تعالى للمقيمين من حوله وللقادمين إليه من البوادي، وهؤلاء الكافرون المشركون يريدون أن يُتعبَّد



فيه على طريقتهم بالباطل ظلما لدين الله، ولصاحب البيت وهو الله عزّ وجلّ، هؤلاء مَوْعُودُونَ بعذاب موجع لأنّهم دنّسوا حرمة المكان بظلمهم.

- وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ **(26)** :

هذه الآية لتذكير أولئك الذين يصدّون المؤمنين عن المسجد الحرام بأنّ الله تعالى هو صاحب البيت، هو تعالى الذي عيّن مكانه، وإبراهيم هو الذي بناه بأمر من ربّه، وجعله لتوحيده، وليس للشرك به، وأُمِرَ إبراهيم بتطهيره للذين يرفعون ذكر ربّهم، وليس لهؤلاء المشركين أيّ حقّ فيه ليصدّوا عنه، ما كان هذا البيت للشرك ولا للمشركين، وقد روي عن جدّ الرّسول: عبد المطلب أنّه قال فيه يوم هجوم أبرهة على البيت يريد هدمه وتحطيمه بجيشه وفيله: "إنّ للبيت ربّا يحميه". وقد حماه تعالى من كيد الكائدين بطير أبابيل رمت جيش أبرهة بحجارة من سجّيل.

والمعنى: وأُذكر إذ عَيَّنَّا لإبراهيم مكانا محدّدا، وأرشدناه إليه ليقيم على الأسس التي يجدها في ذات المكان بيتا لعبادة الله وحده، لا يدخله شرك ولا المشركون، وليكون طاهرا ليطوف حوله العابدون، ويقيموا فيه صلاتهم للدعاء وبالركوع والسجود لربّ البيت الذي هو الله سبحانه، وقوله تعالى في الآية (بَيْتِيَ) للتّأكيد على أنّ البيت الحرام الذي بناه إبراهيم بالمسجد الحرام، والمسمى بالكعبة البيت الحرام هو ملك لله وحده، لا سلطان لأحد عليه.

- وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ **(27)** :

هذه في الأمر بالحجّ، والأذان هو الإعلام بأمر الله عزّ وجلّ، والمعنى: أَعْلِمْ النّاسَ بأنّ عليهم حجَّ بيت الله الحرام. وهذا النداء من إبراهيم يدلّ على أنّ الحجّ من شريعة دينه. وكان النّاس قبل دعوة الإسلام يحجّون إلى البيت ويأتونه من الأقاصي، وكان العرب يقولون بأنّهم على شريعة إبراهيم قبل مجيء الرّسول محمد صلّى الله عليه وسلّم بدعوته للإسلام. والحجّ في الدين الإسلامي هو الركن الخامس من أركانه الخمسة، وهو لمن اِستطاع إليه سبيلا. وقد أذّن إبراهيم على جبل أبي قيس بمكّة بالحجّ، وعلى الله تعالى كان الإبلاغ. ونرى النّاس اليوم يقبلون على البيت الحرام في موسم الحجّ من جميع أصقاع العالم تلبية لهذا النداء، ومُلَبِّين، وفي غير موسم الحجّ يقصدون البيت للعمرة. كانوا يأتون راجلين، وراكبين على إبل مهزولة من بعد المسافة من كلّ طريق بعيد. واليوم صار القصد إلى بيت الله الحرام أيسر ممّا كان عليه ماضيا بفضل تطوّر وسائل النقل وتنوّعها.

- لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ **(28)** :



وقضى الله تعالى هذا الحجّ ليحضر النّاس (مَنَٰفِعَ لَهُمۡ) أي ما يرضي الله تعالى من أمر الدنيا والآخرة فيعودون بالمغفرة بما أدّوا من مناسك، وبما حصلوا من منفعة في تجارة. (وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ) وليذكروا اِسم الله على هديهم وذبائحهم يوم النحر ويرفعوا ذكر الله في أيّام التّشريق ويشكروا له على نحر ما رزقهم من الأنعام (الإبل والبقر والغنم). (فَكُلُواْ مِنۡهَا) هذا أمر للنّدب، وليس للوجوب فكلوا من الهدي، وأطعموا منها الفقراء والمُعْدَمين والعجز والمستضعفين.

- ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ (29) :

وبعد ذلك فلْيُزِيلُوا بالتّحلّل أوساخهم بالحلق أو التقصير وبالاغتسال وتقليم الأظافر.. وعليهم أن يخرجوا نذورهم دما أو هديا أو صدقة، ثمّ ليطوفوا بعد ذلك طواف الإفاضة، وهذا الطواف ركنٌ من أركان الحج يبطُلُ بتركِهِ.

ولمعرفة مناسك الحجّ والعمرة بما فيها من أركان وواجبات ومندوبات يجبُ الرّجوع إلى كتب الفقه.

- ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ (30) :

هذه في تعظيم حرمات الله، وذلك بالحذر من اِنتهاكها، وحرمات الله في البيت الحرام هي في أداء واجبات لباس الإحرام، وهي في ترتيب أداء المناسك وأداء واجباتها، وهي كذلك في اجتناب اِنتهاك قداسة البيت من مثل ما فعله المشركون حين نصبوا فيه أصناما. فمن اِحترم الحرمات وأدّى واجباتها ولم ينتهكها فقد عظمها وهذا خير له لأنّه سينتفع بطاعاته. وكلوا من لحوم الإبل والبقر والغنم ما طاب لكم حلالا طيّبا إلاّ ما حرّم عليكم من الميتة والدم وما أهلّ لغير الله به، ولم يذكر اِسم الله عليه. واجتنبوا (ٱلرِّجۡسَ) الخبث والقذارة الحسية والمعنوية، فالشرك وعبادة الأوثان والأصنام من الرّجس المعنوي، والفواحش من الخبث الحسّي والقذارة (وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ) وهو كلّ قول باطل وكاذب ومائل عن الحقّ، ومنه شهادة الزّور وهي من الكبائر لما فيها من تحريف للحقائق وتزييفها.

- حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ (31) :

أدّوا مناسككم وطاعاتكم (حُنَفَآءَ لِلَّهِ) مخلصين له تعالى في توحيده، مستقيمين ومسلمين مائلين إلى الحقّ، غير مشركين به، ومن يشرك فكأنّما سقط من علوّ مرتفع جدا فتلتقطه الطيور الجارحة الكاسرة فتهلكه، وتقضي عليه، أو تأخذه الريح القوية العاصفة فتقذفه إلى مكان بعيد جدا، مهلك، لا نجاة منه. وضرب هذا المثل للدلالة على أنّ الشّرك يقود للمهالك التي لا نجاة منها.



- **ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ (32) :**

هذه في الحضّ على العناية بالشعائر الدينية. (الشعائر الدينية) هي المعالم الواضحة لمناسك الحجّ التي هي كلّ فعل واجب عمله في الحجّ، وكلّ مكان أمر الله بزيارته مثل: الوقوف بعرفة، المبيت بمنى، السعي بين الصفا والمروة... ومن الأعمال: النّحر للهدي، وتقديم البُدن من الأنعام والعناية بتسمينها. هذه الأعمال وزيارة تلك المعالم عند أدائها على الوجه المطلوب وفي وقتها المخصوص بعناية هو تعظيمها، ومن يعظّمها فإنّه يعبّر بذلك عن خشيته لله تعالى، وتعظيمه والإخلاص له في الطاعة والتّقديس. هذه الآية خصّت تعظيم الشعائر، وخصّت الآية السابقة حرمات الله.

- **لَكُمۡ فِيهَا مَنَـٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ (33) :**

هذه في الأنعام التي عيّنت لأن تكون هديا للكعبة، يجوز الانتفاع بألبانها، أو يجزّ صوفها أو أشعارها، أو تركت إلى أن تنحر ويُتصدّق بلحومها، وجاءت هذه الإباحة لمخالفة عادة مشركي قريش كانوا يحرّمون الانتفاع بشيء ممّا سمّوها هديا للكعبة.

- **وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ (34) ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ (35) :**

ولكلّ ملّة دينية جعلنا لها عبادة بالذبح للتقرّب بها إلى الله تعالى وللتّصدّق ببعض لحومها على الفقراء، وهذا لرفعة ذكر اسم الله عند نحرها، ولشكره على ما رزقهم من الأنعام. وإنّ ربّ العباد في كلّ ملّة هو الله تعالى، وهو إلاه واحد، فأسلموا له وأعبدوه وأطيعوه ولا تطيعوا غيره، ولا تسلموا لإلاه غيره. وبشّر – يا محمد – المتواضعين لله في عبادته وطاعته، والمطمئنّين إليه، وكذا يكون المؤمنون، وأمّا المشركون فهم المكابرون، والمستكبرون.

ومن صفات المخبتين أنّهم كلّما ذكر لهم الله عزّ وجلّ رقّت قلوبهم وخشيت من عظمته، ومن ملاقاته بمعصية، ومن صفاتهم الصبر على أداء الطاعات، والصبر على تحمّل مشاق الحياة والعمل والسعي على النّفس والعيال، والصبر على تحمّل أذى الأعداء، والصبر عند ملاقاتهم إذا دعوا للجهاد، وهم مداومون على أداء الصلوات في أوقاتها المعلومة، وهم الذين ينفقون ممّا آتاهم الله من فضله على المساكين والفقراء للمؤازرة وللتعاون وللتراحم فيما بينهم، ولتجسيم أخوتهم الإيمانية.

- **وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ (36) لَن**

يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ (37) :

(ٱلْبُدْنَ) هي كلّ ما يُهدى للبيت الحرام من الأنعام. هذه البدن هي من أعلام شريعة الله في الحجّ. فيها خير ونفع للفقراء، وللحجاج لهم فيها منافع أخروية من الثّواب والأجر. فاذكروا اِسم الله عليها عند نحرها، وكبّروا اِسمه عند جمعها وتهيئتها للذبح، فإذا نحرت وسقطت ميّتة فكلوا منها ما شئتم، وأطعموا (ٱلْقَانِعَ) وهو الذي يقنع بما أُعْطي ولا يسأل عطاء، وكذلك (وَٱلْمُعْتَرَّ) وهو الذي يتعرّض لكم لتعطوه دون أن يسألكم. (كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ) ولقد جعلنا لكم هذه البُدُنَ الضخمة مسخّرة لكم ذلولة ومنقادة لكم، فاشكروا الله تعالى على فضله وعلى تسخيرها لخدمتكم وإذ جعلها طعاما لكم. ولقد شرع الله لكم نحر هذه الذبائح لتذكروه عند ذبحها وعند أكلها وعند التّصدّق بها، لن يصل الله شيء من لحومها ولا دمائها ولكن تصله طاعاتكم لأمره وتعظيمكم لشريعته وشعائره، وهكذا سخّرها لكم لتنتفعوا بها ولتكبّروا الله تعالى على ما هداكم للإيمان به، ولاتّباع دينه وشرعه، ولتشكروا له فضله عليكم. وبشّر المؤمنين المحسنين في طاعاتهم برحمته وبمنحهم الأجر والثواب في الآخرة ليحصلوا على نعيمه في جنان الرّضوان.

- إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38) :

هذه في تبشير المؤمنين بأنّ الله تعالى نصير لهم في الشّدائد. والمعنى: إنّ الله عزّ وجلّ يدفع عن المؤمنين شرّ أعدائهم، ويكفيهم مكرهم، ويردّ عنهم أذاهم وكيدهم. إنّ الله لا يحبّ كلّ من يخون الله بمخالفة أمره، وبإتيان معصيته، ولا الذي يخون رسوله بإفشاء سرّه لأعدائه، ولا الذي يخون المؤمنين ويضمر لهم الشّرّ، ويعين أعداءهم عليهم، ولا يحبّ كلّ من تجاوز حدّه في الكفر، وذلك بأن تعدّى كفره بإلحاق الأذى بعباده المؤمنين، وبالصدّ عن سبيل الله يَبْغِيه عِوَجًا.

- أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) :

هذه الآية في التّرخيص للمؤمنين بقتال المعتدين عليهم. وهذا الإذن هو بمعنى الإباحة، وهو يعني الإعداد له بما يستوجب من إعداد العدّة والتهيئة له بالرّجال والمال. كان أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يستأذنون الرّسول في الرّدّ على من يؤذيهم بمكة بما يكفّ عنهم وعن المستضعفين الذين أسلموا، وكان الرسول صلّى الله عليه وسلّم يدعوهم للصبر على الأذى، وكان الوحي يدعو المؤمنين للإعراض عن الجاهلين، وللصفح عنهم، ولم يأذن لهم بردّ الفعل، وبعد بيعة العقبة على ما ذكره جلّ العلماء نزلت هذه الآية في الإذن لهم بقتال أعدائهم. (أُنظر تفسير أحكام القرآن لابن العربي الأندلسي وتفسير ابن عاشور والقرطبي والسيرة النبويّة لابن هشام). والمعنى: يباح للمؤمنين أن يدافعوا عن أنفسهم لردّ أذى أعدائهم عنهم بالقتال، وذلك لأنّهم ظلموا، وأوذوا كثيرا،

وإنّ الله تعالى يَعِدُهُم بنصرهم على أعدائهم، وهو تعالى قدير على نصرهم، وإلحاق الهزيمة بأعدائهم.

- ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ **(40)** :

قال ابن العربي في تفسيره أحكام القرآن، وهو شيخ القرطبي، وهو فقيه الأندلس في زمانه، وهو مالكي المذهب في هذه الآية : "قال علماؤنا كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قبل بيعة العقبة لم يُؤْذَن له في الحرب، ولم تَحُلَّ له الدماء، إنّما يؤمر بالدعاء إلى الله، والصبر على الأذى، والصفح عن الجاهل مدّة عشرة أعوام، لإقامة حجّة الله عليهم، ووفاءً بوعده الذي اِمتنّ به بفضله في قوله: "وما كنّا معذّبين حتّى نبعث رسولا". فاستمرّ النّاس في الطغيان، وما اِستدلّوا بواضح البرهان، وكانت قريش قد اِضطهدت من اِتّبعه من قومه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم، ونفوهم عن بلادهم، فمنهم من فرّ إلى أرض الحبشة، ومنهم من خرج إلى المدينة، ومنهم من صبر على الأذى. فلمّا عتت قريش على الله تعالى، وردّوا أمره، وكذّبوا نبيّه عليه السلام، وعذّبوا من آمن به، ووحّده، وعَبَده، وصدّق نبيّه عليه السّلام، واِعتصم بدينه، أذن الله لرسوله في القتال، والامتناع، والانتصار عمّن ظلمهم، وأنزل : (أذن للذين يقاتلون بأنّهم ظلموا – إلى قوله – الأمور) (الآية 41).

والمعنى: أُبيحَ القتالُ للذين هاجروا من ديارهم إلى أرض الحبشة أولا، ثمّ إلى المدينة المنوّرة، وهم المهاجرون الأوائل بغير ذنب، مُكْرَهين سوى أنّهم آمنوا بالله وحده، وتابوا عن الشّرك وأقلعوا عنه، فليستعدّوا له، وليعُدُّوا له عدّته، وإنّ الله تعالى ناصرهم لأنّهم نصروا دين الله الحقّ، والله تعالى هو القويّ العزيز الذي يَقهر ولا يُغلب. ولولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء لاستولى أهل الشّرك والباطل بالقوّة والظلم على أماكن عبادة المؤمنين، ولهدموها: معابد رهبان النّصارى، الأديرة، ومعابدهم في (صوامعهم) المنقطعة عن النّاس والبعيدة عنهم للاختلاء فيها للعبادة، وكذلك (البيع) وهي معابد العامّة المعروفة بالكنائس، وكذلك (صلوات) وهي معابد اليهود، و(مساجد) مصليّات المسلمين التي يذكر في جميعها اسم الله كثيرا بالدعاء والابتهال والتسبيح والتذكير بشرعه ومواعظه. وكتب الله تعالى أن ينصر عباده المؤمنين الذين يدافعون عن دينه: دين التوحيد. إنّ الله تعالى قادر على نصرهم لأنّه قويّ، وهو تعالى العزيز الممتنع الذي لا يُغلب سبحانه.

والمُستفاد من الآية منع تهديم الكنائس، وكذلك دير اليهود ومعابدهم، وحرق المساجد، وما يفعله بعض المتنطعين الطائشين من حرق لدور العبادة أيّا كانت، لأيّ طائفة لأي سبب كان هو من التّعصّب الأعمى، ومن الجهل بالشّرع، وهو من الجهالة، ويجب فيهم الردع.

- ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ (41) :

هؤلاء المهاجرون إذا نصرناهم، وثبّتناهم في الأرض، وأقاموا دولتهم وحكمهم، داوموا على إقام الصلاة طاعة لله تعالى وتقديسا له، وأدّوا زكواتهم: زكاة المال وزكاة الزّروع، وزكاة الأنعام، ليقيموا مصالحهم العامّة للبلاد، ولبناء قوّتهم وعزّتهم، وليؤازروا بها الفقراء والمساكين حتى لا يجوعوا، أو يحتاجوا لمعاشهم ولبناء المجتمع المتكافل في نظام حياتهم توحيد للقلوب وللصفوف، ونفّذوا شرع الله فيما بينهم بالحسنى وبالموعظة الحسنة، وحذّروا من إتيان المعاصي وكلّ ما نهى الله تعالى عنه ليستقيموا على الدين الحقّ وفضائله العامّة في حسن المعاملة والتعامل فيما بينهم. ويعود الأمر كلّه لله ليجازي الذين أحسنوا بالحسنى وزيادة، ويعاقب المسيئين والكافرين والظالمين.

- وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ (42) وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ (43) وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ (44) :

هذه في تسلية النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وفي وعيد الذين يشاقّونه ويكذّبونه. والمعنى: ولا تحزن إذا كذّبك هؤلاء المكابرون المعاندون فقد كان هذا دَيْدَنُ الكافرين في كلّ زمان مع كلّ نبيّ ورسول، فقد كُذّب قبلك نوح، وكذّب قوم عاد أخاهم هودًا وكذّب قوم ثمود أخاهم صالحا، وكُذِّب إبراهيم وكذلك لوط من أقوامهم، وكَذّب أصحاب مدين شعيبا، وكُذّب موسى فأمهلت الكافرين زمنا، أخرّت عنهم العذاب ثمّ أهلكت المكذّبين، واِستُؤْصِلوا، وانظر كيف اِنقلبت حياتهم من نعيم إلى نقمة وعذاب بسبب كفرهم وتكذيبهم لرسلهم.

- فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ (45) :

وكثيرا ما أهلكنا من قرى كانت ظالمة بالكفر فانظر إلى آثارهم لترى بيوتهم مقلوبة على أسسها، سقوفها متهدّمة، وحيطانها ساقطة، وآبار مياههم متروكة على هيئتها لا وارد لها، وترى قصورا مرتفعة البنيان خالية من ساكنيها، لأنّ سكانها هلكوا، وتلك عاقبة القرى الكافرة، وهذه الآية لإنذار القريشيين وتحذيرهم من تكذيبهم برسولهم صلّى الله عليه وسلّم.

- أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ (46) :



هذه للاعتبار بما جرى للأمم السالفة للاتّعاظ، وللخوف من أن ينزل بهم عقاب. والمعنى: ألم يمرّ هؤلاء الكافرون المكذّبون بالرّسل وبالوعيد أثناء سفرهم ببعض القرى والديّار التي خرّبت ودمّرت، والتي ذهب عنها أهلها فلم تَعُد تسكن، ولم تُعَمَّرْ بعدهم رغم ما فيها من آبار يشرب منها المسافرون ليسألوا أنفسهم عمّا أصاب سكّانها ليعلموا سبب ما حلّ بهم من مهلكة فيتّعظون، ويعقلون عاقبة الكفر والمكابرة وعاقبة التكذيب بالوعيد وبقدرة الله تعالى على عباده. ألم يسألوا عمّا أصابهم ليعرفوا خبرهم، أم يمرّون على هذه الآثار صمّا وعميانا بلا إحساس، وبلا وعْي. (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ) آية صارت تجري مثلا للمكابر المعاند الذي لا يحسّ ليعتبر، ولا يسأل ليعلم فيستفيد من العواقب ليحذر ما يجب الحذر منه، وليميّز بين الحقّ والباطل. والمعنى: قد يكون الإنسان مبصرا ولكن حين لا يستفيد مما يرى ممّا يجري من حوله فإنّه يكون مُعطّل العقل، متحجّر القلب بسبب غفلته وجهالته. واقِعُ الأمر أنّ كلّ من لا يعتبر بأخبار السلف، ولا يستفيد من أخطاء غيره ليحذرها هو أعمى القلب، والعمى الحقيقي ليس في البصر وإنما في القلب الذي في الصدر. العمى الحقيقي هو عمى البصيرة وليس في عمى البصر، فكم من كفيف البصر أكثر علما، وأفضل إدراكا، وأحسن فهما من المبصر.

- وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (47) :

ويطلب منك كفّار قريش أن تعجّل بعذابهم تحَدّيا، وإنكارًا لحصوله، وسيأتيهم عذاب الله تعالى كما توعد، ولا خلف لوعده، فإنّه آت، وقد جاءهم هذا العذاب يوم بدر فقطع رؤوس الفتنة والكفر فجثم على القرية حزن عميق وغمّ إمتدّ بهم عاما، ثمّ تتالت فجائعهم في أشدّهم كفرا وتحدّيا في معاركهم المتتالية حتى كان يوم الفتح، عندئذ كسرت شوكتهم وأظهر الله دينه في قريش ومات أهل الكفر. إنّ الذي يستبطئونه واقع حتما وقريبا، وإنّ اليوم عند الله تعالى بحساب ألف سنة بحساب أهل الأرض، وليس اليوم عنده بحسب مقدار اليوم عند النّاس على وجه الأرض.

- وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ (48) :

(وَكَأَيِّن) بمعنى وكم للتّعبير عن الكثرة. والمعنى: وكم من قرية أمهلها الله تعالى فلم يعجّل لعقابها، والحال أنّ أهليها كانوا كافرين وعصاة مذنبين، ثمّ عوقبوا بعذاب الهلاك في دنياهم، وسيرجعون إلى الله أحكم الحاكمين يوم القيامة لينالوا عقابهم الأبدي عند الحساب.

- قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (49) :

هذه في بيان مهمّة الرسول صلّى الله عليه وسلّم وذلك للردّ على المكذّبين به. والمعنى: قل – يا محمد – لمن يكذّب بك وبرسالتك إنّما أرسلتُ إليكم لأحذّركم من عذاب الله وعقابه البيّن

والواضح في آثار قرى الأسلاف التي تمرّون عليها في أسفاركم إذا أصررتم على شرككم ولم تتوبوا منه وتقلعوا عنه.

- فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ **(50)** :

وأمّا الذين آمنوا بالله وحده، وأدّوا الطاعات، واِستقاموا على دين الله وشرعه، وتابوا من الشرك وأقلعوا عنه فإنّ الله تعالى يبشّرهم بالمغفرة، وبأن يجري لهم الخيرات والطيّبات في دنياهم وآخرتهم.

- وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ **(51)** :

وأمّا المعاندون والمجادلون في الرّسالة والوحي والبعث والوعيد، ويكذّبون بالدلائل والحجج عنادا ومكابرة وتكذيبا فسيكون مصيرهم إلى الجحيم يقيمون فيه إقامة دائمة كأنّهم مالكون له.

- وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ **(52)** :

كتبتُ سابقا في كتابي (تنوير المستنير في بيان معاني البيان ج5 ص 111-112) في هذه الآية ما يلي : "بعد أن بيّن الله تعالى أنّه لم يسلم رسولٌ من تكذيب قومه، وبعد أن ذكر وظيفته، بيّن هاهنا أنّه لم يسلم رسولٌ، ولا نبيّ من محاولة الشيطان أن يفسد عليه جهوده في هَدْي قومه بإغضابه، أو إشعاره بالإحباط واليأس (كالذي حدث مع يونس)، ولكنّ الله جلّ وعلا عَصَم رُسله وثبّتهم، وجعل آياته محكمات محصنات بلا تزييف، وأفسد كيد الشيطان، فمن آمن بما أنزل الله على رسوله فقد اِهتدى ونجا، ومن أعرض عن آيات الله فقد ضلّ وخسر، وقد ذكر جمع من المفسّرين ها هنا (قصة الغرانيق) إعتمادا على رواية ابن أبي حاتم، وابن جرير والمنذر عن سعيد بن جبير في أسباب النّزول، وهي قصة ما كان يجب أن يُلتفت إليها، ولا أن تذكر في كتاب (كالذي فعله سلمان رشدي في كتابه: الآيات الشيطانية، أثار به فتنة كبيرة في أوساط المسلمين) إلاّ إذا كان القصد فضح اِفتراء المفترين (وهذا القصد لم يكن في كتاب سلمان رشدي).

ورواية قصّة الغرانيق لم تصحّ عند المحقّقين، وعند علماء التّفسير الباحثين من وجوه كثيرة. قال ابن العربي وعياض: "إنّ هذه الروايات باطلة لا أصل لها". وقال الرّازي: "أمّا أهل التّحقيق فقد قالوا: هذه الرواية باطلة موضوعة، واحتجّوا عليها بالقرآن والسنّة والمعقول". وقال الشيخ ابن عاشور : "وهي قصة يجدها السامع ضغثا على إبالة، ولا يُلقي إليها النِّحْرِيرُ بَالَهُ، وما رُويت إلاّ بأسانيد واهية، ومنتهاها إلى ذكر قصة وسندُها إلى ابن عباس سَنَدْ مطعون... ولو رواها الثقات لوجب رفضُها وتأويلُها فكيف وهي ضعيفة واهية، وهي أخبار آحاد تعارض أصول الدين لأنّها

تخالف أصل عصمة الرسول صلّى الله عليه وسلّم (التحرير والتنوير ج.17 ص 304). وفي شرح الطيبي على الكشّاف للزمخشري: "إنّ كلمات الغرانيق من مفتريات ابن الزّبعري".

ولقد جاء في هذه الآية إشكال آخر في التّفريق بين الرسول والنّبيّ فقد جاء فيها (وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ) وقد ذكر القاضي عياض في كتاب (الشفا) في هذه المسألة، والصحيح والذي عليه الجمّ الغفير أنّ كلّ رسول نبيّ، وليس كلّ نبيّ رسولا، واحتجّ بحديث أبي ذرّ، فقد سئل الرّسول صلّى الله عليه وسلّم عن عدد الأنبياء فقال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا، قيل: فكم الرّسل منهم؟ قال: ثلاث مائة وثلاثة عشر جمًّا غفيرا". وقال الزمخشري في التّفريق بين مهمّة النّبيّ ومهمة الرّسول فقال إنّ الرّسول نبيّ أُمِرَ بالتّبليغ، وهو المبعوث بشريعة محدّدة يدعو النّاس إليها،والنبيّ أعمّ من الرّسول، فهو من لم يُؤْمَرْ بتبليغ شريعة محدّدة، وإنّما أوحي إليه أن يصلح أمر قومه بحملهم على العمل بشريعة سابقة، وبتقرير شرع سابق كمثل الأنبياء الذين أرسلوا إلى بني إسرائيل بين موسى وعيسى عليهما السلام مثل يوشع، وغيره كثير. ومحمّد بن عبد الله نبيّ ورسول صلّى الله عليه وسلّم جاء بشريعة الإسلام، وبكتاب القرآن المهيمن وهو النبيّ والرّسول الخاتم.

والمعنى: وما أرسلنا قبلك – يا محمّد – من رسول ولا نبيّ إلاّ إذا قرأ كلام الله تعالى وتلاه وكان الرّسول يتمنّى شيئا لقومه إلاّ دخل الشيطان في أمنيته فأدخل عليه اِضطرابا في قراءته، فيذهب الله تعالى عن رسوله وسوسة الشيطان، ويرفع عن نفسه الخواطر، ويثبّته على الكلام الذي أوحي إليه من ربّه، ويجعله محصّنا من كلّ تشويه، ويحكم آياته على النّحو الذي أنزلت عليه. والله سبحانه عليم بمحاولات الشيطان في الإفساد والتّشويه، وحكيم في إبطال عمله وتثبيت رسله. والله أعلم.

وعند الشيخ ابن عاشور رأي آخر في تفسير هذه الآية قال في (التحرير والتنوير ج17 ص300) : "ومعنى هذه الآية أنّ الأنبياء والرّسل يرجون اِهتداء قومهم ما اِستطاعوا فيبلّغونهم ما ينزل إليهم من الله ويعظونهم، ويدعونهم بالحجّة والمجادلة الحسنة حتّى يظنّوا أنّ أمنيتهم قد نجحت ويقترب القوم من الإيمان... فيأتي الشيطان فلا يزال يوسوس في نفوس الكفّار ينكصون على أعقابهم، وتلك الوساوس ضروب شتّى من تذكيرهم بحبّ آلهتهم، ومن تخويفهم بسوء عاقبة نبذ دينهم، ونحو ذلك من ضروب الضلالات التي حُكِيت عنهم في تفاصيل القرآن، فيتمسّك أهل الضلالة بدينهم، ويصدّون عن دعوة رسلهم، وذلك هو الصبر الذي في قوله: "وانطلق الملأ منهم أن اِمشوا واِصبروا على آلهتكم" وكلّما أفسد الشيطان دعوة الرسل أمر الله رُسُله فعاودوا الإرشاد، وكرّروه، وهو سبب تكرّر مواعظ متماثلة في القرآن، وبتلك المعاودة يُنْسخُ ما ألقاه الشيطان

وتُثْبَتُ الآيات السالفة، فالنّسخ: الإزالة، أي ينسخ آثار ما يُلقي الشيطان، والإحكام: التّثبيت، أي يحكم آثار آياته.

هذه وجهة نظر معقولة، ومثبتة بالحجّة. نظر في عمق الآية وبخاصّة في المقصد فأُرشد لهذا الرّأي، وأُلهِمَهُ. وقد جاء في درس من دروس الشعراوي التلفزية: "من اجتهد في النّظر في آيات ربّه وتدبّرها ألهمه الله تعالى حُسْن الفهم" أو كما قال: وما يُعاب على جملة من المتطفّلين على العلم في كافّة البلدان الإسلامية أنّهم يظنّون أنّهم يفهمون ما جاء في التّنزيل من فطنتهم، وما لهم من فطنة، ولا علم، ولا هم يبحثون، ولا يقرؤون لمحدودية العلم والفهم عندهم، وفي القرآن الكثير من الآيات التي يَشْكُلُ على أهل العلم فهمُها، ويختلفون في إدراك المقاصد، وأمّا المتطفلون على هذا العلم فليس عندهم أيّ عسر في فهم كلّ آية. فلَيْتهم يعرفون حدودهم ويقفون دونها. فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا.

- لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ (53) :

إنّ ما يلقي الشيطان في نفوس النّاس من تشويش على آيات الله ليدخل فيها مفاهيم باطلة يجعله اِمتحانا لهم ليُعرف (لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ) وهم المنافقون بما يجادلون فيه، وبما يقولون، وليعرف كذلك (وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡ) وهم المشركون بما يقولون فيها من ضلالاتهم. وإنّ الكافرين في خلاف كبير مع الحقّ وأهله، وفي عصيان ومشاقّة لله جلّ وعلا ولرسوله صلّى الله عليه وسلّم.

- وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (54) :

ليس فيما أوحي إليك – يا محمد – شيء من إلقاء الشيطان، وإنّ الذين أوتوا العلم ليعلمون أنّه حقّا من عند ربّك لأنّهم لم يجدوا فيه اِضطرابا، فلذلك هم يؤمنون به، وعند سماع ما تيسّر منه تخشع له قلوبهم، وتطمئنّ، وتتواضع لذكر الله عزّ وجلّ. إنّ الله تعالى يرشد المؤمنين أولي العلم والمخبتين إلى الطريق القويم الذي يبلّغهم هدي ربّهم في دنياهم، ويرفع درجتهم عند ربّهم يوم الدّين.

- وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ(55) :

وأمّا الكافرون فإنّ شكّهم في الوحي مايزال متمكّنا من قلوبهم فيجعلهم حائرين قلقين بين الشكّ والتّكذيب حتّى يفاجؤوا بساعتهم ويموتوا فيستريحوا من شكّهم، أو حتى يقوموا للحساب، وعندئذ يتأكدون من صدق ما جاءهم ويزول عنهم الشكّ، يومئذ يكون يومهم عقيما لا يرون فيه خيرا.



• ﭐلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (56) :

إذا قامت الساعة فلا حكم إلاّ لله تعالى لا ينازعه فيه منازع، ومن أحكام الله تعالى في عباده يوم القيامة أنّ كلّ من آمن وعمل صالحا يفوز بدخوله إلى جنّات الرّفاه والتكريم.

• وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ (57) :

وأمّا الكافرون والمكذّبون بالرّسل وبالوحي وبالوعيد فإنّهم يُعذّبون بعذاب يذلّهم ويُهينُهم بعد أن كانوا في دنياهم سادة وزعماء وأشرافا ومتكبّرين.

• وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (58) لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ (59) :

هذه في الترغيب في الهجرة بدين الله لاتقاء أذى المشركين حتى لا يفتنوهم في دينهم، وهي كذلك في تبشيرهم بالدرجات العلا من التكريم إذا لقوا حتفهم. والمعنى: والذين فارقوا بلادهم وديارهم وأرزاقهم وعشائرهم في مرضاة الله تعالى، أو جهاد العدوّ، هؤلاء يبشّرهم الله الكريم بدرجة أعلى من التكريم يوم القيامة. وإذا قُتِلوا في طريقهم إلى الهجرة من طرف أعدائهم، أو ماتوا ميتة بغير قتال، وهم في طريقهم إلى الهجرة فإنّ الله تعالى يعدهم بأن يعطيهم ويمنحهم رزقا طيّبا مباركا كثيرا لا ينقطع، وإنّ الله لهو خير الرّازقين لأنّ الرّزق من عنده ولأنّه الجوّاد الكريم، ويعدهم بأن يدخلهم الجنّة المدخل الذي يحبّونه، ويرضون به، وإنّ الله عليم بما يحبّ عباده، وبما يحبّون أن يُكرموا به، ورؤوف بعباده المطيعين رفيق بهم ورحيم بهم، لا يؤاخذهم عن شيء ممّا كانوا يعملون من الذنوب التي سبقت هجرتهم.

• ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ (60) :

هذه في الإباحة للمسلمين بأن يردّوا كيد أعدائهم بمثله، ومن عاد من الأعداء للكيد فإنّ الله واعد المسلمين بنصرتهم عليهم: "وجزاءُ سيّئةٍ سيّئة مثلها". والمعنى: ويُباح للمهاجرين أن يردّوا كيد أعدائهم بمثله، إن قاتلوكم فقاتلوهم، وإن أسروا لكم أنفارا فأسروا منهم أنفارا، ومن هجاكم منهم فاهجوهم بمثله، ولا تتجاوزوا الحدّ في ردّ الكيد تجنّبا للظلم والجور، وإذا لم يرتدعوا عن إيذائكم وزادوا في ظلمهم وإلحاق الأذى بكم فاعلموا أنّ الله ناصركم عليهم. إنّ الله تعالى يعفو عن المهاجرين، وعن المؤمنين الذين يقاتلون أعداءهم في الشهر الحرام الذي قاتلهم فيه المشركون منتهكين حرمة الشهر، ويغفر ذنوبهم.

• ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ (61) :

ذلك النّصر على أعدائكم أمر مؤكّد بمثل ما إنّ الله قادر على إدخال الليل في النّهار، وإدخال النّهار في الليل فيجعلهما متعاقبين، وفي هذا إشارة لتغيير أحوال العباد وأزمانهم، فدوام

الحال من المحال، وإنّ الله تعالى عليم بأحوال عباده يسمع دعاءهم، وبصير بحالهم، ولا يغيب عنه أمرهم وحاجتهم.

- **ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ (62) :**

ذلك النّصر يستحقّه المسلمون لأنّهم يعبدون الله الحقّ، ووعده بنصرهم على المشركين حقّ، وأن الأصنام التي يقدّسها المشركون ويعبدونها هي الباطل، وكلّ باطل زاهق، وهي جامدة لا نفع لها ولا تنصر عبّادها. وإنّ الله تعالى فوق كلّ شيء، وعظيم وكلّ شيء دونه.

- **أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ(63) :**

ألا ترى أيّها المشرك قدرة ربّك فيما ينزل من السماء، وفيما يحدث في الأرض حين تروى بماء السماء كيف تتحوّل ممّا كانت عليه من جفاف ويُبس إلى أرض خضراء تنبت العشب والكلأ والنبات والشجر، وتغدو نامية مثمرة. إنّ الله لطيف بعباده يرزقهم من السماء ومن الأرض، وهو خبير بحاجتهم وفاقتهم، وعليم بما ينفعهم ويصلح لهم، فاعبدوه، ودعوا عبادة ما لا ينفعكم بشيء، ولا يعلم حاجتكم ولا يرفق بكم.

- **لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ (64) :**

والله تعالى مالك لكلّ ما في السماوات، ولكلّ ما في الأرض، والذين تدعون من دونه لا يملكون شيئا، ولم يخلقوا شيئا، وآلهتكم غير قادرة على شيء فَلِمَ تعبدونها وهي مسلوبة الإرادة، والله تعالى هو الغنيّ بما يملك، والمستغني عن عباده وخلقه، وهو الحميد المحمود في السماوات وفي الأرض من جميع الكائنات، كلّ خاضع له ولإرادته، فاعبدوا الله ولا تشركوا به أحدا.

- **أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ (65) :**

الاستفهام في هذه الآية لإثارة اِنتباه الإنسان لتحفيز عقله حتّى يعرف ربّه الحقّ الحقيق بالعبادة والطاعة عن طريق وضع السؤال لنفسه، من سخّر للنّاس ما في الأرض بكل مكوّناتها بما فيها الأنعام، ومن قدّر ليجعل الفلك الصغيرة تجري في البحر على سطحه دون أن تغرق بركّابها بل هي تطفو في اليمّ وتعلو الأمواج، ومن مسك السماء العُليا بكواكبها وأفلاكها ولم يجعلها تسقط على الأرض وتدمّرها بجميع ما عليها، ويجعلها قائمة؟ فلْيتدبّر الإنسان هذه المظاهر الكونية ليعرف ربّه الحقّ القدير. إنّ اِستقرار الحياة على الأرض بدون فواجع طبيعيّة نازلة عليها من السماء أعظم دليل وأوضحه على رحمة الله بعباده، وخير دليل على رأفته بهم، فوجب على النّاس جميعهم الإيمان به، وطاعته، والشكر له، والإقرار له بالعظمة واللطف وحسن التّدبير.



- **وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ (66) :**

والله هو الذي أوجدكم في هذه الحياة بعد أن كنتم في العدم، ولم تكونوا شيئا مذكورا، وهذا بتقديره، ثمّ ستموتون عند حضور آجالكم التي قدّرها لكم، ولم يقدّرها أحد غيره، ولا تملكون ردّ قضائه وتقديره، إنّ إحياءكم وإنّ إنهاء وجودكم بأمره وحده، ولا أحد يملك معه شيئا من هذا التقدير وهذا الخلق بالحياة والموت معا، ثمّ هو سيُحييكم لمحاسبتكم على أعمالكم لأنّكم من خلقه ومن صناعته، فكيف لا تؤمنون بربّكم الخالق القدير؟ إنّ الإنسان كثير الجحود، وكثير الكفر بصاحب النّعمة عليه، وكثير النكران للحقائق، وشديد التّكذيب بآيات الله الدالّة على وجوده وتقديره ووحدانيته في الخلق وتصريف شؤون العباد، وشؤون جميع المخلوقات والكائنات في السماوات وفي الأرض.

- **لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ (67) :**

لكلّ أمّة جعلنا شريعة خاصّة، وقيل: عبادة خاصّة، وقيل: نوعا من المنسك لإهراق الدم لتعظيم الله تعالى وتقديسه. (فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِ) كان المشركون يجادلون النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فيما جاءهم به من الدعوة إلى الإسلام، وكان الوحي ينزل عليه بأنّه على ملّة إبراهيم، والمشركون يدّعون بأنّهم هم الذين على ملّة إبراهيم في عبادتهم في الطواف وتقديس البيت وفي إهراق الدم الذي يقدّم للكعبة هَدْيًا، وأنّ محمدًا صلّى الله عليه وسلّم قد جاءهم بدين جديد، وأنّه قد خرج على ملّة إبراهيم التي كانوا عليها. وجاءت هذه الجملة لترك مجادلتهم في هذا الأمر، وبالانصراف عن جدالهم العقيم، للانصراف للدعوة لتوحيد الله، وعبادته وحده، وللمثابرة على تبليغ النّاس بما أُرسل به إليهم دون إضاعة الجهد في جدال من لا يقتنع بشيء عنادا ومكابرة. (إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ) إنّما تدعو إليه هو الهدى الحقيقي الذي يقيم النّاس على الدّين الحقّ القائم على الحجّة والبرهان.

- **وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ (68) :**

وإن ناقشوك وخاصموك فيما تدعوهم إليه عنادا ومكابرة فقل لهم الله أعلم بما تعملون، لكم دينكم ولي دين، لي عملي ولكم عملكم، والله يفصل بيننا يوم الحساب. وفي هذه الآية توجيه للمؤمنين بأن لا يُقحموا أنفسهم في مجادلة عقيمة في الدين مع ملحدين معاندين، فإنّ مجادلتهم لا تُبَلِّغُ لشيء، ولا تحسم أمرا معهم.

- **ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ (69) :**

هذه للحسم في المجادلة: يُتْرَكُ الأمر لله تعالى للفصل بين المسلمين والمشركين فيما كانوا فيه مختلفين في العقيدة، وفي الطاعات، وفي الإيمان بآيات الله ورسوله وكتابه.

- **أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ(70):**

الاستفهام في الآية للتذكير والتنبيه بأنّ الله عزّ وجلّ يعلم كلّ ما يجري في السماء وما يجري في الأرض في عمل مخلوقاته، وفي تصرّفاتهم. كلّ ذلك مسجّل عنده في سجلّ المحاسبة. وهذا من الأمر اليسير على الله عزّ وجلّ فإذا قاموا للحساب جُزِيَ كلّ واحد عمّا عمل وعن طاعته خيرا أو شرّا.

- **وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ(71) :**

وهذه في بيان ضلالة المشركين. يعبدون آلهة غير الله الحقّ، ليس لهم حجّة ولا دليل على اِستحقاقها للألوهيّة لتُعْبد، واِتّخذوها آلهة بغير علم، وإنّما من الادّعاء الباطل ومن الوهم. إنّها آلهة من زعمهم لا تملك قدرة على نصرة من يدعوها، وهكذا فإنّ المشركين ليس لهم نصير ولا معين ولا مجير لأنّهم ضلّوا طريق المعبود القدير والنّصير الحقّ.

- **وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ(72) :**

وإذا سمع المشركون آيات الله الواضحة التي تبيّن الدين الحقّ، وتفضح ضلالة الشرك وبطلان آلهتهم، رأيت على وجوههم علامات تظهر نفورهم ممّا يسمعون، وعلامات الغيظ، ويكادون يثورون على القارئ الذي يقرأ عليهم القرآن للبطش به بالضرب والشّتم. أخبر هؤلاء بشرّ ممّا سمعوا وأثار غضبهم: إنّكم موعودون بحشركم في النّار لتعذّبوا بها، لقد أعدّت للذين كفروا بالله وبوحدانيته، وما أسوأ مصيرهم وعاقبتهم.

- **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ(73) :**

بعد أن بيّن الله تعالى عظيم قدرته في خلق السماوات وما في الأرض، وفي مظاهر أخرى من تسخيره للكائنات لفائدة الإنسان جاءت هذه الآية في ضرب مثل دامغ لبيان عجز الآلهة التي تُعبد من دونه عن خلق أتفه خلق الله في الصغر وفي الإفادة، وفي عجزها على اِستعادة ما يسلب منها من هذا المخلوق الصغير الحقير عند النّاس. وإنّ العالم الخبير بتكوين جسم الذبابة ونشأة خلاياها، وأهمية الشعيرات الدقيقة التي في أرجلها الدقيقة فيِ اِلتقاط أغذيتها، ونقل الأوساخ والأمراض، هو أكثر النّاس يقينا وشاهدا على إبداع خلق الله تعالى في الذباب، هذا الكائن العجيب الذي يتّفق جميع الخلق على وصفه بالحقير، مثله مثل البعوض.



والمعنى: يا أيّها النّاس – والخطاب هنا موجّه للمشركين بدليل قوله تعالى (إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ) استمعوا لهذا المثل: إنّ جميع آلهتكم التي تدعون من دون الله لن تستطيع أن تخلق أحقر خلق الله، ذبابة مثلا، ولو اِنضمّ بعضهم إلى بعض للتعاون على خلقها. وإذا سلبت ذبابة شيئا من إلاه من آلهتكم فإنّ هذا الإلاه لا يستطيع أن يستردّ ما سلب منه، ولا قدرة له على ذلك. لا قدرة للأصنام عليها رغم ضعف الذبابة وحقارتها، ولكنّ هذه الذبابة أعظم من أن ينال منها إلاه من آلهتكم. ما أضعف إلاهكم الطالب لحقّه المسلوب! وما أضعف الذباب المطلوب السالب لإلاهكم شيئا منه بدون إذنه. تدبّروا هذا المثل، وتعرّفوا على ربّكم الخالق القدير، واتركوا الأعجز من الذبابة والأضعف.

- **مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ (74) :**

إنّ المشركين لا يعظّمون الله حقّ تعظيمه من جهلهم به، ومن جهلهم بقدرته العظيمة بسبب تقليدهم لأسلافهم، وعمى بصيرتهم، وتعطيل عقولهم عن تدبّر ما جاءهم من عند الله عبر رسله. إنّ الله جلّ جلاله قويّ شديد الأخذ والعقاب بعباده الكافرين المعاندين، عزيز لا يُغلب، ولا يُردُّ أمره عن التّنفيذ.

- **ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ (75) :**

إنّ الله وحده هو الذي يختار من يشاء من الملائكة ليكونوا رسله للأنبياء والمرسلين، أو لأداء مهامّ محدّدة. اِختار جبريل عليه السلام للوحي، واِختار ملائكةً رسلا لإبراهيم وللوط. وهو وحده الذي يختار من يشاء من عباده ليكونوا رسلا للنّاس بهديه تعالى، وبشرعه، وبإنذاره وتبشيره. إنّ الله يسمع ما يقوله المتكبّرون الكفّار في اِختياره لرسوله إليهم من تعييب أو تحقير، ويبصر ما يكيدون وما يفعلون للصّدّ عن سبيله.

- **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ (76) :**

والله تعالى عليم كلّ العلم بما يجري لرسله المكلّفين بحمل رسالته إلى النّاس، وعليم كلّ العلم بما يُدَبَّرُ لهم في الخفاء من مكائد. وهو تعالى عليم باجتهادات رسله في التبليغ وحرصهم على أداء رسالة ربّهم لأقوامهم، وعليم بما خلّفوا لهم من مواعظ وسنن وحكمة. وإلى الله ترجع الأمور كلّها، وسيحاسب كلّ واحد من عباده عمّا فعل، وعن إيمانه، وعن طاعته أو عصيانه.

- **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (77) :**

تشعرنا هذه الآية وما تليها باختتام السورة التي بدئت بالوعيد الشديد، وجاءت هذه الآية بالإخبار بما ينجي من ذاك الوعيد، وبدئت السورة بالتّوجّه للنّاس كافّة، وأُختتمت بالدعوة



للمؤمنين خاصّة لأنّهم أهل الطاعة. وجاءت بأمرين إثنين للمؤمنين ليكونوا من المفلحين الفائزين برضوان الله تعالى ورحمته ونعيمه، وهما: عبادته تعالى، وهذه العبادة تتجسّم بإقام الصلاة بركوعها وسجودها وبالمداومة عليها والامتثال لأمره تعالى. والأمر الثاني فعل الخيرات، هي كلّ أعمال البرّ. ومن أعمال البرّ : الإحسان للآخر، والاستقامة على دين الله باجتناب معصيته ونواهيه، وأداء أعمال النَّدْبِ.

- وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ (78) :

وهذه في موعظة المؤمنين وإرشادهم لما ينفعهم في دنياهم ودينهم، وجاء هذا الإرشاد بعد إعطاء حقّ الله في الطاعة والعبادة وفي عمل الصالحات. وقوله تعالى في هذه الآية (وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ) لا يخصّ فقد الانخراط في قتال الأعداء من أهل الكفر لردّ عدوانهم، إنّما لأمر في هذه الآية أمر عامّ يشمل جميع مرافق الحياة لتحمُّل أعبائها بقوّة وصبر وثبات وبالإعداد لها بما تحتاج من علم أو عمل أو مال أو كسب. من مفاهيم الجهاد في هذه الآية وجوب المثابرة على العمل، وعلى أدائه على الوجه المطلوب في إحسان، ووجوب السعي الدؤوب لإعالة النّفس، وإعالة الأسرة والعيال، والوالدين العُجَّز، الإنسان مُستخلف في الأرض وكُتب عليه أن يشقى في سعيه ليأكل من كدّ يده، ومن عرق جبينه، وألاّ يكون عالة على غيره. وقد جاء في الحديث الشريف أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد قال عند عودته من غزوة تبوك عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر (رواه البيهقي عن جابر بن عبد الله) عدّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم جهاد القتال جهادًا أصغر إزاء الجهاد لمكابدة أعباء الحياة، وتحمّل مسؤولية القيام بمهام الأسرة والمجتمع. ومن الجهاد مقاومة هوى النّفس لحملها على أداء الطاعات، والعمل الصالح، وترك المنكرات، والحذر من الوقوع في الفواحش والآثام والمعاصي. ومن مجاهدة النّفس التعامل مع النّاس بالحسنى حتى لا تُقابل السيّئةُ بالسيّئة فيكثر العنف في النّاس. ومن الجهاد طلب العلم، وتحمّل مشقّة السهر والسفر في طلبه والبحث فيه. ومظاهر الجهاد في حياة الإنسان متعدّدة. والآية تُشير إلى هذا الجهاد، وهو جهاد في الله لأنّ هذه العناصر كلّها من طاعة الله لأنّ طاعته لا تقتصر على العبادات، فإنّ من الطاعات ما هو في المعاملات بين النّاس، ومنها ما هو في الاستقامة على المُثُل والأخلاق السامية التي دعا إليها الله تعالى في كتابه، وجسّدتها السنّة النبويّة وسنن الأنبياء من قبل، وحضّ عليها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في أحاديثه القولية

وفي سنّته الفعلية. ويجب أن يكون هذا الجهاد حقّ الجهاد أي جهادا قائما على صدق وقناعة وإخلاص وإحسان يطلب به المؤمن أجره من عند الله تعالى، ولا يريد به جزاء ولا شكورا، ولا مراءً وسمعة، أو يطلب به جاها.

(هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ) في هذه الجملة فخر للمؤمنين، فمن اِهتدى للإيمان وللإسلام فقد تفضّل الله تعالى عليه بأن اِختاره لذلك، وهداه إليهما (وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ)(الأعراف الآية 43) وليكون واحدا من خير أمّة أُخرجت للنّاس. ولقد يسّر الله لكم شريعته في هذا الدين، فلم يكلّفكم فيه بما لا تطيقون، ولم يجعل لكم فيه ضيقا. وهذا الدين على ملّة إبراهيم وشريعته في التّوحيد. ومن يَقُلْ بالشّرك فهو ليس على ملّة إبراهيم. (هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ) الله تعالى هو الذي سمّاكم المسلمين. ضمير الشأن (هُوَ) في هذه الجملة يعني الله عزّ وجلّ، وفي هذا تشريف آخر للمسلمين. الإبراهيمية نسبة لأتباع إبراهيم، اليهوديّة نسبة لليهود، والنصرانية نسبة لأتباع المسيح الذين قالوا: إنّا نصارى. وأمّا أتباع دين الله: دين التّوحيد الذي جاء به محمد صلّى الله عليه وسلّم فسمّاهم الله تعالى : المسلمين. سمّاهم تعالى بهذه النِّسبة (مِن قَبۡلُ) أي من عهد نوح عليه السلام، قال تعالى على لسان نوح: (وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ)(يونس الآية 73) و(وَفِي هَٰذَا) أي وفي القرآن لقوله تعالى (إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ)(آل عمران الآية 19) وفي هذه الجملة كذلك. وسيكون الرّسول محمد صلّى الله عليه وسلّم شهيدا عليكم بأنّكم آمنتم به، وبما جاءكم به. (وَتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ) هذا فخر آخر للمسلمين وفضل عظيم إذ جعل المسلمين شهودا على النّاس في إيمانهم وعملهم، ومن أهمّ صفات الشهود أن يكونوا عدولا وصادقين. فداوموا على إقام الصلاة في وقتها، ولا تفرّطوا فيها لتكون علاقتكم بربّكم مستمرّة في كامل اليوم. وآتوا الزكاة لتجسّموا طاعتكم لربّكم، ولتجسّموا أخوّتكم الإيمانية وإحسانكم ومؤازرتكم لبعض، ولتُقيمُوا مصالحكم العامّة فتكون لكم صدقات جارية ينتفع بها جمعكم والذين يأتون من بعدكم من خلفكم. وتقَوَّوْا بالله وتوكّلوا عليه وثقوا به هو وليّكم وناصركم حقّا، وهو المتصرّف في أموركم، وهو معكم بالعون والإرشاد. موعظة لو عمل المسلمون بمبادئها لعزُّوا.

اللهم كنْ لنا وليّا ونصيرا يا نعم المولى ونعم النّصير.

رقمها	ســـــورة المؤمنـــــون	آياتها
23	ـــــ مكيّة ـــــ	118

سمّيت سورة: "المؤمنون" لافتتاحها بعرض جملة من الصفات الّتي يحبّها الله في المؤمنين، فتجعلهم من المفلحين الفائزين برضوانه ونعيمه المخلّد.

روى الأيمّة: أحمد والترّمذي عن عمر بن الخطّاب قال: كان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إذا أنزل عليه الوحيُ سُمع عند وجهه كدويّ النّحل، وأنزل عليه يوما فمكثنا عنده ساعة فسُرِّي عنه فاستقبل القبلة فرفع يديه، وقال: اللّهمّ زدنا ولا تنقصنا وأرْضِنَا وارْضَ عنّا. ثمّ قال : أنزل عليّ عشر آيات من أقَامَهُنَّ دخل الجنّة– ثمّ قرأ –"قد أفلح المؤمنون" حتّى ختم عشر آيات– صحّحه ابن العربي.

ومواضيع هذه السورة لا تختلف عن مواضيع كلّ السور المكيّة التي كانت تنزل لتركيز العقيدة السليمة القائمة على الدعوة للإيمان بالله تعالى وحده ونبذ الشرك.

جاء في هذه السورة الترغيب في الإيمان، وعرضت صفات المؤمنين المثلى، عرضت جملة من آيات الله تعالى في الخلق والقدرة والتقدير في ذات الإنسان، وفي جملة من مكوّنات هذا الوجود، وهذا الكون للتعريف بالله الخالق القدير قصد التخلّص من اِتّباع الأساطير الواهية.

دعت السورة للاتّعاظ بعواقب الأمم السالفة الكافرة والمشركة التي هلكت بسبب تكذيبهم برسلهم والهزء بهم، وذلك للحذر من نفس السلوك. دعت للإيمان بالبعث ولقاء الآخرة، وعرضت مشاهد ممّا سيلحق الكافرين في آخرتهم من ألوان العذاب، وذلك للحذر من الوقوع في نفس المصير، ومن الشعور بالندم في زمن لا ينفع فيه ندم. وذكرت بأنّ من صفات جميع الرّسل أنّهم بشر مثلنا. وذكّرت بأنّ دعوة النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم، هي دعوة للصراط المستقيم. وفي السورة وعد للمؤمنين بجزيل العطاء من الخيرات في آخرتهم، وأُختتمت السورة بنبذ الشرك، وبالمداومة على الدعاء بطلب المغفرة والرحمة من الله عزّ وجلّ.

وقد تميّزت هذه السورة بآيات قصيرة، قليلة المفردات جعلها سهلة الحفظ، يسيرة الفهم، ذات فواصل إيقاعية تشدّ السمع والذهن، وهذا من جمالية التركيب القرآني وإبداعه.

- قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ (1) :

(قَد) هنا للتحقيق، أي أنّ الفعل الوارد بعد(قَد) واقع حقّا. وأمّا الفعل (أَفۡلَحَ) فيعني الفوز بثمرة جيّدة من إنتاج العمل، كالفلّاح يخدم الأرض ويُعدّها لزرعه ليخصب، أو لغراسته ليثمر

شجره. فلابدّ أن يكون في هذا الفعل: عمل سابق، وإعداد جيّد، وغرس أو زرع، وإنتاج. حاصل الإنتاج هو الدّال على أنّ عمله كان ناجحا وموفّقا فيفوز بالخيرات، ومن لم يعمل ولم يغرس أو لم يزرع فليس له إلاّ الخيبة والإفلاس. ومن الحكمة جاء في النّداء للصلاة، وعند إقامتها: "حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح"، بمعنى تعالَ للصلاة لتكسب الخير وتفوز به.

والمبشّرون بالفلاح المحقّق أي الفوز بالخيرات من عند الله هم المؤمنون. والمؤمنون هم المصدّقون بالله الواحد الأحد، الطائعون له، العاملون بشرعه، المجدّون في عمل الصالحات للفوز بما عند الله من النّعيم والخيرات، وللفوز برحمته ورضوانه، وقد جاءت الآيات التسع الموالية في بيان صفاتهم المحمودة عند الله عزّ وجلّ.

- ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ (2) :

من أهمّ صفات المؤمنين أنّهم يتذلّلون في صلاتهم تعظيما لله تعالى، ويسكنون فيها تأدّبا.

- وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ (3) :

وإنّهم لا يقحمون أنفسهم في الكلام الباطل، والحديث الذي لا فائدة فيه، وهذا ما يمنحهم الوقار وصيانة ألسنتهم عن الخوض في الصغائر.

- وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ (4) :

وهم من أهل الجود والسخاء، يؤدّون ما عليهم من زكوات أموالهم وأراضيهم وأنعامهم، ولا يتخلّفون عن أدائها في أوقاتها طاعة لله تعالى ومؤازرة للفقراء.

- وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ (5) إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ (7) :

وهم من أهل العفّة والشّرف، وصيانة النّفس عن الفواحش، هم لا يزنون، لا يأتون إلاّ أزواجهم لابتغاء الولد، أو ما أحلّ الله لهم من ما ملكت أيمانهم، فإنّهم غير ملومين على إتيان ما أحلّ الله تعالى. وأمّا الّذي يتجاوز حدّ ما أحَلّ الله من الأزواج إلى إتيان شهوته مع المحارم من النّساء فإنّه مُعْتَدٍ على الحلال، ومُتَخَطٍّ لحدود الله تعالى، وآتٍ للفاحشة والمعصية.

- وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ (8) :

والمؤمنون أمناء يصونون الأمانات، ويردّونها لأهلها عند طلبها، وهم أوفياء لعهودهم لا ينقضونها. وهاتان من صفات الأشراف والنبلاء والعدول الثقات.

- وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ (9) :

وهم الذين يداومون على أداء صلواتهم في أوقاتها دون تفريط فيها لتكون علاقتهم بالله تعالى دائمة الصلة.

- أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ (10) ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ (11) :

اِستعمال اِسم الإشارة (أُوْلَـٰٓئِكَ) للبعيد للإشارة للمؤمنين للدلالة على رفعة مكانتهم وقدرهم عند الله عزّ وجلّ، فالمؤمنون المتّصفون بتلك الصفات المذكورة موعودون باستحقاق منازل في الجنّة، ومنازلهم كائنة بأعلى مكان في الجنّة وأفضل منزلة يقيمون فيها إقامة دائمة.

- وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ (14) :

هذه في اِنفراد الله تعالى بخلق الإنسان، ولم يخلقه غيره، فهو تعالى الأحقّ بالعبادة والتقديس والطاعة والشكر، وعبادة سواه عبادة باطلة، ليس له على الإنسان أيّ فضل. والقصد من هذا الاستدلال توعية المشركين ليعرفوا ربّهم الحقّ، وليعرفوا ضلالتهم ليتوبوا منها.

والمعنى: والله هو الّذي خلق الإنسان من مجموع ماء الذكر وماء الأنثى المسلول من دمهما. والأطباء وعلماء الأجنّة هم الأولى لتفسير تكوين هذه السلالة من إفرازات جسم الإنسان. ومن هذه السلالة تتكوّن النّطفة: الأصل الأوّل في تكوين الإنسان. والنّطفة هي اِجتماع منيّ الرجل الذي يخترق جدار بويضة المرأة فتتكاثر الخلايا عند حصول هذا الاختراق وتستقرّ في رحم المرأة، في مكان حصين. ثمّ تتحوّل النّطفة الملقّحة بتكاثر خلاياها إلى علقة، وهي دم جامد في شكل مستطيل تلتصق بجدار الرّحم لتتغذّى بالدم الذي يجري في عروق هذا الجدار، حتّى إذا كبرت العلقة تحوّلت بعد مدّة إلى قطعة لحم بقدر مضغة تمضغ بالفم، ثم تبدأ العظام تتشكّل داخل هذه المضغة، ويبدأ تكوين الهيكل العظمي للمخلوق، ثمّ تكسى العظام باللحم، وبعد مدّة ينشأ في رحم المرأة خلق في صورة إنسان له سمع وبصر، وله حركة وأعضاء وعروق ومخّ، خلق تامّ الصورة والتكوين، ويخرج مولودا في أحسن الخلقة وتمام التكوين، تبارك الذي خلقه وأنشأه سبحانه، ما أحكم تقديره، وما أحسن تدبيره! كلّ هذه المراحل التكوينية تجري في رحم المرأة، وهي لا تدري ما يجري فيها سوى شعورها بالضيق والتّعب والحراك داخلها. هذه التّفاصيل لا يعرف دقائقها إلاّ أهل الاختصاص في الطبّ وتكوين الأجنّة.

- ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) :

ثّم إنّكم بعد ولادتكم تحيون حياتكم على قدر الذي قدّره الله تعالى لكم ثمّ تموتون.

- ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ (16) :

ثمّ حين تقوم الساعة للحساب تبعثون للحياة من جديد.

- وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ (17) :



ولقد خلق الله تعالى سبع سماوات طباقا طبقات فوق بعض، ولم يخلقها أحد غيره ممن تدّعون له الألوهية، وما كان الله عزّ وجلّ غافلا عن حفظ الخلق الذين هم تحت هذه السماوات، فقد قدّر حفظهم فمسك السماوات حتى لا تسقط عليهم، وحفظهم من ضررها ومن شُهُبِها. ذاك هو الله ربّكم الحفيظ القدير فاعبدوه وأشكروا له، ودع عنكم شرككم.

- **وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ (18) :**

والله تعالى هو الذي أنزل لكم من السماء ماء بمقدار ما يسدّد حاجتكم منه وبما فيه الكفاية والمصلحة، ولو زاد عن المقدار المطلوب لكان الطوفان الذي يضرّ بكم، وأسكنّا شيئا منه في باطن الأرض تستخرجون بعضا منه بما تحفرون له من الآبار، ولو نشاء لجعلنا ماءكم غورا فتجفّ الآبار، ويُمنع عنكم القطر من السماء فتهلكون عطشا، فتعرّفوا على فضل ربّكم عليكم، وأشكروا له.

- **فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (19) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ (20) :**

وأنشأ الله لكم بما أنزل من السماء من ماء عذب بساتين من نخيل وأشجار العنب والفواكه المتنوّعة والكثيرة لتأكلوا منها، وأنشأ لكم شجرة مباركة هي شجرة الزيتون تخرج من جبل سيناء تثمر لكم زيتا تدّهنون به، وتعطيكم إداما لطعامكم. والمراد من الآيتين تعديد نعمة الله على النّاس ليجدوا طعامهم والزيت للطبخ والفاكهة للتّنعم بأكل الطيّبات، وما هذا إلا ليعرفوا نعمة الله عليهم ليشكروه، وليعرفوا حسن تقديره في الخلق، فكما خلق الإنسان خلق له ما تطيب به حياته على الأرض، وما يتغذّى به ليحيا، فسبحان الحكيم القدير.

- **وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (21) :**

وإنّ لكم في خلق الأنعام (الإبل والبقر والأغنام) دلائل على فضل الله عليكم، إذ جعلها مسخّرة ذلولا لكم لتقضوا بها حاجاتكم، ولتنتفعوا بكلّ شيء منها منافع كثيرة ومتنوّعة لأكلكم وللباسكم ولشرب ألبانها ولفُرُشكم، ولعلّكم تشكرون، وتعلمون صاحب الفضل عليكم لتطيعوه، ولا تطيعوا مَنْ دونه، ممّا ليس له أيّ فضل عليكم.

- **وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (22) :**

وعلى الإبل تركبون وتسافرون وتحملون أثقالكم، وكذلك على السفن التي تجري بكم على سطح ماء البحر أو النّهر الذي سخّره الله تعالى لكم لنقلكم دون أن تغرقوا فيه، فاشكروا ربّكم.

- **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ (23) :**

هذه إلى الآية 30 للاعتبار بسوء عاقبة قوم نوح الذين كذّبوا رسولهم، وأصرّوا على شركهم.

ولقد أرسل الله تعالى نوحا عليه السلام إلى قومه ليهديهم لتوحيد الله وتخصيصه وحده بالطاعة والعبادة، وقد دعاهم لنبذ الشّرك إذ ليس للخلق من إلاه إلاّ الله وحده. (أَفَلَا تَتَّقُونَ) اِستفهام للإنذار والتّحذير من الغفلة عن خشية الله تعالى.

- فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ (24) :

ولكنّ أشراف القوم، وزعماء الشرك من قومه تصدّوا لدعوته بدعوى أنّه من البشر، ظنّا منهم أنّ رسول الله لا يجب أن يكون إلاّ ملكا من الملائكة، واِتّهموا نوحا أنّه اِختلق دعوته طلبا للزّعامة وللقيادة، واِستدلّوا على اِتّهامه بأنّهم لم يسمعوا من آبائهم السابقين أنّ الله تعالى بعث لهم بشرا رسولا إليهم، وهكذا كذّبوا بدعوته.

- إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ (25) :

واِتّهموه بالجنون، ودعوا النّاس من حوله أن يترقّبوا زمنا قليلا حتّى يموت ويستريحوا منه.

- قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (26) :

فدعا نوح ربّه بأن ينصره على قومه الذين كذّبوا به.

- فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (27) :

فأوحى الله تعالى إليه بأمره: بأن يصنع سفينة كبيرة بإشرافه تعالى وتوجيهه وإرشاده ورعايته. وأمره عزّ وجلّ إذا رأى علامة دنو أجل إهلاك القوم، أن يُدخل في المركب من كلّ صنف من الحيوانات ذكرا وأنثى، وجماعة المؤمنين أتباعه، والعلامة يراها في التنّور الذي يخبز فيه خبزه، إذا رأى فيه نَبْعًا من الماء غزيرا، عندئذ عليه بالإسراع بإدخال ما أمر به ليركبه في المركب إلاّ من سبق عليه القضاء بعقابه ومن بينهم زوجه وابنه العاق، وعليه أن لا يطلب العفو للمشركين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والتكذيب بالوحي وبالهزء بالوعيد لأنّ الله تعالى قضى أن يعاقبهم بإغراقهم في الماء.

- فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (28) :

وأمره تعالى أن يحمد ربّه على فضله إذا ركب هو ومن معه على الفلك إذ أنجاهم من القوم الكافرين العصاة المكذّبين. والمُستفاد من الآية أن يحرص المؤمن على حمد الله تعالى وشكره في كلّ ما يجري عليه أمره، وأن يداوم على ذلك، ومن المُستفاد من هذا الأمر الربّاني إلى رسوله أنّ من أفضل الدعاء: الحمد لله، وأن يُستفتح الدعاء لله تعالى بحمده،. وقد كان رسول الله صلّى الله

عليه وسلّم يستفتح خطبه الجمعية بالحمد دوما، ولذلك يقول الفقهاء إنّ أول أركان الخطبة الجمعية اِفتتاحها بالحمد لله اِقتداءً بالسنّة النبويّة.

- وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (29) :

وعلّم الله تعالى نوحا ما يقوله في دعائه لإقامته فأرشده لأن يقول: ربّ أنزلني مكانا يكون كثير البركة، وأنت يا الله العليم بخير مكان في الأرض بركة ونماءً.

- إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (30) :

إنّ في هذا التذكير عبرة وعظة لمن يعتبر من ذوي الرّشد وأصحاب الوعي، وإن كنّا لمختبرين عبادنا بآياتنا قبل إنزال العقوبة بالظالمين الكافرين عنادا ومكابرة.

- ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (31) :

ثمّ أنشأ الله تعالى بعد الطوفان أمما أخرى (عاد وثمود وغيرهم...) لتستمرّ حياة البشر على الأرض.

- فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ (32) :

وأرسل الله تعالى إلى هذه الأمم رسلا منهم، بشرا مثلهم ليدعوهم لعبادة الله وحده، ولينبّهوهم بأنّه لا إلاه لهم إلاّ الله وحده، ولتحذيرهم من الشّرك خوفا من عقاب الله تعالى.

- وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (33) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (34) :

وكلّ رسول من هؤلاء كُذِّبَ في قومه، إذ تصدّى له أشرافهم وزعماء الكفر فيهم ممّن يكذّبون بالآخرة، ولا يصدّقون بالبعث، وبيوم الحساب، وقد كانوا من ذوي الوجاهة فيهم لما عندهم من بسطة في الرّزق والخيرات بدعوى أنّ الرّسول الذي جاءهم هو بشر مثلهم يأكل كما يأكلون من الأطعمة، ويشرب من الماء الذي يشربون منه، ذلك لأنّ الرّسول عندهم يجب أن يكون كائنا آخر من غير طينة البشر، وحذّروا قومهم من اتّباعه وطاعته حتى لا يكونوا من الخاسرين المنبوذين فيهم.

- أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (35) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ(36) :

كانوا لا يصدّقون بأنّ الميّت الذي يتحوّل بعد مدّة من موته إلى تراب وعظام جوفاء يخرج من قبره بعد زمن طويل على صورته التي كان عليها. كانوا يقولون لقومهم: هذا لا يُصدق، ويستحيل وقوعه. وكانت هذه حجّتهم في إنكار البعث، واِستبعادهم لحصوله وذلك لجهلهم بقدرة الله سبحانه، وهذا من التّكذيب لله وللرّسول.



- إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ **(37)** :

هم من الدهريين الذين يظنّون أنّهم يموتون، ويحيا من بعدهم أناس آخرون، وكذا هي الحياة عندهم، وأمّا البعث فلا وجود له.

- إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ **(38)** :

واتهموا رسولهم بالكذب والافتراء على الله بالكذب وباختلاق أمر يستحيل عندهم وقوعه، وكفروا به رسولا، وكذّبوا بما جاءهم به، ومن ورائه كذّبوا بالوعيد.

- قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ **(39)** :

ولمّا رأى الرّسول من قومه إصرارا على التّكذيب به، وبما جاءهم به من عند ربّهم، وشعر باليأس من اهتدائهم دعا ربّه بأن ينصره على تكذيبهم به.

- قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ **(40)** :

وجاءه الوحي بطمأنته، فبعد زمن قليل سيرون من أمر ربّهم ما يجعلهم نادمين على ما كذّبوا به.

- فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ **(41)** :

فأرسلت على القوم صاعقة شديدة مهولة أفزعتهم جميعا فأهلكتهم بالحقّ وأماتتهم خوفا وهلعا، وهذا ما حدث لثمود قوم صالح – ماتوا ولم يعد لهم أثر كالذي يحدث مع زبد البحر يُقبل ثائرا هائجا وسرعان ما يغدو رغاءً كرغاء الصابون ويذهب هيجانه، كان القوم هازئين وكانوا أحياء يصخبون، ولم يعد لهم صخب ولا وجود بعد هلاكهم. البعدُ والهلاك للظالمين أنفسهم بالكفر، وبالتكذيب لرسالة ربّهم وبوعيده.

- ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ **(42)** :

ثمّ أنشأ الله تعالى أمما أخرى من بعدهم لعمارة الأرض.

- مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ **(43)** :

لكلّ أمّة أجل لوجودها، أو لهلاكها، ولا أحد يأتي قبل أجله، ولا تهلك أمّة قبل مجيء ميعاد فنائها، ولا تُؤَخّر عليه. الموعد والوعد ثابتان في الزّمن المقدّر لهما.

- ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۚ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ **(44)** :

ومن رحمة الله تعالى بعباده أنّه لم يتركهم لأنفسهم، فقد أرسل للنّاس رسلا يتبع بعضهم بعضا على فترات لموعظتهم وهديهم إلى صراطه القويم والدّين الحقّ. ولكن كلّما جاء أمّةً رسولٌ منهم كذّبوه، ولم يصدّقوا به رسولا، ولم يصدّقوا برسالته، ولا بالوعيد وبالبعث، فأهلكناهم أمّة بعد أمّة، وجعلنا أخبارهم أقاصيص للاعتبار. والهلاك للقوم الذين يكفرون، ولا يؤمنون بما جاءهم من عند ربّهم لهديهم عبر رسله.



- ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (45) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (46) :

ثمّ أُرسل موسى وأخوه هارون بآيات الله والمعجزة الظاهرة إلى فرعون وملئه فاستكبروا على الإيمان بالله الحقّ إلاها واحدا، ولم يصدّقوا بموسى وأخيه، وكانوا قوما متعاظمين على النّاس ومتجبّرين.

- فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (47) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (48):

وأنكروا عليهما أن يكونا رسولين من عند الله تعالى لأنّهما من جنس البشر، وإنّ قومهما من بني إسرائيل مُستعبَدُون عندهم، خدم لهم، مسخّرون لأوامرهم شأن العبيد. فلمّا كذّبوهما أهلكهم الله بذنوبهم غرقى في اليمّ.

- وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (49) :

وآتى الله تعالى موسى التّوراة ليكون كتاب الله بين أيدي بني إسرائيل يهتدون بما فيه إلى شريعة الحقّ، ولينتفعوا بما فيه من مواعظ وإرشاد رجاء أن يكونوا مهتدين للحقّ.

- وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (50) :

وجعلنا ولادة عيسى من أمّه مريم من غير زواج معجزة دالّة على عظيم القدرة، وصيّرناهما إلى مكان مرتفع من البلاد (بيت المقدس)، فيها أسباب الاستقرار من أمن وأمان وثمر وزرع، وماء عذب جار.

- يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (51) :

بعد أن بيّن الله تعالى سوء عاقبة المكذّبين بالرّسل في الأمم السالفة، وكان من أهمّ أسس التّكذيب بهم كَوْنُهم من البشر، فجاءت هذه الآية وما سبق من العرض السابق لموعظة المشركين ليعلموا أنّ جميع رسل الله كانوا بشرا أمثالهم، ولتحذيرهم من سوء عاقبة تكذيبهم برسولهم محمد صلّى الله عليه وسلّم حتّى لا يُصيبهم مثل ما أصاب سابقيهم عذاب الهلاك.

والمعنى: يا أيّها الرّسل كلوا من كلّ الطّيبات الحلال تنزيها لكم عن أكل ما يحرّمه الله تعالى، واِعملوا صالحا قدوة للنّاس، والله عليم بما تعملون من الطاعات ليهتدي بكم النّاس، وبما تعملون من أعمال لإرشادهم للخيرات.

- وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (52) :

وإنّ ملّة جميع الرّسل هي ملّة واحدة: دين التّوحيد، وشريعة الله، والطاعة لله وحده، ذلك لأنّ الذي أرسلكم هو الله الواحد، ومصدر رسائلكم واحد، وأنّ شريعته واحدة، لا تبديل لكلمات الله. و(الأمّة) هنا في هذه الآية هي بمعنى الملّة والشريعة. وأوحى الله تعالى لرسله بأن يوجّهوا



أقوامهم، وبأن يرشدوهم لأن يخشوا ربّهم الذي خلقهم، وهو الله تعالى سيّد جميع الخلق، والرّسل أولى النّاس بهذه الخشية لأنّهم قدوة لأقوامهم في عبادتهم لله تعالى وفي طاعاته.

- فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ (53) :

ولكنّ أقوامهم اِفترقوا في دينهم الذي جاءتهم به رسلهم، فجعلوه أديانا ومِلَلا وفِرَقًا من بعدهم، واِختلفوا فيه، وكلّ فريق متعصّب لرأيه. قال رسول الله مُحمّد صلّى الله عليه وسلّم: "ألا إنّ مَن قبلكم مِن أهل الكتاب اِفترقوا على اِثنتين وسبعين ملّة، وإنّ هذه الأمّة ستفترق على ثلاثٍ وسبعين: اِثنتان وسبعون في النّار، وواحدة في الجنّة، وهي الجماعة" رواه الترمذي وزاد: قالوا : ومن هي الجماعة يا رسول الله؟ قال: "ما أنا عليه وأصحابي" خرّجه من حديث عبد الله بن عمرو، وخرّجه أبو داود. و(الزُّبُرُ) في هذه الآية تعني الكتب. لكلّ فريق من هذه الفرق كتاب يعتمده في شريعته على مذهبه يفتخر باتّباعه.

ومن المؤسف حقّا أنّ الأمّة الإسلامية قد ابتُلِيَتْ عبر تاريخها بهذه الظاهرة فزرعت فتنة مهلكة في بعض عصورها. لقد قامت في بداية نشأة الدولة الإسلامية فتنة كبيرة بين طائفتين قسمت المسلمين إلى قسمين: طائفة سُنِّية، وأخرى شيعية، اِختلفوا في مسائل فقهية في العبادات وبعض العقائد، وتنافسوا فيما بينهم بالقول ثمّ تعَدَّوْه إلى الاقتتال والعداء.

وشهدت في عصر نهضتها خلافات عميقة في مسائل عقَدِية، ونشأت في المسلمين فرق كلامية مختلفة في الرأي والحجّة، وسُجِن المخالفُ أو أُفتُتِن. وفي عصرنا هذا قامت عندنا فرقة لا تعترف بالدولة، وأخرى تكفيرية، تحتكم إلى السلاح تحمله على الجند وأعوان الأمن ورجال السياسة المعارضين، وعلى ما يرونه منكرا، واعتمدوا منهج التدمير والحرق والقتال لفرض آرائهم ومبادئهم، وليس لأغلبهم أهْلِيَةٌ علمية، ولكنّهم يتكلّمون باسم الدين، وإقامة شرع الله على ما يوافق رغبتهم في اِمتلاك الحكم وفرض شرعهم الذي يؤمنون به.

- فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ (54) أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ (55) نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ (56) :

الخطاب في هذه الآية للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، والآيات في إنذار المشركين. والمعنى: فَدَعْهم – يا مُحمّد – في سترهم. الغمرة هي الستر، غمرت الماء الأرض علَتها حتى سترتها. أُتركهم يتمادون في ضلالتهم ومكابرتهم حتّى يأتيهم اليوم الذي يتبيّن لهم فيه أنّهم كانوا ضالّين وغافلين من جهالتهم. أيظنّون أن ما أعطاهم الله تعالى من مال وأولاد، وما سارع لهم به من الخيرات وأمدّهم بها حتى كثرت عندهم قد جاءتهم من حظّهم ومن تكريمهم. كلاّ إنّها من الإمهال، وإنّهم لا يشعرون بأنّها فتنة لهم واِستدراج.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (57) وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (58) وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (59) وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ (60) أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ (61) :

هذه الآيات في صفات السابقين للخيرات، وهي تابعة لصفات المؤمنين المفلحين، وهذه الصفات هي التي ترفع درجاتهم عند ربّهم، ويوم الحساب، وهي خمس صفات:

الأولى: إنّهم يخافون الله تعالى وشديدو الحذر من إغضابه ومعصيته، فلا يقصّرون في طاعة.

والثانية: هم يصدّقون بآيات الله كلّها، بوعده وبوعيده، وبكلّ ما جاء في القرآن من خبر وموعظة تصديقا تامّا.

والثالثة: يوحّدون الله تعالى ولا يشركون أحدا.

والرابعة: يعطون الصدقات وقلوبهم خائفة ألاّ تقبل صدقاتهم.

والخامسة: يصدّقون بيوم الرّجوع إلى الله تعالى بعد بعثهم، ويخافون من ذاك اليوم عند وقوفهم عند ربّهم.

هؤلاء يبادرون لفعل جميع أعمال البرّ، والطاعات طمعا فيما عند ربّهم من ثوابه ونعيمه.

وهؤلاء هم للجنّة والسعادة في الآخرة متقدّمون على غيرهم.

- وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (62) :

ومن رحمة الله تعالى بعباده أنّه لم يكلّفهم بشرائع فوق ما لا يطيقون، بل لم يكلّفهم إلاّ بما هم قادرون على إتيانها والعمل بها، وعنده تعالى سجلّ يحصي جميع أعمال العباد بالحقّ بلا زيادة أو نقصان، ولا أحد من العباد يُظلم في أجره وثوابه إن أحسن عملا، ولا يُعاقب أحد عن عصيانه بأكثر ممّا يستحقّ.

- بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَـٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَـٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ (63) :

وأمّا العصاة المذنبون فما عصوا إلاّ لأنّ قلوبهم كانت في غفلة، وكأنّها مغَلَّفَةٌ فلا تدخلها موعظة، ولهم أعمال لا يرتضيها الله عزّ وجلّ.

- حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ (64) :

حتّى إذا عاقب الله تعالى عظماءهم وأثرياءهم الذين بطروا بالنّعمة، وذهبت عنهم خيراتهم عقابا لهم رأيت هؤلاء العصاة يصرخون ويضجّون ويستغيثون بالله تعالى خوفا على أنفسهم من أن يصيبهم بمثل ما أصاب أسيادهم.

- لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ (65) :

ولكن لا يغاثون لأنّهم بمعاصيهم أبعدوا عن أنفسهم نصرة الله تعالى لهم، فتُرِكوا لأنفسهم.

- قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ (66) :



لقد كانت آيات الله تعالى تُقْرَأ عليهم ليتهدوا بها، وليتعظوا بها ولكنّهم كانوا معرضين عن سماعها، وعن الانتفاع بها، وكانوا يُوَلُّون عنها حتى لا يسمعوها.

- مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ (67) :

(بِهِۦ) الضمير عائد على البيت الحرام، والمعنى: كانوا مستعظمين بأنّهم أهل الحرم، وأنّهم في أمان لوجودهم بحمى البيت الحرام (سَٰمِرٗا) يتحدّثون بالليل مجتمعين حول البيت (تَهۡجُرُون) وكانوا يُسِيئون القول فيما يسمعون من القرآن، ويطعنون في صدق الوحي، وصدق الوعيد.

- أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ (68) :

الاستفهام في هذه الآية لتوبيخ مشركي قريش الذين أعرضوا عن سماع القرآن وتدبّر آياته عنادًا وإصرارا على تقليد آبائهم وإن كانوا خاطئين، وهذا من تعطيل السمع وتعطيل العقل. والمعنى: أفلم ينظروا في حجج كلام الله تعالى، ويتأمّلوا فيما جاءهم به ليعرفوا الحقّ، ويميّزوه عن الباطل، وليهتدوا للصواب، أم لأنّه لم يأت آباءهم الأولين فهم لما جاءهم جديدا منكرون ورافضون.

- أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ (69) :

أم رفضوا الاستماع لما جاءهم لأنّ الرّسول الذي جاءهم به لا يعرفونه، ولا يعرفون أصله وصدقه وأمانته، فلذلك أنكروا عليه دعوته، وأعرضوا عن السماع له؟ والاستفهام للتوبيخ كذلك وهم الذين كانوا يَدْعُون رسولهم قبل أن يبعث برسالته: الصادق الأمين، فكيف ينكرون عليه صدقه بما أُرسل إليهم به لمّا أسمعهم ما يهديهم للرّشاد، وما يبيّن لهم الباطل الذي هم عليه؟

- أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ (70) :

أم يقولون على رسولهم الصادق الأمين: به مسّ من الجنون ليتهرّبوا من تصديقه. كلاّ ليس هو بمجنون، وإنّما جاءهم بالحقّ وبالرشاد، وبفضح الباطل الذي هم عليه، وأكثر هؤلاء الزعماء والسادة للحقّ كارهون. وما أعجب هذه الصفة في الإنسان إذا كان كارها للحقّ، ويصرّ على المضيّ في الباطل وهو في قرارة نفسه يعلم أنّه على باطل ولكنّه يصرّ عليه ويدافع عنه عنادا ومكابرة، أو حفاظا على مركزه وجاهه! ما أعجب أمره حين يكره الحقّ! وقد ينتصر للباطل وللكذب والافتراء بقوة السلاح، وبالمال، وبالكيد للصدّ عن الحق...

- وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ (71) :

لو كان الحقّ خاضعا للأهواء، وموافقا لما تريده الأنفس لبطل نظام العالم وفسد، وفسدت الحياة بانتصار الظلم، وغدت حياة الناس جحيما وصراعا دائما ولكنّ الله تعالى سلّم وجعل الحقّ



يعلو ولا يُعْلَى عليه، ولذا فإنّ الصلاح في نصرة الحقّ. ولقد جاء هؤلاء المشركين كتاب الله تعالى فيه شرفهم وعزُّهم، وببيان الحقّ، فإذا هم عن ذكره، وعن تدبّره واعتماده، والتمسّك به معرضون، ولا يحبّون سماعه، يا لضلالتهم، وقصور عقولهم!

- أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (72) :

أم تسألهم – يا محمد – أجرا ومالا على ما تدعوهم إليه وعلى قراءة كلام الله فتهرّبوا من الدفوعات فأعرضوا عنه، إنّ الرّزق من عند الله تعالى والله خير الرّازقين، ورزقه خير لأنّه من غير مَنٍّ، ولأنّه عطاء الكريم، الخبير بما يحتاج إليه عباده، وبما يضمن لهم حياتهم وبقاءهم، والاستفهام في هذه الآية للبحث عن دواعي الإعراض عن سماع القرآن: كتاب الهدي للحقّ، وهي دَوَاعٍ غير معلومة.

- وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (73) :

والحال أنّك – يا محمد – تدعوهم للاهتداء لدين الله القويم، ولاتباع المنهج الموصل للحقّ وللخير، وللأمان من الضلال ومن العذاب، فما أغرب أمرهم في الإعراض عن اِتّباع الرّشاد!

- وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ (74) :

هذه في الدلالة على أنّ الإيمان بالآخرة هو الدافع الرئيسي للإنسان لاتّباع الطريق الذي يوصله للأمان من بعد موته، ولذلك فإنّ الذين لا يؤمنون بالبعث وبالحساب يعيشون لأيّامهم في دنياهم، وأكبر همّهم هو كسبهم في دنياهم، وأن ينعموا في حياتهم بما يشتهون، وأن يفعلوا ما تأمرهم به أهواؤهم، لكنّ الإيمان بالآخرة وبالحساب هو الرادع الحقيقي عن إتيان المعاصي واِتّباع الهوى، ولذلك كانوا متولّين عن سماع القرآن، وعن التّصديق بالبعث وبيوم الحساب، فكانوا عن صراط الله مُبْعَدِين.

- وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ (75) :

هذه في تعليل إقصائهم من رحمة الله تعالى، ولو أنّ الله تعالى كشف عنهم كلّ ضرّ أصابهم من قحط وجوع وضيق عيش، وبلاء، وخوف من هلاك، لضلّوا متمادين في الكفر والطغيان، وهم يتخبّطون في معاصيهم، ولا يرون سوء عاقبة أعمالهم... (والعَمَهُ) هو عمى البصيرة الذي يجعل صاحبه حيران ومتردّدا.

- وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (76) :

ولقد أصيبوا بالجوع والقحط وبالعام الشديد، فلم يذكروا الله تعالى بالدعاء والتضرّع، ولم يستكينوا لربّهم أي لم يخضعوا له، ولم يتوبوا بسبب العناد والمكابرة.

- حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ (77) :



حتّى إذا جاءهم أمر الله تعالى بفتح باب عليهم من أبواب العذاب الشديد إذا هم يائسون من النّجاة، ومتحسّرون، وواجمون لا يدرون ما يفعلون.

- وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ **(78) :**

بعد ذاك اليوم على التولّي عن سمع ما أنزل من القرآن لهديهم جاءت هذه الآية والآيتان بعدها في دعوتهم للنّظر في آيات الله تعالى في الخلق وتصريف أمر حياتهم للاهتداء إليه للإيمان به وبقدرته، وليشكروا له على نعمه. والمعنى: هو الله جلّ وعلا الذي أوجد فيكم نعمة السمع والأبصار والأفئدة، ولكنكم قليلا ما تشكرون الخالق على ما خلقه فيكم لتنعموا بحياتكم وبحسن علاقتكم بمحيطكم الاجتماعي والطبيعي.

والملاحظ في هذه الآية ورود "السمع" اِسما مفردا، بينما جاء اللفظان: "الأبصار" و"الأفئدة" في صيغة الجمع، وتقدّم السمع على الأبصار والأفئدة ممّا يثير السؤال عن الحكمة من هاتين الملاحظتين. والمؤكّد أنّ السمع والأذن يخلقان في الجنين في رحم أمّه قبل خلق العين، وأنّ الجنين يسمع في بطن أمّه، ولا تفتح العين إلاّ عند الولادة، وعند الولادة يتحرّك رأس المولود في اِتّجاه الصوت، ولا يركز بعينيه نحو الحركة. وحين يحدث صوت مسموع من مثل القرقعة الشديدة أو سقوط آنية أو حدوث صدام بين عربتين أو وقوع شجار فيه رفع صوت، فإنّ الصوت يبلغ الفرد في محيط ذلك الصوت وإن كان داخل حجرته المغلقة، الإنسان يسمع أذان صلاة الفجر وهو نائم في فراشه فيستيقظ، وكلّ من يسمع الصوت يتبيّن نوعه: ريحا كان أو قرقعة أو اِستنجادا أو بكاء وخصاما لا يختلف فيه إثنان وإن تباعدا ولم يحضرا الواقعة مباشرة. وأمّا العين فلا تبصر إلاّ ما تحضره وتعانيه. ونحن نختلف في تحديد لون الشيء الذي نراه بدقّة أحيانا، ونختلف في تقييم ما نراه ونختلف في طول المسافة التي نبصر بها الأشياء، وتتداخل الرؤية أحيانا والتهيّؤات حتى تأثير الإضاءة وبعد المسافة، وفي الظلمة يضعف البصر، ولا يضعف السمع. وعند النوم تغمض العين، ولا ينام السمع بدليل أنّ النّائم يوقظه صوت بعوضة تمرّ عليه وينبّهه، والعين لا تراها لأنّها مغمضة، وهي في ظلمة. والأصمّ منقطع عن محيطه الاجتماعي لا يستطيع أن يعبّر عن رغبته ولا عن أحاسيسه، ولا يتعلّم إلاّ ما كان بالإشارة، والكفيف لا ينعزل عن محيطه، ويستطيع أن يتعلّم ويتفوّق في مجال العلوم. وعموما فالخواصّ فارقة بين السمع والبصر، وسبحان من خلق وقدّر، وهما نعمتان جليلتان في الخلق السويّ للإنسان، وبالنسبة للأفئدة فإنّ النّاس يختلفون في أحاسيسهم، وفي رقّة مشاعرهم، منهم من يلين قلبه لمنظر حزين ومنهم المتحجّر قلبه، عديم الإحساس، وخير النّاس من كان رقيق القلب والمشاعر.

- وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ **(79) :**

والله تعالى هو الذي خلقكم وكثّركم بالتّناسل لتعمّروا الأرض، وبثّكم فيها، ثمّ تموتون، ثمّ تُبعثون، وإلى الله تعالى تحشرون يوم القيامة للحساب.

- وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (80) :

وإنّ حياة الإنسان ومماته بتقدير من الله تعالى، هو الذي يحدّد زمن وجوده، ويحدّد له زمن أجله. وبتقديره يكون تبادل الليل مع النّهار، فهل من إلاه غيره بقادر على أن يغيّر هذا النّظام. أفلا تتدبّرون هذه الظاهرة الكونية، وظاهرة حياتكم ومماتكم في أنفسكم لتعرفوا ربّكم بالمنطق والعقلانية، فتؤمنوا به، ولِتَدَعُوا الشّرك، وترفعوا عنكم جهالتكم بربّكم؟ والاستفهام لِلَّوْم والتّوبيخ.

- بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ (81) :

بل إنّهم ما يزالون يقولون بمثل ما قال أجدادهم من الجهالة والضلالة.

- قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (82) :

لقد قالوا: أيحدث أن نبعث بعد موتنا إلى الحياة من جديد بعد أن تحوّلت أجسامنا إلى تراب وعظام، هذا أمر مستغرب ومستبعد.

- لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (83) :

لقد سمعنا بهذا الأمر ومن قبل، وسمع به أجدادنا، ولكن هذا لم يحدث منه شيء. إنّ هذا القول من خرافات القدامى، سطّروها في كتبهم، لا صحّة لها ولا حقيقة.

- قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (84) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (85) :

الآية الأولى في اِستفهام للاستجواب والتّقرير، والثانية في الإجابة للإقرار. ومثل هاتين الآيتين في صيغة اِستفهام وإجابة وردت الآيات الأربع من بعدهما. والقصد من الاستفهام والإجابة تبيانُ ما يقرّ به المشركون في قرارة أنفسهم، ولكنّهم يأتون من الأعمال ما يناقضون به ما يقرّون به. ولذلك يقال في تعريف الإيمان : "هو ما وقر في القلب وصدّقه العمل".

والمعنى: اِسأل المشركين عن من يملك الأرض وكلّ ما فيها من الخلق، ومن الذي يتصرّف فيها، وفي من فيها إن كنتم تعلمون؟ فسيقولون: لله ملك الأرض ومَنْ فيها، كذا سيجيبون بالفطرة، وسيقرّون لله تعالى بالملكية بالبداهة. قل لهم عندئذ : أفلا تعترفون لله وحده بالرّبوبية على نحو ما قلتم، وأقررتم به. والاستفهام هنا لمراجعة النّفس لإصلاح الخطإ.

- قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ (86) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ(87):

واِسألهم عن مالك السماوات السبع والمتصرّف فيها، ومن هو سيّد الملكوت العظيم؟ سيقولون بأنّ ملكيتها لله وهو سيّد كلّ الملكوت. قل لهم عندئذ أفلا تخشون الله تعالى إذ تدّعون له شريكا في الرّبوبية، ألا تخافون عقابه وقد تركتم عبادته وطاعته وعبدتم غيره؟ والاِستفهام هنا للإنذار والتّحذير.



- ﴿قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (88) سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ (89)﴾ :

قل من يتصرّف في هذا الكون العظيم، هذا الملك الواسع العظيم بكلّ ما فيه، ولا يخرج عن إرادته شيء منه، وهو يحفظ من يطلب حفظه، ويحميه ممّا يكره، ويغيث من يستغيثه، ولا أحد يمنعه ممّا يشاء ويريد، أو يردّ قضاءه إن كنتم تعلمون وتعرفون؟ سيقولون بداهة وبكلّ تلقائية، وبالفطرة، هو الله. حينئذ قل لهم فكيف تتصرّفون في عبادتكم كأنّكم مسحورون، تنصرفون عن الإقرار لله تعالى بالرّبوبيّة إلى عبادة غيره، وتقرّون له بالوحدانية وتشركون به، وتقرّون له بالقدرة والعظمة ولا تؤمنون بالقدرة على البعث والنّشور.

- ﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ (90)﴾ :

بل جاءهم القرآن الكريم بالقول الحقّ، وبالبرهان الواضح والإعلام الثّابت بأنّ الله إلاه واحد لا شريك له، وأنّه المحيي والمميت، وأنّه مالك الملك والملكوت، وأنّه هو المجير للمستجير، وإنّ القائلين منهم بأنّ ما جاء في القرآن من الإخبار بعقاب الأمم السالفة من أهل الكفر من أساطير الأولين هم كاذبون، وإنّ القائلين بالشّرك كاذبون، وإنّ ما يصفون به النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم من الجنون هو من الكذب والافتراء على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

- ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (91)﴾ :

هذه في إقناع المشركين بأنّ تعدّد الآلهة غير واقع عقلا ومنطقيا، ويستحيل أن يكون والدليل على ذلك دوام اِنتظام سير الحياة في هذا الكون، وفي هذا الوجود. لو وجد أكثر من إلاه لاضطربت الحياة، ومعه سير الكون والملكوت العلوي بسبب صراع الآلهة على النّفوذ، ومحاولات كلّ واحد من الآلهة الاستيلاء بالقوّة على الآخر لبسط نفوذه وللتوسّع فيه، أو لأُنفَرَد كلّ إلاه بما خلق، ولم يرض أن يشاركه فيما يملك أحد. وهذا ممّا يتسبّب في اِنخرام نظام الحياة واِضطراب في حياة البشر وفي وجودهم وتكاثرهم وتقسيم معاشهم ودوام اِستقرار الأرض، واِستمرار عطائها لخيراتها وثرواتها، وبتعدّد الآلهة يختلف النّاس في عباداتهم وطقوسهم ويتصارعون وينبذ بعضهم بعضا، وكلّ جمع ينتصر بإلاهه، فيقوم على الأرض صراعٌ للآلهة. لذا لا يجوز، لا يعقل أن يكون لله ولد، ولا يمكن أن يكون له شريك، فإنّما الشريك للعاجز، وليس من صفات الله العجز، ولو كان لله شركاء لتصارعوا ولذهب كلّ إلاه بملكه ليُعبد فيه وحده دون سواه، وهذا غير كائن، ومادام هذا غير كائن ومادام سير الكون منتظما ومادامت حياة البشر مستقرّة على الأرض بغير صراع الآلهة وجب تنزيه الله عن الشّرك، ووجب الإيمان بوحدانيته، ويجب تنزيه الله عن اتّخاذ الصاحبة والولد.



- ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ (92)﴾ :

وإنّه تعالى عليم بما سيكون في مستقبل الأيّام وما سيجري فيها سواءً أكان من أمور الدنيا أم من أمور الآخرة ممّا يغيب على جميع الخلق علمه ومعرفته أو تكهّنه. وهو جلّ وعلا عليم بما جرى من الحادثات ماضيا وبما يجري حاضرا، فعلمُه غير محدود بالزّمان، فتعالى أن تعرف الآلهة التي يشركون بها شيئا من العلم بالحادثات الماضية ولا الحاضرة ولا بالتي ستكون مستقبلا، فهي قاصرة، ولا تستحقّ الألوهية، فاتّخذوا الله العليم بكلّ أمر واعبدوه، ولا تعبدوا سواه.

- ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (93) رَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (94)﴾ :

هذا دعاء يعلّمه الله تعالى لنبيّه محمّد صلّى الله عليه وسلّم للنّجاة ممّا سيلحق بالكافرين من عذاب. والمعنى: اللهمّ إذا أردت بهؤلاء المشركين عذابا ممّا تتوعدهم به، اللّهم فلا تجعلني فيهم، وأنقذني ممّا سيصيبهم. وقد تكرّر لفظ (رَّبِّ) في هذا الدعاء مرّتين للاستعطاف. وروى أحمد والترمذي أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان يدعو بهذا الدعاء: "وإذا أردت بقوم فتنة فتوفّني إليك غير مفتون". ولا يدفع البلاء إلاّ الدعاء. نسأل الله تعالى السلامة وحسن العاقبة.

- ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمۡ لَقَٰدِرُونَ (95)﴾ :

هذه لتسلية النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لمّا اِشتدّ عليه صدّ المشركين النّاس عن السماع له، وعن اِتّباعه، وذلك ليعلم أنّهم لا يُعجزون الله تعالى، فهو تعالى قادر على أن يريه عذابه فيهم ليشفي صدره، ولكن لحكمة أرادها الله تعالى تركهم على ما هم فيه حتى أخرجهم من الحرم المكي لِبَدْر. يومئذ قضى الله تعالى فيهم وعيده فقتلوا بعذاب السيف على أيدي من كانوا يستضعفونهم، وكذا رأى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تنفيذ وعيد الله فيهم. وحين مرّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على جثثهم بالقُلَيْب قال: "لقد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقّا فهل وجدتم ما وعد ربّكم حقّا" (انظر السيرة النبويّة لابن هشام).

- ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (96)﴾ :

وهذه في دعوة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأتباعه للصبر على الأذى، وللتّعامل بالإحسان مع المخالفين المعارضين للدعوة للإسلام. وهذه الآية من خير الشّواهد على أنّ الإسلام دين الإحسان والتّسامح، ولا يقبل هذا الدّين أن تردّ الإساءة بالسيّئة، فخُلُق المسلم أرفع من ذلك، ولا يأتي المسلم الإساءة للآخر. والمعنى: اِصبر عمّن أساء إليك، ورُدَّ السيّئة بالحسنة بالصفح أو بالتغاضي عنها، والتّجاوز عنها. الله تعالى أعلم بما يقولون فيك من اِتّهامات بالكذب أو الجنون، وأعلم بما تقولون فيما تدعوهم إليه للاستقامة على دين الله، وبما يقولون في الوعد والوعيد من هزء.

- ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ (97) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ (98)﴾ :

وأدع الله تعالى إذا أغضبوك أن يحميك من نخر الشياطين بوساوسهم لردّ الإساءة بسيّئة مثلها، من مثل السباب أو التّحقير، حتّى تترفّع عن من يؤذيك، وحتّى لا تؤثّر فيك همزات الشياطين لإثارة غضبك، وأدع الله تعالى بأن لا تحضر الشياطين مجالسك ومواقفك مع أعدائك حتى لا يفسدوها عليك.

- حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ **(99)** لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ **(100)** :

الآيتان في تحذير المشركين من سوء العاقبة لعلّهم يرجعون لرشدهم، وينتهون عن غفلتهم. وحين تحضر هؤلاء المشركين آجالهم، ويرون ملائكة العذاب وما أعدّ لهم من مقاعد في النّار، عندئذ يشعر كلّ واحد منهم بالخوف والنّدم ويتمنّى على الله تعالى أن لا يعجّل بموته حتى يرجع لحياته ليتدارك ما فرط منه، ليؤمن وليصلح عمله ويعمل بالطاعات، ولكن هيهات، هو كلام يقوله، وهي أمنية لا تتحقّق. فإذا حضر الإنسان الموت قام (بَرۡزَخٌ) وهو جدار يحول بينه وبين العودة للحياة حتى تقوم الساعة لبعثه من جديد، وعندئذ يُنصب الميزان للحساب عمّا كان يعمل وعمّا كان يؤمن به.

وقد جرت جملة (إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا) على ألسنة النّاس مثلا للتّعبير عن البحث عن عذر للخروج من ورطة وقع فيها.

- فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ **(101)** :

هذه الآية إلى غاية الآية 111 في التحذير من يوم الحساب، هو يوم شديد على المسيئين للنّاس، وهو يوم فوز للمحسنين، وهذا للترغيب في الإحسان في العمل، وللتحذير من الإساءة للنفس بالمعاصي وللنّاس.

ومعنى الآية: فإذا نفخ في الصور نفخة القيام للحساب لا ينفع الإنسان في ذاك اليوم نسبُه وقراباته لنصرته، أو للشفاعة فيه ونجدته. في ذاك اليوم لا يسأل أحد غيره عن حاله. "لكلّ امرئ يومئذ شأن يغنيه" ومن أفضل الأعمال التي تُثْقَلُ بها موازين الحسنات: صدق الإيمان، والعمل بالطاعات.

- فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ **(102)** :

فمن جاء يومذاك بالكثير من الحسنات، وكانت حسناته في ميزان تقدير الأعمال أكثر من السيّئات فإنّه يكون ضمن جماعة الفائزين بالنجاة من العذاب، الفائزين بالنّعيم في آخرتهم. وتثقل الحسنات بالشهادة لله بالتوحيد ولرسوله بالتبليغ، ومن أهمّ الأعمال الحسنة: أداء الطاعات.

- وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ **(103)** :

وأمّا من وقف عند ميزان تقييم الأعمال فرجحت سيّئاته لثقلها وكثرتها عن حسناته القليلة، فسيكون ضمن الذين خسروا أنفسهم ممن يقضي عليهم بإيوائهم في جهنّم إيواءً دائما. وممّا يثقل ميزان السيّئات الشرك، والكفر بالله، والتكذيب بالرسول، وإتيان المعاصي، والكفر بيوم البعث والحساب.

- تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ (104) :

هؤلاء تحرق وجوههم بالنّار، وتُشوّه حتى تغدو كالحة، والوجه الكالح هو الوجه الذي يظهر عبوسا، وتتقلّص فيه الشفاه عن الأسنان كالرؤوس المشيطة بالنّار.

- أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (105) :

وعند وقوف المرء عند الميزان وقد جاءه بثقل من السيّئات ومن المعاصي، وأعظم المعاصي: الكفر والتّكذيب بالوعيد والهزء به، يُوَبَّخُ على غفلته وعلى إعراضه عن تدبّر آيات الله التي جاءته عبر رسوله، ويؤنّب على تكذيبه بالرسول وبالوعيد، وقد رأى أنّ ما كان يهزأ به قد وقع حقّا.

- قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ (106) :

يقول الكافرون يومئذ متوسّلين إلى الله عزّ وجلّ ومعتذرين: ربّنا قد تغلّبت علينا ضلالتنا وفساد أعمالنا.

- رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ (107) :

وحين يحشرون في جهنّم ويصيبهم عذابها يجأرون إلى الله تعالى ويسألونه أن يخرجهم منها ليعيدهم إلى حياتهم الدنيوية ليعملوا صالحا: ليؤمنوا بالله وحده ويصدّقوا بآياته ورسوله، وليعملوا بالطاعات، وتعهّدوا بأن يشهدوا على أنفسهم بظلمهم لذَوَاتهم إن أخلفوا عهدهم مع ربّهم.

- قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (108) :

قيل لهم: اِخرسوا، واسكتوا فيها سكوت ذلّ وهوان، وهذا لأنّ اِعتذارهم قد جاء متأخّرا، ولم يكن سابقا لموتهم. اِعتذروا هروبا من العذاب حينما عاينوه. وتيقّنوا بحصوله، ولا تسألوا الله تعالى عودة للدنيا، أو رجاءً لرحمته.

- إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ (109) فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ (110) :

ولقد حرموا من رحمة ربّهم لأنّهم كانوا في دنياهم يسخرون من عباد الله المؤمنين الذين كانوا يتوسّلون إلى ربّهم بإيمانهم ليغفر لهم ذنوبهم، وليرحمهم بحقّ أنّه تعالى خير الرّاحمين. ولقد تمادوا في سخريتهم منهم حتى نسُوا الخوف من عقاب الله وذكره لينتهوا عن الضحك على إيمانهم واِعتقادهم في البعث والحساب.



- إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ (111) :

وأمّا الذين كانوا يسخرون منهم ومن معتقدهم وإيمانهم فقد أثابهم الله تعالى بصبرهم على تحمّل سخرية المكذبين بهم بالفوز بالنّعيم في الآخرة، وبالنّجاة من عذاب جهنّم. فَغَدَا الساخرون في العذاب، وفاز الصابرون على سخريتهم بالنّعيم.

- قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112) :

هذه في مقارنة عُمُر الإنسان في دنياه، بمدّة يوم الحساب، لا مقارنة بين حياته الدنيوية وحياته في الآخرة لأنّ الحياة الدنيوية محدودة بزمن، وأمّا الحياة الأخروية فليس فيها موت، فيها الخلود الدائم. وسئل المكذّبون بالبعث كم عمّرتم في الأرض من عدد السنين؟

- قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ (113) :

أجابوا: كانت إقامتنا على الأرض بحساب هذا اليوم تساوي يوما أو أقلّ من يوم فاسأل الملائكة الذين يحصون أعمال العباد وأعمارهم، والذين يحصون زمن لبثهم في قبورهم.

- قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (114) :

قيل لهم: مهما أقمتم في دنياكم من سنين فإنّ إقامتكم فيها كانت قصيرة لو كنتم تعلمون طول يوم الحساب، وطول إقامتكم في جهنّم، وعموما فإنّ حساب السنين مرتبط بدورة الأرض حول الشمس، وأمّا في الآخرة وقد فسدت السماوات وما فيها، والأرض وما عليها فإنّ الزمن وإحصاءه يصبح غير مُتَنَاهٍ، ولا يحصى ولا يحسب.

- أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) :

هذه في موعظة الناس أجمعين.

والمعنى: أتظنّون أنّ الله تعالى خلقكم للّهو والعبث، ومن غير حكمة، وبدون قصد، وأنّ حياتكم قد جاءت مصادفة؟ أو تظنّون أنّكم ستُتركون في حياتكم لتعملوا فيها ما شئتم دونما حساب، فيتساوى فيكم من يعمل صالحا ومن يُسيء، إنّ الحكمة تقتضي بوجوب مجازاة المحسن على عمله الصالح، وأن يعاقب المسيء على إساءته ليكون للحياة معنى، وللعدل نظامه وقوانينه وإلاّ صارت الحياة عبثية، والشريعة فيها شريعة الغاب. (أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى)(القيامة الآية 36).

- فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ (116) :

تنزّه الله العليّ المتعالي عن كلّ نقص، وعلا علوا كبيرا عمّا يصف له المشركون من أنداد، أو صاحبة وولد، وتعالى علوّا كبيرا عن أن يخلق شيئا عبثا للهو ومن غير حكمة وتقدير، وتنزّه تعالى أن يحيط به وصف لعظمته وجلاله وارتفع. وهو مالك الملك، وهو الملك يوم الدين الذي لا يردّ قضاؤه، وهو أحكم الحاكمين. وهو الله الحقّ الحقيق بالألوهية والربوبية والطاعة. لا إلاه



إلاّ هو سبحانه أحد صمد وكلّ إلاه سواه هو إلاه باطل من الافتراء، وهو سبحانه ربّ الملكوت العلوي والسفلي وسيّد كلّ المخلوقات خلقهم برحمته، وسخّر لهم ما يحيون به في حياتهم لأنّه الكريم الذي يهب الحياة والرّزق لخلقه.

- وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَـٰفِرُونَ(117) :

ومن ينسب لله الواحد الأحد إلاها آخر، نِدًّا له، أو شريكا، لا بَيّنَةَ له عليه، ولا حجّة عنده على وجوده، وعلى ألوهيته، وعلى اِستحقاقه للعبودية فإنّما حسابه عند ربّه حين يقف بين يديه يوم القيامة، "ومن نوقش الحساب عُذِّب" كذلك قال النّبيّ المصطفى صلّى الله عليه وسلّم. إنّه لا يفلح الكافرون يوم القيامة بأيّ رحمة أو نعيم، وإنّما سيكون مآلهم في الشقاء والعذاب الأبدي.

- وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ (118) :

وهذه الآية خاتمة للسورة التي تحدّثت عن صفات المؤمنين، وجاء في هذه الخاتمة توجيههم لأن يدعوا بهذا الدعاء الذي اِختاره لهم يختصر فيه أمرين: طلب المغفرة حتى لا يحاسب المؤمن عن أيّ سيّئة وإنّما يثاب على حسناته فقط، وطلب الرّحمة التي يدخل بها جنّة الرّضوان والنّعيم، ويختم دعاءه بالتوسّل إلى ربّه بأنّه خير الرّاحمين لتكون رحمته به، وبجميع المؤمنين عامّة وشاملة وفيها الزيادة من الخير والنّعيم ولتكون رحمته واسعة. نسأل الله غفرانه ورحمته وهو أرحم الرّاحمين.



آياتها	سورة النّور	رقمها
64	ـــــ مكيّة ـــــ	24

سمّيت هذه السورة بسورة "النّور" لتميّزها بآية : (ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ). وقد روى مجاهد عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قوله: "علّموا رجالكم سورة المائدة، وعلّموا نساءكم سورة النّور". في سورة المائدة أحكام ما أحلّ الله تعالى من الأطعمة وما حرّمه، وأحكام أخرى في الحكم بالقسط... إلخ... وأمّا هذه السورة فقد جاء فيها الكثير من الأحكام المتعلّقة بالأسرة، وبعض الحدود، وهي خمسة عشر حكما. فيها: حدّ الزنى، وحدّ قذف المحصنات، وحكم اللِّعَان، وحكم البراءة من حديث الإفك، والزّجر عن إتيان الفاحشة، وحكم الاستئذان لدخول البيوت، والأمر بغض البصر للذكر والأنثى، وحكم ستر زينة المرأة، وحكم نكاح الإماء، والزّجر عن إكراه الإماء على البغاء، وحكم اِستئذان الأطفال في الدخول لحجرات الأبوين، والأمر بالاستئذان من الرّسول صلّى الله عليه وسلّم قبل الانصراف من مجلسه، والزّجر عن مناداته بمثل ما ينادي المرء أيّ رجل غيره، وفيها الإذن ببناء المساجد، وعموما فإنّ أغلب الأحكام والحدود هي في تنظيم العلاقة بين الزوجين لتستقيم معاشرتهما مع بعضهما على الحقّ والمعاملة بالحُسنى لضمان سلامة الأسرة من التصدّع حفاظا على تنشئة الأبناء التنشئة الصالحة، وضمانا لوحدة المجتمع وسعادة أفراده مع ضمان حقوق كلّ طرف ليحيا حياة كريمة في ظلّ العدل والحقّ والتعامل بالإحسان.

وفي السورة مواعظ للإيمان بالله وحده، وقد عرضت آيات من إبداعه تعالى في الخلق، وفيها الأمر بالرّضا بحكم الرّسول صلّى الله عليه وسلّم عند الاحتكام إليه، وفيها وعد للمسلمين باستخلافهم في الأرض، وفي المقابل وعيد بالكافرين، وذمّ لأهل النّفاق.

- سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ (1) :

(السورة) اِصطلاحا هي جزء من القرآن الكريم محدّدة البداية والنّهاية (بالتّوقيف)، أي بالنّقل الثّابت عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، والوحي الإلاهي بواسطة جبريل عليه السلام. وقد وردت في هذه الآية في صيغة التّنكير وذلك للتّعظيم، بمعنى هذه سورة عظيمة الشأن، وذلك لاحتوائها الكثير من الأحكام المنظمة لشؤون الأسرة للمحافظة على العفّة والشّرف وأدب الاستئذان.

وقد جاء فيها الفعل (أَنزَلۡنَا) مكرّرا مرّتين، وذلك للتّأكيد على العناية بما جاء فيها وللاهتمام بأحكامها ومواعظها وهديها، وأمّا الفعل (فَرَضۡنَٰهَا) فيدلّ على وجوب العمل بما فيها من أحكام وجوبا إلزاميا لأنّ الفعل جاء مقرونا بنون العظمة (نا).



والمعنى : هذه سورة لها شأن عظيم أنزلها الله للعمل بما فيها من فرائض وحدود. وفي هذه السورة هدي واضح لتوحيد الله تعالى ولطاعته وطاعة رسوله عساكم تتّعظون بمواعظها وتعملون بأحكامها دون تفريط.

- ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ **(2)** :

هذه في حدّ الزّانية والزّاني: يجلد كلّ واحد منهما مائة جلدة. والجَلْدُ هو الضرب الذي يؤلم الجِلد من غير أن يقطع لحما أو يكسر عظما. والجَلْدُ لا يكون إلاَّ بحكم قاضٍ عدلٍ بعد أن تثبت عنده إدانتهما، وهذا الحكم إذا كانت الزانية اِمرأة حرّة غير متزوّجة، وكان الزّاني رجلا حرّا غير متزوّج. حكم الزنّى في المتزوجة المحصّنة الحرّة هو الرّجم، بهذا قضى الرّسول صلّى الله عليه وسلّم. (وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ) أي ولا تعطّلوا حكم الله في هذا الحدّ من باب الشفقة، أو بسبب شفاعة شافع وَجِيه، وهذا إن كنتم تحبّون العمل بشرعه وحدوده لبيان صدق إيمانكم بالله تعالى، وخوفكم من حسابه يوم القيامة. ولابدّ من إحضار شاهد أو أكثر على تنفيذ حكم الله فيهما للاتّعاظ، ولردع المعاقبين حتّى لا يعودوا لمثله.

والمُستفاد من الآية أنّ الزّنى يعتبر جريمة لأنّه يقام عليه الحدّ، وهو في الحديث النّبويّ يُعَدُّ من الكبائر، وقد جاء في القرآن الكريم آيات تنهى عن هذه الفاحشة نَهْيَ تحريمٍ.

إنّ في تصدّر السورة بهذا الحكم دلالة واضحة على أنّ الله تعالى يعظم سيّئة الزّنى لما فيه من حطّ لقدر الإنسان، ولما فيه من دوس للعفّة والكرامة والشّرف والطهر. إنّ من وراء ممارسة الجنس في مهد الزّواج الشرعي اِبتغاء الولد للأنس، وبقاء الذِكر، ولعمارة الأرض. ولكنّ ممارسته في غير إطار الحلال هو عمل حيواني، غير إنساني، وعمل شيطاني لما فيه من تغرير للطرف الثاني، وهدر كرامة المرأة، وتدمير لحياتها لِمَا يلحقها مدى حياتها من وصمة الطعن في خُلقها، وفي طهرها، ووَسْمِها بكلّ صفة دنيئة، إضافة لتبرّؤ عائلتها من نسبتها إليها إذا شاع خبر مواقعتها بالفاحشة، فتحلّ بها لعنة كلّ من يعرفها. أمّا إذا حصل حمل بعد الواقعة، وتنكّر صاحب الفعلة لفعلته، وتهرّب من مسؤوليته فيها، فإنّ الأمّ العزباء الحامل تطرد من حضن أسرتها، وتحلّ بها النّكبات واحدة تلو الأخرى من تشرّد وفاقة ومرض وسوء الحال، رغم صغر سنّها، وتكون الطّامة الكبرى حين تضع الجنين، ثمّ تهرب عنه ليؤخذ إلى إحدى مآوي الأطفال بدون سند. ثمّ يخرج لهذا الوجود طفل: ذكرا كان أو أنثى لا يُعْرَفُ له أمٌّ، ولا أبٌ، ولا نسبٌ، ولا أهل، ولا عشيرة على عكس جميع النّاس. فكيف سيخرج للوجود؟ بأيّة نفسية، وأيّ طاقة اِحتمال ستكون عنده ليتحمّل الغمز واللمز في نسبه، وفي وصفه؟ وأيّ حياة سيَحْيَى فريدا غريبا في



مجتمعه، يعيش في المجهول وهو بريء من كلّ ذنب. أمن جرمٍ أعظم من جريمة الزّنى هذه؟ أمن تدمير نفسي وعاطفي وإنساني أعظم من هذا التدمير الذي يحدث من جراء ممارسة هذه الفاحشة النكراء، اللاإنسانية؟ أمن ظلم أعظم من ظلم المواليد من وراء هذه الفاحشة؟

إنّ المجتمع الّذي تتفشّى فيه الفاحشة والرذيلة يَنْفَرِطُ عِقْدُهُ، وتكثر فيه مظاهر العنف، والإجرام، وتنحلّ فيه الأخلاق، ويُستهان فيه بقيم الفضائل والمُثل الأخلاقية.

- **ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٌۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (3) :**

ولمزيد الردع عن إتيان هذه الفاحشة النّكراء التي تحطّ من قدر الإنسان، وتنحدر به إلى الرّذيلة جاءت هذه الآية لتحرم الزّاني والزّانية من مصاهرة النّسب الشريف، ومن الصلة بالنّسب الرّفيع وبيوت الإيمان، وهذا من الحرص على إنشاء الأسر على الطهر والعفّة، وللمحافظة على التناسل على الوجه الحلال الشرعي الطيّب لينشأ الأطفال في ظلّ الأبوين وفي حضن الأسرة حماية للنشء من كلّ مظاهر الانحراف والفساد والتشرّد الذي يشيع في المجتمع جميعَ أنواع الإجرام، ففيه حفظ لأمن المجتمع الإسلامي وأمانه كذلك، وهذا من حكمة التّقدير لحماية المؤمنين من أن يأتيهم الأذى من داخلهم، من أطفال السفاح، لذا جاء في هذه الآية أن يكون زواج الزّناة من جنسهم أو من جنس المشركين الذين كانوا لا يتورّعون من إتيان هذه الفاحشة، وحرّم على المؤمنين حرمةَ تنزيه بتزويج أبنائهم أو بناتهم ممن يتعاطون هذه الفاحشة حتى لا يُدنّس شرفُهم ونسبهم، وحتى لا يدخل أسرتهم فاسد الخلق أو عاهرة فيجعلهم مطعونين في شرفهم ومَنْبُوذِين في المجتمع.

- **وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةً وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ (4) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (5) :**

هذه في حكم قذف المحصنات بدون دليل وبدون شهادة شهود عدول، والمحصنة هي المرأة العفيفة، ورميها يعني اِتّهامها بالزّنى وهي بريئة من التّهمة. واِتّهامُ المرأة العفيفة بتهمة الزّنى وهي بريئة بالشبهة والظنّ السّيّء وبدون دليل قاطع وشهادة شهود عدول، أو ظلما للطعن في شرفها وعفّتها يستوجب حتما إقامة الحدّ على القاذف بضربه على جلده ثمانين ضربة بسوط للحطّ من كرامته حتى يُعامل معاملة الدابّة المستعصية على صاحبها، وثانيا يعاقب عقابا آخر، عقابا معنويا يحطّ من قدره في مجتمعه، ويجعله في عداد السفهاء وذلك بنزع الثّقة من قبول شهادته، لا تقبل شهادته إلى مماته، وثالثا هو عند الله تعالى من الفاسقين. والفاسق هو من خرج من



طاعة الله تعالى إلى معصيته، وخرج من قول الحقّ والعمل به إلى قول الباطل، والكذب، والبهتان العظيم. قال تعالى (وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا)(النّساء الآية 156).لا يتّهم أحد اِمرأة بالزنى إلاّ كان قد شهد معه أربعة شهود عدول على معاينتهم عيانا حقيقيا وهي في حالة الوطء. أمّا إذا رجع القاذف عن اِتّهامه، وندم على قوله، واِعتذر، وأظهر توبته، وطلب الصفح، ثمّ أصلح حاله، فحفظ لسانه، وأصلح عمله فأقلع عن الأخذ بالظنّ أو الكيد فإنّ الله تعالى يغفر له ذنبه ولا يؤاخذه عليه يوم القيامة رحمة به، ولكن بعد إقامة الحدّ عليه. إنّ توبته وتراجعه عن اِتّهامه لا يمنع عنه إقامة الحدّ عليه.

إنّ هذا الحكم من خير ما يُستشهد به على أنّ الله تعالى قد شرع تشريعات مختلفة للمحافظة على وحدة الأسرة وحمايتها من التّصدّع، ولحماية المرأة الزّوجة، أو الّتي هي فتاة في بيت أبويها تنتظر أن تُخطب للزّواج، أو التي هي أمّ ذات أطفال، أو التي هي أخت في عائلة ذات حسب ومجد، من أن يُعتدَى عليها وعلى أسرتها بالقول السيّئ والاتّهام الباطل من سفيهٍ غير ذي خلق. والله عليم حكيم في تشريعه، وخبير بما يردع الفاسق الرّدع الحاسم عن الباطل من فعله.

- وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (6) وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (7) وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (8) وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (9) :

هذه الآيات في حكم "اللِّعان"، وذلك لأنّ في شهادة الرّجل عن نفسه بصدقه في اِتّهام زوجته بالزّنى، ولم يكن له شهود عيان على رؤيتهم لزوجته وهي في حالة الزّنى، الشهادة الخامسة تكون بالدعاء على نفسه باللعنة إن كان كاذبا في اِدّعائه. جاء هذا الحكم لسدّ الذريعة عليه حتى لا تأخذه الحمية فيلتجئ إلى قتل زوجته بدعوى غسل عاره وعارها، فيسفك الدم من نفسه دون الرّجوع إلى القضاء، ويحكم عليها بالزّنى بسوء الظنّ أو بوشاية كيديّة بَلَغَتْهُ.

ولا يُلاَعَنُ بين الزّوجين – كما قال مالك في المشهور – إلاّ إذا ادّعى الزّوج على اِمرأته أنّها تزنِي، أو نَفَى حملها منه نَفْيًا مستندا إلى عدم قربه منها، فإن لم يكن كذلك ورماها بالزّنى بمجرّد السماع بوجود رجل في بيته عند زوجته في غيابه، أو برؤية رجل في البيت في غير حال الزّنى فلا يُشرعُ اللِّعان. وصورة اللّعان إذا تحقّق الرّجل أنّ زوجته تزني، وليس له بيّنة على ما ادّعى عليها، أو كان موقنا بأنّه عقيم ورأى زوجه حاملا.

وصورة اللعان إذا أمر به القاضي الذي عرضت عليه مسألة هذا الاتّهام والادّعاء أن يحلف الرّجل أمام القاضي أو نائبه إثر صلاة العصر في أحد الجوامع وبحضور طائفة من النّاس



أربعة شهادات بالله إنّه من الصادقين فيما رماها به من الزّنى. بعد اليمين الرابع يستوقفه القاضي أو نائبه ليذكّره بعذاب الله تعالى يوم القيامة قبل أن يدعو على نفسه باللّعنة إن كان غير صادق في اِدّعائه، وكان كاذبا وغير متأكّد من اِتّهام زوجته بما رماها به، ويبيّن له أنّ اللعنة هي الطرد من رحمة الله تعالى، وهي من أقسى العقوبة التي يُعاقب بها العبد، وهذا حتى لا يستهين الأمر، ويدعوه للتّراجع عن دعواه إن لم يكن متأكّدا كلّ التأكّد من هذا الاتّهام، ثمّ تكون الشهادة الخامسة إذا أصرّ الزّوج على اِتّهامه لزوجته بالزّنى، وعندئذ تطلّق منه الزوجة طلاقا بائنا لا رجعة فيه، وتحرم عليه أبدا، ويعطيها مهرها المؤخّر، ولا يُنسب إليه المولود إذا كانت المرأة حاملا، وأنجبت وليدا، ويقام على المرأة حدّ الزّنى عندئذ إن لم تكن حاملا، أمّا إذا كانت حاملا فيرجى إقامة الحدّ عليها حتى تفطم الولد بعد وضعه ومدّة رضاعه. ولا يقام على المرأة حدّ الزّنى إذا ردّت شهاداته الخمسة بأن حلفت أربع شهادات ببراءتها ممّا ادّعى به عليها زوجها، وتقسم بأنّه كاذب في اِدّعائه ممّا رماها به من إتيان فاحشة الزنى، وتكون شهادتها الخامسة بالدعاء على نفسها بأن يحلّ عليها غضب ربّها إن كان زوجها صادقا في ما ادّعاه عليها، وهذا أغلظ من اللعنة حتى لا تتساهل في الكذب والمغالطة في تبرئة نفسها ممّا قد أتت به، وتوعظ كذلك قبل شهادتها الخامسة لتعرف أنّها مقبلة على عذاب الله تعالى يوم القيامة إن كان زوجها صادقا، وكانت هي كاذبة.

وأوصى العلماء القدامى بأن يتجنّب المرء قذف زوجته بهذه التّهمة إلاّ إذا علم زناها علما يقينا، والأولى به أن يطلّقها إذا رأى منها ما لا يسرّه في علاقتها بغيره، أو إذا اِرتاب في أمرها خير من الدعاء باللعنة، فإن أتت بولد من حمل علم أنّه ليس منه فعليه إنكار نسبته إليه.

واليوم مع وجود البحوث الجينية يسهل نسبة الولد لأبيه أو لغيره، فصار البتّ في هذه القضية، قضية إلحاق الولد بأبيه أو نفيه أمرًا هيّنا على القضاء لا يعتريه الشكّ إلاّ بنسبة ضعيفة جدًا، فلم يعد اللجوء للّعان أمرا مهمّا للحسم في هذه القضية.

- وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (10) :

جملة الجواب التي يقتضيها هذا التركيب الذي تصدّر بـ (وَلَوۡلَا) لم يذكر، ولذلك نقدّره تقديرا على حسب ما يُدرك من سياق ما سبقها من الأحكام السابقة. فما يُفْهَمُ من الآية أنّه لولا فضل الله تعالى عليكم ورحمته في إنزال هذه الأحكام لتعرفوا كيف تفصلون في أقضيتكم المتعلّقة برمي النّساء بالزّنى في وجوه متعدّدة لتحيّرتم، ولاضْطَربتم، ولاختلفتُم في تقدير الأحكام المناسبة للقضاء على النّزاعات التي تهدّد الأسر بالانشقاق، ولتساهل النّاس في قذف النساء محصنات وغير محصنات، عفيفات وبريئات وربما متلبسات بالفاحشة. وإنّ الله كثير التوبة عمّن يخطئ ثمّ

يصلح خطأه ويتوب عن اِتّهام العفيفات البريئات وهو تعالى حكيم في إنزال الأحكام التي تضمن العدل والإنصاف فيكم، وتضمن سلامة أُسَرِكم من التّصدّع والانشقاق، والتي تحفظ كرامة التي تتّهم باطلا أو بالظنّ، وتحفظ شرفها. لقد كان الطعنُ في الشرف عند العرب في الجاهلية من أكثر ما يثير حميتهم، ويعتبرون دوس الشرف عارا عظيما لا يغسله إلاّ الدمّ، وإزهاق الرّوح. وكان الأب أو الأخ أو الزوج هو الذي يغسل عاره بيديه الذي لحقه من اِبنته أو أخته، أو زوجه. فكان كثيرا ما تقتل المرأة بالشّبهة وبسوء الظنّ دون اِحتكام لأحكام معلومة أو لقضاء لرفع اللّبس ودفع الشبهة إذا كان الاتّهام باطلا. لذلك جاءت هذه الأحكام رحمة بالنّاس فجعل الله تعالى الأمر بيد القضاء ليحسم في التّهم بالإثبات أو بالتبرئة، وجعل للقضاء أحكاما معلومة ليقضي بها حتى لا يترك الأمر لاجتهادات غير مناسبة للجرم الذي حصل. وهذا من رحمة الله تعالى بعباده لتنظيم أمورهم، وللحكم بالعدل ودفع الشبهة عن المرأة البريئة المتهمة بالباطل، وبسوء الظنّ، وبالإشاعة الكاذبة.

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ **(11) :**

هذه الآية إلى غاية الآية 20 في حديث "الإفك". و"الإفك" هو أقبح الكذب وأفحشه. نزلت هذه الآي في عائشة رضي الله عنها، وأهل الإفك هم الذين اِفتروا عليها. وقد جاء في السيرة النبوية (ج.3 ص ص 187-196) وفي كتابي: رسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم، خبر هذه الحادثة وظروفها وفي كتب أخرى من كتب السيرة، وفي جملة كتب التّفسير. وملخص ما حدث أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لمّا رجع من غزوة بني المصطلق من خزاعة آذن بالرحيل آخر الليل، فلمّا علمت عائشة بذلك وكانت قد خرجت معه للغزوة، غادرت هَوْدجها، واِبتعدت عن الجيش لقضاء شأنها كما هو شأن النّساء قبل الرّحيل. فلمّا فرغت وأرادت العودة اِفتقدت عقدا لها أضاعته فانشغلت في البحث عنه فلمّا وجدته ورجعت لم تجد الجيش والرّكب، وقد حمل الرّجال الهودج على البعير ظانّين أنّ عائشة فيه، وقد كانت خفيفة الوزن، ولم يشعروا بفقدها، فلبثت مُلْتَفَّةً في ثوبها الأسود في المكان الذي كانت فيه، ونامت محدّثة نفسها أنّ القوم حين يتفقّدونها، ولا يجدونها سيرجعون إلى حيث كانوا فيجدونها حيث هي، حتى مرّ صفوان السُّلمي الذي أوكل إليه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حراسة مؤخّرة الجيش، فلمّا علم صفوان بابتعاد الجيش، وأمن عليه من غدر العدوّ ركب راحلته ليلتحق بالجيش، فلمّا بلغ الموضع الذي كانت به عائشة رأى من هو مُلْتفٌّ بسواد، ولمّا اِقترب منه اِسترجع فاستيقظت عائشة لصوته، وعرف أنّها عائشة فنزل عن ناقته وأركبها عليها وأخذ يقودها حتّى لحق بالجيش عند الظهيرة، وكان عبد الله بن أبي سلول

رأس المنافقين في الجيش فقال ما قال من كلام السوء في تأخّرها وقدومها مع صفوان على ناقته، وساعده في ترويج إفترائه طائفة من المنافقين من أصحابه، وطائفة قليلة أخرى من المؤمنين السذج. ولمّا كثر ترويج الحديث السيّئ بسبب ظنّ السوء نزل الوحي بهذه الآيات لتبرئة عائشة ممّا قيل فيها من كذب باطل فاحش وهي زوجة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم. وكشفت هذه الآي كذب المنافقين، وعابت على المؤمنين السذج تسرّعهم في تصديق الإشاعة وترويجها بما يحدث الفتنة في أوساط المؤمنين. وكانت هذه الآي فخرا لعائشة وآل بيت أبي بكر رضي الله عنهم أجمعين إذ رفع ذكرهم إلى الأبد بما يتلى من هذه الآي في كتاب الله العزيز.

والمُستفاد من الآي تأديب المؤمنين على التثبّت في صدق ما يبلغهم من إشاعات، فإذا لم تثبت عندهم بالدلائل وجب عليهم التّغافل عنها حتى لا يروّجوا الأكاذيب، أو الاتهامات الباطلة.

وهذه الآية في ردّ التّهمة عن السيّدة عائشة وآل بيتها في دار النّبوّة، وفي أهلها دار أبي بكر. والمعنى: إنّ الّذين أشاعوا بالكذب الفاحشةَ عن السيّدة عائشة وتداولوها فيما بينهم، ثمّ أذاعوها ونشروها في أوساط المؤمنين حتى بلغت مسامع النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فآذته، وبلغت مسامع أبي بكر فآلمته وحيّرته هم جماعةٌ في وسطكم، فيما بينكم. لا تحسبوا يا آل أبي بكر، وكلّ من تأذّى بهذه الإشاعة وخاصة صفوان السُلمي الذي رافق عائشة لردّها لجموع العائدين من غزوة المصطلق دون أن يتفقدوا وجودها معهم فخلّفوها وراءهم، لا تحسبوا ما أشيع عن عائشة شرّا لكم وأذية تؤلمكم، بل هو خير لكم لأنّ الوحي قد جاء بفضح الإشاعة الكاذبة، وبفضح المنافقين الذين كانوا في صحبتكم، وقد رفع الله تعالى بهذا الوحي ذكركم. إنّ كلّ من روّج هذه الإشاعة الكاذبة ولم ترفضها نفسه ولم يسكت عن تبليغها لغيره له نصيب من الذنب والإثم على قدر ما روّج وأشاع وتكلّم في شرف البريئة. أمّا أبيّ بن أبي سلول – رأس المنافقين – الذي كان أوّل من قال بهذه التّهمة واِفترى هذه الكذبة السيّئة فجرمُه أعظم، وسيلقى عذابا عظيما عند ربّه في آخرته عمّا اِفتراه.

هذه الآية في الرّدع عن نشر الإشاعات خاصّة تلك التي تنشر على صفحات التواصل الاجتماعي. قيمتها خالدة صالحة لكلّ المجتمعات وعلى مدى الدهر، فاليوم نعيش في مجتمع قوامه الشائعات لتحقيق رغبات عديدة كالحصول على منصب سياسي أو بلوغ مرتبة اجتماعيّة أو كسب الأموال أو عمل بدون مؤهلات أو نشر الفوضى واستبداد العنف.

فخطر نشر الإشاعات في المجتمع كبير حذّرنا الله تعالى منه لتستقيم الحياة فيه على العدل بين أفراده، ذلك لأنّ هذه الإشاعات تضرّ بوحدة الأمّة، وتزيدهم خلافا واِختلافا في تقييم الأعمال والجهود النبيلة، وتضيّع فيهم الأمانات، وتفرّق الجموع بالشكوك والأخذ بالظنّ، وتنزع الثقة فيما بينهم وَتُرْبِكُهُمْ....

- **لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ (12) :**

هذه في عتاب بعض المؤمنين والمؤمنات السّذج، وفي تأديبهم. والمعنى: هلاّ حين سمعتم ما يُقال عن السيّدة عائشة، وهي زوجة نبيّكم، واِبنة الصدّيق، أحسنتم الظنّ بها وبأنفسكم خيرا لأنّه حاشا للمؤمنين – صحابة الرّسول ومحلّ ثقته – وللمؤمنات من حوله – من المهاجرات والمجاهدات– أن يأتوا بسوء الفعل، وقلتم فيما سمعتم هذا كذب واضح واِفتراء مرفوض لا يُصدَّق، فكفّوا ألسنتكم عمّا تقولون.

- **لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ (13) :**

هلاّ جاء القائلون بهذا الادّعاء بأربعة شهداء حضروا الواقعة لتأكيد قولهم وادّعائهم، فإن لم يأتوا بالشهداء فهم كاذبون في اِدّعائهم، وقولهم باطل.

- **وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (14) :**

ولولا كرم الله عليكم ورأفته بكم في الدنيا والآخرة لأصابكم عذاب عظيم بسبب خوضكم في في هذا الحديث.

- **إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ (15) :**

إذ يروي بعضكم لبعض هذا الإفك، وتبادرون بالحديث به ونقله لغيركم، تسمعون وتنقلون الخبر دون تثبّت في مصدره وصحته، وهذا من العيب الكبير إذ تشاركون بهذا النقل في نشر كذب المفتري، وتعينونه على إذاعته وتفشّيه، وتظنّون أنّ هذا الأمر يسير، وليس فيه إثم، ولكنّه عند الله ذو إثم عظيم لما فيه من طعن في شرف الأبرياء، وخراب بيوت، واِنّ القذف بغير شهود يستوجب العقاب. والمُستفاد من الآية أنّ المؤمن مطالب أن لا يصدّق بكلّ ما يسمع حتى يتأكّد من صحّته ويتحقّق بالدليل الثّابت حتّى لا يأخذ المعلومة بمجرّد السمع، والظنّ، وقد جاء في الحديث الشريف: "كفى بالمؤمن كذبا أن يحدّث بكلّ ما سمع". فمن حدّث بما سمع دون تَرَوٍّ وعلم ثابت هو في عداد الكذّابين.

- **وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ (16) :**

كان عليكم حين بلغ مسامعكم هذا الخبر أن تقولوا: لا يليق بنا ولا يجوز أن نتحدّث بهذا. تنزيها لك يا ربّ، وبراءة ممّا يقوله هؤلاء. هذا الذي نسمعه كذب شنيع وفظيع مُبْهت.

- **يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (17) :**

يحذّركم الله من أن تعودوا لمثل هذا القول، وينهاكم عنه نهيا قطعيا وشديدا إن كنتم مؤمنين بحقّ تعملون بأوامر الله تعالى ومواعظه.

- وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (18) :

ويوضّح الله لكم الأحكام، ويرشدكم لما يهديكم للصواب وحسن التّصرّف في مسائلكم الاجتماعية، والله عليم بما يَصلُح لكم ويضمن حسن علاقتكم ببعض، وحكيم في إرشادكم وفي وضع الأحكام التي تحفظ أسركم وأخلاقكم وألسنتكم من الوقوع فيما يسيء إليكم.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (19) :

هذه في التوعّد بالعقاب الموجع المهين للّذين يذيعون أخبار الزّنى بالظنّ السّيّئ، وبدون شهود وأدلّة، ويشيعون القذف في العفيفات البريئات للإساءة لهنّ وأهليهنّ خُلقا وصلة في أوساط المؤمنين والمؤمنات للإفساد عليهم في حياتهم الاجتماعية من سوء أخلاقهم وفساد طباعهم أو من حسدهم للمؤمنين. هذا العقاب سيصيبهم في دنياهم بما يفضح كذبهم، ويحطّ من قدرهم، ويذهب بمكانتهم في وسطهم الاجتماعي إذ يلحقهم عار نسبتهم إلى السفهاء من النّاس، فلا يُلتفت لما يقولون، ولا تُحَبَّذُ مجالستهم. ولهم في الآخرة عذاب موجع بقضاء من أحكم الحاكمين. والله سبحانه يعلم ما يصلح للمؤمنين من أحكام وتوجيه وإرشاد، والنّاس لا يعلمون مدى الضرر الذي يلحق بالأبرياء والبريئات المتهمّين باطلا بما ليس فيهم، ولذلك يشدّد الله في عقاب من يؤذي عباده المؤمنين المظلومين : ذكورا وإناثا.

- وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (20) :

هذه كالآية العاشرة مع اِختلاف في صفات الله تعالى في الآيتين. وقد جاءت في خاتمة عرض حديث الإفك وما جاء من توجيه وإرشاد للحكم بالبيّنة والدليل، وإلاّ وجب رفض الاتّهام الباطل وحفظ اللسان عن إشاعة ما يؤذي بعض النّاس بالظنّ والشّبهة. وكشأن الآية السابقة فإنّ جواب (لَوْلَا) لم يذكر في الآية، ولذا يُقدّر تقديرا قد يكون على هذا النّحو الموالي، وقد يكون على نحو آخـر لم نفطن إليه، ولولا فضل الله عليكم ورحمته في إنزال هذا التّنزيل ليرشدكم للسبيل الأمثل للتعاطي مع قذف البريئة والبريء بتهمة الفاحشة لفسدت علاقتكم في أسركم بنسائكم وفي علاقتكم بخلاّنكم في مجتمعكم، ولأخذتم بالحكم بالشبهة والظنّ على المتهم البريء فتظلمونه، ولكنّ الله تعالى كان رؤوفا بكم ورحيما فأرشدكم لما يرفع عنكم اللبس، ولتبرئة المتهم البريء.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (21) :

هذه في موعظة المؤمنين ليعملوا بما أنزل الله تعالى من أحكام وحكمة الرّشاد والموعظة، وليحذروا من اِتّباع الأساليب الملتوية التي يوسوس بها الشيطان. والمعنى: يا أيّها الذين آمنوا احذروا أن تسايروا وسائل الشيطان وطرقه وأساليبه وتدبيره في تعاملكم مع بعض وفي معاملاتكم وفي الأخذ بالظنّ وفي إيقاع الفتنة بين الزّوج وزوجته أو الأخ وأخيه. ومن ينتهج منهج الشيطان في تعامله مع الآخر ويخضع لوساوسه فإنّه يوقعه في أقبح الذنوب وأشنعها وإنّه يزيّن لأتباعه إتيان كلّ منكر يستقبحه الشّرع والعرف والخُلق.

(وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ) هذه كالآيتين 10 و20 إلاّ أنّ هذه تميّزت عن السابقتين بوجود جملة الجواب لـ(لَوۡلَا) ومعناها: ولولا فضل الله عليكم في إنزال الأحكام التي تنظم علاقتكم الاجتماعية ببعض، وتنظّم لكم مسار أقضيتكم ولولا رحمته في إرشادكم لما يحفظ تعاملكم بالحقّ والعدل والإنصاف كيلا تظالموا ما تطهّر أحد منكم من دنس شركه، وكثرة ذنوبه وسيّئاته إلى يوم الدّين، ولكنّ الله تعالى يطهّر الأنفس من الدنس والرّجس لمن يشاء منكم أن يؤمن ويطيع ربّه فيما أنزل، والله سميع لما تقولون وما تَدْعُون وما تدَّعُون وعليم بأعمالكم وسرائركم.

- **وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ (22) :**

كان من بين المؤمنين الذين تحدّثوا بحديث الإفك، ولم يمسكوا ألسنتهم عن الحديث فيه رجل من ذوي قرابة أبي بكر اِسمه مسطح، وكان رجلا فقيرا، وذا حاجة، وكان أبو بكر يحسن إليه، فلمّا بلغ أبا بكر أنّ مسطح يتحدّث بحديث الإفك ولا يردّه أقسم بأن يقطع عنه كلّ عون وإحسان، ونزلت هذه الآية لتدعو أبا بكر، ومن ورائه كلّ مؤمن أن لا يقسم بأن يقطع إحسانه عن من كان يحسن إليه من ذوي قرابته من الفقراء والمساكين وإن أساء إليه من سذاجته، وعليه أن يتعامل مع ذوي الحاجة من ذوي القرابة بالعفو والصفح. ومعنى الآية: لا يحلف بالله ويقسم ذوو الغنى والتفضّل بأن يقطعوا إحسانهم وعونهم لذوي قرابتهم الفقراء، وللمساكين والمهاجرين في سبيل الله المحتاجين وإن أخطؤوا في حقّ من يحسن إليهم من سذاجتهم، وعن غير قصد سيّء، وعليهم أن يعفوا عنهم، فلا يؤاخذوهم عمّا قالوا، وليتجاوزوا عنهم مقابل أن يغفر الله لهم، ومن ذا الذي لا يحبّ أن يشتري مغفرة ربّه بالإحسان للفقراء من ذوي القرابة وللمساكين ولأحباب الله المهاجرين في سبيله، وبالعفو عنهم والصفح إذا أخطؤوا في حقّه، والله سبحانه وتعالى كثير المغفرة، وكثير الرحمة بعباده المؤمنين الطائعين المحسنين. والعبرة بعموم اللفظ، فإنّ في الآية توجيها للأغنياء المحسنين من أهل الفضل بأن لا يقطعوا إحسانهم عمّن كانوا يداومون على الإحسان إليهم لصلة القربى وإن أساؤوا عن غير قصد مُبَيَّتٍ.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ(23) :

هذه في وعيد الذين يقذفون النساء العفيفات المصونات عند أزواجهنّ بتهمة الزّنى بغير دليل أو شهود، وأخْذًا بالظنّ السيّئ، أو للكيد بهنّ للإضرار بعلاقتهنّ بأزواجهنّ وأهلهنّ، ويقذفون النساء (ٱلۡغَٰفِلَٰتِ) وهنّ المنصرفات عن التفكير في الفواحش وفي ما يغضب الله تعالى، والبعيدات عن الشبهة، وليس لهنّ علم بما يقال فيهنّ من ورائهنّ، هؤلاء القاذفون يطردهم الله تعالى من رحمته في الدنيا وكذلك في الآخرة، وسيلقون عذابا شديد الإيلام والخزي.

- يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (24) :

هذه في شدّة من شدائد يوم القيامة. وفي ذلك اليوم لا أحد يقدر أن ينكر عملا سيّئا قد فعله، أو قولا باطلا قد صرّح به، أو ضرًّا قد أضرّت به يده، أو سعى إلى معصيته برجليه، وذلك لأنّ الشّاهد عليه سيكون من ذاته، سيشهد على قوله الباطل لسانه، وعلى ظلمه بيده يَدُه، وعلى سعيه إلى معاصيه رجلاه، وسيقرّون عليه في كلّ ما ينكر على نفسه فعله.

- يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ (25) :

في ذلك اليوم يجازيهم الله بما قالوا الجزاء الذي يوافق درجة الجرم في عمله ودرجة سوئه وضرّه بالقسط والعدل، ويومئذ يوقن من كان يستخفّ بالوعيد أنّ ما جاءه من خبر الحساب على أعمال العباد هو خبرٌ حقٌّ ويقيني، لا خُلف فيه.

والمُستفاد من الآيات الثلاث صون اللسان عن كلّ اِتّهام باطل في شرف المؤمنات، وعن كلّ اِفتراء للنّجاة من المؤاخذة القاسية على قوله الباطل يوم القيامة، وللحذر من وَسْمِه بالسَّفَهِ.

- ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ (26) :

الزّانيات للرجال أهل الفواحش، والرجال الزناة لا يستحقّون الزّواج إلاّ بالفاجرات الفاحشات من أمثالهم. والطيّبات اللائي هنّ عفيفات طاهرات للطيّبين من أهل التّقى والعفاف، والرّجال الطيّبون الطاهرون للنساء العفيفات. هؤلاء لا يطعنون في شرفهم، ومبرؤون ممّا يقذفه بهم الكاذبون.

وقد وعد الله عزّ وجلّ في آخر الآية بالمغفرة والإنعام بالرّزق الحلال الطيّب الّذي يكفي لقضاء الحاجة كلّ من يتخيّر للزّواج: الطيّبين من الرجال – وهم أهل التّقى والعفاف، والطيّبات من النّساء – وهنّ الطاهرات العفيفات. وما هذا الوعد إلاّ لمزيد الترغيب في بناء الأُسَرِ على الطهر والعفّة، والسلامة من الفواحش لإنجاب الأبناء الصالحين المستقيمين على الأخلاق الفاضلة. وبهذا تنشأ المجتمعات الإنسانيّة على اِحترام القِيَم الأخلاقيّة، وتقدير العفّة والطهارة،



وإستهجان الفواحش ما ظهر وما بطن، وعلى السلامة من إنجاب المتشرّدين: المواليد من غير الطريق المشروعة، وبهذا لا يكون في المجتمع مكان للخبيثين والخبيثات.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ (27) :

هذه الآية مع الآيتين المواليتين في أدب الاستئذان لدخول البيوت، وفي أحكام التّزاور، وذلك للاحتراز من الوقوع في تهمة القذف، أو إثارة الشكوك. والمعنى: يا أيّها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تطلبوا الإذن بالدخول. فإن أُذِن لكم فادخلوها بعد أن تسلّموا على أهلها ليأمنوا لكم وحتى لا يفاجؤوا برؤيتكم أمامهم دون إشعار بدخولكم، وحتى يكون أصحاب البيت في حال اِستعداد لاستقبالكم من غير حرج، وقد جاء في الحديث الشريف: "إذا اِستأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فلينصرف". والحكم بالاستئذان عند الدخول مع السلام على أهل البيت حكم عام لا يستثنى منه أحد ولو كان خادم البيت ولو كان الزائر والدا يزور ابنته، أو ولدا يزور أمّه أو والده. وعندنا الاستئذان يكون بطرق الباب، أو بإحداث صوت وحركة تشعر بالقدوم على الأهل، ولو كان زوجا مع زوجته خشية المفاجأة على غفلة. وهذا الاستئذان والسلام خير لكم تجنّبا للدخول بغتة ولسدّ ذرائع الشكوك، وتجنّبا للاستثقال، وهذا من إرشاد الله تعالى لتأديبهم على التعامل بحسن الأدب مع أهل البيت، وحفاظا على حرمة البيوت، وساكنيها: رجالا ونساء وأطفالا.

- فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ (28) :

فإذا قصدتم بيتا لزيارة أهله وإستأذنتم في الدخول، فلم تجدوا فيه أحدا يأذن لكم بالدخول فلا تدخلوه حتى تجدوا إذنا سواءً أكان الباب مغلقا أو مفتوحا لأنّ الشرع قد أغلقه بالتحريم وبطلب الإذن لدخوله. وإذا سمعتم صوتا من داخله يقول لكم إرجعوا بعد قليل أو في وقت آخر فارجعوا، وهذا أطهر لكم وللنساء داخل البيت بدون زوج ومحرم من الرّجال من دنس التّهمة والشّكّ. (وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ) هذا توعّد لأهل التّجسّس على البيوت وطلب الدخول على غفلة للمعاصي وللنّظر إلى ما لا يحلّ ولا يجوز، ولغيرهم ممن يقع في محظور.

- لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ (29) :

البيوت المعنية في هذه الآية هي البيوت الشاغرة التي تُبْنَى لأبناء السبيل، لا يسكنها أحد، هي مَوْقُوفَةٌ للمسافرين للحجّ أو لطلب العلم أو في ظروف طارئة للمرور.

هذه البيوت المبنية على ذمّة المسافرين حين تكون شاغرة، ويمرّ بها قاصد للإقامة فيها ليلته أو لفترة معدودة فليس على الرّاغب في دخولها أن يستأذن لأنّها غير مملوكة لأحد ولأنّها غير



مسكونة، إذا كان لهذا الراغب حاجة له فيها ومنفعة ومصلحة. والله يعلم نوايا الراغب في سكناها وما يضمر في نفسه، وما يظهره النّاس من حول هذه البيوت، وهذا للتّحذير من اِستعمال هذه البيوت الموقوفة للصدقة ولعمل البرّ للمسافرين ولطلبة العلم لغير الغاية النبيلة التي أقيمت من أجلها.

- قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30) :

وأرشد المؤمنين لأن يحفظوا نظرهم عمّا لا يحلّ لهم النّظر إليه، ولكلّ ما يخشى منه الوقوع في الفتنة. ووجود حرف (مِن) يدلّ على أنّ من بعض النّظر ما يوقع في المحرّم، وقديما قيل: النظر سهم من سهام إبليس المسمومة. وإنّ غضّ الطرف من الحياء، والحياء شعبة من شعب الإيمان، ومن حسن الخلق. فإذا وقع بصره على ما يثير فتنة أو تلك الغريزة الشهوانية صرف عنه بصره بسرعة، وإنّ في ما يعرض على النّاس من مشاهد خليعة ومغرية للفتنة يندى لها الجبين في المجتمع وفي بعض الأفلام التّلفزية وفي بعض اللّقاءات التلفزيّة أو الاحتفالات يتعارض مع هذا الإرشاد الربّاني والتّوجيه لحفظ النّاس من السقوط في إثارة الغرائز الجنسية الموقعة في الفاحشة والرّذيلة. وأرشدهم لحفظ فروجهم بستر عوراتهم، وبصيانتها من ممارسة فاحشة الزّنى أو اللواط. فهذا الإرشاد أطهر لنفوسهم ليكونوا من أهل الشرف والعفّة وطاعة الله تعالى، وليترفعوا عن السقوط في مقدّمات الرّذائل (إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) هذه الجملة في وعد الممتثلين لأمر ربّهم بمجازاتهم عمّا يصنعون في حفظ أبصارهم وفروجهم، وفي وعيد المخالفين لأمره ليعلموا أنّ الله مطلّع عمّا يفعلون في مخالفتهم لهذا الإرشاد، وسيحاسبون عن سيّئاتهم ومعصيتهم.

- وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31) :

توجّهت هذه الآية بالخطاب للمؤمنات بأحكام خاصّة بهنّ بما يحفظ كرامتهنّ الإنسانيّة، وحرمتهنّ الجسدية حتى لا يكنّ عرضة للتحرّش الجنسي، أو عرضة للقذف بالتّهمة الباطلة، وبما يُبعد عنهنّ كلّ شبهة، ورفعا لقدرهنّ حتى لا يُنظر إليهنّ إلاّ من الجانب الجنسي فحسب، وهنّ



الأمهات – منبع الشفقة والحنان، والحبّ الأعظم لأبنائهنّ، وعند الشدائد وفي الأمراض لا ينادي المتألّم وذو الكرب إلاّ أمّه. هذه الأمّ هي التي أمر الرّسول صلّى الله عليه وسلّم المؤمن بحسن صحبتها، وهي الّتي قال فيها: "الجنّة تحت أقدام الأمّهات". وهي التي جعل عقوقها كبيرة من الكبائر. وهنّ الزّوجات – سكن الرجال اللاّتي يشددن أزرهم عند الضيق والمرض والعوز والعجز، وقد أوصى الرّسول في حجّة الوداع بإكرامهنّ، وعَدَّهُنَّ أمانات عند أزواجهم للمحافظة عليهنّ قدرًا، ولحسن صحبتهنّ. وقال صلّى الله عليه وسلّم فيهنّ: "ما أكرمهنّ إلاّ كريم. ولا أهانهنّ إلاّ لئيم" (أخرجه ابن عساكر عن علي وكذلك السيوطي في الجامع الصغير الرقم 4102) ولقد أحسن من قال عنهنّ : "وهنّ الأخوات الحنونات، وهنّ البنات، زهرات الحياة. وليس من أحد أعظم حنانا وأخلص ودّا وحبّا للوالدين من البنت".

والمعنى: بلّغ – يا محمد – المؤمنات بأنّ الله تعالى يأمرهنّ بأن يحفظن أبصارهنّ عن النّظر إلى ما يحرّم عليهنّ من العورات ، وبأن يحفظن فروجهنّ باللباس الساتر، غير الفاضح، وبأن يَصُنَّ أنفسهنّ عن فاحشة الزّنى، والسحاق. وعليهنّ أن لا يظهرن مواضع جمالهنّ وفتنتهنّ في أجسادهنَّ إلا الوجه والكفّين. وليُسْدِلْنَ بالخمار على فتحات الصدور والأعناق. وعليهنّ أن لا يظهرن تزيّنهنّ بما يُتعارف عليه من زينة المرأة فيما يتجملن به من حليّ ولباس ومساحيق إلا لأزواجهنّ، أو آباء الأزواج، أو الأبناء، أو الربايب، أو إخوانهنّ، أو أبناء إخوانهنّ، أو أبناء أخواتهنّ، أو خادماتهنّ، أو الإماء، أو الخدم الذكور غير القادرين على إتيان الجنس كالخنث والأبله، والمعتوه، أو الصبي الصغير غير البالغ الذي لا يفهم في الجنس. وعليهنّ إذا خرجن خارج بيوتهنّ أن يمشين بأدب واحترامٍ حتّى لا يجلبن إليهنّ النظرات الفاحشة ولا يتعرّضن إلى التحرّش وسوء الأدب (وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا...) أي فالتزموا – أيّها المؤمنون – نساء ورجالا – بما أمركم الله من الطاعات، وانتهوا عمّا نهاكم عنه، وأقلعوا عمّا كنتم عليه من عادات الجاهلية السيّئة، وعن كلّ ما يثير الشهوة، ويشيع الفاحشة، أو يدعو للقذف.

- وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَـٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ (32) :

هذه الآية مع الآية الموالية في أحكام خاصة بالعبيد والإماء بما يحفظ لهم كرامتهم الإنسانيّة، وبما يسمح لهم ببناء أسر على الطهر والعفاف، وبما يحفظهم من إتيان الفواحش، ولإبطال البغاء والمتاجرة بالجنس كما كان في الجاهلية، وفيهما الحكم بمكاتبة الرقيق بما يضمن لهم التحرّر من الرّقّ والعبودية ومعاملتهم معاملة إنسانيّة، وقد زال الرّقّ والاستعباد، ولم يبق منه إلا البعض من مظاهر اِستغلال خيرات أرض الشعوب الفقيرة، وتسخير مواطنيها للأشغال الشاقّة بمقابل زهيد

لخلاص حقوقهم في الجهد والعمل كالذي حدث زمن إستعمار الشعوب المتخلّفة، وبقيت بعض آثاره في التّمييز العنصري الذي عرفته بعض البلدان الصناعية.

والمعنى والخطاب في الآية للأولياء: وزوّجوا من لا زوج له للتعفّف إذا أراد الزّواج. و(ٱلۡأَيَـٰمَىٰ) جمع للأيم، ويطلق اللفظ على الذكر أو الأنثى على السواء، ولكنّه أكثر ما يكون في النّساء، وهي المرأة التي لا زوج لها: بكرا كانت أو ثيّبا، قد تكون مطلّقة أو أرملة، وليس لها من عائل يعولها وصغارها إن كان لها صغار، وهذا الحكم لحفظ الكرامة والشرف، وسدّ الذريعة عن التشرّد أو الانحراف.

(وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ) هذه في تزويج العبيد: الذكور والإناث، والصلاح يعني الإيمان، أي كانوا مؤمنين يكرمون بتزويجهم لمعاملتهم المعاملة الإنسانية، وللقطع مع أسباب البغاء وتفشّي ظاهرة الزنى واللواط، (إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ) أي لا تمتنعوا عن تزويج الرّجل بسبب الفقر، فإنّ الله تعالى يعد بالغنى للمتزوّجين الفقيرين إذا اِعتصما بالله تعالى، واِشتغلا، وتدبّرا معا معاشهما بالحلال. والله كثير الفضل والإحسان يعطي من سعته لعبده ما يُغنيه عن النّاس وعن السؤال، وهو تعالى عليم بأحوال عباده، وبما يُصلح شأنهم، فلا تردّوا الفقراء وزوّجوهم يغنهم الله تعالى من فضله.

واليوم مع تطوّر نظام الحياة الاجتماعيّة بوجود منظمات خيريّة، ونسيج من جمعيات المجتمع المدني في البلدان الإسلامية، ومع تطوّر أنظمتها السياسية بإيجاد وزارات للشؤون الاجتماعية وللمرأة والطفولة والمسنّين، وأخرى للتشغيل والتكوين المهني، فإنّ أحكام هذه الآية صار من اليسير إنجازها لكثرة الآفاق المفتوحة إزاء هذه الأوضاع الاجتماعية الهشّة للتّكفّل بتزويج الفقراء من الجنسين وتغطية تكاليف زواجهم، أو لرعاية المطلّقات أو الأرامل الحاضنات لأطفالهنّ بتوفير ما يلزم أسرهنّ من الإحاطة الاجتماعيّة بالإرشاد، وبتغطية حاجاتهم المادية لضمان أسباب العيش الكريم والرّعاية الصّحية اللازمة وتوفير المسكن الاجتماعي اللاّئق، وتأطير أطفالهنّ ليتعلّموا حتى يبلغوا سنّ الرّشد، ولإيواء فاقدي السند لحمايتهم من التشرّد وأخطار الإهمال والجوع والعراء وعدم التّأطير والتّعليم، وللتّكفّل بتكوين البطالين تكوينا مهنيا لضمان تشغيلهم، كلّ هذا وغيره ممّا يجب الإحاطة به لحماية النّسيج الاجتماعي من التهميش ومن خطر البطالة والجوع والتّشرد ومن الفقر وأخطار الإهمال المؤديّة للانحراف وتفشّي المفاسد في المجتمعات الإسلامية المطالبة بالتعامل بمبادئ التآزر والتعاون والتكافل والأمر بالمعروف والإحاطة بالفقراء والمساكين والمستضعفين، وكلّ هذا وغيره من مقاصد هذه الآية. (لمزيد التحليل والتدقيق في مسائل أحكام العائلة انظر كتاب : من أحكام العائلة لعلي حسين الفطناسي – صفاقس تونس 1986 – وفي المسائل الاجتماعية: أصول النظام الاجتماعي لابن عاشور – والإسلام عقيدة وشريعة لمحمود شلتوت).



- وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (33) :

وليطلب العفّة، وليصبر على الزّواج من لا تتوفّر له تكاليف الزّواج لفقره وفاقته، فلا يجد صداقا وليس له مأوى، ولا شغل أو مهنة ولا دخل، ذلك لأنّ الزّواج يحمّل الزوج مسؤولية الإنفاق على الزّوجة، وإعالة العيال وهذا أمر واجب، فكيف لمن لا قدرة له على إعالة نفسه من أن يتحمّل مسؤولية إعالة غيره وجوبا، فلينتظر حتى تتحسّن ظروف حياته، وحتى يجد مصدرا للعيش يوفّر له إمكانية التأهّل للزواج. وقد يجوز أن نضيف لهذا الشرط شرطَ سلامته من مرض معدٍ من مثل (السيدا)، أو حمل الإصابة بصنف من أصناف المرض الخبيث حتى لا يجني على زوجة شابّة في سلامة صحتها، أو يسرع إليه أجله فيتركها للترمّل، ولتحمّل مسؤولية إعالة صبية تركهم وراءه يحملون شيئا من مظاهر الداء الذي ورثوه عن أبيهم.

وترغّب الآية السادة الذين ملكوا عبيدا في مكاتبة عبيدهم الذين يطلبون منهم كتْبا مُوثّقا لتحرير أنفسهم من الرقّ بدفع مبلغ من المال. رغبتهم في مكاتبتهم خاصة إذا كان العبيد أصحاب أسر، ومن ذوي الصلاح في الدّين والأخلاق، أو من أصحاب المهارات في إحدى المهن.

ورغّبت الآية المجموعة الإسلامية في مساعدة هؤلاء على الوفاء بمبلغ المكاتبة بدفع نصيب من مال الزكاة إليهم لعتق رقابهم، ودفع الكفّارات لهم، وذلك تكريم للنّفس البشرية، ولتجسيم المبدإ الإسلامي الذي يرغّب في تحرير الرّقاب من الرّق خاصة الرّقاب المؤمنة. كما رغّبت الأسياد في أن يحطّوا عنهم شيئا من مال الكتابة للتّوسعة عليهم إذا اِجتهدوا في الخلاص لإعانتهم على الوفاء بشرط الكَتْبِ من باب الصدقة والإحسان.

وجاءت هذه الآية بحكم ثالث، وهو تحريم إكراه الجواري والإماء على البغاء للمتاجرة بالجنس، وإشاعة الفاحشة إذا كرهن ممارسته، ورغبن في التّعفف. ذكر أنّ رأس المنافقين: عبد الله بن أبي سلول كانت له ستّ جوار يتاجر بجنسهنّ، وهذا أمر قد نهى الله تعالى عنه نَهْيَ تحريم. وجاء فيها أنّ من أجبرت على البغاء بأمر سيّدها وهي له كارهة، وترغب في التحصّن فإنّ الله غفور رحيم بها حين تقلع عنه وتتوب منه. ومن المؤسف اليوم أنّ بعض أفراد المجتمع اِمتهنوا البغاء إمّا لسدّ رمق الحياة أو لتدهور الأخلاق أو لانتشار الفاحشة في المجتمع أو لضعف الإيمان. وما كان لهم أن يأتوا هذه الفاحشة المنكرة الّتي حرّمها تعالى لأنّها تتنافى مع العفّة وتكريم جنس الإنسان، وما كان لامرأة أن تتاجر بعفّتها مهما شقيت بسبب الفاقة والاحتياج،

وما كانت تشقى اِمرأة بسبب الفقر والاحتياج في مجتمع إسلامي مأمور بالإحسان للفقراء، وبالتآزر، وبإيتاء الصدقات للمحتاجين...

- وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ (34) :

ولقد أنزلنا إليكم أحكاما واضحة لتنظيم حسن علاقتكم الاجتماعية، وأنزلنا حدودا مفصّلة تهديكم إلى الرّشاد والصّلاح، ولردع المنحرفين والعصاة، وأنزلنا إليكم أخبار الأمم السّالفة للاتّعاظ وللاعتبار ينتفع بها المتّقون الذين يخافون ربّهم ليستقيموا على ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، وما يردعهم عن السيّئات، ويرغّبهم في أعمال البرّ لينالوا رضوان ربّهم.

وتشعرنا هذه الآية باختتام آيات الأحكام التي بدئت بها السّورة، وأنّها ستنقلنا إلى مواعظ أخرى ومواضيع مختلفة، وهذا لحُسْنِ الرَّبْط بين موضوعين مختلفين، وهو ما يعرف عند أهل الأدب والتّركيب للفقرات ذات المواضيع المختلفة بُحُسن التّخلّص.

- ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ (35) :

هذه آية من آيات العظمة لله تعالى لما جاء فيها من ذكر صفته تعالى العليا: "النور" (ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ). وقد اِختلف العلماء في تأويلها، ويقصر العقل على إدراك مفهومها، وها هنا تكمن صعوبة تفسيرها. النور في كلام العرب يعني الأضواء المدركة بالبصر، وحاشا الله أن يدرك بالبصر، وهو اِسم جنس يدلّ على الإشراق والضياء، لذا فإنّه مستعمل هنا مجازيا. وفي كلامنا المتداول بيننا نستعمل هذا اللفظ مجازيا فنقول: فلان وجهُه كلّه نور، النّور يتدفّق من وجهه، ونقول الكتاب المنير. ويقال في مدح صلّى الله عليه وسلّم: شمس المعالي، ونور الهُدى على جهة المدح، وهذا من المجاز.

قال أبو حامد الغزالي في رسالته: مشكاة الأنوار: "النّور هو الظاهر الذي به كلّ ظهورٍ، أي الذي تنكشف به الأشياء، وتنكشف له، وتنكشف منه، وهو النّور الحقيقي وليس فوقه نور. وجعل اِسمه تعالى النور دالاّ على التّنزّه عن العدم، وعلى إخراج الأشياء كلّها عن ظلمة العدم إلى ظهور الوجود. فآلَ إلى ما يستلزمه اِسم النّور من معنى الإظهار والتبيين في الخلق والإرشاد والتشريع".

وعند الشّيخ محمد الطّاهر ابن عاشور في التحرير والتنوير(ج.18 ص 233): "أنّ الله مُوجِدٌ كلَّ ما يعبّر عنه بالنّور، وخاصة أسباب المعرفة الحقّ، والحجّة القائمة، والمرشد إلى الأعمال الصالحة التي بها حسن العاقبة في العالمَين: العلوي والسفلي، وهو من اِستعمال المشترك في معانيه".

وعند القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن ج12 ص 256-257) : "يجوز أن يقال: الله تعالى نور، من جهة المدح لأنّه أوجد الأشياء، ونور جميع الأشياء، منه اِبتداؤها، وعنه صدورها، وهو سبحانه ليس من الأضواء المدركة جلّ وتعالى عمّا يقول طائفة من المجسّمة". ثم يضيف : "واختلف العلماء في تأويل هذه الآية، فقيل: المعنى أي: به وبقدرته أنارت أضواؤها، واِستقامت أمورها، وقامت مصنوعاتها. فالكلام على التقريب للذهن...".

وقال ابن عباس وأنس : "المعنى: الله هادي أهل السماوات والأرض"

(مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ) أي مثل نور الله الذي هو هداه، وإتقانه صنعة كلّ خلقه، ومثل براهينه ودلائله وحججه في الوضوح لتنوير العقل لهديه للحقّ وكشف الباطل بوضوح (كَمِشْكَوٰة)وهي كلّ ما يوضع عليه أو فيه المصباح للإضاءة، أو هو العمود الذي يوضع فوقه القنديل الذي فيه الفتيل، فيه مصباح منير ومضيء، وهذا المصباح في زجاجة، وهي جسم شفّاف ومشِعٌّ، والزّجاجة صافية الإضاءة والإنارة مثل الكوكب الدريّ المنير في السماء، وهذا لبيان مدى صفاء هذه الزّجاجة في إشاعة الضوء وجودة النّور. ويُتَقّع الفتيل المضيء في زيت شجرة زيتون (لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ) أي هي شجرة نابتة في أرض لا تخفيها عن الشمس عند شروقها، ولا تصيبها الشمس إذا غربت لأنّ لها ساترا عنها، فتعطي زيتا جيّد الصفاء والحسن، يكاد هذا الزيت من جودته وصفائه أن يشعّ بذاته دون أن تمسّه نار. (نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ) أي اِجتمع في المشكاة ضوء المصباح، إلى ضوء الزّجاجة، إلى ضوء الزّيت، فتجمّع نور مع نور.

ولعلّ في ضرب هذا المثل إشارة لما جاء في هذا الكتاب من وفر الأدلّة والحجج على حسن العقيدة وصدق الوحي، وصالح الأعمال، وحسن التّرغيب، وشدّة التّرهيب، وتكرار ورودها في صيغ مختلفة، وفي وقائع متعدّدة، ومع أسباب معيّنة لحفز العقول على إدراك حقائق الأمور، وكشف باطل العادات والتقاليد المزعومة الوهمية. جاءت هذه الدلائل الواضحة، والبراهين المؤيّدة بالوقائع، وجاءت المواعظ بصيغ متعدّدة ومختلفة لتهتدي بها العقول فكأنّ تنزيلها كان تنزيلا بنور بعد نور، وبهذا يكون وصف القرآن بأنّه نور على نور على هذا المعنى والفهم والله أعلم.

(يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ) أي يقرّب الله تعالى المفاهيم للعقول لتدرك الحقّ على قدر مستوى إدراكها وفهمها للدلائل والمواعظ وحكمة الإرشاد لمن شاء من ذوي العقول والألباب أن يتدبّرها ويعيها فيهتدي بها للصواب، وينتفع بما جاءه من هدي الله تعالى وبيانه.

وهكذا يضرب الله الأمثال للنّاس ليهتدوا للاستقامة على دينه الحقّ، ولينبذوا الشرك وكلّ معتقد فاسد والله عليم بالمهديّ من خلقه، والضالّ، والمعاند، والمكذّب.

• فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ (36) رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ (37) لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ (38) :

هذه في الإذن ببناء المساجد لرفع ذكر الله تعالى، وفي الثناء على روّادها من العبّاد وفي تبشيرهم بحسن العاقبة. والمعنى: أنّ الله أمر بأن تقام في أرضه بيوت تخصّص لعبادته وحده، ويذكر فيها وحده في الصلاة، والدعاء، والتّسبيح لتنزيهه ولتقديسه في كلّ وقت من النّهار، في أوله وآخره، وقد حدّد تعالى خمسة أوقات في اليوم لتُعمّر هذه البيوت بذكره وإقام الصلاة فيها جماعة. وأخرج الشيخان: البخاري ومسلم في صحيحهما عن عثمان رضي الله عنه قوله: سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: "من بنى مسجدا يبتغي به وجه الله، بنى الله له مثله في الجنّة". وهذا للتّرغيب في بناء المساجد ليرتفع ذكر الله تعالى، ولنشر نور هديه، وللقضاء على مظاهر الشّرك والضلالات.

وممّا تأكّد وقوعُه وحصوله أنّه كلّما بُني مسجد في منطقة سكنيّة كان مصدر اِهتداء للكثير من أجواره. بفتح أبوابه للصلوات الخمس، وفي الجُمع والأعياد، وبرفع الأذان فيه يردّهم إلى الرّشد، ويحفّزهم على اِرتياده للصلاة، فإذا دخلوه مرّة بعد مرّة، ثمّ صاروا من رواده طهّر ألسنتهم من جميع مظاهر السباب والعنف، وأصلح أعمالهم، وهذّب سلوكهم، ورقّق لهم قلوبهم. وإنّ وجود مسجد في حيّ سكني وإن اِزدحم بالسكّان والمحلاّت التّجارية والأنشطة العامّة يغلق الباب في وجه كلّ من ينوي فتح مشروع من حوله لبيع الخمور، أو لممارسة لعب القمار والميسر، أو لفتح المطاعم ذات الملاهي الليلية الإباحية. بناء مسجد في أيّ حيّ هو وحده الرادع عن فتح المشاريع التي تزيّن المفاسد، وتشيع المنكر والمعصية. كلّما فُتح مسجدٌ في حيّ دخله الهدى، وخرج منه الشيطان مدحورا، واِرتفع فيه طيب الكلام، وحسن الموعظة، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وأمّا من جُبِل على المفسدة فإنّه ينزعج في كلّ يوم من سماع الأذان حتى يصبح في أذنيْه وقرٌ، يجعله يعيش في ضيق مستمرّ ممّا يسمع، وممّا يرى من اِلتفاف النّاس حوله، ومن نظرات النّاس له حتى يرتدع أو يموت بغيظه وتبرّمه وسخطه، ولا تتوقّف عند هذا الحدّ فضيلة بناء المسجد في الأحياء السكنية. (وفي تفسير ابن العربي الفقيه المراكشي : أحكام القرآن، وتفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن الكثير من المسائل الفقهية المتصلة ببناء المسجد وآدابه يحسن الرجوع إليها من أحدهما لمزيد المعرفة والاطلاع).

ووُصف روّاد المسجد بأربع صفات: أولاها: أنّهم يفضّلون كسب رضا ربّهم برفع ذكره في الصلوات المكتوبة عن الكسب المادي، إذ لا تشغلهم تجارتهم وبيعهم عن اِرتياد المسجد في وقت الصلاة. وثانيها: أنّهم لا يهملون أداء الصلاة في أوقاتها المعلومة، بل هم من المحافظين على المداومة عليها. وثالثها: أنّهم يؤدّون الزكاة المفروضة لمن كان له مال. وهذا من إخلاصهم لِطَاعة الله عزّ وجلّ. ورابعها: يؤمنون بيوم الحساب، ويُشفقون من ذاك اليوم ذي الهول والفظاعة، الذي تضطرب فيه القلوب بين الخوف والرّجاء، وتتطلّع الأبصار فيه إلى رحمة الله تعالى، فلذلك يعملون الصالحات ويؤدّون الطاعات ليأمنوا من هول ذاك اليوم، وطمعا في النّجاة من شدائده. هؤلاء العُبّاد، عمّار بيوت الله بالذكر والصلاة يبشّرهم الله تعالى بمجازاتهم على طاعاتهم بجزيل الثواب، ويَعِدُهم بمضاعفة الأجر والحسنات، ويُبَلِّغهُم بأنّ عطاءه لا نهاية له، ولا حدّ له يكرم به من أحبّهم مقابل محبّتهم له تعالى بالمداومة على طاعته.

- وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ **(39)** :

هذه في مثل أعمال الكافر الخيرية المحبَطة، وذلك لأنّه لم يكن عبدا مطيعا لربّه، ولم يكن يرجو رضا ربّه ولم يكن يطمع فيه، أعماله كشعاع لامعٍ يلتمع في البرية عند اِنتصاف النّهار الحارّ، فيتخيّله لعطشه لمعان ماء تحت أشعة الشمس العاكسة ببُحيرة في مكان خال جافّ، يظنّه لعطشه أنّه ماء وما هو إلا سراب، ووهم، حتى إذا بلغ المكان الذي ظنّه بحيرة لم يجد شيئا. كذا يأتي الكافر يوم القيامة بعمله الخير فلا يلقى عنه جزاءً ولا ثوابا، بل يلقاه محبطا لأنّه كان كافرا بربّه متولّيا عن طاعته.

- أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ **(40)** :

الآية السابقة في ضرب المثل بالأعمال الخيرية للكافرين، وهذه في ضرب المثل بحياتهم في كفرهم، إنّهم بكفرهم يحيون حياة من يعيش في ظلمات عميقة في (لجّة) أي في عمق البحر الذي لا يدرك قعره، وهو بسبب عمقه في ظلمة، وفي هذا العمق أمواج متلاطمة، وتعلوها أمواج ممّا يزيده ظلمة، وفوق هذه الأمواج وهذا العمق سحاب داكن يغطي النّجوم التي يُهتدى بها، فهذه ظلمات فوق بعض لا يبصر من كان فيها شيئا من النّور ليتهدي به لطريقه، ومن شدّة الظلمة التي وقع فيها هذا الإنسان فإنّه لا يكاد يرى يده التي هي منه. وهكذا من لم يجعل الله له نورا ليهتدي به للحقّ، فإنّه لا يكون على الدين الحقّ. وإنّ الظّلمات الواردة في هذه الآية هي تعبير مجازي على ما يعيش فيه الكافر من ريبٍ، وشكّ، وحيرة، وضلالة، ووهم، وتقاليد لجهالة

الجاهلين العمي الصمّ الذين لا يعقلون، فهذه كلّها ظلمات تمنع العقل عن التدبّر والفهم، وتعمي البصيرة عن إدراك الحقائق وكشف الباطل، وليحمد المؤمنون ربّهم على أن هداهم للإيمان الحقّ.

- أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ (41) :

هذه الآية إلى الآية 45 في عرض دلائل وحجج لإخراج النّاس من الظلمات إلى النّور، وجاءت الآية 46 في ذكر القصد من عرض هذه الآيات، وسمّى هذه الآيات: آيات مبيّنات للهدى. والغاية من عرض هذه الآيات الدلالة بها على الصانع الذي صنعها للإيمان به، وللتّعريف بكمال قدرته لتنزيهه تعالى عن كلّ نقص.

والمعنى: ألم تعلم أنّ الله تسبّح له الملائكة بحمده، وأنّ كلّ ما في السماوات يسبّح لله بتنفيذ أمره. وكذلك كلّ من في الأرض من الجنّ والإنس يسبّحون لله تعالى بحمده بألسنتهم، وبذكرهم، وبصلاتهم، وبطاعاتهم. وكلّ ما في الأرض من طير قد ألهمه الله كيف يدعو ربّه وكيف يسبّحه. وإن كان لا صلاة لها– ولكن في أصواتها تسبيح. وإنّ في رؤيتها مصطفات الأجنحة عند طيرانها في صفوف منتظمة وأشكال مميّزة في الهواء دليلا على حسن التّقدير، وحسن الفطرة التي فطرها الله عليها. كلّ قد علم الله تعالى صلاته وتسبيحه. والله لا يخفى عليه طاعتهم ولا تسبيحهم.

- وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ (42) :

في الآية عنصران: ملكية كلّ ما في السماوات وما في الأرض، كلّ ما في الوجود، والعنصر الثاني: إثبات بعث الخلق ليكون مصيرهم إلى الله لمحاسبتهم عن طاعاتهم لخالقهم.

- أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ (43) :

ألم تعلم أنّ الله تعالى هو الذي يسوق السحاب المحمّل بالماء إلى حيث يريد على مهل، ثمّ يجمعه مع سحب أخرى فيؤلّف بينها ويجعلها سحابا واحدا مكدّسا بعضه على بعض، وترى بسبب هذا التّجميع وبسبب حراكه البرق والمطر يخرج من خلاله، وينزّل مع الماء حجرا ثلجيا كأنّه مقتطع من جبال ثلجية فيصيب به قوما نقمة، ويصرفه عن آخرين نعمة. يكاد ضوء البرق الذي يخرج منه يعمي الأبصار من شدّة ضيائه وبريقه الخاطف.

- يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ (44) :

والله تعالى هو الذي يغيّر الليل بضوء النّهار، ويغيّر ضوء النّهار بظلمة الليل، وكذا تتغيّر الفصول بين الشتاء والصيف، وإنّ في هذا التغيير اِعتبارا وموعظة لأهل البصيرة ليعلموا أنّ الحياة ليست رتيبة، وأنّ دوام الحال من المحال.

- **وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (45) :**

ومن بديع صنع الله تعالى خلقه الدوابّ على اِختلاف أصنافها وأشكالها وألوانها ونمط عيشها، وتنوّع طعامها وسلوكها. منها ما هو أهلي، ومنها ما هو وحشي، ومنها العشبي، ومنها آكلة اللحوم، منها اللبونة ومنها ما يأتي من تفقيس البيض، ومنها البريّة، ومنها البحرية، منها ما يطير، ومنها ما يزحف، ومنها ما يركض، ومنها ما يقفز قفزا، ومنها ما يمشي على أربع، ومنها ما يمشي على رجلين، ومنها ما يسبح، ومنها ما يحلّ لنا طعامه، ومنها ما يحرم علينا أكله، وكلّ هذا التّنوّع من بديع صنع الله عزّ وجلّ، ولا يدخل في نصّ هذه الآية خلق الإنسان لأنّه مكرّم على جنس الحيوان، وإن كان قد خلق من ماء مهين، ولا يدخل في طائفة هذه المخلوقات خلق الملائكة الذين خلقوا من نور وأمّا خلق الجانّ فكان من نار، وأشارت الآية لخلق هذه الدوابّ من ماء، ولذا خرجت من هذه المخلوقات الملائكة والجنّ، وكذلك الإنسان لأنّه من أشرف خلق الله تعالى ولا يجوز إدراجه ضمن خلق الدوّاب، واستعمال ضمير الغائب للعاقل (هم) هو الذي خلق الالتباس عند بعض المفسّرين فذكروا خلق جنس الإنسان معهم، ولم يعلموا أنّ اِستعمال هذا الضمير كان لتعظيم الخلق لهذه الدواب، فكلّ من تأمّل في جنس خلق الحيوانات على اِختلاف أصنافها عظّم خالقها، وعرف بديع صنعه، وعرف تنوّع تقديره وتصويره، وأدرك أنّ الفاطر الذي فطرها على تلك الصور من غير مثال سابق مبدعٌ عظيم الإبداع، وهذا مقصد الآية: أن يسبّح المتدبّر لخلق الله للدواب بعظمته، ويقرّ له بحسن الخلق والتصوير والإبداع وبحسن التدبير والتقدير.

وأمّا قوله تعالى بأنّه خلق كلّ دابّة من ماء، فإنّه ماء النّسل، وهذا من لطف التّعبير وحسنه، ومن الإبداع في القول: ولو كان لله تعالى شريك، وتعالى الله عن أن يكون له شريك، لكان هذا الخلق متنوّعا في مصدر الخلق، ولكنّ وحدة مصدر التكوين، وإن تنوّعت أشكال المكوّنات واِختلفت في الحجم والصورة وفي طرق العيش وبيئة الحياة والوجود يدلّ على أنّ الله الخالق المبدع واحد. والله تعالى على ما يشاء خلقه وإبداعه قدير، فسبحان الله الخالق البارئ المصوّر الفاطر بلا مثال سابق وتنزّه عن الندّ والشريك وعن كلّ نقص، وهذا هو المغزى الثاني من الآية لمن تدبّرها بعمق.

- لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (46) :

وهذه الآية لبيان المقصد من عرض آيات الخلق والإبداع السابقة. لقد جاءت هذه الدلائل وأنزلت للنّاس ليعرفوا بها ربّهم وعظيم قدرته وليعرفوا بها ألوهيته حتى لا يعبدوا آلهة أخرى لا تقدر على شيء ولم تخلق شيئا، وليس لها أيّة آية على إبداعها وصنعها لشيء في الوجود، فمن تَدَبَّرها تعرّفَ على الله الحقّ الحقيق بالعبادة والطاعة وهُدِي إلى دين الله الحقّ، ومن عَمِيَ عنها ولم يشأ النظر فيها فقد ضلّ الصواب، ولم يستقم على الصّراط السّويّ.

- وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ (47) :

هذه الآية مع الآيات الثلاثة الموالية في المنافقين من حول الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، يقولون بألسنتهم آمنّا بالله وحده، وبالرسول ورسالته وأطعنا ما أمرنا به الله تعالى وما أمرنا به رسوله من الطاعات حتى إذا خلوا بأنفسهم أعرض فريق منهم عن الطاعات من بعدما وعدوا بالالتزام بها وبالطاعة. هؤلاء ليسوا بالمؤمنين الصادقين بل هم الذين يقولون ما لا يفعلون. وكبر مقتا عند الله أن يقولوا ما لا يفعلون.

- وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (48) وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (49) :

ويظهر بوضوح نفاق هؤلاء حين تحدث لأحدهم قضية خلافية مع غيره، فإنّه إذا دُعِيَ للاحتكام لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وعلم من قرارة نفسه أنّ التحكيم سيكون خلاف ما يريده لأنّه ليس صاحب حقّ، فإنّه يرفض الاحتكام إلى الرّسول، وحتى إذا حكم الرّسول في النّازلة في غيابه فإنّه يرفض الالتزام به، ويرفض تنفيذه، أمّا إذا علم أنّ الحكم سيكون لصالحه لأنّه صاحب حقّ فإنّه يأتي للرّسول صلّى الله عليه وسلّم خاضعا يطلب حكمه واِحتكامه، ويطلب تنفيذ ما يُحكم له به.

- أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (50) :

أفي قلوب هؤلاء شكّ، أو نفاق، أو جهل وعناد، نعم عندهم شكّ في عدل الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، أو اِهتدائه للحقّ، وللحكم بالعدل، أم يخافون أن يجور الرّسول صلّى الله عليه وسلّم في الحكم فيميل للحكم لأحد الطرفين؟ بل إنّ هؤلاء هم الظالمون لأنفسهم بشكّهم في عدل الله تعالى فيما أنزل من نصوص الأحكام، وبشكّهم وريبتهم في عدل رسوله صلّى الله عليه وسلّم ونزاهته. والاستفهام في الآية للذمّ والتّوبيخ.

- ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (51) :

وهذه في طاعة المؤمنين، وهي في مقابلة سلوك المنافقين في إعراضهم عن طاعة الله ورسوله، والمعنى: وأمّا المؤمنون الصادقون إذا دعوا للاحتكام إلى كتاب الله تعالى وحكم رسوله للفصل في قضايا اِختلافهم مع الآخرين وفي نوازلهم فإنّهم يجيبون للأمر ويعملون بالحكم بلا مجادلة وبدون تلكؤ من حسن إيمانهم: وهؤلاء هم الفائزون برضوان الله تعالى. وفيما أخرجه الترمذي في سننه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد أوصى أصحابه المخلصين بـ "أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة". وقد جاء في الدعاء القرآني في خاتمة سورة البقرة: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ (البقرة الآية 285).

- ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ (52) :

هذه في الترغيب في طاعة الله ورسوله للفوز برضوان الله تعالى ونعيمه في الآخرة وللنجاة من عذابه. والمعنى: ومن يعمل بما أمر الله تعالى به واِنتهى عمّا نهى عنه، ومن يسترشد بما نصح به رسوله صلّى الله عليه وسلّم ورغّب فيه، ويَرْضَ بحكمه فيما حكم به في القضايا والنوازل، ويَكُنْ ممن يخشى الله عزّ وجلّ ويتوقّى ممّا يُغضِبُه فيحذره يكنُ من الفائزين برحمته ورضوانه ونعيمه المخلّد.

- ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (53) :

عودة لذكر تصرّف المنافقين مع أوامر الرسول صلّى الله عليه وسلّم وأحكامه، وخاصّة إذا رغّبهم في الخروج معه للجهاد نصرة لدين الله تعالى وتقوية لشوكة المسلمين حتى يكفّ أعداؤهم أذاهم عنهم. هؤلاء المنافقون يحلفون بين يدي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأغلظ أيمانهم، ويجتهدون في الحلف لتصديقهم بأن يستجيبوا لأمره إذا دعاهم للخروج معه للجهاد بالإنفاق على الجند، وبالخروج معه للقتال، والله يعلم ما يضمرون في أنفسهم، ويعلم ما في قلوبهم، ولذلك قال لهم تعالى لا تحلفوا، طاعتكم معروفة، هي طاعة باللسان ظاهريا، يناقضها العمل. إنّ الله تعالى مطلّع على أفعالكم تمام الاطلاع.

- ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ (54) :

هذه في واجبات العباد مع ربّهم، وفي علاقة الرّسول ومهمّته مع القوم، وفي واجبهم مع ما يدعوهم إليه. والمعنى: عظهم – يا محمد – بأن يطيعوا الله تعالى فيما يجب عليهم اِعتقاده من

معتقد سليم، مائل عن الشّرك والإلحاد والجحود، وما عليهم من تنزيه الله تعالى عن كلّ نقص، ومن واجب العمل بشرعه وأحكامه، والاتّعاظ بمواعظه، والعمل للآخرة لينالوا خيرا، وينجوا بأنفسهم من الهلاك، وحُضَّهم على طاعة الرّسول فيما يأمرهم به من عبادات، وحسن العمل بالطاعات، وفي معاملاتهم مع بعضهم البعض بالعدل والقسط وحسن الخلق، والوفاء بالعهد، واجتناب كلّ المخالفات. فإن أعرضوا عن السماع إليك، وعن الاستجابة لدعوتك لطاعة الله تعالى وطاعة رسوله فإنّما عليك تبليغ رسالتك إليهم، وبلّغهم أنّ عليهم واجب العمل بما أمروا به. قل لهم إن تطيعوا فيما جئتكم به من عند ربّكم من أوامر ونواهٍ تهتدوا للصواب وللعمل الصالح وللنجاة من العذاب وللفوز بالنّعيم، وما عليّ إلاّ البلاغ الواضح لما كلّفت بتبليغه إليكم.

- وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ **(55) :**

هذه في وعد المسلمين بالتّمكين في الأرض لنشر دينهم الذي اِرتضاه الله لهم وهو دين الإسلام، وفي تبشيرهم بالإنعام عليهم بالأمن والاستقرار بعد ما أصابهم من الأذى، وهو وعد مشروط. والمعنى: وعد الله المؤمنين المسلمين الصادقين العاملين بالطاعات وأعمال البرّ والإحسان أن يورّثهم أرض المشركين لينشروا فيها دين الإسلام الذي اِرتضاه الله تعالى لهم، وهو دين الحقّ والنور ودين إقام العدل، بمثل ما ورّث من قبلهم اليهود أرض الشرك والظلم في أرض فلسطين والشام. ويَعِدُهم الله تعالى أن يُثَبِّت لهم فيها أركان دينهم ويقوّي دعائمه لهدي الناس لما ينفعهم لحياتهم في أعمالهم وسلوكهم، ولما يجلب لهم الخير لآخرتهم. ويعدهم بأن يعوّض لهم ما كانوا عليه من الخوف على حياتهم وعلى ممارسة شعائر دينهم بسبب أذى المشركين واِفتتانهم بالامتنان عليهم بالأمن والاستقرار ليأمنوا على حياتهم، وذلك بتقوية شوكتهم وبدعمهم بالنصر على أعدائهم، وقذف الرّعب في قلوبهم.

وهذا الوعد مشروط بالالتزام بصدق الإيمان، وأداء الطاعات، وعمل البرّ والإحسان، ونبذ الشرك وجميع أشكاله وتقاليده. وأمّا الذين كفروا بعد إيمانهم وعادوا للشّرك وللظلم واِبتداع الضلالات فأولئك هم الخارجون عن دين الله الحقّ، وإنّهم غير معنيين بهذه الوعود لأنّهم مرقوا عن الدّين.

ولعلّ في هذه الجملة (وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ) ما يُفَسَّرُ به ما أصاب المسلمين من وهن في زمننا هذا، وفي فترات سابقة من تاريخنا. ضاعت عنّا عزّتنا بعد قوّتنا، وبسط نفوذنا في سعة بلادنا مشرقا ومغربا زمن قيام دولتنا على إقام العدل، وتمجيد العلم وأهله، وتعمير الأرض بالعمران وخدمتها زرعا وغراسة، وكان القوم يؤدّون صلواتهم وزكواتهم طوعا ورغبة، ويعملون أعمال البرّ،

فدانت لهم الدول، وأمنوا على حياتهم وممتلكاتهم، ولكنّهم لمّا ظلموا، واِستبدوا بالحكم بالتوريث، واِتّخذوا بطانة لهم ممن يعينونهم على بسط نفوذهم بقوة التّرهيب بالنّهب وغصب الأرض وتسخير العباد لخدمتهم ضيّعوا أسباب العزّة واِستبدلوها بالملاهي والمفاسد والمظالم، فاستعمر المستعمرون بلادهم، وألهوهم بمفاتنهم المحرّمة فهلكوا وأضاعوا البلدان وخيراتها وملّكوها للأعداء. تداعت عليهم الأمم، ولم يكونوا من قلّة، ولكنّهم أحبّوا الدنيا وزينتها، وكفروا بالنّعم وغفلوا عن الطاعات فتركهم الله تعالى لأنفسهم حتى يرشدوا، ويعملوا بتلك الشروط وما تقتضيه من أعمال.

- **وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ (56) :**

وداوِموا على إقام الصلاة في أوقاتها لتتعهّدوا أنفسكم بمراقبة الله في أعمالكم. وأدّوا زكاة أموالكم، وزكاة أنعامكم، وزكاة زروعكم فريضة لمؤازرة المحتاجين وعون المساكين وللأخذ بأيدي ضعفائكم وفقرائكم لتحابّوا ولتتعاونوا على البرّ والتقوى، وأطيعوا الرّسول فيما يأمركم به، وفيما يعظكم به، ويرغبكم فيه، وفيما ينهاكم عنه رجاء أن ترحموا، فلا تطالكم أيدي أعدائكم، ويكفّوا عنكم أذاهم فتأمنوهم.

- **لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ (57) :**

لا تظنّ أنّ الذين كفروا مُفلتون من عقاب الله بالهرب في الأرض والاختفاء فيها، وإنّ لهم في آخرتهم مصيرا سيّئا بإيوائهم في النّار ليستقرّوا في عذابها.

- **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ (58) :**

عودة مع هذه الآية، والآيتين المواليتين لأحكام الاستئذان عند دخول البيوت، وخاصة حجرات النّوم. الآيات التي تقدّمت في أحكام الاستئذان كانت خاصّة بالأجانب على أفراد الأسرة، وأمّا هذه ففي أحكام الاستئذان لأفراد العائلة في الدخول على الزّوجين وفي أوقات النوم والاستراحة. يجب على المماليك من الرّجال والنّساء أن يطلبوا الإذن في الدخول إلى حجرة الزوجين قبل دخولهم، وكذلك على الذين لم يبلغوا سنّ الاحتلام والبلوغ في ثلاثة أوقات من اليوم: قبل صلاة الفجر، وعند النوم في القيلولة، وعند الخلوة من بعد صلاة العشاء، وذلك لأنّها أوقات يختلّ فيها التستّر في اللباس، فتظهر فيها العورة مكشوفة، والدّين لا يرتضي كشف العورة، وهي أوقات خلوة الزوج بزوجه فيجب عندها الاستئذان قبل الدخول عليهما لأيّ سبب كان. فيما عدا هذه الأوقات فلا إثم ولا حرج في أن ينتقل هؤلاء بينكم بدون اِستئذان لقضاء شؤونهم. وهكذا يوضّح الله تعالى لكم الأحكام والشرائع لتنظيم حياتكم وحفظ أخلاقكم وحيائكم.

- ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (59) :

وإذا بلغ الأطفال سنّ البلوغ فعليهم واجب الاستئذان عند دخول بيوتهم في تلك الأوقات وفي غيرها، ولو لم يكن في البيت غير الأمّ والأخوات والمحارم، وهذا للحيطة من أن يُرَيْن في حال لا يحبِبْنَ أن يُرَيْن فيها. هذه أحكام يوضّحها الله لكم حفظا للحياء، وللستر، وتأدّبا مع ساكنات البيوت حتى لا يُفَاجَأْنَ بوجود رجل عندهنّ على حين غفلة، وقد يفزعن، والله عليم بما يصلح لكم لحسن علاقتكم ببعض، وحكيم في ترتيب أحكامه.

- ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (60) :

والعجائز اللاتي اِنقطع عنهنّ الحيض، ويئسن من الزّواج، ولا يطمعن فيه فليس عليهنّ جناح وإثم إن لم يرتدين جلابيبهنّ أو أرديتهنَّ فوق الثياب عند وجود المحارم من الرّجال غير مظهرات ما ينبغي عليهنّ ستره، وأن يلبسن أرديتهنّ خير لهنّ من نزعها. والله يسمع حديثهنّ مع الرجال، وعليم بمقاصدهنَّ في وضع ثيابهنّ عنهنّ.

- ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (61) :

هذه في رفع الحرج على الضيوف من الأهل للأكل في بيوت الضيافة. ليس على الأعمى إثم، ولا على الأعرج إثم، ولا على المريض، ولا على عامّة المؤمنين أن تأكلوا من بيوت أبنائكم مجتمعين على مائدة واحدة مستأنسين بالحديث، وهذا من كرم الضيافة ومن التكريم. والبيوت المفتوحة للضيافة هي بيوت الأبناء، وبيوت الآباء، والأمهات والإخوان، والأخوات، والأعمام، والعمّات، والأخوال، والخالات، ومن البيوت التي هي تحت تصرّفكم بالحفظ أو الوكالة، وبيوت الأصدقاء بحضورهم. ليس هناك إثم في الأكل مجتمعين أو متفرّقين. فإذا دخلتم هذه البيوت للطعام فبادروا بالتحية والسلام على عيالكم وأهليكم، وليسلّم بعضكم على بعض. وإذا دخلتم بيتا من بيوتكم ولم يكن في البيت أحد، فليسلّم الداخل على نفسه للبركة وللأنس بنفسه تحيّة (طيّبة) أي فيها الأجر والثواب وحلول البركة، وحتى لا يستوحش صاحب البيت. هذه الآداب التي أمركم

بها الله تعالى إذا عملتم بها دلّت على رجاحة عقولكم، ودلّت على رشدكم، فلا تستهينوا بها لتقوم علاقتكم بذويكم على الاحترام وعلى النزاهة وحسن المخالطة وحسن النّية عند الاستضافة وعند الإجابة التي تحصل كثيرا عند المناسبات السعيدة أو غيرها.

- إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ **(62)** :

هذه مع الآية الموالية في آداب حضور المجلس مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وفي وجوب إجابته عند دعوته لحضور اِجتماع معه. والمعنى: المؤمنون الحقيقيون هم الذين يطيعون الله تعالى فيما أمر به، وفيما نهى عنه، ويصدّقون برسوله ويطيعونه، وهم الذين إذا حضروا مجلسا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دعاهم إليه للتشاور معهم في أمر مهمّ جمعهم لأجله، أو لتبليغهم بوحي أنزل عليه، أو بحكم شرعي أوجبه الله عليهم، أو لصلاة جامعة ليعظهم في مسألة تهمّ حياتهم العامّة أو تخصّ علاقتهم ببعض، لم ينصرفوا عنه، ولم يغادروا الاجتماع حتّى يفصل بالأمر، أو حتّى ينهي مجلسه ويختمه، وحتى يستأذنوه في مغادرة مجلسه، فربّما فضّل أن يبقي معه بعضهم لمزيد المشورة، أو لتكليفهم بأمر. هؤلاء المنضبطون لأمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هم المؤمنون الصادقون الذين يؤمنون بالله وبرسوله. وإذا طلب بعضهم إذن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم للتخلّف عن الاجتماع كلّه أو عن بعضه لقضاء حاجة متأكدة فللرسول أن يأذن لمن شاء منهم، ممن لا يحتاج إليه لتكليفه بأمر مهمّ. وأدع الله لهم – يا محمد – بالمغفرة عند اِنصرافهم في ختام مجلسك طمأنةً لهم، والله غفور لعباده المؤمنين الصادقين ورحيم بهم في آخرتهم لا يعذّبهم. وجاء في كتب السِّيَرِ أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه اِستأذن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في غزوة تبوك للرجوع إلى أهله، فأذن له الرّسول قائلا له: "اِنطلق، فوالله ما أنت بمنافق".

- لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ **(63)** :

لا تجعلوا دعوة الرسول صلّى الله عليه وسلّم للاجتماع بكم لأمر مهمّ كدعوة أحد منكم للاجتماع به، إنّ دعوة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم للاجتماع دعوة ملزمة للحضور، لا يجوز التخلّف عنها إلاّ بإذن من الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وباستئذان لحاجة أكيدة. إنّ الله عليم بالذين يتخلّفون عن الحضور للاجتماع بدون إذن، وبالذين يتستّرون ويتخفّوْن حين تبلغهم دعوة الرّسول للاجتماع للتّغيّب عنه متعلّلين بأنّه لم تبلغهم الدعوة، أو بتستّر هذا بذاك. فليحذر منْ غضب الله تعالى وعقابه في الدنيا، ومن عذابه الموجع في الآخرة كلّ من يخالف أمر رسول الله

صلّى الله عليه وسلّم لحضور دعوته للاجتماع، وينصرف عنه، وَلْيَخْشَ أن يُصِيبه بلاء ومحنة في دنياه. ولا تنادوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم باسمه: يا محمد أو يا ابن عبد الله، كما ينادي بعضكم بعضا باسمه، ولكن نادوه بصفته التي شرّفه الله بها بـ : يا رسول الله، أو يا نبيّ الله.

يمكن اعتبار سورة النور في أغلب آياتها ميثاقا اجتماعيا لتأسيس مجتمع راق يسوده السلام والأمان تكون فيه الأسرة نواة صغيرة تحكم أفرادَها علاقاتٌ وطيدة تمتّنها قيم العفة والصدق والعدل والحبّ والرّحمة ويسودها الإحترام المتبادل ودوام العشرة، وحسن الذِّكْر، وتقوم على المعاملة بالحسنى والبرّ. وإن اختصّت هاتان الآيتان بآداب حضور المجلس مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم فهي عامّة وصالحة لكلّ زمان ومكان ذلك لأنّ العبرة في القرآن الكريم بعموم اللفظ لا بخصوص السبب – والقصدُ التأدُّبُ عند حضور مجالس الحوار في مناقشة المصالح العامّة للبلاد والعباد يجب الإلتزام باحترام الحاضرين وحسن الإنصات وتجنّب الجنوح بالمجلس إلى حلبة خصام وهرج ينتفي فيها كلّ أدب وذوق.

- أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ **(64) :**

هذه الآية خاتمة للسورة : وفيها التذكير بأنّ الله تعالى مالك لكلّ ما في السماوات وكلّ ما في الأرض، وأنّه تعالى عليم بأفعال عباده، وبما هم عليه من صدق الإيمان والطاعة أو بخلافه. وفيها التذكير بيوم البعث، وبيوم الرّجوع إليه للحساب عن أعمالهم للموعظة بالتزوّد بالتقوى وصالح الأعمال، والله تعالى محيط بكلّ شيء علما فاتّقوه، واصدقوا في أعمالكم ونواياكم. نسأل الله تعالى السلامة وحسن العاقبة.

آياتها	ســــورة الفرقـــــان	رقمها
77	ـــــ مكيّة ـــــ	25

سُمّيت هذه السورة بسورة "الفرقان" لافتتاحها بصيغة التمجيد والتّعظيم لله تعالى الذي نزّل الفرقان على عبده: نبيّه ورسوله محمد صلّى الله عليه وسلّم ليكون للعالمين نذيرا. وهي سورة في تركيز أسس المعتقد السليم، شأنها في ذلك شأن السّور المكيّة.

من عناصر هذا المعتقد السليم: الإيمان بالتنزيل وتعظيم منزلته وتمجيده إذ أنزله للعالمين بشيرا ونذيرا. ولذلك جاءت فيها آيات في مشاهد الإنعام والإكرام للمؤمنين، وجاء في هذه السورة إنذار الكافرين بمشاهد مؤلمة يلقونها يوم القيامة. وجاء فيها التركيز على بشرية الرّسول وبشرية الرّسل من قبله. وفيها تسلية للرّسول على تكذيب المكذّبين به والمستهزئين. وجاء فيها الردّ على المتحدّين للوعيد الذين يطلبون إنزال الملائكة ورؤية الله جلّ جلاله، وفيها ردّ على الذين يطلبون تنزيل القرآن جملة واحدة. وعرضت مظاهر في عظيم قدرة الله تعالى في الخلق، وفي حسن تدبيره لتسيير الكواكب، وختمت السورة ببعض من صفات عباد الرحمان للترغيب فيها، وبالترغيب في الدعاء.

وتميّزت السورة بافتتاحها السورة بـ (تَبَارَكَ) للتعظيم والتمجيد لله تعالى، وبإعادة ذكر هذه الصيغة في الآية العاشرة لتمجيد تقديره تعالى، وفي أواخر السورة لتعظيم خلقه تعالى وحسن تدبيره.

- تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا (1) :

مجد الله تعالى ذاته بكلمة (تَبَارَكَ) وتعني: تقدّس ذكره، وكثر خيره، وتنزّه عن كلّ نقص، ومن خيرِه على عبادِه أنّه نزّل القرآن الذي يفرق بين الحقّ والباطل، فسُمِّيَ "الفرقان"، نزّله على عبده ورسوله محمد صلّى الله عليه وسلّم ليكون لجميع الخلق: إنسهم وجنّهم في كلّ مكان، وفي كلّ عصر وزمان، داعيا يحذّرهم من عقاب الله تعالى ومعصيته، ومن الافتراء عليه.

- ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا (2) :

الّذي نزّل الفرقان هو الذي يملك كلّ ما في السماوات وما في الأرض، وهو واحد أحد ليس له ولد ولا صاحبة، وليس له شريك في الحكم وفي الملك وفي تصريف أمور الخلق، وهو الذي



خلق كلّ شيء في الوجود، وهيّأ له كلّ ما يصلح له وسخّره له، وهيّأه لما يصلح له ولدوره في الوجود، ولمهمّته في حياته، ولا خلل فيما قدّر وخلق، سبحانه منزّه عن كلّ نقص وعن كلّ حاجة.

- وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا (3) :

هذه في الاستدلال على ضلالة المشركين في عبادتهم لآلهة صفتها العجز، وتفتقر لكلّ صفة للفعل والخلق والقدرة والملكية التي هي من أهم صفات الألوهية، وهذا لموعظتهم لإرشادهم لخطيئتهم، وبعدهم عن الصواب ليهتدوا للحقّ. والمعنى: واِتّخذوا من دون الله الحقِ آلهةً تصنع بأيديهم، ويوجدونها من مادّة صلبة، وهي لا تقدر على خلق أيّ شيء ويقعون لها ساجدين وهي لا تملك أيّ قدرة لتنفع نفسها بشيء، وهي جامدة وهي لا تقدر على أن تدفع عنها ضرّا إذا مسّها من كسر أو تهشيم بسقوطها على الأرض. وهي آلهة لا تملك لعبّادها أن تحييهم ولا أن تميتهم، هي مسلوبة القدرة، وصفتها العجز والضعف، ولا تقدر على إحياء الأموات، فأيّ فائدة وأيّ نفع من عبادتها.

- وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمًا وَزُورًا(4) :

هذه ما يشيعه المكذّبون عن القرآن، وعن رسالة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم من طعن في صدق الوحي، وأمانةِ الرّسول في التبليغ وصدقه بدون دليل بما يكشف عن مبلغ حسدهم للرّسول صلّى الله عليه وسلّم لاصطفائه بالرّسالة. والمعنى: وقال المشركون المكذّبون بالوحي وبالرّسالة إنْ (هَٰذَآ) ويقصدون القرآن الكريم هو من قول محمد، وما هو من كلام الله، إنْ هو إلاَّ كذِبٌ على الله، اِختلقه محمد من عنده، وساعده عليه جماعة من اليهود والنّصارى. لقد جاؤوا باتّهامهم الرّسول الصادق الأمين بالكذب بظلم كبير. قالوا قولا فيه تَمْوِيهٌ وادّعاء باطل بدون دليل، وبغير حقّ يدلّ على مبلغ الحسد الذي في قلوبهم على اِصطفاء الرّسول محمد صلّى الله عليه وسلّم بحمل رسالة ربّهم إلى العالمين.

- وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا (5) :

وقالوا عمّا جاء في القرآن من أخبار الأمم السالفة للاعتبار بها هي حكايات وأقاويل السابقين طلب محمد أن تُكتب له لتُقْرَأَ عليه بالليل والنّهار ليحفظها ثمّ يسردها علينا على أنّها وَحْيٌ من عند ربّه.

- قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (6) :

أخبرْ هؤلاء المكذّبين أنّ الذي أنزل القرآن هو الله عزّ وجلّ الذي لا يخفى عليه شيء من أمر السماوات والأرض: ما خفي منه وما يجري في باطنهما وما يقوله أهل الأرض في سرّهم أو

ما يُبطنونه في أنفسهم ونواياهم وقلوبهم من الكيد أو الحسد أو الكفر والمكر. وإنّه تعالى كثير المغفرة لمن تاب وأصلح أمره وشأنه وأصلح علاقته مع رسول الله وصدق في إيمانه والله كثير الرّحمة بعباده المؤمنين في آخرتهم.

- وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا (7) أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا (8) :

الآيتان في ذكر تِعِلَّةِ الكافرين في رفضهم التّصديقَ بنبوّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم وبرسالته، كانوا يتحاجُّون بأنّه بشر مثلهم يأكل الطعام مثلهم ويمشي في الأسواق يبتغي طعامه، ولم يكن له كنز دفين من مال يغنيه ليكون أغناهم، ولم يكن له بستان ينتج له كلّ خيرات الأرض ليغنيه عن السعي في السوق وطلب طعامه، وليس يَدْعمه مَلَكٌ من السّماء ليصدّقه ويدفع عنه أذى المؤذين ويكون نذيرا بأن يلحق العقاب بكلّ من يكذّب بهذا الرّسول، وقالوا في ما يأتي نبيّهم صلّى الله عليه وسلّم من عوارض الوحي، وفيما يجري على لسانه من القرآن بأنّه من عمل السحر، هو مسحور بمسّ الشياطين. واِحتجّوا بتعلاّتهم هذه عند النّاس ليصدّوهم عنه، وعن السماع له، وعن اِتّباعه، وهذا من مكرهم السيّئ.

- ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا (9) :

ما أعجب تَقْيِيمهم لك ولرسالتك، وما أغرب ما يفسّرون به دعوتك لهدايتهم! لقد حادوا عن الصواب، وعن سبيل الحقّ، وعن بلوغ ما أرادوا، فلا يستطيعون مع اِتّهاماتهم تلك، ومع ذاك التّقييم، وذاك التّكذيب أن يدركوا سبيل الاهتداء للحقّ، وإصلاح معتقدهم الفاسد.

- تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورًا(10) :

وهذه في الردّ على الذين لم ينظروا فيما كان يدعوهم إليه الرّسول صلّى الله عليه وسلّم الذي عرفوا صدقه وأمانته من دعوة للهدي بحجج ودلائل يسهل على كلّ عاقل أن يميّز بها بين الحقّ والباطل، ويفرّق بينهما بوضوح فيهتدي للصواب ويتّخذه سبيلا، الذين كانوا لا يقدّرون قيمة التّواضع والدعوة إلى الحقّ وصالح العمل وفتح البصيرة، وإنّما كانوا يتّبعون صاحب الجاه والثّراء وإن كان ظلوما جهولا. جاءت هذه الآية لبيان أنّ الخير والرّفعة والقدوة ليست في كسب مظاهر الغنى والرّفاه والجاه، وإنّما المجد لمن دعا إلى الهدى وصالح العمل والاستقامة على حسن الخلق وحسن المعاملة. والمعنى: المجد لله تعالى، وله العظمة، لو شاء جعلك أغناهم، وآتاك خيرا كثيرا من كلّ مظاهر الغنى، ولو شاء لوَهَبَك بساتين تجري من تحتها أنهار عذبة للسقي والرّيّ

وللنّعيم، ولأسكنك القصور المنيعة الفاخرة، ولكنّه شاء أن يجعلك من وسط النّاس، وتعيش وسط النّاس، تأكل مثلما يأكلون، وتسعى مثلهم في الأسواق لابتغاء حاجتك كما يسعون لتكون لهم القدوة الحسنة في عملك وقولك وتوجيهاتك، ولتكون قريبا منهم.

- بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا (11) :

(بَل) جاءت هنا لتفسير سبب من أسباب رفض المكذّبين للتصديق بالقرآن وبالرسالة، من أسباب كفرهم التّكذيب بالبعث وبقيام الساعة للحساب عن إيمانهم وأعمالهم. ويتوعّد الله عزّ وجلّ كلّ من كذّب بهذا العنصر من عناصر العقيدة السليمة بإيوائهم في نار تتّقد، شديدة الالتهاب.

- إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا (12) وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا (13) :

الآيتان في صفة نار جهنّم، وحال الملقين فيها، وهما في الإنذار بسوء مآل الكافرين المكذّبين بالقرآن وبالرسول وبالساعة، إنّ لنَارِ جهنّم المستعرة صوتا كصوت غليان صدر الغاضب من توقّدها والِتهابها يسمعه بوضوح كلّ من يُساق إليها، ويسمع نفح نارها من اِمتداد لهيبها كأنّه الصوت الذي يخرج من رئتي الإنسان المختنق. وإذا حشروا فيها في مكان ضيّق موثوقي الأيدي إلى الأعناق بالسلاسل المحمية بالنّار تُسمع لهم أصوات ندبة وتحسّر على الوضع الذي هم فيه، ويدعون على أنفسهم بالموت والهلاك ليرتاحوا من وضعهم وما هم بميّتين.

- لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا (14) :

لا تُنادوا بوَيْلٍ واحد على أنفسكم، وادعوا على أنفسكم بويلات كثيرة لأنّ عذابكم ما يزال يطول، ولستم بميّتين.

- قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا (15) :

أهذا العذاب الأليم الموجع خير أم جنّة النّعيم الدّائم التي وُعِد بها أهل التقوى وأهل الإيمان ليقيموا فيها سعداء جزاءً بما كانوا يؤمنون ويعملون، ولتكون إقامتهم فيها من حسن المصير. والاستفهام يُفيد المقابلة وعدم التّساوي بين المصيرين قصد الترغيب في هذا، والترهيب من الآخر.

- لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا (16) :

ويجد المتقون في جنّة الخلد كلّ ما يشتهون، وكلّ ما يطلبون ويرغبون، وهذا وعد من الجدير بكلّ إنسان أن يسأل ربّه أن يُنعم به عليه.

- وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ (17) :

هذه مع الآيتين المواليتين في تبرّؤ آلهة المشركين من عبّادها يوم الحساب، وهذا لتوعية المشركين بضلالتهم قبل أن يفاجؤوا بهذا التّبرّؤ يوم القيامة. والمعنى: ويوم نبعث المشركين يوم القيامة،



ونحضر معهم آلهتهم التي كانوا يعبدون لمساءلتهم، فيقال يومئذ للأصنام ولشياطينهم أأنتم أوقعتم عبادي هؤلاء في الزّلل بدعوتهم لعبادتكم، أم هم الذين وقعوا في الزّلل والضلالة من أنفسهم؟ والاستفهام للتّقرير.

- **قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا (18) :**

وتقول الشياطين وتنطق الأصنام التي يُنطقها الله عزّ وجلّ فتقول: تنزّهت – يا الله – على أن يكون لك شريك في الملك أو ندّ، وما كان يصحّ لنا أو يجوز أن ندعوهم لمثل هذا أبدا، أو أن نتّخذ من دونك أنصارا، فأنت وحدك الله الحقّ، ولكنّك أنعمت على هؤلاء بالمال والنّعيم والصحّة وعلى آبائهم حتّى بطروا بالنّعمة، وغفلوا عن ذكرك وعن شكرك على نعمائك، وكانوا قوما فاسدين، لا خير فيهم. وهكذا سفّهت المشركين آلهتُهم التي كانوا يدّعون.

- **فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا (19) :**

وعندئذ يبهت المشركون – عبدة الأصنام والشياطين – من تبرّؤ آلهتهم منهم ومن عبادتهم لها، وممّا كانوا يصنعون معها من تقديس، ومن التقرّب إليها بالقرابين، وممّا كانوا يعظّمونها بما كانوا ينسبون إليها من قدرة في تقريبهم إلى الله زلفى. وحينما يقضي على المشركين بإيوائهم في السعير فإنّ آلهتهم لا تستطيع أن تشفع لهم لتردّ عنهم قضاء الله بعذابهم، ولا تستطيع أن تنصرهم فتنقذهم منه وتخرجهم من عذاب جهنّم. وهكذا قضى الله عزّ وجلّ أنّ كلّ من يظلم نفسه بالشرك، ويعرض عن ذكر ربّه وحده وعن طاعته يذقه عذابا شديد الإيلام والوجع.

- **وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا (20) :**

وهذه في الردّ على الذين يستنكرون أن يكون رسول الله إليهم بشرا مثلهم. والمعنى: وما أرسلنا قبلك – يا محمد – من رسول إلاّ كان يأكل الطعام مثل النّاس، وكان يمشي في السوق ليبتغي رزقه. جميع الرّسل كانوا من البشر. ولقد اِمتحنا بعضكم فجعلنا بعضهم أغنياء، وآخرين فقراء، واِبتلي بعضهم بالافتقار للصحة أو للبنين، أو للقوة، وآتينا آخرين هذه النّعم – بعضها أو جميعها – ليختبروا في شكرهم على النِّعم، فلْيصبر من اِبتلي بنقص في هذه النّعم، وإنّ الله عليم بصبر الصابرين، وشكر الشاكرين، وكفر الجاحدين، وبطر المترفين، ولكلّ جزاؤه عمّا يفعل.

- **وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا (21) :**



هذه في ظاهرة أخرى من ظواهر الكفر عتوّا، واِستكبارا، فقد طلب الذين لا يرجون لقاء الله تعالى، وهذه صفة لمن لا يؤمن بالبعث، وبيوم الحساب، طلبوا من الرّسول أن يدعو ربّه لينزل عليهم الملائكة ليشهدوا لهم بأنّ محمدًا صلّى الله عليه وسلّم هو حقّا رسول من عند الله عزّ وجلّ، أو أن يروا الله تعالى ليخبرهم بأنّه قد بعث لهم محمدا صلّى الله عليه وسلّم رسولا إليهم ليصدّقوا به، وبرسالته، وبالقرآن، وبما جاءهم به من شريعة وإصلاح معتقداتهم، وما يدلّ طلبهم هذا إلاّ على اِستكبارهم على ربّهم وعلى رسوله وعلى اِتّباع شرعه والتصديق بكتابه، وما يدلّ إلاّ على ظلمهم وجورهم وعلى تعاظمهم على النّاس وعلى الرّسول صلّى الله عليه وسلّم.

- **يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا (22) :**

هذه في الردّ على رغبتهم في رؤية الملائكة. سيرونهم يوم يحضرهم الأجل، ويوم يبعثون. ويوم يبعثون ويرون الملائكة فلن يستبشروا برؤيتهم يومئذ، ولن يفرحوا بملاقاتهم لأنّهم سيلقونهم بالعذاب، ويقولون يومئذ (حِجْرًا مَّحْجُورًا)، وهي كلمة كان يقولها العرب في ما مضى وتعني التحريم والمنع، بمعنى يحرم على الكافرين يومئذ البشرى بالخير تحريما مؤكّدا، والملائكة لا تنزل في الأرض على الكافرين إلاّ لإهلاكهم، وقد حدث هذا يوم بدر فقطعت رؤوس الكفر يومذاك.

- **وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا (23) :**

وعند الحساب لن يجد الكافرون أيّ عمل من أعمال البرّ ليُجْزَوْا عليه، لأنّ جميع أعمالهم ممّا كانوا يتباهون بفعله من مثل الكرم والجود وكساء الكعبة والعناية بالحرم ستندثر كما يذهب الرّيح بغبار الأرض وخشاشه ويجعله كالغبار الطائر في الهواء، فلم يكونوا مؤمنين بالله تعالى ولم يكونوا مؤمنين بجزائه، ولم يكونوا يعملون أعمالهم اِبتغاء رضوان ربّهم، راحت أعمالهم مع موتهم.

- **أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً (24) :**

وفي المقابل فإنّ أصحاب الجنّة يومئذ ينعمون بالمأوى الحسن يقيمون فيه الإقامة الدائمة، وينعمون بأحسن مكان للقيلولة فيه وللرّاحة، وهذا من نصيب المتّقين.

- **وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلاً (25) ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا (26) :**

الآيتان في يوم قيام الساعة. في ذاك اليوم تنفطر السماء، وتنتثر الكواكب فيتغيّر وضع السماء فتظهر كأنّ غماما كثيفا داكنا يحيط بفضاء الأرض، ويومئذ تنزل الملائكة أفواجا، فوجا بعد فوج لحضور الموقف. يومئذ لا حاكم على الأرض، ولا مالك، الحُكم والمُلك والملكية لله وحده سبحانه، وهو الملك الحقّ وكلّ ملك لغيره زائل، ذاك اليوم صعب على الكافرين، وشديد عليهم لأنّه ينبئهم بسوء مصيرهم إذ كانوا يكذّبون به فعلموا أنّه حقّ، وقد فاتهم أن يعدّوا له عدّته.

- وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِى ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً (27) :

هذه مع الآيتين المواليتين في التّعبير عن شدّة ندم الكافرين على تولّيهم عن اِتّباع الرّسول صلّى الله عليه وسلّم فيما جاء به من إرشاد للعقيدة السّليمة ولشريعة حكيمة حين يتبيّن لهم أنّ ما بلّغهم به من قيام للحساب ومن تبشير وإنذار هو حقّا بلاغ صادق من عند ربّهم الحقّ. والمعنى: ويوم القيامة ترى الكافر يضغط بأسنانه على أصابعه من شدّة ندمه، ومن غيظه على نفسه ويقول يا ليتني اِتّبعت ما دعاني إليه الرّسول لأسلك طريق النّجاة من هول هذا اليوم ومن سوء عاقبته.

- يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِى لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلاً (28) :

وينادي على نفسه بالويل من الندم على نفسه حين جعل واحدًا من زعمائهم صديقا له وَفِيًّا يتّبع رأيه.

- لَّقَدۡ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِىۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولاً (29) :

ويحمّل صاحبه المسؤولية عن صدّه عن الإيمان بالله تعالى وبرسوله صلّى الله عليه وسلّم، وعن الهدى الحقّ، وعن طاعة الله عزّ وجلّ، وعن خشيته، وعن العمل لآخرته حين جاءه هدى الله عن طريق الوحي إلى رسوله صلّى الله عليه وسلّم. ندم على تفريطه في الاهتداء للصواب، وندم على غفلته. وجاءت الجملة (وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولاً) للتّحذير من اِتّباع هوى النّفس، ومن الانسياق لوساوس الشيطان الذي يغدر بالإنسان وقت الشدّة، ولا ينجيه، بل يفلت عنه، ويتركه لنفسه ولا ينصره.

- وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورًا (30) :

هذه في شكاية الرسول صلّى الله عليه وسلّم من إعراض قومه عن السماع له لإبلاغهم رسالته إليهم، وذلك من تأثير ساداتهم الذين كانوا يصدّونهم عنه، كانوا يقولون لهم (لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ)(فصلت الآية 26) شكا الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ربّه بأنّ قومه لا يُقبلون على سماع القرآن، وعلى تدبّره، وعلى النظر فيه، وأنّهم كانوا يهملون سماعه. وهذه الشكوى من حرص الرّسول صلّى الله عليه وسلّم على حسن أداء واجبه في التبليغ، ولم تكن شكواه طلبا لنصرة ربّه له على قومه فقط، بل طلبًا لهداية قلوبهم إلى سماع الذكر الحكيم حتى يهتدوا به.

- وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (31) :

وهذه لتسلية النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ليعلم أنّ كلّ نبيّ من قبله قد شاقّه جمع من المكذّبين كانوا أعداءً للدّين الحقّ، وكانوا مجرمين بظلمهم واِستكبارهم وعنادهم. وإنّ الهادي هو الله وحده وما على الرّسول إلاّ البلاغ، والله ناصره وحافظه من أعدائه.

- وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا (32) :

وقال الّذين كفروا الذين كانوا يتذمّرون من نزول القرآن بفضح مكرهم الذي كانوا يمكرون به في سرّهم، وكان ينزل من حين لآخر للردّ على مجادلتهم لمحاجّتهم عمّا يدّعون ويفضح كذبهم أو جهلهم، وينزل بتسفيههم، قالوا: هلاّ نزل عليه القرآن جملة واحدة. لقد نزل القرآن على هذا الوجه منجّما مفرّقا لنقوّي به حجّتك، ولنثبّت به صدقك، ولننصرك به، ولنطمئنَ به قلبك، وقرأناه عليه قراءة متأنّية شيئا بعد شيء لتحفظه سريعا، وأنزلناه على الترتيل، أي ضدّ العجلة. وإنّ مسألة نزول القرآن منجّما موضوع أبحاث وأقوال كثيرة واسعة، فمن شاء التوسّع فيها فعليه بكتاب الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ومراجعة القول فيه في تفسيرنا (تنوير المستنير) وتفسير ابن عاشور (التحرير والتنوير) وقول الرّازي في تفسيره الكبير.

- وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا (33) :

ولا يقترحون عليك من مقترح باطل أو إعجازي غير معقول، أو ضربوا لك مثلا من المعجزات التي يطلبون إلاّ وضّحْنا لك ما كانوا يضمرون من وراء مقترحهم وطلبهم، ورددنا عليهم بحسن البيان، وتفصيل الحجج الواضحة ليؤمنوا، ولفضح أباطيلهم.

- ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا (34) :

وليحذر هؤلاء المجرمون المكذّبون من أن يحشروا يوم القيامة على وجوههم إلى جهنّم جرًّا لإذلالهم وإهانتهم وليعلموا عاقبة اِستكبارهم، وتعاظمهم على الإيمان. هؤلاء أسوأ المعاقبين وضعا ومكانة لأنّهم كانوا أبعد النّاس عن الحقّ، وعن سواء السبيل.

- وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا (35) فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا (36) :

الآيتان في التّذكير بعاقبة المكذّبين بنبيّ الله موسى عليه السلام وأخيه للاعتبار. والمعنى: ولقد أرسلنا موسى بالمعجزات الدالّة على صدق ما يدعو إليه، وآتيناه الكتاب، وساندناه بأخيه هارون ليكون له مساعدا ومعينا. وقد أمرناهما بالتوجّه إلى فرعون وآله الذين كذّبوا بصدق ما جاءهم به موسى من المواعظ والمعجزات، فلمّا أصرّوا على الكفر والتكذيب عنادا واِستكبارا أهلكناهم هلاكا اِستأصلهم وأماتهم.

- وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا (37) :

في هذه الآية إشكالية، ذلك لأنّ الآية تتحدّث عن قوم نوح، ونوح رسول واحد، وجاء فيها أنّهم (كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ) بصيغة الجمع، وأجمعت جلّ التفاسير في تفسير هذه الإشكالية على أنّ الذي كذّب رسولا واحدا فكأنّه كذّب جميع الرّسل لأنّ رسالتهم واحدة في الإيمان بالله الواحد الأحد، ولأنّ الذي أرسلهم جميعا هو الله، فمن كذّب بواحد منهم فكأنّما كذّب بالجميع. والمعنى: كذّب قوم رسولهم فأغرقناهم بالطوفان، وجعلنا خبرهم عبرة للنّاس، وكذا مصير كلّ من يكذّب رسل الله سيهلكون في دنياهم لتطهير الأرض من الكفر وأهله. وفي آخرتهم سيلقون عذابا موجعا لأنّهم ظلموا رسلهم بتكذيبهم.

- وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا (38) وَكُلًّا ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ وَكُلًّا تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرًا (39) :

ولقد أهلكنا كذلك أقواما أخرى بعد نوح عليه السلام لتكذيبهم رسلهم. أهلكنا قوم عاد الذين كذّبوا رسولهم هودا عليه السلام بريح صرصر عاتية، وأهلكنا قوم ثمود الذين كذّبوا رسولهم صالحا عليه السلام بالصاعقة. وأمّا أصحاب الرّسّ فقد كذّبوا رسولهم فهلكوا جميعا. (ٱلرَّسِّ) في كلام العرب هي البئر القديمة، وهي عندهم كذلك البئر التي فيها معادن والتي نسمّيها في حاضرنا : مَنْجَمًا. قيل هم أهل أنطاكية، وهم أصحاب القصة التي ذكرت في سورة : "يس" الذين أرسل إليهم ثلاثة رسل، وقيل هم قوم بأذربيجان (قاله اِبن عباس)، وقال (قتادة) هم قوم شعيب، قيل هلكوا بسحابة سوداء أظلّتهم فأحرقتهم، وعند ابن عبّاس: هلكوا جوعا وعطشا. وكان أصحاب الرّسّ يعبدون الأصنام. وهناك أمم أخرى بين قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرّسّ لا يعلمهم إلاّ الله تعالى كذّبوا رسلهم فأهلكوا. (وَكُلًّا ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ) وجميعهم قد جاءتهم رسلهم بالمواعظ وبالحجج ليهتدوا ويؤمنوا، ولكنّهم أصرّوا على كفرهم عنادا وإستكبارا فأهلكوا بعذاب، ودُمِّروا تدميرا لتطهير الأرض من الكفر والأوهام ونشر الأباطيل ومصادرة الحقّ، والغرض من هذا العرض تسلية الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وإنذار المشركين والملحدين والمكذّبين بسوء المصير.

- وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورًا (40) :

هي قرية سدوم لقوم لوط التي أمطرت بالحجارة فقلبت بيوتهم رأسا على عقب وردمتهم تحت أنقاضها ولم ينج منهم أحد. (أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَا) الخطاب هنا لمشركي العرب، أفلم يكونوا يرون آثار التدمير الذي حلّ بالقرية ليعتبروا ويتّعظوا، ويخشوا عذاب ربّهم، ولكنّهم لا يؤمنون بالبعث ولا بالحساب ليخشوا ربّهم، ولذلك كانوا يستخفّون بالوعيد.

- وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا (41) :



هذه في بيان موقف زعماء الشرك ورؤساء الكفر من الرّسول صلّى الله عليه وسلّم. كانوا حين يرون الرّسول صلّى الله عليه وسلّم يمرّ بهم يقولون مستهزئين وفي اِحتقار: أهذا الذي بعث الله رسولا، والاستفهام للاحتقار. وليس من شيء أشدّ إيلاما على الإنسان الصادق الأمين الدالّ إلى الحقّ بالحجّة والدليل لفتح بصيرة الضالّ من الهزء به ومن اِحتقاره. لا يحتقر الرّجلَ إلاّ متكبّرٌ متعاظم لا خلاق له.

- إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً (42) :

قالوا: قد كاد أن يصرفنا عن عبادة آلهتنا، ويصرفنا عن تقديسها لولا أن ثبتنا عليها، ونصرناها بتمسّكنا بها. وهذا مما يدلّ على عنادهم، وإصرارهم على الكفر. وسوف يعرفون حين ينزل بهم العذاب من كان على صواب ومن كان على خطإ وضلال، وقد رأوا ذلك حين تطايرت رؤوسهم في بدر.

- أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (43) :

أخبرني عمّن جعل معبوده ما تميل إليه نفسه بغير حقّ، أفأنت تكون عليه حفيظا تمنعه من اِتّباع هواه.

- أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً(44):

أتظنّ أنّ هؤلاء ذوو أفهام؟ يفهمون ما يسمعون، ويعقلون بعقولهم الحجج والدلائل ليميّزوا بها بين الحقّ والباطل؟ إنّهم أشبه بالأنعام التي لا تسمع ولا تعقل، بل إنّ الأنعام أفضل منهم، وهؤلاء أسوأ منهم حالا وقدرا.

- أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (45) :

هذه الآية إلى غاية الآية 55 في تنبيه الإنسان للتعرّف على ربّه من بعض مظاهر إنعامه وفضله ليحيا حياة آمنة، وليوفّر له رزقه، وذلك بتكوير الليل على النّهار، ونشر الرّياح المبشّرات بالغيث، وإنزال الماء الطهور لإحياء البلد الميّت، وسقي النّاس والأنعام، وجريان البحار العذبة والبحار المالحة، وللتّعرّف على الله عزّ وجلّ من بعض مظاهر عظيم القدرة وحكمة الخلق في خلق البشر من ماء، وفي الربط بينهم بالنّسب والمصاهرة ليكونوا أمّة واحدة.

وقد جاء أثناء هذا العرض لإثبات وحدانية الله في الخلق ليُعبد وحده ولنبذ الشرك تنبيهُ الإنسان ليذكر ربّه، وليعلم أنّ الله تعالى قد قضى أن يمهل الكافرين برحمته ولم يعجّل لهم بالنّذير، واِقتضت رحمته أن يرسل إليهم رسوله لهديهم، وهذا أمر متواتر في جملة من السوَرِ الطوال.

لكن الإشكال الذي بَدَا لِي عند تفسير أولى آيات هذه الفقرة كشف فضيلة التنبيه لأهمية تدبّر حركة الظلّ، وكشف فضيلة تقديم هذه الآية على تلك الآيات الدّالة على عظيم الإنعام والتقدير، وعظيم الخلق؟ ما الذي يجب التّنبُّه إليه من تدبّر هذه الآية، هذا الذي يتحيّر المرء في فهمه.

وتقديم هذه الآية على جميع الآي الواردة بعدها يدلّ على عظيم أهميتها. ومعنى الآية: ألم تعرف ربّك من حركة الظلّ الذي يمتدّ في أوقات من النّهار، ويقصر في أخرى، ويكون على مَيْمنتك طورا، وخلفك طورا آخر، وتحت قدميك إذا كانت الشمس فوق رأسك.

لو تدبّر الإنسان هذه الآية بعمق في ذاك الزّمان: زمن نزول الوحي قبل خمسة عشر قرنا من الآن، واِجتهد في البحث في حركة الظلّ وأهميتها لكسب سَبْقَ كشف دوران الأرض حول كوكب الشمس بقرون طويلة قبل الفلكي البولوني (كارل كوبرنيك) (1473م – 1543م) الذي برهن على دوران الأرض حول الشمس فغيّر النظرية القديمة بأن الأرض ثابتة وأنّ الشمس تدور حولها.

وأما قوله تعالى (وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا) فيفيد أنّ الظلّ لو لم يكن متغيّرا بين البسط والقبض، ولو لم يكن متغيّرا في اتّجاهه، وشاء الله تعالى أن يجعله ثابتا في الاتجاه بالنسبة إلى صاحبه وثابتا في مقاسه بالنّسبة إلى الجسْم الذي يجعل له الظلّ، لم يعرف الإنسان عندئذ حساب الوقت لنهاره، ولم يعرف ما يميّز به بين وقت الضحى، ووقت الظهيرة، ووقت العصر، وقت الصبح والغروب يحدّده دخول الليل وزمن خروجه. فحركة الظلّ جعلت ليعرف بها النّاس تقسيم أوقات نهارهم. ولمّا اِنتبه العرب لهذه المسألة اكتشفوا "المزولة" وهي الساعة الشمسية التي عرفوا بها أوقات صلاتهم النهارية (الظهر والعصر)، ثمّ اِخترعوا الساعة زمن هارون الرشيد في الدولة العباسيّة وكانوا سبّاقين لهذا الاختراع الذي أبهر الغرب في ذاك الزمان.

- **ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا (46) :**

لعلّ هذه الآية لتمثيل حياة جميع الخلق. فلقد قضى الله تعالى أن يكون دوام الحال من المحال، لا دوام إلاّ له عزّ وجلّ. (كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ)(الرحمان الآيتان 26-27) تفيد الآية أنّ كلّ شيء يتحوّل من الوجود إلى القبض، وقبضه يعني نهايته، وعودته إلى ربّه بتأنٍّ وحين يحين أجله. وكذا تكون أطوار حياة الإنسان مع مرور الأيّام وإن اِمتدّت، فإنّه مُنْتَهٍ إلى القبض. فلعلّ الاستفهام الذي بدئت به الآية السابقة مع هذه الآية يفيد الانتباه للاجتهاد في إدراك حكمة الله تعالى في خلق الظلّ وفي جعله متحرّكا، وفي مشيئته لأن لا يجعله ثابتا، وفي قضائه لأن يقبضه إليه قبضا مُتَأَنِّيًا. ولعلّ عمق هذه المعاني إذا أُدْرِكت بلغت بالإنسان العاقل ليوقن لأنّ كلّ ما خُلِقَ في الأرض لم يخلق عبثا. ولو كان في شيء لا يدركه كثير من النّاس أهمية إيجاده مثل ظلّ كلّ شيء كائن، وليوقن بأنّ الخالق عظيم القدرة والحكمة ليؤمن به

ويطيعه، ولا يكفر به إلاّ جاهل أعمى، أو معاند غير عاقل، وكان الإنسان ظلوما جهولا إذا تولّى عن قراءة ما أنزل الله تعالى من كتاب وعن تدبّره.

- **وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا (47) :**

والله هو الذي جعل لكم الليل كاللباس الساتر ليستركم بظلامه، وأنعم عليكم بفترة من زمنه لتناموا حتى تستريحوا من عناء تعبكم في أعمالكم بالنّهار، وتريحوا أبدانكم لتستعيدوا نشاطكم في غده، وجعل لكم النهار لتنتشروا في الأرض لتسعوا فيها اِبتغاء الرّزق.

- **وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا (48) :**

وهو تعالى الذي أرسل الرياح التي تبشّر بنزول الغيث رحمة بكم، وإنعاما عليكم، وأنزلنا عليكم من السماء ماء مطهرًّا نقيّا يطهّر كلّ شيء.

- **لِّنُحۡـِۧىَ بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتًا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا (49) :**

وبالماء الذي ننزله من السماء نروي لكم أرضكم الجافّة، وأرضكم البور فتغدو أرضا خصبة حيّة تنتج لكم الخضر وتنبت لكم الزرع والشجر، ونسقيكم منه ماءً عذبا لنحميكم من العطش، ونسقي به أنعامكم لتدرّ عليكم اللبن ولتسمينها لطعامكم ولتقوّيها لخدمتكم، ويُسقى به خلق آخر من النّاس من المسافرين أو غيرهم. فضائله عليكم كثيرة، وهذا من رحمة الله تعالى بكم ومن فضله عليكم فاشكروا له، ولا تعبدوا غيره ممّا لا فضل له عليكم.

- **وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (50) :**

ولقد وزّعنا الغيث على أنحاء مختلفة وبين الأقوام والبلدان ليشكروا ربّهم، وليعرفوا نعمة ربّهم عليهم، ولكنّ أكثر الناس كانوا غافلين عن هذا الشكر وكانوا غافلين عن معرفة ربّهم الحقّ صاحب الفضل عليهم فجعلوا لهم إلاها للخِصب وقدّموا له القرابين وكفروا بالله الحقّ وجحدوا نعمته، وعبدوا الأصنام.

- **وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِى كُلِّ قَرۡيَةٍ نَّذِيرًا (51) :**

هذه في إثبات رحمة الله تعالى بعباده بالإمهال، وإن كانوا كافرين به، وجاحدين لنِعَمِه. والمعنى: ولو شاء الله العزيز الحكيم لسلّط نذيرا على الكافرين في كلّ قرية من قراهم يخيفهم على أنفسهم من الهلاك، ولكنّه لم يشأْ أن يفعل حتى لا يروّعهم رحمة بهم، وأمهلهم عساهم يرشدون فتخبتَ قلوبهم، ويذكروا ربّهم، ويؤمنوا به، وهذا خير لهم ليتوبوا ويستغفروا.

ولقد عرفت كثير من المدن في أزمنة مختلفة من تاريخها جوائح أو كوارث طبيعية أهلكت كثيرا من النّاس في مدّة قصيرة وأيّام معدودة، وجعلت آخرين يستغيثون بالله تعالى ويدعونه طلبا للنجاة، فردّت إليهم رشدهم للإيمان بربّهم. وقد مرّت في عصرنا الحاضر جائحة اِنتشرت عالميا



– هي جائحة جرثومة الكورونا (كوفيد19) أصابت الملايين من الخلق، وأماتت مئات الآلاف، وأصابت النّاس بالذعر والخوف على النفس من الموت، وهي جائحة لم يعرف لها دواء للعلاج منها، أو للفتك بها، أو للوقاية منها والحدّ من اِنتشارها. ما هذه الجائحة إلاّ نذير من النّذر. ولقد أعادت للكثير رشدهم فالتجؤوا إلى الله تعالى لطلب لُطفه وغوْثه ليحميهم من الإصابة بها. دعاه المسلم واليهودي والنّصراني، ومن لا دين له، وبكلّ لسان عربي وأعجمي، عرف النّاس ربّهم لمّا جاءهم نذير، وعلموا أن لا نجاة من أمره إلاّ به.

- فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا (52) :

الخطاب في الآية للنّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم بتثبيته على دعوة النّاس لما أُمر به. والمعنى: فلا تطع الكافرين في ما يطلبون منك بأن لا تسفّه آلهتهم، وفي فضح أباطيلهم وضلالتهم، وجاهدهم بإنذارهم من وقوع العذاب عليهم، وحاججهم بالقرآن وحججه ودلائله، وعظهم بمواعظه وعبره، ولا يصدنّك الذين كفروا عن أن تسمعهم ما أنزل إليك.

- وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا (53) :

والله تعالى هو الذي أرسل مجرى البحرين: أحدهما شديد العذوبة والحلاوة، وثانيهما شديد الملوحة، يلتقيان في مصبّ كالذي يجري مع نهر النيل العذب الذي يصبّ في البحر الأبيض المتوسط الملِح، وجعل الله تعالى بعظيم القدرة حاجزا عظيما لا يرى بالعين وإنما هو من القدرة فيمنع اِختلاطها وتأثّر أحدهما بالآخر، وهذا من عجائب الخلق. (وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا) في كلام العرب يعني المنع والتحريم.

- وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا (54) :

وهو تعالى الذي خلق جميع البشر بالتناسل بماء الجنسين: الذكر والأنثى. ومن الماءين إذا اِمتزجا تنشأ النّطفة ثم تمرّ بمراحل في تكاثرها وتطوّر حالاتها وأشكالها حتى تصبح جنينا ثم مولودا ثم صبيا حتى يغدو رجلا أو اِمرأة، وربط بين الجنسين بالتزاوج بالنّسب والمصاهرة وتكوّنت بهذا الترابط القبائل والأمم، والله سبحانه عظيم القدرة في الخلق والإنشاء والتدبير.

- وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا (55) :

بعد ذاك العرض لآيات الله تعالى الدالة على عظيم خلقه، وحسن تقديره، وكثير إنعامه وإحسانه، فإنّه من المستغرب أن يتولّى الإنسان عن عبادة ربّه الحقّ الحقيق بالعبادة والطاعة والشكر، ويعمي بصيرته عن آلائه ويعبد من دونه ما لا يقدر على نفعه أو على إلحاق العقاب

والضّرّ به، فمن السخف والجهالة أن يترك عبادة من ينفعه والقادر على أخذه بالشدّة، ولكن كذا هو الكافر يستعين بالشيطان على معصية ربّه، واِتّخاذ إلاهٍ آخر من دونه.

- وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا (56) :

هذه في تخصيص رسالة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بتبشير المؤمنين بتكريم الله تعالى ورحمته بهم ورضوانه، وتحذير الكافرين من عذاب الله وعقابه لتولّيهم عن عبادة ربّهم، ولإتيانهم معصيته.

- قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا (57) :

وأبلغهم أنّك لا تطلب بما تدعوهم إليه مالا، ولا زعامة أو جاها، وإنّما تدعوهم إلى الهدى لمن يشاء أن يتقرّب إلى ربّه الله الواحد الأحد الحقّ بصدق إيمانه، وبإخلاصه في طاعته، وباستقامته على شرعه.

- وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا (58) :

واِستعن بدعوتهم إلى الهدى بربّك الحيّ الذي لا يموت، وهذه صفة لله الحقّ لأنّ كلّ شيء هالك إلاّ وجهه، لأنّه هو الخالق الذي لم يُخْلَقْ، وما يُعبد سواه مخلوق وفان. واعبد الله منزّها إيّاه عن كلّ عيب ونقص، ومثنيا عليه إذ هداك للإيمان ولتفضّله عليك بنعمة الخلق والإيجـــاد، وكن له عبدا حامدا شاكرا، وإنّه تعالى عليم بذنوب عباده: بمعاصيهم وبآثامهم، وهو خبير بما يفعلون وبما في نفوسهم، وخبير بما يصلح لهم لهداهـــم أو بما يستحقّون من عقاب، وهو كافيــك إيّاهم، ولست مسؤولا عن إعراضهم عن الهدى، وعن إتيانهم المعاصي.

- ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا (59) :

توكّل على الله وسبّح بحمده الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستّة أزمنة. الله أعلم بمقدار الزمن الذي خصّه الله تعالى بيوم بحساب الزمن عندنا على الأرض، قد يكون ذاك اليوم مساويا لملايين من السنين بحسابنا، ألا ترى أنه تعالى قد قال: (ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ)(السجدة الآية 5). وقال عزّ وجلّ: (تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِـــي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ)(المعارج الآية 4). مع الإشارة أنّه من الخطإ أن نقدّر هذا اليوم بأربع وعشرين ساعة بحساب زمننا وتقديره لأنّ الأرض والشمس لم يخلقا بعد ليحسب الزمن بدورة الأرض حول نفسها. ويفيد العدد ستّة الإشارة للقلّة، بما يدلّ على أنّ خلق السماوات والأرض وما بينهما قد تمّ في زمن قصير عند الله عزّ وجلّ. ثم اِستوى الله تعالى على العرش اِستواءً لا يعلمه إلاّ هو، والعرش هو ملكوته العلوي وملكوته السفلي. الرّحمان هو الله عزّ وجلّ الذي خلق كلّ

شيء برحمته وهيّأ له برحمته ما يحفظ وجوده وطعامه. كلّ الخلق – أيّا كان – قد خلق برحمته تعالى. (فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا) اِسأل من الناس العالم والعارف بشيء من علم الله عزّ وجلّ ليعرّفك به تعالى، وليدلّك على آيات فضله وإنعامه وآيات قدرته، وأوّل العارفين هم الأنبياء والمرسلون ومن بعدهم الصالحون ثمّ العلماء العاملون الأتقياء من الذين ورثوا العلم عن المرسلين من مثل الحواريين وصحابة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والفقهاء والمجتهدين.

- **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا (60) :**

هذه في الدلالة على مدى نفور المشركين من الإيمان بالله تعالى رغم إبلاغهم بدلائل وجوده، ودلائل وحدانيته، ودلائل إنعامه، ودلائل ضلالتهم في عبادتهم للأصنام وإشراكهم بربّهم الواحد الأحد، وهذا من صَلَفِهم وعنادهم واِستكبارهم عن السجود لغير آلهتهم المزعومة. والمعنى: وإذا وُعِظ المشركون، ودُعوا للسجود لله عظيم الرّحمة، واِسمه الرّحمان، (قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ) ولا يدلّ اِستفهامهم هذا إلاّ على إنكارهم للإيمان بإلاه آخر غير آلهتهم. واِستفهامهم (أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا) دالّ على رفضهم القاطع للسجود لله تعالى. وما زادتهم الدعوة للسجود لله تعالى إلا بعدا عن الإيمان، وعن الهدى.

وهذه آية موضع للسجود للمؤمنين تنفيذا للأمر.

- **تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا (61) :**

تقدّس الله وتعاظم وجلّت قدرته الذي جعل في السماء (بُرُوجٗا) وهي منازل تحرّك الكواكب ودورانها، وجعل فيها الشمس لتكون مضيئة ومنيرة في السماء، وجعل فيها قمرا مشرقا. والغرض المقصود من هذا التقديس التعرّف على عظيم القدرة في الخلق، وعظيم التقدير في التسيير وتنظيمه، وهو سبحانه القيّوم على ما يجري في السماء خارج كوكب الأرض.

- **وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا (62) :**

والرّحمان الذي دُعيتم للسجود له طاعة وتقديسا وتسبيحا بحمده على نعمه هو الذي جعل الليل والنّهار متعاقبين لتجدوا راحتكم ليلا ولتسعوا لرزقكم وأنشطتكم في ضوء نهاره، فهل من إلاه غيره فعل ذلك أو غيّره أو منعه وعطّله. وهذه نعمة يعرف فضلها من تدبّرها، ويعرف بها قُدرة ربّه وحكمته في التّدبير، وتستوجب شكر الشاكرين إذا ناموا بعد سعي نهارهم، وإذا اِستيقظوا نشيطين بعد رقادهم.

- **وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا(63) :**

هذه إلى غاية الآية قبل الأخيرة في صفات عباد الرّحمان. (وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ) هم العباد الذين يحبّهم الله عزّ وجلّ فأضافهم إلى اِسمه الرّحمان تشريفا وتكريما، وهم المتّصفون بالصفات الآتي

ذكرها ترغيبا. إنّهم يمشون على الأرض مشيا هيّنا فيه سكينة، ووقار، وتواضع، على عكس المشركين الذين يمشون مستكبرين، متعاظمين، وهم الذين إذا جادلهم الكافرون المشركون بهزء وسخرية أجابوا بالمعروف والسداد من القول، أو أعرضوا عن التّحاور معهم.

- وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا (64) :

ومن صفاتهم المداومة على صلاة الليل قياما وتهجّدا ساجدين لله تعالى يدعون ربّهم خوفا وطمعا مستغفرين إياه.

- وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) :

وأكثر دعائهم لطلب النّجاة من عذاب جهنّم، وإبعادهم عنها لأنّ عذابها شديد الهلاك، ودائم لا يفارق.

- إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66) :

يدعون للنّجاة من عذاب جهنّم لأنّ الاستقرار فيها سيّئ وهالك، والمُقام فيها مؤلم.

- وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (67) :

ويتّصفون بالاعتدال في الإنفاق، وبالتوسّط بين الإسراف والتقتير وكلّ مال ينفق بسخاء على ما لا يُنتفع به هو من الإسراف كالذي ينفق بسخاء في الزينة وفي جراحات التّجميل بدون موجب يقتضي ذلك، وغير ذلك ممّا تزيّنه وسائل الإعلام لشرائه أو للمُساهمة فيه في وسائل الإشهار من مثل المساهمة بالإنفاق في الإرساليات القصيرة لربح سيارة أو مسكن أو غير ذلك.

- وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) :

وهم الذين لا يشركون بالله أحدا، وهم الذين لا يعتدون على النفس البشرية بالقتل إلاّ ما كان من حُكمٍ حَكم به قاضٍ عدل لإقامة حدود الله تعالى، وهم أهل عفّة لا يأتون فاحشة الزنّى، ويعلمون أنّ من يشرك بالله الواحد الأحد، ومن يسفك دم البريء وبغير حقّ يأمر به القاضي، ومن يَزْنِ يَلْقَ عذابا أليما في آخرته عقابا له على آثامه وذنوبه.

- يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا (69) إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (70) :

ومن يشرك بالله عزّ وجلّ، ويقتلْ النّفس بغير حقّ، ويَزْنِ يعذّبْ عذابا مضاعفا يوم القيامة:؛ عذابا عن الشرك، وعذابا عن قتل النّفس المحرّمة، وعذابا عن الزّنى، ويخلّد في العذاب المهين المذلّ لا يخفّف عنه، ولا يهلك فيستريح منه.

أمّا من تاب عن الشّرك، وأقلع عنه، وآمن بالله وحده، وعمل بالطاعات وأعمال البرّ ، واِستقام في سلوكه فإنّ الله عزّ وجلّ يهديه بنقله من العمل الذي كان يعمله وكان يثقل ميزان سيّئاته إلى أن يعمل عملا صالحا يرضي ربّه عنه فيثقل به ميزان حسناته، وكذا ترجح حسناته على سيّئاته بنعمة الله تعالى بقبول توبته، وبالغفران له، وبعظيم رحمته تعالى التي تنقله من الجزاء بالعذاب إلى نعمة النّجاة منه والفوز بالنّعيم. وهذا التذييل (وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا) للترغيب في العمل الذي يجلب رضوان الله تعالى ورحمته للنجاة من العذاب وللفوز بنعيمه. يتوهّم بعضهم أنّ معنى اِستبدال سيّئاتهم بالحسنات، أنّ السيّئة تُمحى وتصبح حسنة، وهذا من سوء الفهم، وإنّما هو بمعنى هديه لأن يعمل صالحا ليكسب الحسنات، ويقلع عن عمل السيّئات بتوبته، وكذا بغفران الله تعالى وبرحمته يرجح ميزان حسناته عن ميزان سيّئاته.

- وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا (71) :

ومن تاب عن شركه، وأقلع عن معاصيه، وثابر على الطاعات وأعمال البرّ فإنّه هو التّائب إلى الله بحقّ، وتوبته صادقة، والله توّاب رحيم، يجب أن يجسّم التّائبُ بصالح أعماله وصدق نواياه في طاعة ربّه حسنَ توبته.

- وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا (72) :

ومن صفات عباد الرّحمان أنّهم لا يشهدون شهادة الكذب المفترى، والشهادة الباطلة التي تضيّع الحقّ عن صاحبه، وتنصر الباطل، والذين لا يحضرون المجلس الذي فيه كلام الفحش، أو النّميمة والغيبة، أو كلام السّفه، أو تدبير المكائد للغير لأنّ عباد الرّحمان أهل مروءة، وذوو محاسن الأخلاق، لا يحضرون مثل هذا المجلس، وإذا دعوا إلى مثله اِعتذروا عن حضوره بلطف، وترفّعوا عن مجالسة السفهاء وأهل المكر.

- وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (73) :

هم الذين إذا سمعوا آيات الله تعالى تتلى عليهم، وفيها مواعظه، وحججه ودلائل فضائله وعظيم قدرته، وآيات حكمته في التقدير أو في تشريع الأحكام توقّفوا عليها لتدبرّها والانتفاع بها، ولم يعرضوا عنها كالذي يفعله الكافرون الذين يمرّون عليها مرار الصمّ العميان الذين لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون، لا يحبّون الإصغاء إليها ولا تدبرّها.

- وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا(74):

ويدعون ربّهم بأن يمنحهم ذرّية طيّبة من أزواجهم الحلال، ذريّة صالحة يكونون أسبابا لإسعادهم وللرفع من شأنهم وقدرهم، ويدعون بأن يجعلهم قدوة يُقتَدَى بهم في الخير ، وفي صدق الإيمان وصالح الأعمال.

- أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا (75) خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (76) :

الآيتان في جزاء عباد الرّحمان عند لقائهم لربّهم يوم القيامة. يفوزون يومئذ بمنازل رفيعة في الجنّة تكريما لهم ولصبرهم على أداء الطاعات لربّهم طمعا في رحمته ورضوانه، ولصبرهم على كبت شهوات أنفسهم التي حرّمها الله تعالى عليهم فلم ينتهكوا حرمات الله، ولم يقربوا نواهيه، ولصبرهم على كلّ اِبتلاء رِضًى بقضاء الله تعالى. وفي هذه المنازل الرّفيعة في الجنّة تتلقّاهم الملائكة بالتحية تكريما وتأمينا، فهم في الجنّة في أمان تامّ لا تتحوّل عنهم نعم الله عزّ وجلّ، ويكونون مخلّدين فيها لا يرون موتا ولا فناء. فما أحسن إقامتهم! وما أجمل مقرّهم وما أروعه وما أهناه. أنْعَمَ الله تعالى علينا بهذا المستقرّ وهذا المقام بفضله وبرحمته فإنّه الجواد الكريم.

- قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا (77) :

هذه خاتمة السورة فيها تذكير بأنّه تعالى لا تنفعه طاعة ولا تضرّه معصية، وإنّما العباد هم الفائزون برحمة الله تعالى إذا عبدوا فأخلصوا، وأطاعوا فأحسنوا، وسمعوا فاستجابوا لما ينفعهم واِستعاذوا بالله ممّا يضرّهم. والمعنى: أبلغهم – يا محمد – بأنّ الله لا يبالي بمعصية العصاة، ولا حاجة له بأحد منهم ولولا عبادة العابدين من عباده وأدعيتهم لربّهم ليحفظهم من كلّ سوء لأهلكهم ولم يُمهلهم لتكذيبهم وكفرهم، ولكن سيلقون عاقبة ذلك يوم القيامة بالقضاء فيهم بالعذاب الدائم الملازم لهم. وَقَانا الله سوء المصير.

والآية تُشير إلى فضيلة دعاء الصالحين في كلّ بلد، فإنّ دعاءهم وحسن عبادتهم مجلبة للخير لأهل بلدهم، ووقاية لهم من الهلاك وسوء الحال. دعاؤهم دافع عنهم البلاء العاجل.

آياتها	ســـــورة **الشعـــــراء**	رقمها
227	ـــــ مكيّة ـــــ	**26**

سمّيت هذه السورة بسورة "الشعراء" لانفرادها بذكر الشعراء. وهي سورة مكيّة عدا الآيات الّتي ذكرت الشعراء، فهذه آيات مدنية. وهي أول سور "الطواسيم" وهي السور التي تفتح بحروف: الطاء والسين والميم.

وجاء في أغلب آيات هذه السورة التّنبيه لفضيلة القرآن الكريم، وفضيلة إنزاله، وحذّرت من الغفلة عن ذكره، والإعراض عنه. وجاء فيها إنذار المكذّبين بالرّسول صلّى الله عليه وسلّم من أن يُصيبهم مثل ما أصاب الأقوام الذين كذّبوا رسلهم من قبلُ: موسى وإبراهيم ونوحا وعادا وثمود، ولوطا وأصحاب الأيكة. وجاء فيها اِتّفاق الرّسل في دعوة أقوامهم لتقوى الله وطاعته، وأنّهم لم يكونوا يسألونهم أجرًا عمّا يدعونهم إليه من دعوتهم للهدى. كما حذّرت هذه السورة من وصف أتباعهم بالأراذل، وجاء فيها آيات في وعيد الكافرين بعذاب الآخرة، وفيها تحذير الشعراء من هجاء الرّسول واِتّباع غواية شياطينهم.

- طسٓمٓ (1) تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ (2) :

طسم حروف اِفتتاح للسّورة لا يعرف سرّها إلاّ الله عزّ وجلّ. واِسم الإشارة (تِلۡكَ) يشير لآيات القرآن الكريم الذي يبيّن الحقّ، ويوضّح مظاهر الضلال لتوقّيها. وجاء هذا الاسم للبعيد للدلالة على أنّ القرآن بعيد عن منال من يريد تحريفه لأنّ الله تعالى حافظه، وبعيد عن كلّ بليغ ليأتي بسورة من مثله: فانتفعوا ببيّناته.

- لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ (3) :

هذه لتسلية النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حتى لا يتضايق كثيرا أو يألم من تولّي قومه عن السماع لما يوحى إليه من ربّه، وكان كثيرا ما يحزن لإصرار قومه على الكفر ومن إعراضهم عن الإيمان بما جاءهم به.

والمعنى: ما بَالُكَ مُهْلِكَ نفسك لأنّ قومك لم يصدّقوا برسالتك. هوّن على نفسك.

- إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ (4) :

هذه في تحذير الكافرين، وفي فضيلة الإمهال معا. والمعنى: إن يشأ الله أن يُخْضع الكافرين للإيمان فأنزل كارثة من السماء عليهم أو جائحة من جوائح لا يعرفون سببا لمأتاها ولا دواءً



لعلاجها، ولا يعرفون لمقاومتها سبيلا للتوقّي منها فهلك بها عدد كبير منهم في زمن قصير وكثر موتاهم، وسكن الخوف والفزع في قلوبهم من خشيتهم على أنفسهم من الموت المحدق لخضعوا للإيمان خضوع الأذلاّء، لا يتجرّأ أحد منهم بعد ذلك على معصية الله. إنّ هؤلاء لا يؤمنون إلاّ إذا هُدّدوا وخافوا وذُلّوا.

وقد يكون من المفيد لتقريب مفهوم هذه الآية أن نضرب المثل بما جرى في البلدان الموصوفة بالعظمى لمّا نزلت بها جائحة (كوفيد19). كلّ صباح تصحو هذه البلدان على قائمة طويلة من جثث الموتى. بلغت هذه القائمة مئات الآلاف من أرواح الهلكى حتّى عجزت بعض هذه البلدان عن دفن موتاها واضطرّت إحداها لإنشاء مقبرة جماعية في جزيرة مهجورة. وأخرى أحرقت جثث موتاها، وردمت رمادها. كشف نزول هذه الجائحة بها هشاشة نظامها الاجتماعي رغم قوّة اِقتصادها، فعطّلت مصالحها، وأضرّت بمصانعها، وعطّلت النّاس عن أشغالهم، وحبستهم في بيوتهم المغلقة عليهم وهم في ذعر وخوف على أنفسهم من الموت هلاكا بذاك الفيروس الذي لم يعرفوا سبب نشأته، ولم يعرفوا له علاجا، ولا مصلا للتوقّي منه. ومن المفيد التذكير بما ألحقت بالرجل الأقوى في العالم من إذلال حين كشفت تناقض مواقفه، وسخف تدبيره، وسوء تقديره، حتى صار موضع تندّر المتندّرين، فأذلّته بعد عزّه وجبروته وغطرسته. أليس هذا ممّا يصلح لتفسير هذه الآية التفسير التطبيقي الذي عاشه النّاس في هذا العصر؟

- وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ **(5)** :

إنّ من جبلّة الكافر العناد والاستكبار عن الإذعان للحقّ، فلا يبلغنّه ذكرٌ من الرّحمان بعد ذكر يرشده للصواب إلاّ أعرض عنه. وقد جاء في الآية نسبة الذكر لاسم الله الرّحمان للإشارة أن ما ينزل من القرآن هو تنزيل رحمةٍ لما فيه من هديٍ للصواب، ومن تبشير بالرحمات والفضائل لمن اِتّبعه وذكره وتدبّره.

- فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ **(6)** :

فقد كذّب الكافرون بالوحي فسيعلمون صدق خبر الوعيد الذي كانوا به يسخرون ويكذّبون.

- أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ **(7)** :

هذه في تنبيه النّاس لفضل الله تعالى عليهم بالإنعام عليهم بخيرات الأرض. والمعنى: أفلا يتأمّلون في نبات الزّرع والشّجر ليعرفوا منه قدرة ربّهم في إخراج الخيرات من تراب الأرض، وليعرفوا فضله عليهم في إطعامهم من كلّ حبّ وثمر متنوّع أكله وطعامه وشكله ليشكروا له.

- إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ **(8)** :

إنّ في ما تنتجه الأرض لحجّة ودليلا للنّاس ليعرفوا به ربّهم الخالق، الرزّاق، وما كان أكثر النّاس مصدّقين بفضل الله عليهم، وبقدرته عليهم، وبأحقيّته عليهم ليعبدوه وليشكروا له.

- وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (9) :

وإنّ ربّك – أيّها الإنسان – الذي خلقك ورزقك لهو القويّ الذي لا يغلب فهو قادر عليك ليأخذك إذا كفرت به، وهو الرّحيم بعباده المؤمنين يُؤَمّنهم على حياتهم في دنياهم، وعلى عاقبتهم في آخرتهم.

- وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (10) قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ (11) :

هذه إلى غاية الآية 68 في خبر موسى عليه السلام مع قوم فرعون الظالمين. وأُذكر إذ نادى ربّك موسى، وكلّفه بأن يذهب إلى فرعون وملئه الذين كانوا ظالمين لأنفسهم وللمستضعفين من النّاس لدعوتهم للخشية من الله تعالى لِإتّقاء عذابه.

- قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (12) :

وحين كُلّف موسى بهذا التكليف عبّر عن خوفه من أن يكذّبوه فلا ينجح في مهمّته.

- وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ (13) :

وعبّر موسى عن سرعة غضبه وسرعة اِنفعاله حين يُكذَّب بأنّه ضَيّقُ الصدر، وكانت عنده رُتّة في لسانه فإذا غضب فإنّ لسانه يتعثّر في كلامه، ولا يُبيّن ما يقول، وهذا ممّا يُعَقّدُ عليه تبليغ رسالته، فطلب من ربّه أن يؤازره بإرسال أخيه هارون معه ليعينه على أداء مهمّته.

- وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ (14) :

وعبّر لربّه عن تخوّفه من أن يجد فيه الفراعنةُ فرصةً لتنفيذ حكمهم فيه بالإعدام على جريمة قد اِرتكبها في فرعونيّ كان قد قتله على وجه الخطإ في خصومة له مع واحد من بني إسرائيل بوكزة من يده وكان موسى قد هرب خفية إلى مدين خوفا من أن ينفّذوا فيه حكمهم.

- قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ (15) :

وطُمْئِنَ بأنّه لن يصيبه أيُّ أذى من فرعون وَآله لأنّ الله تعالى حافظٌ له، وأُمِرَ بأن يذهب صحبة أخيه بمعجزتي اليد والعصا وبأمر الله، وطمأنه تعالى بأنّه سيكون معهما بالسمع لما يجري في مجلسهم، وبالتأييد وبإلهامهما بالحجج عند المجادلة.

- فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (16) أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ (17) :

وأمره تعالى أن يذهبا إلى فرعون ليقولا له بأنّهما رسولان من عند ربّ العالمين بأمره بأن يرسل معهما بني إسرائيل وبأن يسرّحهم، وأن لا يمنعهم من الخروج معهما.

- قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ (18) :



وحين بلغت فرعون وملأه الرّسالة، أَبَى فرعون إلاّ أن يذكّر موسى بفضائله عليه قصد إشعاره بجحوده في إنكار جميل من أحسن إليه زمن ضعفه وصباه وزمن نشأته وتربيته، وقَصَدَ لَمْزَهُ في خلق الوفاء عنده، وقصد تحقيره فقال له: أنسيتَ فضلنا عليك حين ربّيناك وليدا رضيعا وصبيا، ونشأت فينا وفي بيتنا سنوات من عمرك تنعم بما ننعم به. والاستفهام يفيد اللّوم والعتاب.

- وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (19) :

ثمّ ذكّره بما هو من أكبر فضائله عليه حين قتل المصري القبطي فكان من الظالمين المتجاوز حدّه في التّعدّي على أحكام العُرفِ عندهم، ولكنّ فرعون تجاوز عن تنفيذ حكم القتل فيه، وهي مَكْرَمَةٌ عظيمة لا يجب أن تُنسى. وفي هذا التذكير لَمْزٌ آخر في خُلقه.

- قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ (20) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (21) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (22) :

لقد حوّل فرعون بما قاله موضوع الجلسة عن المسار الذي جاء به موسى إلى موضوع خاص بعلاقة شخصيّة فيها نبز ولمز، وعلى موسى أن يردّه للغاية التي أرسل من أجلها فقال: أقرّ بما فعلت بالمصري الذي قتل خطأ عن غير عمد، وهو خطأ من العمل غير الصائب. وأُعترف أنّي فرَرْتُ خوفا من بطشكم، وقد أنعم الله تعالى عليّ بأن أكرمني بالنّبوّة والرّسالة، وجعلني من المرسلين. وبهذا ردّ موسى فرعون للحديث عن الموضوع الذي جاءه به. وأردف قائلا: وإنّك تمنّ عليّ بنعمة تربيتي عندكم، فهل يُبيح لكم هذا المنّ أن تقهر بني إسرائيل باتّخاذهم عبيدا لكم.

- قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (23) :

رُدّ موضوع الجلسة للمسار المراد، فسأل فرعون موسى أن يعرّفه بربّ العالمين؟ ما دلائل ربوبيته؟

- قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (24) :

قال موسى: هو سيّد خلق السماوات والأرض وما بينهما من فضاء رحب وما بينهما من موجودات إن كنتم تُعَايِنُونَ الموجودات المخلوقة فتعلمون أنّها ليست من خلقكم، ولكنّها من خلق الله العظيم.

- قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (25) :

قال فرعون لمن حضر في مجلسه من أفراد بطانته وآله: ألا تسمعون ما يقول من أمر عجب؟ وقصد من اِستفهامه التّعجّب ممّا يقول، لأنّ عقيدتهم أنّ فرعون هو ربّهم.

- قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (26) :

فأردف موسى قائلا: ربّ العالمين هو سيّدكم الذي خلقكم وخلق آباءكم وأجدادكم السابقين من قبلُ وهو الذي أماتهم ولم يردّ أحد عنهم الموت.

- قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ (27) :

وتملّك فرعون الغضب، وأحرجته إجابة موسى، ولم يجد حجّة يجادل بها سوى اِتّهام موسى بالجنون واِختلال مداركه العقلية.

- قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ (28) :

وأضاف موسى الذي أرسلني إليكم هو سيّد المشرق والمغرب وما بينهما فهو مالك الأرض كلّها إن كانت لكم عقول تدركون بها أنّ الذي أشرق الشمس من جهة فجعل تلك الجهة مشرقا، وجعل جهة غروبها مغربا هو الله الحقّ. وقصد موسى التّعريضَ بما يعتقده المصريون في ذاك الزّمان بأنّ فرعون إلاه ابن إلاه الشمس وبيان أنّ معتقدهم فاسد.

- قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ (29) :

واِزداد فرعون حنقا بما سمع من موسى، وشعر أنّ دعوته ستهزّ عرشه، وستذهب بعظمته وقداسته، وتفضح كذب دعوته بالرّبوبية، وهذا من أعظم الخطر على وجوده، وأعظم الجرم فأقسم على موسى بأنّه إذا اِتّخذ إلاها غيره ليحبسنّه في غياهب السجن فلا يخرج منه إلاّ ميّتا، فلا تعرف دعوته ذكرا، ولا نشرا.

وكذا يتصرّف كلّ حاكم مستبدّ مع صاحب كلّ صوت ورأي يبغي رفع كابوس الظلم، وإصلاح نظم الفساد. وحين يشعر الحاكم بأنّ سلطانه صار مهدّدا بالزوال فإنّه يسلّط أحكامه الجائرة على معارضيه بالقتل أو النّفي أو التغييب في السجون المظلمة مع ألوان من التّعذيب الوحشي لكتم الأنفاس، وقطع الألسن، وإخضاع الأعناق، ولإرهاب الموالين.

ولمّا كان الظلم في كلّ مكان وكلّ زمان مؤذنا بخراب العمران فإنّ التاريخ البشري يشهد بأنّ كلّ نظام حكم جائر مستبد قد اِنتهى إلى قيام فتنة عارمة دموية لم تخمد ولم تنفَرِجْ إلاّ بقتل الظالم أو بهروبه، وبزوال سلطانه وحكمه، وتقويض أركان الفساد والقهر.

- قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ (30) :

فقال موسى: أتأمر بذلك حتى وإن أظهرت لك شيئا واضحا يدلّ على صدقي، وقدرة ربّي؟

- قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (31) :

فأذن له فرعون بأن يستظهر به إن كان صادقا فيما يقول.

- فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ (32) وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ (33) :

فألقى موسى عصاه فإذا هي تتحوّل إلى ثعبان حقيقي يتحرّك، وأدخل يده في جيب صدره فإذا هي بيضاء البشرة ناصعة لامعة ليس فيها بَرَصٌ، وقد كان موسى أسمر البشرة.

- قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ (34) :

فلمّا رأى فرعون المعجزتين لم يَعتبرهما آيتين من آيات القدرة الرّبانية وآيتين تدلاّن على صدق نبوّة موسى وإنما رآهما من عمل السحر، فقال لأفراد حاشيته: إنّ هذا الرجل ساحر فنّان، ماهر وكثير العلم بفنون السّحر.

- يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (35) :

بعد أن نسب فرعون إلى موسى عدم الوفاء لمن أحسن إليه، واِتّهامه بالجنون والهذيان فيما يدعو إليه لعبادة الله دون فرعون، وبعد أن عمد إلى دحض حججه ودلائل صدقه بوصفه ساحرا بحضور مستشاريه من الموالين له خاطبهم قائلا: يريد هذا الرّجل أن يسحب منكم نفوذكم على بلادكم، ويخرج بني إسرائيل من البلاد، فبماذا تشيرون، وماذا ترون في الأمر؟

- قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ (36) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (37) :

وأشار عليه مستشاروه بأن ينظره وأخاه هارون حتى يرسلوا في جميع أنحاء البلاد في طلب أمهر السحرة وأبرعهم في هذا الفنّ ليناظروهما.

- فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (38) :

وكان الأمر على ذلك فجمعوا السحرة في موعد متّفق عليه (وكان يوم الزينة وهو يوم اِحتفال عند الأقباط).

- وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (39) :

ودُعي عامّة النّاس لحضور مشهد المناظرة ليشاهدوا ما يجري فيها – وكانوا يأملون أن يحضروا هزيمة موسى وأخيه حتّى يفضحا فلا يتّبعهما أحد، وبهذا لا يجد موسى وأخوه نصيرا ولا تابعا.

- لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ (40) :

وكان عامّة النّاس يأملون من حضورهم المشهد أن يتعلّموا شيئا من فنون السّحر من جمع السحرة وأن يكونوا من مواليهم.

- فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ (41) :

ولمّا حضر السحرة بين يدي فرعون سألوه هل سيكون لهم أجر ومثوبة عند تفوّقهم عليهما.

- قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (42) :

وطمأنهم فرعون على أجرهم، وزادهم مكرمة بأن وعدهم بأن يكونوا من المقرّبين منه، ومن الأثِيرين عنده.

- قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ (43) :

ولما اِنتظمت المناظرة، وحضر الجمع للمشاهدة قال موسى للسحرة: ألقوا ما أنتم ملقون من سحركم.

- فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ (44) :

وألقى السحرة حبالهم وعصيهم، وأقسموا بعظمة إلاههم فرعون وبقوّته بأنّهم هم الغالبون والمتفوقون، قسم الواثقين بأنفسهم وبمهارتهم في السحر.

- فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ (45) :

ورمى موسى عصاه فإذا هي تبتلع بقوة وسرعة حبالهم وعصيهم التي أوهموا بها النّاس أنّها تسعى كالثعابين، وما جرى أن يحدث شيء كهذا في فنون السحر مهما برعت.

- فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (46) قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (47) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (48) :

اِنبهر السحرة بما شاهدوا من أمر خارق، يستحيل أن يكون من عمل السحر والشعوذة، وعلموا أنّه من عمل قادر مقتدر فخرّوا سجّدا معلنين إيمانهم وتصديقهم بربّ العالمين: الربّ الذي يدعو إليه موسى وهارون. وكذا أقنعتهم المعجزة فانقلبوا من سحرة إلى مؤمنين على أعين النّاس وبحضور الأشهاد فرعون وملئه وجنده. أراد فرعون أن تكون هذه المناظرة بحضور الأشهاد فاضحة لموسى وهارون كي لا يكون لدعوته صدى ولا مجيبون، فانقلب السحر على الساحر وانقلب السحرة مؤمنين، وأمّا الأشهاد فانبهروا، وصاروا يتحدّثون بالواقعة ويشهرون فضيحة فرعون.

- قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ (49) :

بسجود السحرة لربّ موسى وهارون وبحضور فرعون وحضور الأشهاد كسب موسى التأييد الواسع لدعوته، ولحقت بفرعون وملئه الهزيمة من حيث أراد النّصرة، فاغتاظ الغيظ الشديد الذي دفعه لأن يتصوّر بأنّ مكيدة قد حُبِكت ضدّه من ورائه وضدّه، واتّهم جميعهم ومعهم موسى بالتآمر عليه، وحكم على السحرة بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ثمّ يصلبون ليكونوا عبرة لمن وراءهم ممن تحدّثه نفسه الخروج عن طاعته. وكذا يفعل كلّ طاغية، يضرب بقوّة وبسرعة ليرهب كلّ معارض ليطمئن على عرشه وحكمه ومصالحه.

- قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (50) إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (51) :

وقذف الله تعالى في قلوب السّحرة لمّا آمنوا حلاوة الإيمان، وأنزل عليهم السكينة، فلمّا علموا بحكم فرعون فيهم لم يجزعوا، ولم يرهبوا، ولم يضعفوا، ولم يرتدّوا بل قالوا: لا بأس، ولا ضرر علينا فيما قضيت فينا، فإنّا راجعون إلى ربّنا حتما، وإنّا لنرجو من الله عزّ وجلّ أن يغفر لنا جميع ما أسلفنا من الذنوب والخطايا لسَبْقِنا للإيمان به عزّ وجلّ، فقولهم (أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ) لا يعني ترتيبهم، فقد سبقهم جمع كبير من بني إسرائيل في الإيمان بموسى وبرسالته وفي الإيمان بربّهم، ولكنّهم قصدوا أنّهم لمّا رأوْا معجزة ربّهم آمنوا، واِستجابوا لربّهم سريعا، ولم يرتابوا، ولم يتردّدوا، سارعوا للإيمان بربّهم قبل أفراد الجمع الحاشد.

- وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (52) :

وجرت أحداث كثيرة بعد هذه المناظرة ورد عرضها في سور أخرى، وإزاء تمسّك فرعون برفضه الجازم لتسريح بني إسرائيل من الاستعباد، والترخيص لهم للهجرة من مصر لبلد آخر خارج عن نفوذه، أمر الله سبحانه موسى أن يخرج بعباده المؤمنين في آخر الليل من مصر، وأوحى إليه أنّهم سيكونون مُلاحَقين من فرعون وجنده، وذلك حتّى لا يجزعوا من هذه الملاحقة ولا يخافوا.

- فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ (53) إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ(54) وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ(55) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ (56) :

حين خرج موسى بأتباعه، وبلغ فرعون هذا الخبر، رأى في هذا الخروج الذي لم يأذن به، ولم يرخّص فيه عصيانا، وخرقا لأمره، فأمر بإرسال الجند في كلّ المدن والقرى لتعقّبهم والتعرّض لهم لمحاصرتهم، وإيقافهم عن المسير، ووصفهم بأنّهم طائفة قليلة خارجة عن النّظام، وأشعرهم بأنّهم قد أثاروا بهذا الخروج غضب فرعون الشديد، وأمر بحمل السلاح لملاقاتهم وللاحتراز من مكرهم، ومثل هذا الأمر يبيح للجند قتل كلّ من يحاول الإفلات من أمرهم، وكلّ من لا يمتثل للأمر طواعية وسريعا بغير جدال.

- فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ (57) وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ (58) كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ(58)

وكذا تمّ إخراج بني إسرائيل من بساتين، وآبار كانوا منها يشربون ويسقون، تاركين وراءهم ثرواتهم الضخمة المدّخرة، ومساكنهم ذات المقام المرفّه كذلك، وكانوا قد ورثوها من سابقيهم لَمّا دخلوا مصر في عهد يوسف.

- فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ (60) :

ولحق بهم فرعون وجنده عند شروق الشمس وهم متّجهون صوب الشرق، صوب البحر.

- فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ **(61)** :

ولمّا بلغ فرعون قرب جموع بني إسرائيل بحيث يرى كلّ فريق الآخر خاف أصحاب موسى على أنفسهم من الهلاك، وقالوا: لقد لحقوا بنا وأدركونا، وإنّا لمُهلكون.

- قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ **(62)** :

فطمأنهم موسى على أنفسهم وقال لهم: لن يدركونا، ولن يصلوا إلينا بشيء، إنّ معي ربّي سيرشدني لطريق النّجاة والإفلات منهم.

- فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ **(63)** :

فأوحى الله تعالى إلى موسى بأن يضرب البحر بعصاه وأن يدخله مع قومه سيرا. فلمّا ضرب موسى البحر بعصاه اِنشقّ البحر وفتح لهم مسلكا يابسا للسير، وعلى جانبي المسلك اِرتفع ماء البحر حتى كان كلّ جانب كالجبل الخضم المرتفع. وهذه معجزة من معجزات موسى العشر.

- وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ **(64)** :

ولحق فرعون وجنده قوم موسى، وسلكوا المسلك الذي سلكه بنو إسرائيل.

- وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ **(65)** :

وبلغ موسى ومن معه من أتباعهم ضفة البحر في الجهة المقابلة، فنجوا أجمعين من ملاحقة فرعون وجنده.

- ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ **(66)** :

فلمّا خرج موسى وأتباعه من البحر أطبق الله تعالى فرقي البحر اللّذين كانا كالجبلين العظيمين على فرعون وجنده فأغرقهم جميعا في عمقه، ولم ينج منه أحدٌ.

- إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ **(67)** :

إنّ في ما حدث عبرة وعظة ليعلم النّاس أنّ الله تعالى ناصر عباده المؤمنين ومنجيهم من المهالك وحافظهم، وأنّه تعالى ذو اِنتقام من الذين يؤذون المؤمنين، ومهلكهم من حيث لا يشعرون ولا يتوقّعون منه بأسا، غير أنّ أكثر النّاس غير مقتنعين بهذا الأمر وهم غافلون عنه.

- وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ **(68)** :

وإنّ الله عزيز لا يُغلب على أمره، ولا يُردّ بأسه عن الذين ظلموا وكانوا كافرين، وهو سبحانه كثير الرّحمة بعباده المؤمنين: ناصرهم، وهو وليّهم.

- وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ **(69)** :

هذه إلى غاية الآية 89 في خبر إبراهيم عليه السلام مع قومه وفي أدعيته الصالحة. والمعنى: واِقرأ عليهم خبر النّبيّ الرّسول إبراهيم.

- إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ (70) :

وأُذكر إذ سأل أباه وجمعا من قومه عمّا يعبدون، وإِستفهامه للاستغراب من عبادتهم للأصنام والأوثان.

- قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ (71) :

فأجابوه بأنّهم يعبدون أصناما يقيمون على عبادتها وخدمتها وصيانتها.

- قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ (72) أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ (73) :

فسألهم هل تسمع تلك الأصنام أدعيتهم، وتستجيب لها وهل تسدي لهم نفعا، أو تدفع عنهم ضرًّا. وإِستفهامه هذا للاستغراب وللتنبيه لعيب في الأصنام، وفي التنبيه حرج لهم لأنّهم جميعا يعلمون أنّ الأصنام لا تسمع ولا تُجيب، ولا تنفع ولا تضرّ لأنّها حجارة صمّاء. وهذه صفة تتنافى مع إِستحقاق الألوهية.

- قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ (74) :

ولم يكن لقومه أيّ حجّة سوى أنّهم عبدوها تقليدا لآبائهم فيما كانوا يفعلون، فهي عبادة من التقليد الأعمى.

- قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ (75) أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (77) :

قال إبراهيم: فاعلموا أنّي مُعَادٍ لما تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون، وأنّي رافض لتقديسها، لا أعبد ولا أقدّس إلاّ ربّ العالمين الذي خلق هذا الكون وهذا الوجود.

- ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ (78) :

إنّي لا أعبد إلاّ الذي أوجدني وأخرجني لهذه الحياة وخلقني خلقا سويا، وهو الذي يرشدني لمعرفة الحقّ والصواب، ولما ينفعني في حياتي.

- وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ (79) :

والذي هو يرزقني لأُطْعَمَ وأشرب، وهذا ما لا تفعله أصنامكم.

- وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ (80) :

قال (وَإِذَا مَرِضۡتُ) رعاية للأدب، وإلاّ فإن ما يصاب به المؤمنون من أمراض فإنّه من قضاء الله، والشفاء من الله عزّ وجلّ من لطفه، فهو اللطيف وهو الشافي.

- وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ (81) :

والله ربّ العالمين الذي أعبده والذي خلقني ثمّ الذي يميتني، والأصنام لا تشفي من الأمراض ولا تُميت، ثمّ هو الذي يحييني بقدرته بعد موتي حين يشاء، وهذا معنى جديد لم يألفه عبدة الأصنام.

- وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ (82) :

والذي أرجو أن يستر عنّي خطاياي فلا يؤاخذني عليها يوم الحساب والمجازاة، وهذا أمر جديد يخبر به إبراهيم قومه، وما كانوا يعلمونه.

- رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ (83) :

ربّ اِمنحني النّبوّة والحكمة في القول والعمل، واِجعلني في عداد عبادك الصالحين والمرسلين إلى خلقك.

- وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ (84) :

واِجعل لي من بعد موتي ذكرا حسنا، وثناء جميلا في النّاس وفي الأمم الذين يأتون من بعدي بما تركت فيهم من سنّة وطريقة في طاعتك وحدك يا ربّ العالمين، وفي المداومة على عبادتك وحدك دون سواك لأنّك الله الحقّ، وفي تعظيم ذكرك والثناء عليك لأنّك ذو الفضل العظيم، الحميد، المجيد، وفي تخصيصك وحدك بدعائي لأنّك السميع المجيب.

- وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ (85) :

وخُصّني بمقام في جنّة التكريم والتّنعّم بخيراتها كما يتمتّع الوارث بإرث غيره، ويفرح به ويَسُرُّ، ولم يشقَ في ملكيته، وإنّما ملّكه الله بما قضاه له، وهذا كالقول: أدخلني الجنّة يا ربّي برحمتك، لا بعملي.

- وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ (86) :

ودعا إبراهيم لأبيه بالمغفرة وإن كان من الذين عبدوا الأصنام، وذلك وفاءً بمَوْعِدَةٍ وَعَدها إيّاه، ومن هذا نستفيد بأنّ الدعاء للوالدين بالمغفرة من سنّة الأنبياء والمرسلين كذا دعا نوح من قبل لوالديه، ومن المُستفاد أيضا أنّه لا يجوز سبّ الوالدين مهما كانا عليه من سوء الطبع، فإنّ هذا من أسوإ مظاهر العقوق، ولا يجوز كذلك عند المخاصمة سبّ والدي الطرف المقابل مهما بلغت حدّة الخصام.

- وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ (87) يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ (89) :

هذه الآي خاصة بالدعاء للنّجاة من شدّة الموقف عند العرض على الميزان للحساب عن الإيمان وعن الأعمال. والمعنى: ولا تفضحني يوم البعث بكشف سيّئات أفعالي، اُسترها عنّي، كفّر عني سيّئاتي، ولا تلجئني لغيرك، لا منجى منك إلاّ إليك، ولا ملجأ منك إلاّ إليك، ففي ذاك اليوم لا ينفعني ما كسبت من مال، ولا ما عندي من أولاد لأفتدي بهم من عقابك وعذابك، إنّه يوم لا ينفع فيه إلاّ من جاءك بقلب نقيّ من الشّرك والشّكّ والنّفاق، فطهّر قلبي من كلّ رجس، واِجعله نقيّا من كلّ الخبائث القلبية لأفوز برضاك وبرحمتك وبجنّتك، وبالنّجاة من العقاب والعذاب.

- وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (90) :

هذه الآية إلى الآية 104 في الوعد والوعيد للترغيب في الإيمان، وللتّحذير من عاقبة الشرك وإتيان المعاصي. وقد جاءت إثر أدعية إبراهيم في طلبه الفوز بنعيم الله المخلّد، وهذا من حسن الرّبط بين موضوعين مختلفين، وهو ما يُعبّر عنه في فنّ أسلوب الكتابة بحسن التّخلّص حتى لا يشعر القارئ بفصل واضح بين الموضوعين المختلفين، وهذا من الفنون الإبداعية.

والمعنى: وقُرّبت الجنّة من المتقين الذين كانوا يطمعون في رحمة ربّهم، وكانوا يخشون معصيته وغضبه حتى يروا نعيمها، ويستبشرون بالإقامة فيها.

- وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (91) :

وجعلت جهنّم ظاهرة للعيان، بما فيها من وسائل تعذيب للذين أغوتهم الشياطين وزيّنت لهم الكفر وإتيان المعاصي.

- وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (92) مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (93) :

وقيل للكافرين يومئذ أين آلهتكم التي كنتم تعبدون من دون الله لتنقذكم من الإيواء في هذا الجحيم، وفي هذا العذاب، فهل تستطيع أن تدفع عنكم هذا العذاب، أو تشفع لكم منه فتُشفّع.

- فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ (94) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (95) :

فرُميت الأصنام على وجوهها في النّار بعضها على بعض مكبوبة ومعها عبّادها ومع جمعهم أتباع إبليس أجمعون.

- قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (96) :

وكانوا في حالتهم تلك يتلاومون بشدّة إلى درجة العراك والمخاصمة الحادّة، وهذا من حرقة النّدم.

- تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (97) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (98) :

وأقرّ عبّاد الشياطين بأنّهم كانوا حائدين عن الصواب بعدا واضحا حين اتّبعوا وساوس شياطينهم، وحين اِتّبعوا زعماءهم في الشرك فيما كانوا يعبدون ويفعلون. وإقرارهم هذا بضلالهم يدلّ على توبيخهم لأنفسهم، وعلى شعورهم بندمهم العميق على غفلتهم وعمى بصيرتهم في تسويتهم لربّ العالمين بما لا يستحقّ أيّ شأن من شؤون الألوهية.

- وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ (99) :

وما أبعدنا عن الحقّ إلاّ إبليس، وزعماء الشّرك العتاة، والكهنة، وخدمة الأصنام.

- فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ (100) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (101) :

فليس لنا اليوم أيّ شافع: لا عبادة، ولا تصديق بالله، أو برسول، ولا عمل صالح ليشفع لنا بين يدي الله تعالى من العذاب، وليس لنا قريب مشفق علينا من العذاب فيتشفّع لنا منه. قد خسرنا آخرتنا.

- فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (102) :

وتمنّوا لو تكون لهم رجعة للحياة الدنيوية ليكونوا من المؤمنين الصادقين غير الضالّين، ولكن هيهات.

- إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ (103) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (104) :

إنّ فيما تقدّم ذكره عظةً وعبرةً لمن يسمع ويتدبّر، ولمن يحكّم عقله ورشده، ولكنّ أكثر المشركين معاندون، ولا يصدّقون. وإنّ ربّك – يا محمد – قادر على أن ينزل بهم العذاب لأنّهم شاقّوك بالتكذيب وبالهزء، وإنّه رحيم بعباده يمهلهم حتى تقوم على الكافرين الحجّة، أو يَرْشُدُ الراشدون منهم فيؤمنوا وتخبت قلوبهم، ورحيم برسله وبالمؤمنين بنصرهم على أعدائهم الكافرين. ومثل هاتين الآيتين في الصيغة قد تكرّر وِردهما. ذكر ابن عاشور في تفسيره (ج19 ص91) في تعليقه على هذا : "ختم كلّ اِستدلال جيء به على المشركين المكذّبين بتذييل واحد هو قوله تعالى : (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ) تسجيلا عليهم بأنّ آيات الوحدانية وصدق الرّسل عديدة، كافية لمن يتطلّب الحقّ ولكنّ أكثر المشركين لا يؤمنون، وأنّ الله عزيز قادر على أن ينزل بهم العذاب، وإنّه رحيم برسله فناصرهم على أعدائهم".

وقال الزمخشري في تفسيره الكشّاف في تعقيبه على الآيتين: كلّ قصّة من القصص المذكورة في هذه السورة كتنزيل برأسه، وفيها من الاعتبار ما في غيرها، فكانت كلّ واحدة منها تُدلي بحقّ، وكلّما زاد ترديدهُ كان أمكن له في القلب وأرسخ في الفهم، وأبعد عن النسيان، ولأنّ هذه القصص طُرقت بها آذانٌ وُقِّرتْ عن الإنصات للحقّ فكُوثِرَتْ بالوعظ والتذكير ، ورُوجعت بالترديد والتكرير لعلّ ذلك يفتح أُذُنا أو يَفْتِقُ ذِهْنًا".

- كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (105) :

هذه الآية إلى غاية الآية 122 في قصة دعوة نوح لقومه لتقوى الله وللإيمان به دون سواه.

(كَذَّبَتۡ) فعل في صيغة التأنيث، و(قَوۡمُ نُوحٍ) مذكّر. والتقدير: كذبت جماعة قوم نوح (ٱلۡمُرۡسَلِينَ)، وجاء هذا اللفظ في صيغة الجمع، لأنّ من كذّب برسول من رسل الله فكأنّما كذّب بجميع المرسلين لأنّ الذي أرسلهم هو الله وحده، وجميعهم صادقون في دعوتهم، وجميعهم يصدّقون بمن قبلهم، وبمن يأتي من بعدهم. ومن تمام الإيمان: الإيمان بجميع الرسل.

- إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (106) :

وأُذكر إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تخشون ربّكم الحقّ حين تعبدون غيره، وتشركون به أصنامكم وآلهتكم التي تدّعون. وأُستعمل لفظ (أَخُوهُم) للدلالة على نَسَبِهِ مِنْهم، وليست هذه من الأخوة في الدِّين.

- إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) :

قال لهم إني لكم رسول من عند الله، صادق فيما يبلّغكم به من عنده، لا أكذب، أنقل إليكم شرعه ومواعظه بأمانة، وقد كان قومه يعرفون صدقه وأمانته بمثل ما عرفت قريش عن النبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم.

- فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (108) :

فاخشوا عقاب الله تعالى في عبادتكم للأصنام، وأطيعوني فيما آمركم به من الإيمان بالله وحده، والعمل بشرعه، وتخصيصه وحده بالعبادة والطاعة والدعاء.

- وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (109) :

ولا طمع لي في مالكم، ولا زعامة أو جاه، وإنّما أطلب جزائي على ما أدعوكم إليه من حسن الإيمان وصدق الطاعة من عند ربّ العالمين الذي خلق هذا الوجود كلّه وأبدعه ومَلَكَهُ.

- فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (110) :

تكرّرت هذه الدعوة للخشية من عذاب الله والدعوة لطاعته للتأكيد عليها، وللإلحاح عليها.

- قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ (111) :

وقال له أشراف قومه: أنصدّق بدعوتك والحال أنّه لم يَتْبَعْك إلاّ الفقراء من النّاس والضعفاء والأدنى منزلةً فيهم، أتريد أن نكون منهم ومن مثلهم. وهذا من كبريائهم. وما أبشع الطبقية في المجتمع الإنساني، وتقسيم النّاس في المجتمع الواحد إلى طوائف وطبقات فيهم من يُنْسب لصفة علوية من مثل طبقة الباشوات أو البايات، وفيهم من يُنسب إلى نسب سوقية، أو إلى نسب مِهنية، وليس في أي مهنة يدويّة أيّ عار في الانتساب إليها، وقد تولّدت العروشية والقبلية من هذا التقسيم، وفي الإسلام: إنّما المؤمنون أخوة، وكلّكم من آدم، وآدم من تراب.

- قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (112) :

وكان جواب نوح: ليس لي عِلمٌ بما كانوا عليه من قبل، وبما كانوا يعملون، هم الآن مؤمنون، أتباع لي.

- إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ (113) :

وأمّا تقدير أعمالهم فهو من شأن الله عزّ وجلّ، لا دخل لي فيه، ولا أعرف كيف سيكون حسابهم. ولو أنّكم أدركتم أنّ حسابهم عند ربّهم الذي يؤمنون به ما عيّرتموهم بصنائعهم ولا بِقَدْرِهِم عندكم. هم عند الله عبَادُهُ أمثالكم.

- وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (114) :

ولن أطرد من حولي المؤمنين بالله تعالى وبرسالتي إرضاءً لكبريائكم.

- إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ (115) :

إنّما جئت لأحذّركم من بطش الله إن كفرتم وعصيتموه.

- قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ (116) :

ورغم المشاقّة التي لقيها نوح من قومه من تحقير لأتباعه لصدّه عن دعوته، وصدّ النّاس عن اِتّباعه إلاّ أنّ نوحا ثابر على تبليغ ما كُلِّفَ به من ربّه لإرشاد النّاس للاهتداء لعبادة ربّهم الحقّ وطاعته دون سواه ممّا أشركوا به باطلا وكفرا. ولمّا يئس القوم من إحباط عزائمه ليكفّ عن البلاغ عمدوا إلى تهديده بقتله رجما بالحجارة. قالوا له محذّرين وفي تهديد صريح لئن لم تَكُفَّ يا نوح عن دعوتك في ترك عبادتنا ونهينا عنها باستبدالها بعبادة الله الواحد الأحد لنقتلنّك رجما بالحجارة.

- قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ(117) فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ(118):

رأى نوح في تهديد قومه له بالقتل عَزْما جادًّا، فلم يجد بُدًّا من أن يتوجّه إلى ربّه ليرفع شكواه من المكذّبين الذين يتهدّدونه، وداعيا لأن يفتح له طريقا للفصل بينه وبين هؤلاء، ولأن ينجيَه وأتباعَه من المؤمنين من كيدهم وأذاهم. وجاء لفظ (فَتۡحٗا) الذي دعا به نوح في صيغة التنكير تأدّبا مع الله عزّ وجلّ لأنّه تعالى الأعلم بأفضل الطرق للنجاة من كيد الأعداء، والله سبحانه أعلم بما كان يدبّر القوم لنوح وأتباعه وبما كانوا يمكرون.

- فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ (119) :

فأنقذه الله تعالى ومن معه من أهله وأتباعه المؤمنين في السفينة المملوءة بالنّاس والدوّاب والمتاع. حملتهم أمواج البحر الهائج والفيضان الهادر بعيدا عن القوم.

- ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ (120) :

ولمّا بعدت السفينة عن مدينة القوم ومساكنهم أهلك الله المكذّبين الكافرين بالغرق في طوفان البحر وينابيع الأرض ومطر السماء ولم يبقِ منهم أحدًا، ولا أثرا.

- إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ (121) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (122) :

قد تقدّم بيان معنى الآيتين مع آيتي : 102 و103. والتكرار للتأكيد وللتحذير والإنذار.

- كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (123) :

كذّبت جماعة قوم عاد رسول ربّهم، وهم قوم هود، كانوا ذوي قوّة في الأبدان وكانوا أثرياء جدّا.

- إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (124) إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ (125) فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (126) وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (127) :

وأذكر إذ قال لهم واحد منهم يعرفون نسبه وأمانته وصدقه وهو "هود" عليه السلام ألا تخشون غضب ربّكم وعقابه إذ تعبدون غيره، وتشركون به ما لا حقّ له في الألوهية. إنّي لكم رسول من عند الله الحقّ لأبلّغكم رسالته بأمانة وصدق، فاخشوا ربّكم واعبدوه وحده وأطيعوني فيما أدعوكم إليه من العمل بطاعته وتشريعه ومواعظه. ولست أطلب منكم مالا ولا جاها فيما أدعوكم إليه لأنّ أجري وثوابي أطلبه من عند ربّي. والملاحظ أنّ هذه الآي مطابقة لما جاء على لسان نوح عليه السلام، وذلك للإشارة لوحدة الرسائل السماوية: مصدرها واحدٌ وغايتها واحدة وتوجّهها واحد، ولذلك فمن آمن بأحدهم آمن بجميع الرسل وبما جاؤوا به.

- أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعۡبَثُونَ (128) :

ولقد كان القوم أهل تفاخر وتنافس على مظاهر الفخامة والثراء، وقال لهم رسولهم: أتبنون بكلّ مكان مرتفع من الأرض وجميل بناءً عاليا شامخا يظهر من بعيد كأنّه قلعة أو علامة منتصبة تَلْهُون بها للتفاخر والتباهي، تبنونها بلا فائدة حقيقية مرجوة.

- وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ (129) :

كان العرب يسمُّون كلّ بناء ضخم "مصنعة". والمعنى: وتتّخذون حصونا وقصورا فاخرة وعظيمة كأنّكم ستخلّدون فيها، ولا تذكرون أنّكم ميّتون وستتركونها إرثا لغيركم.

- وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ (130) :

وإنّكم حين تسْطون، أو تنتقمون اِنتقمتم بشدّة وقسوة بلا رحمة ولا شفقة من جبروتكم وكبريائكم وتعاظمكم.

- فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (131) :

فاخشوْا الله تعالى فيما تعملون، وقُوا أنفسكم نقمته وعذابه وغضبه، واِسمعوا لي وأطيعوني فيما آمركم به من الطاعات، واِتّعظوا بما يعظكم به ربّكم.

- وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ (132) أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٍ وَبَنِينَ (133) وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (134) :

واخشوْا الذي أنعم عليكم بما أنتم فيه من الخيرات بالمداومة على حمده وشكره وبتجنّب معصيته. قد أنعم عليكم بثروة من الأنعام، وكثرة البنين، وأنعم عليكم بالبساتين المنتجة للثمرات والطيّبات وأجرى لكم الأنهار من عيون الأرض فسقاكم وسقى أنعامكم وروى أرضكم. فاشكروا له ولا تكفرون.

- إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ (135) :

وحذّرهم من عقاب الله المفاجئ إذا تمادوا في كفرهم وجحودهم، ذلك لأنّ عقابه إذا نزل بهم فإنّه يكون مهلكا لهم، لا يُبقي منهم أحدا، ولا يذر.

- قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ (136) :

فما كان جوابهم على تحذيره إلاّ أن قالوا له: الأمر عندنا سواء: تعظنا أو لا تعظنا فما نحن لك بمؤمنين، وما نحن بتاركي آلهتنا، وإنّا لا نسمع لك ولا نتبعك.

- إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ (137) :

هكذا كان حال من سبقهم من الأقوام مع رسلهم. كانوا معاندين، وكانوا يستخفّون بالوعيد، وكانوا يشاقّون رسلهم بالتكذيب. هكذا كانوا في سيرتهم مع رسلهم وأنبيائهم، وكذا كانوا يتعاملون مع رسائل ربّهم، ومواعظ رسلهم، فهم في هذا سواء.

- وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ (138) :

وإستخفّوا بالوعيد: وقالوا: لا يعذّبنا الله بما نقول، ولا يأتينا العذاب الّذي تهدّدنا به.

- فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ (139) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ(140) :

وكذّبوا بالوعيد، وبتحذير رسولهم فأرسل الله تعالى عليهم ريحا صرصرا عاتية سخّرها عليهم سبع ليال وثمانية أيّام حسوما فأهلكتهم وأبادتهم جميعا وخرّب عليهم ديارهم وقصورهم، وأنجى رسوله والمؤمنين معه قبل إرسال الريح على القوم إذ أخرجهم من تلك الأرض، وإنّ في ما جرى عليهم عبرة وعظة لمن يكذّب بالوعيد ولمن يصرّ على الكفر والمعصية. والله عزيز لا يُغلَب، ذو إنتقام من الكافرين، لا يُعجِزُه أن يهلكهم بعذاب، وهو تعالى رحيم بعباده المؤمنين يُؤَمِّنهُم على حياتهم من العذاب في دنياهم وآخرتهم.

- كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (141) :

كذّبت قبيلة ثمود رسولهم صالحا. ومن كذّب برسول فقد كذّب بجميع المرسلين.

- إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (142) :

وأذكر إذ قال لهم رسول الله إليهم "صالح"، وهو واحد منهم، ألا تخشون غضب الله تعالى إذ تشركون به، وتعصونه.

- إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ(143) فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (144) وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (145) :

وقال لهم بمثل ما قال نوح وقال هود لأقوامهما: إنّي لكم رسول من عند الله عزّ وجلّ، وإنّي صادق أمين فيما أبلّغكم به من رسالة ربّي إليكم، فاخشوا ربّكم، لا تؤمنوا بربّ سواه، ولا تعبدوا إلاها غيره، ولا تشركوا به أحدا حتى لا ينالكم غضبه وعقابه، وأطيعوني فيما آمركم به من طاعاته والعمل بشرعه. ولست أطلب بما أدعوكم إليه من الاهتداء لعبادة الله الحقّ ومن العمل بشرعه، والاتّعاظ بمواعظه مالا ولا جاها، ولا سلطانا، إنّما أحتسب أجري عند ربّي: ربّ العالمين.

- أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَا آمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (148) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (149) :

وقال لهم واعظا وناصحا: أتظنّون أنّكم ستظلّون على حالكم آمنين فيما أنتم عليه من النّعيم والحال أنّكم تكفرون بربّكم المنعم عليكم، وجاحدون لفضله. آتاكم بساتين فيها من كلّ الخيرات والثمرات، وعيون ماء لتشربوا، وتسقوا أنعامكم ولريّ أرضكم، وأنعم عليكم بمزارع تخرج لكم من جميع الحبوب والزروع لطعامكم، وواحات نخل حملُها يانع وناضج وثمرها ليّن ورطب. وتبنون بيوتكم في الجبال لتكون منيعة وحصينة من كلّ مكروه، وأنتم تسكنونها في نعيم ورفاه، فاشكروا الله ذا الفضل.

- فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (150) :

تقدّم تفسيرها مع الآتين : 110 و131.

- وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (151) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (152) :

ونصحهم صالح بأن يحذروا من طاعة أوامر المتجاوزين حدّهم في الكفر من زعمائهم وأشرافهم وخدمة الأصنام الذين يزينون لكم فعل المعاصي، وإتيان الشهوات، وكانوا طغاة ومجرمين، وقد قال تعالى فيهم في سورة النمل آية 48: (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ).

- قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (153) :

وما كان ردّ قومه على نصحه إلاّ باتّهامه في عقله بغلبة السحر عليه، سحرته الشياطين فصار يهذي.

- مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (154) :

لأنّهم ظنّوا أنّ رسول الله لا يكون إلاّ ملكا، وهو بشر مثلهم. وطلبوا منه أن يثبت لهم صدق نبوّته بأن يأتيهم بمعجزة ظاهرة.

- قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (155) :

وأخرج الله لهم ناقة من صخرة عظيمة من جبل تحت أنظارهم، ولم تخرج من بطن ناقة، وقال لهم صالح عندئذ ما أوحى به إليه ربّه: هذه ناقة الله، وهي آية من عند الله عزّ وجلّ، حافظوا عليها، واِجعلوا لها يوما لشربها ولا تشربوا معها في يومها، واشربوا في اليوم الموالي، يوم لوردها، ويوم لوردكم. وقد خرجت هذه الناقة عُشَراء ولم يقربها بعير فحل، وكانت تُحلب في يوم ورد القوم فكان لَبَنُها يسقي جمعَهم، وسبحان الله الذي لا يعجزه شيء ولا أمر.

- وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ (156) :

وحذّرهم صالح من أن يؤذوها بشيء : لا بركوب، ولا بضرب، ولا بتعطيلها عن شربها أو عن مرعاها خوفا من أن يصابوا بعذاب شديد في يوم نكير، يكون شديدا عليهم في قسوته.

- فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ (157) :

فتآمر عليها جمع من القوم من طيشهم، واِستخفافهم بالوعيد، فذبحوها، فلمّا أصبح القوم ندموا على ما فعله جمع من شبابهم الطائش، وكان ندمهم من خوفهم من أن يكون صالح صادقا في وعيده فيصيبهم المكروه، وربما كان ندمهم من حسرتهم على تفريطهم في مصدر غنيّ باللبن، ولم يكن ندمهم من خوفهم من عصيان أمر ربّهم.

- فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ (158) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (159) :

فعاقبهم الله تعالى على عصيانهم بعذاب الزلزال الذي رجّ بهم الأرض وأخذتهم الصيحة القويّة الشديدة التي أفزعتهم فهلكوا جميعا في ديارهم جاثمين من الفزع والخوف والرّعب. وفي ما جرى عظة للكافرين المكذّبين وإنّ الله تعالى غالب على أمره ورحيم بعباده المؤمنين لا يعذبّهم.

- كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (160) :

هذه إلى غاية الآية 175 في تكذيب قوم لوط لرسولهم.

- إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (161) إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ (162) فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (163) وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (164) :

هذه الآيات : 106 - 109، والآيات: 124-127، والآيات : 142-145 التي سبق بيانها، وغايتها بيان أنّ رسائل الرسل جميعهم تتّحد في دعوة النّاس لتقوى الله ونبذ الشرك، وفي الشهادة للرسل جميعهم بأنّهم صادقون وأمناء، وأنّهم لا يطلبون من أقوامهم في دعوتهم للاهتداء لربهم وللعمل بشرعه مالا ولا جاها.

- أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ (165) :

كان قوم لوط يمارسون الفاحشة مع الذكور، ويتركون ما أحلّه الله لهم من الزواج بالإناث.

وهي الفاحشة المسماة حديثا بالمثلية، وهي فاحشة محرّمة شرعا ومنكرة، وهي من عمل الشواذ جنسيا. ومن دواعي الاستغراب أن تنشأ في وسط مجتمع إسلامي جمعية للدفاع عن إباحة المثلية لممارسة هذا العمل المنكر الذي ينافي شهوة الفطرة، والذي يستقبحه الشرع، وتأباه النّفوس وتُرذِله، وذلك للخلاص من المؤاخذة القانونية والعقوبة الجزائية. ومن عجيب أعضاء هذه الجمعية أنّهم لا يتحرّجون عن الظهور في المنابر الإعلامية للدفاع عمّا يسمّونه حرّيتهم في الاستمتاع بأجسادهم على نحو ما يشاؤون بكلّ جرأة، ودون اِستحياء، وبوجوه مكشوفة، وعلى مرأى ومسمع من النّاس، وحقّا قيل: (إن لم تَسْتَحِ فافْعَلْ ما شِئْتَ).

- وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (166) :

وقال لهم رسولهم: وتتركون الزّواج من النّساء على ما فطر الله النّاس عليه اِبتغاء الولد في فراش الحلال المباح، بل إنّكم قد تجاوزتم حدّكم في المعصية، وفي الاعتداء على الفطرة وعلى شرع الله تعالى.

- قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ (167) :

وعلى عادة العصاة المذنبين المستكبرين المعاندين للنّصح والإرشاد إذا قام فيهم مصلح يدعوهم للرشاد ويفضح فساد رأيهم وعملهم فإنّهم يواجهونه بالتّهديد. كذا كان عمل هؤلاء مع جميع رسل الله، وهدّد قوم لوط رسولهم بنفيه من بلادهم وطرده منها.

- قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ (168) :

قال لهم لوط: إنّي مستنكر لعملكم، وكاره له، وإنّي من المبغضين له.

- رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ (169) :

ودعا ربّه أن ينقذه صحبة أهله ممّا يأتون من الفاحشة والمعصية.

- فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (170) إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ (171) :

فأنجاه الله تعالى صحبة أهله وأتباعه المؤمنين من القوم وذلك بأن أمره بأن يخرج ومن معه من القرية آخر الليل إلاّ اِمرأته قضى الله تعالى أن تكون من المعذّبين لأنّها كانت نصيرة لقومها ولم تكن مطيعة لزوجها، ولا مساندة له.

- ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ (172) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ (173) :

ولمّا خرج لوط ومن معه من القرية وبَعُدَ عنها أمطر الله تعالى القرية بالحجارة المدمّرة المهلكة فأبادهم جميعا. وساء مطر الذين أنذرهم لوط من عذاب الله تعالى فاستخفّوا به وسخروا من وعيده.

- إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (174) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (175) :

قد سبق تفسير الآيتين.

- كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (176) :

الأيكة هي الشجر الكثيف الملتفّ في مجتمع الماء، وهذا من بدائع صنع الله تعالى في الطبيعة. وأصحاب الأيكة هم أهل مدين، ورسولهم هو شعيب عليه السلام، وكانوا قد كذّبوا رسولهم لمّا جاءهم، وشعيب هو الذي آوى موسى لما هرب من مصر بعد قتله القبطي، ثمّ زوّجه اِبنته.

- إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (177) إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ (178) فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (179) وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (180) :

وجاءت دعوة شعيب لقومه لأن يتقوا الله، فلا يشركوا به أحدا، ودعاهم لأن يصدّقوا برسالته وليحذروا معصية ربّهم، ولأن يطيعوه فيما يأمرهم به من أوامر الله وشرعه، وفيما ينهاهم عنه. وذكّرهم بأنّه لا طمع له في مال، ولا جاه فيما يدعوهم إليه من صالح الدين والعمل. وفي هذا تتّفق دعوته مع دعوات جميع الرّسل الذين سبقوه.

- أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ (181) وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ (182) :

ولمّا كان القوم من أهل التّطفيف في الكيل والميزان، وهذا من ظلم النّاس في حقوقهم، ومن يفعل ذلك فكسبُه حرام لأنّه كسبٌ من الغشّ والغدر، نهاهم رسولهم عن الغش في الكيل، ونهاهم عن إنقاص النّاس في حقّهم باستعمال مكاييل غير عادلة، ودعاهم لأن يزنوا السلع بالميزان العَدْل الذي لا غشّ فيه ولا بخس.

- وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ (183) :

ونهاهم عن العبث بحقوق النّاس عند البيع والشراء، فلا يحطّ من قدر البضاعة المعروضة للبيع ليشتريها بثمن بخس وبأقلّ ممّا تستحقّ، وهذا ضرب من التحيّل والخبث. ولمّا كان فيهم قطّاع طرق، فقد نهاهم عن الإفساد في الأرض لغصْب أرزاق النّاس وعن ترويع المسافرين في تجارة أو غيرها.

وعملا بالقاعدة الأصولية في التشريع الديني: "شَرْعُ مَنْ قَبْلنا هو شَرْعٌ لنا"، فإنّ المسلمين معنيون بهذا النّهي عن التطفيف في الكيل، وعن الغشّ في الميزان، وعن بخس البضاعة والأرزاق المعروضة للبيع للحطِّ من قيمتها الحقيقية، وعن قطع الطرق عن النّاس لِسَلبهم، وهذا ممّا يُعرف حديثا "بالبراكاج". فهذا ضرب من اللصوصية ومن ترويع النّاس المسافرين أو المنتقلين من مكان لآخر فإنّ هذا العمل لا يضرّ فقط بسلبهم ما يملكون، ولكن يضرّ بصحتهم وبسلامتهم البدنية ويروّعهم: وقد جاء في الحديث الشريف : "لا تروّعوا المسلم، فإنّ روعة المسلم ظلم عظيم" (رواه الطبراني عن عامر بن ربيعة، وهو حديث صحيح، انظر فيض القدير للمناوي ج6

ص395 حديث رقم 9769). وعلى الدولة أن تتشدّد في معاقبة هؤلاء اللصوص: قطّاع الطرق لشناعة الجرم ولمؤثّراته السيّئة على أنفس الذين تعرّضوا لهذه الجناية، ولأنّه من الإفساد في الأرض، والإضرار بأمن البلاد.

- وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ (184) :

ودعاهم لأن يتعظوا بما جرى على الأمم الماضية وبالخلق السابقين الذين عصوْا رسلهم، وأصرّوا على معاصيهم، واِستخفّوا بالوعيد فأهلكهم الله تعالى بعذاب.

- قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ (185) وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ (186):

ولم يصدّق القوم به رسولا من عند ربّهم فيما أمرهم به، وفيما نهاهم عنه، بل اتّهموه بأنّه يهذي بتأثير وقع سحر الشياطين عليه وعلى عقله. وجاهروه بأنّه من الكاذبين بدعوى أنّه إنسان مثلهم لا يتميّز عليهم بشيء، فإنّ رسول الله عندهم لا يمكن أن يكون من جنس البشر، شأنهم في هذا شأن جميع الكافرين المكذّبين مع رسلهم حينما يدعوهم لما يخالف أعمالهم وعاداتهم في العبادة وحينما يحذّرهم من التّمادِي في معاصيهم.

- فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (187) :

وتحدَّى القوم تحذير رسولهم والوعيد فقالوا: إنّا لا نسمع لك ولا نصدّقك وإن كنت تهددنا بعذاب من السماء فأسقط علينا قطعا منه إن كنت صادقًا في هذا التحذير وطلبوا هذا الطلب لاستبعادهم وقوعه.

- قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ (188) :

فكان جواب شعيب أنّ الله عزّ وجلّ عليم بما تقولون وبما تعملون، والأمر إليه سبحانه.

- فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ (189) :

فأهلك الله القوم بنشر غمامة كبيرة اِستظلّوا بها من حرّ الشمس فأحرقتهم بحرّها وأخمدت أنفاسهم اِختناقا فماتوا يلهثون مُحرقين بالحرّ، فكان عذابا مهلكا في يوم شديد البأس بحرّه وانقطاع الهواء.

- إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ (190) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (191) :

تقدّم بيان الآيتين فيما سبق.

- وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ (193) عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ (195) :

هذه الآي إلى غاية الآية 213 في التنويه بشأن القرآن. وهذه الآي في التأكيد على أنّه تنزيل من ربّ العالمين، وهذا للردّ على المكذّبين به. والمعنى: إنّ هذا القرآن الذي تقرأه على النّاس



وتبلّغهم به تنزيل من لدُن ربّ الوجود كلّه بملكوتيه: العلوي والسفلي. نزل به ملك الوحي: جبريل عليه السلام، وهو الملك الأمين الذي ينقل أمر الله تعالى ووحيه بإذنه على نحو ما أمر بنقله بأمانة وثبات. نزل به (عَلَىٰ قَلْبِكَ): القلب هنا لا يعني العضو المعروف في الإنسان، وإنّما يعني ملكة الإدراك والحفظ وقبول المعلومات، وملكة تلقي الوحي الإلاهي في قوّة بألفاظه (أُنظر مفاتح الغيب للرازي، وأُنظر كتاب وهبة الزحيلي في التفسير، وكتابنا: تنوير المستنير)، (لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ) لتكون بما جاء فيه رسولا من عند الله عزّ وجلّ مثل من سبقك من الرّسل، ومن المحذّرين للكافرين والعصاة بما جاءك فيه من الوحي من عقاب الله الشديد.

وقد نزل عليك بلغة عربية فصيحة بليغة ليفهمها قومك، لئلاّ يقولوا لسنا نفهم ما تقول. وفي هذا فخرٌ لكلّ عربي يتكلّم بهذا اللسان. وقد كتب شيخنا محمد الطاهر ابن عاشور في تعقيبه على هذه الآية فصلا في خصائص اللّغة العربية، وفي فضيلة إختيارها لأن تكون هي لغة كتابة القرآن يحسن الرّجوع إليه لعُمقه في بيان تلك الخصائص، وهو فصل يجدر الإطلاع عليه لجودته، وإفاداته (ج9ص190) وقد أوردنا هذا الفصل في كتابنا (التنوير المستنير ج5 ص362-363). ولمّا كان نزول القرآن بلسان عربيّ مبين، وجب على كلّ من يتصدّر لبيان معاني القرآن أن يكون من أهل العارفين بفقه اللّغة وأساليب بيانها، وقد اتّفق علماء التفسير على اشتراط العلم باللّغة وفنونها شرطا أساسيا في المفسّر ليكون قادرا على حسن فهم الآي (انظر مقدمات كتاب التحرير والتنوير لابن عاشور – وكتاب علوم القرآن للسيوطي، ومقدمة كتابي تنوير المستنير).

ومن المؤسف أن نرى في أوطاننا العربية إضرارا بلسانهم العربي الفصيح الذي شرّفه تعالى بأن جعله لغة كتابه المهيمن. من هذا الإضرار حشْوُ هذه اللّغة بمفردات دخيلة عليها حتّى امتزج لسان المتحدّث بها بين ما هو عامّي، وما هو أجنبي. وحدّث – ولا حرج – في ما يُكْتَبُ بها في الرّسائل القصيرة عبر الهواتف الجوّالة، ولا تسَلْ عن وفرة الأخطاء الرّسمية في كتابتها في اللوحات الإشهارية. وإنّ من الخطباء على المنابر الجمعيّة، أو الإعلامية، أو في الاجتماعات العامّة من يلحن في إعراب مفرداتها، وفي علامة عين الأفعال ما يجعل سامعهم يندب حظّ هذه اللّغة في سادة قومها وعند أهلها.

وقد سبق أن قامت دعوةٌ عند بعض كتاب القصّة والرّواية في أواسط القرن الماضي للكتابة باللّغة العامية، ولم يعلموا أنّهم بدعوتهم هذه – لو لم تفشل – لساهموا في تغريب العرب عن لغتهم وردّتهم كالأعاجم يقرؤون كتابهم بلسانهم دون أن يفهموا ما يقرؤون.

- **وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ (196) :**

وقد جاء خبر إنزال هذا الكتاب في كتب الرّسل السابقين.

قال تعالى : (يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ)(الأعراف الآية 157)

- أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ (197) :

ألا يكفي العرب واليهود والنّصارى جميعهم أن يشهد لهم علماء بني إسرائيل بصدق هذا التّنزيل، وبصدق نبوّة محمد ورسالته، فقد جاءهم في التّوراة والإنجيل صفات هذا النّبيّ، وخبر مجيئه وإرساله. وقد جاء في كتاب السيرة النبويّة من أحبار اليهود، ورهبان النصارى أنّهم قد تحدّثوا بأمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قبل مبعثه لمّا تقارب زمانه (الجزء الأول من السيرة النبويّة لابن هشام في فصول عديدة).

- وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ (198) فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ (199) :

الآيتان في فضح عناد المشركين، وإصرارهم على الكفر. هذا القرآن يشهد بفصاحته وأخباره بأنّه يستحيل على أي بليغ فصيح أن يأتي بمثله، وقد قرأه عليهم رجل منهم يعرفون أمانته وصدقه، ويعرفون أمّيته فلم يصدّقوه، وكذّبوا بالتنزيل، واتّهموه باختلاقه. ويشهد علماء بني إسرائيل: أحبار اليهود، ورهبان النّصارى بأنّه قد جاءهم في كتبهم التبشير بنبوّة رسولهم وبكتابه ليؤمنوا به، فلم يأخذوا بشهادتهم، وتركوها وراء ظهورهم، ولو جاءهم بهذا الكتاب رجل غير عربي فقرأه عليهم بغير لسانهم لقالوا لا نفقه ممّا يقول شيئا، وعندئذ لا يؤمنون. فهم في كلّ حال لا يؤمنون لإصرارهم على شركهم، وفي هذا تسلية للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حتى لا يهلك بحزنه وحسرته على قومه لأنهم لا يؤمنون بما جاءهم به.

- كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ (200) لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ (201):

ولقد أدخلنا العلم بهذا التنزيل في قلوب هؤلاء المشركين المكذّبين، ولكنّها تغلّفت بالعناد فتحجّرت عن الإيمان به. وإنّهم لا يؤمنون حتى يأتيهم العذاب الموجع ليعرفوا أنّه الحقّ من ربّهم.

- فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ (202) :

ولا يأتيهم العذاب إلاّ فجأة، فيباغتهم دون أن يشعروا بحلوله، ومن حيث لا يتوقّعون كي لا يحتاطوا له.

- فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ (203) :

الاستفهام في هذه الآية للالتماس، والمعنى: وحين يفاجِئُهم العذاب يلتمسون من الله الإمهال ليؤمنوا.

- أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ (204) :

هذه في الردّ على هزء المشركين بالوعيد، إذ كان بعضهم يقول للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم متى تأتينا بالعذاب الذي تتوعدنا به؟ وذلك لأنّهم كانوا يستبعدون حصوله، فجاءهم هذا الردّ: أهم

يستعجلون عذاب الله؟ والاستفهام للتّوبيخ لأنّ العاقل لا يتمنّى لنفسه أن يحلّ به عذاب، ولا يدلّ هذا الاستعجال إلاّ على شدّة الصلف والكبرياء وعلى تمكّن الكفر والعناد بالقلب.

- أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ (206) مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ (207) :

هذه في التّحذير من الاغترار بالإمهال. والمعنى: أخبرني إن تركناهم يتمتّعون بحياتهم مدّة طويلة، ثمّ جاءهم العذاب الذي كانوا يوعدون بسبب إصرارهم على الكفر والتكذيب. والغرض المقصود من هذا التذكير أن يعلم الإنسان بأنّ النّجاة من عذاب الآخرة لا يكون بما كسب في دنياه من متاعها ولذائذها، وإنّما يكون بما قدّم لنفسه لآخرته من عمل صالح في صدق إيمان ليُثاب عليهما بالفوز بالنّعيم، والأمان من العذاب.

- وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ (208) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (209) :

وإنّا لم نعذّب أيّ قوم إلاّ من بعدما أرسلنا إليهم رسلنا لتحذيرهم من الكفر والمعاصي ولإنذارهم بعذاب إن لم يؤمنوا. وما هذا إلاّ للتذكير والموعظة. وما كان ربّك بظلاّم للعبيد، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

- وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ (210) وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (211) إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (212) :

هذه في الردّ على الذين يتّهمون الرسول صلّى الله عليه وسلّم بأنّه من المسحّرين، وعلى الذين يرفضون الإيمان بأنّ القرآن تنزيل من عند الله عزّ وجلّ، وعلى الذين يقولون بأنّ ما يأتي محمّد من قول هو من إلقاء الشياطين. تنزّه الرّسول صلّى الله عليه وسلّم على الافتراء على الله تعالى. والمعنى: إنّ القرآن تنزيل من ربّ العالمين نزل به الروح الأمين على قلب محمّد صلّى الله عليه وسلّم لينذر به المشركين الكافرين ليستقيموا على الحقّ وعلى الصراط المستقيم، وليس من إلقاء الشياطين في نفس الرّسول، ولم تنزل به من السماء. ولا يجوز أن يكون القرآن كتاب الهدى والموعظة الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يكون من إلقاء الشياطين، لأنّ الشياطين لا تأمر بالمعروف ولا تنهى عن المنكر، وإنّما هي تزيّن المعاصي وتأمر بالفواحش والمنكر والكفر على عكس ما جاء به القرآن، ولا يمكن أن يكون من تنزيلها لأنّ الشياطين موعودة في هذا التنزيل بأشدّ العذاب وملعونة هي وأتباعها. ونفوس الشياطين خبيثة كذا وصفها في القرآن، فكيف تلقي بقول يحذّر منها، ويستنكر أفعالها. ثمّ إنّ الشياطين مبعدة عن مكان التنصّت، فلا يصلون لمعرفة ما ينزل به الوحي لأنّ الملائكة محاطة به، ومحاطة باللوح المحفوظ، وبمكان

السمع. فهذا كتاب من عند الله عزّ وجلّ، نزل على رسول أمين، فيه هدى للنّاس، وتحذير من عمل الشياطين، قال تعالى (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ)(التكوير الآية 25-26).

- فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ (213) :

فلا تشرك – يا أيّها الإنسان – بالله إلاها آخر، ولا تعبد غير الله الواحد الأحد، ولا تطع غيره حتى لا تكون من المعذّبين في آخرتك، وآمن بالله واحدا أحدا، وآمن برسله، وبكتبه، وباليوم الآخر، وآمن بملائكته، واتّعظ بمواعظه، واعمل صالحا، ولا تتبع الهوى والشيطان.

- وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ (214) :

هذه مع ما يليها إلى الآية 220 في توجيه الرّسول في منهج تبليغه لرسالة ربّه. والمعنى: وابدأ بإنذار أقربائك، وأُدعهم للإيمان. وفي هذا تعريض لأقرباء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والأدنين من أهله إذ لم يراعوا حقّ القرابة، فلم يناصروه، ولم يصدّقوه، بل آذاه بعضهم وعادوه من مثل عمّه أبي لهب وزوجه وذرّيته، وضيّعوا في شرف الانتساب لأفضل خلق الله تعالى.

- وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (215) :

وتواضع مع المؤمنين، وتعامل معهم باللّين، واجبر خاطرهم تدعيما لإيمانهم، ومواساة لهم عمّا يلاقونه من ذويهم من أذى، فإنّ هذا أطيب لقلوبهم، وأكرم لإيمانهم.

- فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (216) :

فإن كذّبك أهل عشيرتك، ورفضوا أن يتّبعوا ما تدعوهم إليه، فأخبرهم أنّك بريء من شركهم، ومن معاصيهم، ولْيتحمّلوا سوء عاقبة أعمالهم.

- وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ (217) :

فاشرع في دعوة قومك للإيمان بالله الواحد الأحد، ولطاعته، ولنبذ الشرك، واِصدع بما تؤمر، واِستعن بالله في تبليغ رسالتك فإنّ الله عزيز غالب على أمره، وهو رحيم بعباده المؤمنين.

- ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ (219) إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (220) :

اِستعن بالله الذي يرى قيامك بالليل للصلاة، ويرى تنقلك من حال إلى حال في الصلاة مع المصلّين، ويرى إشفاقك عليهم من أن يلحقهم أذى عند صلاتهم من أعدائهم المشركين. فالله مطّلع على أحوالك جميعها، ولن يَترَكَ للأذى، فهو يحفظك، وإنّه تعالى هو الذي يسمع مناجاتك، ويعلم عزمك.

- هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ (221) :

هذه إلى غاية الآية الأخيرة في الردّ على شبهة المشركين في اِتّهام الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بأنّه شاعر أو كاهن، فالشاعر غير المؤمن يتبعه الشيطان، والشيطان يأمر بالمعصية ولا



يأمر بصالح الأعمال، ويقول الشاعر ما لا يفعل والرّسول صلّى الله عليه وسلّم ليس من الذين يقولون ما لا يفعلون. والمعنى: هل أخبركم على من تتّزل الشياطين؟ والاستفهام هنا للفت الانتباه للإخبار عن أمر.

- تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ **(222) :**

والشياطين لا تقرب المرسلين، ولا تقرب المطهّرين، وإنّما تنزل على كلّ من يكثر كذبه وافتراؤه على النّاس ودَجَلُه، وعلى كلّ من تكثر ذنوبه ومعاصيه. وهاتان صفتان في الكهنة لأنّهم يكذبون على النّاس ويدجّلون عليهم، ويبيحون لهم الآثام والمعاصي تغريرا، من مثل مسيلمة الذي ادّعى النّبوّة والوحي إليه، ومن مثل طُليحة، وسطيح بن ربيعة اللذين ادّعيا النّبوّة، وأباحا للنّاس ما حرّمه الله تعالى عليهم من مثل شرب الخمرة، ومن مثل الكاهنة سجّاح... وفي هذا تبرئة للرّسول صلّى الله عليه وسلّم من الكهانة.

- يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ **(223) :**

وهذه الشياطين تسترق لفائدة هؤلاء الدّجّالين السمع، ويتنَصّتون ويصغون بعناية لما يجري في السماء، ثمّ يلقون ما يتسمّعون في آذان أصحابهم، وأكثر هذه الشياطين كاذبون في ما يخبرون به أتباعهم الكهنة الكاذبين الآثمين. فما يقوله الكهنة كذب في كذب.

- وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ **(224) :**

والشعراء يميل إليهم أهل الغيّ، لا أهل الرّشاد والهدى. والرّسول صلّى الله عليه وسلّم ما هو بشاعر وإنّ أتباعه من أهل الاستقامة والرّشاد.

- أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ **(225) :**

ألم تعلم أنّ الشعراء يخوضون في كلّ فنّ من فنون الكلام، يمدحون الشيء أو الشخص ثم يذمّونه، وهم أهل خيال وأوهام، يفخرون بما ليس فيهم... والاستفهام للتذكير.

- وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ **(226) :**

وإنّ أحدهم يدّعي الشجاعة والبطولة وهو جبان، ويذمّ الآخر بخْلَ صاحبه وهو أشدّ بخلا منه، يحبّون صورة في خيالهم، أقوالهم لا تطابق أفعالهم، ويمتدحون من يطمعون في عطاياهم بما ليس فيهم اِستجداءً، ويسكتون عن قبائحهم. أمّا الرّسول صلّى الله عليه وسلّم فهو الصادق الأمين، وليس فيه من صفات الشعراء شيء.

- إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ **(227) :**



وليس من هذه الطائفة الشعراء المؤمنون العاملون الصالحات من حول الرّسول صلّى الله عليه وسلّم الذين يذكرون الله كثيرا بالصلاة والتسبيح والحمد والدعاء، الذين اِنتصروا للرّسول صلّى الله عليه وسلّم ولأنفسهم بالردّ على من هجاهم بالمِثْل من بعد ما سمعوا منهم ما يؤذيهم، وسيعرف هؤلاء الذين ظلموا المسلمين بالنيل من شرفهم وأخلاقهم أيَّ مآل شنيع سينتهون إليه بعد مماتهم، وفي هذا وعيد لهم عمّا كانوا يطعنون كذبا في شرف المؤمنين والمتقلب هو الانتقال من حال إلى ضدّها، قد كان شعراء الجاهلية الذين يهجون المسلمين لاهتدائهم يلهون ويمرحون ويطغون في دنياهم ولكنّهم في آخرتهم سيُذلُّون. ومن هؤلاء الشعراء الذين ردّوا على هجاء المشركين بالمثل شاعر الرّسول: حسّان بن ثابت، وكعب بن زهير، وكعب بن مالك الذي اِستأذن الرّسول صلّى الله عليه وسلّم في هجاء قريش فهجاهم، فكان هجاؤه لهم أشدّ عليهم من رشق النَّبْلِ.

رقمها	ســــــورة النمـــــل	آياتها
27	ـــــ مكيّة ـــــ	93

سمّيت هذه السورة بسورة "النّمل" لأنّها اِختصّت بذكر قصّة وادي النمل الذي كان في طريق جيش سليمان عليه السلام. وهي سورة مكيّة، وكشأن السور المكيّة فقد جاءت بالتنويه بشأن القرآن الكريم، وقد جاء فيها الدعوة للاعتبار بقصص بعض الأنبياء من الذين لم يذكروا في سورة الشعراء السابقة، وبخاصة قصتي داود وسليمان عليهما السلام. وفي عرض قصّة سليمان في هذه السورة ما يشهد بعظمة ملكه، فقد عُلِّم منطق الطير، وكان جنده من الإنس والجنّ والطير. وقد اِمتدّ ملكه إلى مملكة سبإ، وفي السورة آيات دالّة على عظمة ملكه. وجاء في السورة عرض لآيات من خلق الله للشهادة له بالألوهية والعظمة، وآيات عظمته، وآيات تدلّ على حسن التدبير، وعلى فضائل الإنعام وذلك لنبذ الشرك، وللإيمان بالله وحده. وفيها آيات لإثبات البعث والحشر، وآيات للموعظة في الوعد والوعيد، وآيات لتسلية الرسول صلّى الله عليه وسلّم ليمضي في دعوته دون أن يحزن.

ومن الخصائص المميّزة لهذه السورة أنّها في منهج سياسة الدولة بامتياز، وفي سياسة العلاقة بين الدول المجاورة.

- طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ (1) هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ (2) :

الآيتان إلى غاية الآية السادسة في فضيلة القرآن الكريم. والمعنى: إنّ آيات القرآن الكريم التي يضمّها كتاب موضّح للحقّ وللصراط السويّ في الإيمان والدّين، والمبيّن لشرع الله الحكيم، هذه الآيات ترشد للصواب، وتبيّن بالدلائل والحجج الحقّ، وتدلّ على الباطل ووجوهه، وفيها بشائر للمؤمنين بالوعد الحسن الذي يمنحهم الأمان من العذاب، ويبشّرهم بالفوز بالنعيم المخلّد في آخرتهم.

- ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ (3) :

المؤمنون المبشّرُون بالأمان من العذاب، وبالفوز بالنّعيم المخلّد في الآخرة هم الذين يحافظون على أداء الصلاة في أوقاتها تعظيما لله تعالى وطاعة له ولطلب التقرّب إليه، وهم الذين لا يبخلون بما أمرهم الله تعالى من إخراج الصدقة المفروضة لأصحابها لتجسيم تآزر المؤمنين وأُخُوَّتِهم الإيمانية حتى لا يجوع فيهم فقير ولا مسكين أو يعرى. وهم الذين يؤمنون إيمانا ثابتا قويا وصادقا بوقوع البعث والقيام للحساب بين يدي الله تعالى يوم القيامة. فالإيمان



بيوم القيامة فضيلة لا يعرف أهميتها الغافلون، ذلك لأنّ المؤمن بيوم القيامة وبالحساب يومئذ عن عمله يعدّ لذاك اليوم من العمل الصالح ومن الطاعات ما ينجيه من سوء العاقبة والمآل، ومن ثقل مناقشته على عمله، وليهيّئ لنفسه ما يفوز به بالنّعيم يومئذ.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ (4) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ (5) :

الآيتان في التّحذير من التّكذيب بيوم القيامة، ترغيبا في الاعتقاد به والإعداد له بصالح الأعمال للنّجاة من سوء العذاب. والمعنى: إنّ الذين لا يصدّقون بالبعث وبيوم القيامة للحساب عن الأعمال تركناهم لغفلتهم بسبب عنادهم وكفرهم بآيات الله ووعده، ووعيده، وحسّنّا لهم قبيح أفعالهم فهم عمي البصيرة، لا يهتدون للصواب. العمهُ ليس هو العمى، لأنّ الذي يَعْمَهُ هو بصير مفتوح العينين ولكنّه لا يرى الشيء الذي أمامه دلائلُ وجوده لأنّه لا يحبّ من نفسه أن يراه، أو لغفلته، أو لِبَلاَهَتِه وضعف مداركه، أو لانشغال باله بأمور أخرى.

هؤلاء موعودون بسوء العذاب يومئذ ليعرفوا أنّ ما جاءهم من كلام الله تعالى وهُداه هو حقّ لا ريب فيه، وهذا العذاب يلحقهم في دنياهم بالسيف أو الطعن أو بالأسر بمثل ما حصل مع الكافرين به يوم بدر في أوّل عهد ظهور الدعوة للإسلام. وهم في الآخرة سيخسرون الفوز بدار النّعيم لأنّهم سيُلقى بهم في دار العذاب.

- وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6) :

وإنّك – يا محمد – لتُحَفَّظُ ما يُوحى إليك من كلام الله تعالى لتقرأه على النّاس من عند الله الحكيم الذي يحسن تدبير أمر خلقه، وهو العليم بما يصلح لهم لما يهديهم إلى صراطه القويم.

- إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ (7) :

هذه الآية إلى غاية الآية 14 في نبذة من قصة موسى عليه السلام للتذكير بتكريم المؤمنين، وبعاقبة المفسدين للعِظَة والاعتبار. والمعنى: وأذكر إذ قال موسى لزوجه عند خروجهما من أرض مدين قاصدين مصر، فلمّا جنّ عليهما الليل في سفرهما وكان الطقس باردًا تهيّأ لموسى أنّه يرى نارًا ويحسّ بحرّها، فقال لزوجه إنّي أُبْصِرُ نارًا في ذاك الاتجاه وأحسّ بوجودها، فابقَيْ ها هنا لترتاحي قليلا وسأذهب في ذاك الاتّجاه لعلّني أجد عند تلك النّار من يرشدني لطريقي –وقد كان تائها عن طريقه إلى مصر – أو أحضر منها شعلة ساطعة ملتهبة نشعل بها في مكاننا هذا نارًا نتدفأ بها. تغيّر الضمير من المتكلّم إلى المخاطب في آخر الآية (لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ) ليدلّ على أنّ موسى لم يكن يهمّه أمره للتَّدَفُؤِ، وإنّما كان يهمّه أمر تدفئة زوجه وأبنائهما الصغار من إشفاقه عليهم، وهذا من حسّ الأُبُوَّةِ الرّاقية، الرّفاه للزوجة والأولاد قبله.

- ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (8)﴾ :

فلمّا بلغ موسى المكان الذي رأى فيه نورًا وظنّه نورا من إشعاع نار مشعّة سمع صوتا يناديه ويبارك حضوره في ذاك المكان، ويبارك حضور من حول المكان – وهم الملائكة – وسمع صوتا يسبّح لله ربّ العالمين، وهذا تسبيح لتنزيه الله تعالى على أن يحوطه مكان، ولتنزيهه جلّ وعلا عن التّجسيم وعن كلّ ما لا يليق بجلاله، وهو سبحانه سيّد الوجود كلّه بملكوتَيْهِ: العلوي والسّفلي.

- ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (9)﴾ :

وسمع صوتا يناديه باسمه ويخبره بأنّ مخاطبه هو الله عزّ وجلّ، وهو العزيز الذي لا يبلغه أحد، وهو الغالب الذي ليس كمثله شيء، وهو الحكيم في الأمر وفي الشأن، وفي تدبير أمر خلقه وأمر الكون وتسييره، وهو الحكيم في أقواله وأفعاله، الذي يضع الأشياء في مواضعها.

- ﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ (10)﴾ :

وأمره الصوت بأن يرمي عصاه التي بيده على الأرض. فلمّا ألقاها رآها تتحرّك بقوّة وشدّة واِضطراب وتزحف زحفا كأنّها حيّة عظيمة، فهرب منها موسى وتركها وراء ظهره، ولم يلتفت خلفه، ولم يرجع من شدّة خوفه وفزعه فسمع مناديه يقول له: لا تخف ممّا تراه، وعد إلى مكانك فإنّي لا يخاف لديّ المرسلون، وذلك لأنّ رسل الله تعالى آمنون. وكان هذا النّداء مبشّرا له بأنّه قد اصطفاه الله تعالى بأن يكون رسولا من مرسليه.

- ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ (11)﴾ :

المقصود بهذا الاستثناء تبشير موسى بأنّ الله تعالى قد غفر له فيما كان قد فرط منه من ظلم نفسه بقتل القبطي على وجه الخطإ لمّا اِعترف بذنبه، واِستغفر ربّه وتاب، وهذا من معنى (بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ)، بدّل الخطأ بحسن التوبة، قال تعالى مخبرا عمّا كان من توبة موسى (قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ)(القصص الآية 16). وكذلك كان الأمر مع يونس عليه السلام، قال تعالى (فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ)(الصافّات الآيتان 143-144). وفي سورة (ص) خبر اِستغفار داود وكذلك سليمان عن ما أخطآ فيه. والله سبحانه كثير المغفرة لمن آمن وتاب واِستغفر، وهو تعالى كثير الرّحمة بعباده التّائبين يغفر لهم ذنوبهم، ولا يؤاخذهم عمّا تابوا منه.

- ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ (12)﴾ :

وأمره الله تعالى حين كلّمه تكليما – والله تعالى أعلم كيف كان هذا التكليم، وتنزّه سبحانه عن كلّ تجسيم أو تشبيه إذ ليس كمثله شيء – أمره بأن يدخل يده – وكان موسى أسمر البشرة – في جيب صدره، فلمّا أدخلها موسى كما أمره تعالى ثمّ لمّا أخرجها رآها قد خرجت بيضاء على غير اللون الذي كانت عليه، وخرجت من غير عيب في البَشَرَةِ، ومن غير داء من مثل البَرَصِ، وأخبره تعالى أنّه سيُدَعِّمُه بتسع معجزات تُبَرْهِن على صدقه لتأييده في تبليغ دعوته إلى فرعون وقومه الذين كانوا خارجين عن الدّين.

- **فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ (13) :**

ولمّا ذهب موسى إلى فرعون وملئه وأبلغهم رسالة ربّه، وأظهر لهم معجزتي: اليد والعصا، وكانتا آيتين واضحتين للعيان دالّتين على صدقه، لا ينكرهما إلاّ معاند، تهرّبوا من التّصديق إلى اتّهامه بتعاطي السحر الواضح ليخدعهم به.

- **وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ (14) :**

وأصيب القوم بآيات أخر من آيات عذاب الله التسع فأنكروا أنّها آيات من عند الله تعالى لتأييد رسوله، وليؤمنوا بما جاءهم به موسى، وكذّبوا بأن تكون من عند الله وادّعوا أنّها من عمل السحر والشعوذة، وهم في قرارة أنفسهم كانوا يعلمون علم اليقين بأنّها ليست من عمل السحر، وإنّما هي من آيات الله غير أنّهم كذّبوا بها عنادا، واِستكبارا، ومكابرة، وترفّعا عن الإيمان، فتبيّن – يا عبد الله – كيف تكون عاقبة المفسدين في الأرض بالكفر وتكذيب الله، فلقد أهلكهم الله تعالى بعذاب الغرق في اليمّ، ولم ينجُ منهم أحد.

- **وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ(15) :**

هذه الآية إلى الآية 44 في قصة سليمان مع خبر النّمل، والهدهد، وملكة سبإ. وذكرت عظمة ملك سليمان الذي آتاه الله تعالى النّبوّة، والعلم بشريعة، وجعل تحت إمرته الجانّ، وأخضع له مملكة سبإ فوسّع له في بسط نفوذه وحكمه، وجعل جنده من أعظم ما وجد على الأرض لأنّهم جند من الإنس والجانّ والطير. قد آتاه الله تعالى من فضله ما لم يؤته أحدا آخر من العالمين، والله يؤتي فضله من يشاء.

كان داود عليه السّلام من بني إسرائيل، وكان على شريعة موسى وعليما بها وفقيها فيها، وكان اِبنه سليمان على منهجه في الطاعات، وفي العلم بشريعة موسى، وفي العلم بلغة الطير، وفي التفضّل عليهما بسعة الملك، وفي التفضّل عليهما بالنّبوّة، وسخّر تعالى لداود الجبال يُسبّحْنَ معه والطير، وسخّر تعالى لسليمان الريح تجري بأمره رخاء حين يشاء، وبفضائل أخرى

كثيرة لم تمنح لغيرهما من الأنبياء، ناهيك عن العالمين : سائر الخلق أجمعين. وكان داود وسليمان شاكرين لأنعُمِ الله تعالى عليهما ولتفضيلهما على سائر الخلق.

- وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ (16) :

كان لداود تسعة عشر ولدا، وانتقل ملكه إلى سليمان – ولم يكن سليمان أكبر الأنبياء ولا أصغرهم – والإرث هنا في الآية لا يُقصد به التركة من المال، لأنّ التركة تقسم على جميع الأبناء على السواء، ولكنّ الإرث هنا هو إرث النّبوّة، والعلم بالشريعة، وبفنون الصناعة، وإرث الملك، وإن كان ملك سليمان أوسع من ملك داود، وجنده من الجنّ والطير كان خاصّا بسليمان، وخُصّ داود بالزبور، ولم يكن لسليمان كتاب، وورث سليمان من داود العلم بمنطق الطير، فهذا ميراث غير ميراث المال على نحو ما نقول: "العلماء ورثة الأنبياء"، لم يرثوا منهم درهما ولكن ورثوا منهم العلم بالشريعة والأحكام، وبما فتح الله تعالى به عليهم من الفهم والإدراك.

ولمّا اِنتصب سليمان للحكم، وقام في النّاس خطيبا قال في النّاس: لقد أفهمني الله المقاصد من أصوات الطير بمثل ما أفهمها أبي داود، ولقد تفضّل الله علينا من كلّ فضل ونعمة وخير، وآتانا من كلّ ما نرجوه منه تعالى، وهذا من الخير الواضح والبيّن الذي لا يُجْحَدُ ولا يُنكر. والحمد لله ربّ العالمين.

- وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (17) :

وجُمع لسليمان جنوده من طوائف الجنّ والإنس والطير للاستعراض، ويُوَقَّفُ أَوَائلهم حتى يلتحق بهم أَوَاخِرُهم، ولتنتظم صفوفُهم، وهذا دليل على كثرتهم. والوازع هو الذي ينظّم الصفوف ويمنع من الانتشار والتفرّق.

- حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18) :

في هذه الآية تسجيل لقول نملة كشّافة، تلك التي تسبق جموع النّمل في سعيها. ولا يعرف الإنسان مهما دقّ سمعُه وحسّه، وشدّ اِنتباهُه للنملة صوتا، ولا يعرف لها لسانا ولا فمًا لدقّة حجمها، ولا يشعر بدبيبها وإن تحرّكت على طبل، ناهيك عن أن يشعر بوجودها ودبيبها وهي تتحرّك في رمل الوادي! وأنَّى له أن يسمع لنملة صوتا في صخب تحرُّكِ جيشٍ حاشد، وصلصلة سلاح، وقرقعة دروع حديديّة، ووقع سنابل الخيل، وخفقان أجنحة الطير!

قول هذه النملة التي أمرت النمل بالاحتماء بمكامنها حتّى لا تُداس بأقدام أحذية الجند الثقيلة فتهلك، وحتّى لا تقع تحت سنابل الخيل فتضرّ بها، هذا القول على دقّته قد سجّل في هذا



القرآن! وسجّل هذا الكتابُ تنزيه النملة لسليمان وجنده عن أن يلحق بالنّمل الضرر عن عمد، وإنّما قد يهلكها وهم لا يشعرون.

هذا الأمر من النملة، وهذا التّنبيه والتّحذير، مع هذا التّنزيه عن فعل العَمْدِ الإرادي سجّله كتابُ الله دون أن يفرّط في شيء. ما أعظم ما سجّل لأضعفِ خلقِه!

وما يحيّرني في أمر هذا التّسجيل الدّقيق لكائنٍ لا نشعر بوجوده وبحركته ولا نعرف له صوتا، ولا نُعَظِّمُ له وجودًا وشأنا، ولا نقرأ له حسابا لنجاته أو هلاكه، ما يحيّرني فيه هو فهمُ قدرتِنا على إدراك ما يُسجّل على كلّ إنسان خُلق في هذا الوجود في صحيفة أعماله!

والعاقل من المؤمنين هو الذي يعتبر بهذا التّسجيل للشيء الذي لا يُلْتَفَتُ إليه ليوقن بأنّ كلّ قول يصدر عنه، وكلّ عمل يعمله – صغيرا أو كبيرا – مسجّل عليه. وعليه – إزاء هذا – أن يحفظ لسانه حتى لا يقول إلاّ خيرا، أو ليصمت، ولأن يخلص في كلّ عمل، ولا يغشّ، ولْيَخْشَ أن يُسجَّل عليه في كتابه ما يكره حتى لا يقولَنَّ يوم يُؤْتى كتابه : ﴿مَالِ هَـٰذَا ٱلۡكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا﴾ (الكهف الآية 49).

لقد عرضت علينا الآية صورة واضحة ودقيقة تدلّ على سَعَةِ علم الله تعالى بشؤون خلقه وإن صغروا ناهيك عمّن أكرمه الله تعالى فجعله أشرف خلقه ونبّهَه ليوم الميزان وحذّره من شدائد يوم الحساب وأخبره بأنّه سيؤتيه يوم العرض عليه كتابا يقرؤه، فيه إحصاءٌ لجميع أعماله، وهو كتابٌ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها. والصورة تدلّنا على سعة علم الله تعالى بما يجري من حادثات في ملكوته، وتدلّ على دقّة سمعه فإنّه تعالى لا يفوته شيء، وأنّ علمه تعالى بالغٌ ما خفِيَ في النفس من اِتّهام للغير أو تنزيه. إذا كان هذا الأمر قد جرى تسجيله في كتابه العزيز مع نملة جاءت في طريق جندٍ حاشد غازٍ لأحد أنبيائه فكيف بما دُوِّنَ لنا أو علينا في كُتُبِ أعمالنا.

اللّهمّ كفّر عنّا سيّئاتنا، وعاملنا يوم الحساب بعفوك وغفرانك ورحمتك، ولا تعاملنا على قدر ما كسبنا في أعمالنا... وفي هذه الآية إشارة علمية من الإعجاز العلمي، وأحسن من يفهمها هم العلماء المختصّون في تكوين جسم الحشرات. فقد جاء في تنبيه النملة للسرب الخوف على النمل من التحطيم ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾ فقد أفادني أحد أصدقائي أنّ جسم النمل مكوّن من مادة تتكسّر وتتحطّم حين يداس عليها من مثل مادة البلور، ولذلك قالت بالتحطيم لا بالدَّوْسِ.

- فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحًا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ **(19) :**

فتبسّم سليمان سرورا بحرص النملة على حياة السرب الذي يتبعها، ولإحساسه بفضل الله تعالى إذ سمع ما لا يسمع غيره من صوت النملة ويفهمه، وتوجّه إلى الله عزّ وجلّ بدعائه فقال:



يا ربّي ألهمني أن أشكر فضلك عليّ على نحو ما يُرضيك، وأن أشكر فضلك على ما أنعمت به عليّ وعلى والديّ من هدي للإيمان بك وشكرك وعبادتك، وألهمني أن أعمل الأعمال الصالحة التي تحبّها وترضاها وأنعمْ عليّ بأن أكون في زمرة عبادك الصالحين الذين ينجون برحمتك من عذابك ويفوزون برضوانك وبدخول جنان نعيمك.

- وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ (20) :

وتفقّد سليمان جنده من الطير، فلم يجد ضمنه الهدهد فسأل عنه لماذا لم يكن ضمن الطير؟ هل تخلّف عنه وسيلحق به أم كان ممن لم يحضر فيما غاب من جنس الطير.

- لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (21) :

وتوعّده سليمان إذا كان من الغائبين عصيانا للأمر بتعذيبه العذاب الشديد، أو بذبحه إلاّ إذا أدلى بحجّته لتعليل غيابه أو بيّن عذرَه.

- فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22) :

وغاب الهدهد مدّة قصيرة، ثمّ قدم على سليمان فأخبره بأنّه قد علم بما ليس لسليمان علم به، وبأنّه أدرك ملكا لم يدركه سليمان، وبأنّه قد جاء من مملكة سبإ باليمن بخبر صادق أكيد ومهمّ.

- إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) :

وأخبره بأنّه وجد بتلك المملكة اِمرأة تحكمها، هي بلقيس ملكة سبإ، اجتمعت عندها كلّ الخيرات، ولها عرش عظيم فاخر يدلّ على ثراء المملكة وعظمة الملك. قال تعالى عن هذه المملكة: (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ) (سبإ الآية 15).

- وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (24) :

وأخبره بأنّ الملكة وقومها كانوا على المجوسية يعبدون الشمس من دون الله تعالى، وقد حسّن لهم الشيطان عبادتهم، وكفرهم بالله، وصدّهم عن طريق التوحيد حتى ضلّوا عن الصواب فلم يهتدوا لعبادة الله الحقّ.

وممّا يُستفاد من خبر هذا الهدهد أنّ النّبيّ سليمان رغم ما كان عليه من سعةٍ في العلم إلاّ أنّه كان يغيب عليه ما لم يبلّغه الله تعالى به. وسبحان من يتصرّف في ملكه كيفما يشاء! وإنّه تعالى قد يُودِعُ بعضا من أسراره في أضعف خلقه، وليس لأحد من علم إلاّ بما علّمه الله تعالى ولو كان نبيّا. قد تفطّن سليمان لغياب الهدهد، وتوعده في غيابه بتعذيبه أو بذبحه إن لم يكن له عذر في الغياب، فلمّا جاءه الهدهد بخبر ملكة سبإ، وخبر ضلالتها وقومها في المعتقد عرف أنّ



الهدهد قد وجّهه الله عزّ وجلّ إلى المملكة، ويسّر له دخول قصر الملكة فعرف عبادتها ورأى عرشها، ولم يكن هذا الاطلاع ميسّرا لأحد من جند سليمان بمثل ما كان ميسّرا لهذا الهدهد الذي أرسله الله تعالى لذاك الموضع.

وكان هذا التّيسير لصالح سليمان ليعلم ما لم يكن يعلمه عن المملكة بدون مشقّة وعناء، لذلك اِستغفر سليمان ربّه عمّا كان يظنّ في نفسه أنّه قادر بجنده وبقوّته أن يبلغ مراده، لقد جاءه تأييد ربّه عن طريق الهدهد!.. سبحان من قدّر، ويَسَّرَ، إنّه هو الحكيم العليم!..

- أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ (26) :

لقد زيّن لهم الشيطان عملهم حتى لا يسجدوا لله تعالى الذي يظهر المخبّأ المستور في السماوات (الّذي منه الغيث والرّياح وغيرهما) وفي الأرض ذات الخيرات والنبات وكنوزها، والذي يعلم أسرارهم وما يجهرون به، ولا يخفى عليه تعالى شيء من أمرهم. إنّ الله الواحد الأحد هو الحقيق بالعبادة والتّقديس والشّكر، ليس له ندّ ولا شريك، ولا إلاه غيره، وهو تعالى مالك كلّ شيء، وكلّ مخلوق مفتقر إليه تعالى، وهو سيّد المخلوقات جميعهم، ومالك الوجود كلّه. وهذه الآية موضع سجود تعظيما لله تعالى وتقديسا.

- قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (27) :

ومن نباهة سليمان، وحكمته في القضاء أنّه لا يحكم بما سمع من طرف واحد حتى يتأكّد من صدق ما بلغه من الخبر أو الادّعاء، فقال سننظر في ما جئت به من الخبر والادعاء لنعرف به صدقك أو لنكشف به كذبك للتّنصّل من الحكم عليك لغيابك عن الحشد.

- ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28) :

وأعطى سليمان الهدهد كتابا ختمه بخاتمه، وأمره بأن يطير به إلى قصر الملكة – من حيث دخله سابقا – وأن يلقيه عند الملكة في مجلسها، وأمره كذلك أن يبتعد عن الجمع – وهذا من حسن التأدّب مع الملوك، وللمحافظة على سرّيّة المجالس، فإنّ التّجسّس والتّحسّس عن النّاس مكروه في كلّ الشرائع السّماوية، ثمّ على الهدهد أن يرجع إليه بالردّ على رسالته، وبخبر تشاورهم في الرّسالة.

- قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ (29) إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ(30) أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ (31) :

هذه في نصّ رسالة سليمان. ألقى الهدهد رسالة سليمان في حجر "بلقيس" ملكة سبإ، فلمّا فتحتها وقرأتها جمعت مجلس مشورتها، فأخبرتهم بأنّه قد ألقي إليها بكتاب كريم لأنّه كتاب مختوم



بخاتم ملك عظيم، وفي هذا شرف للمرسل إليه، أو لأنّ في طريقة إفتتاحيته، وفي مضمونه، وفي طريقة إرساله عبر رسول من الطير، وهو طير جميل، كلّها عناصر تجعل هذا الكتاب طريفا في جنسه وإرساله، فهو كتاب كريم.

وقد جاء في مفتتح كتاب سليمان: "بسم الله الرحمان الرحيم". روى الشعبي والأعمش أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يكتب: "باسمك اللهمّ". وفي مصنف أبي داود قال الشعبي وأبو مالك وقتادة وثابت بن عمارة أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لم يكتب : "بسم الله الرحمان الرّحيم" حتى نزلت سورة "النّمل". بعدها صار يفتتح بها كلّ كتاب. وقد جعلها القرّاء في مفتتح كلّ سورة للفصل بين السورتين، إلاّ ما كان بين سورتي "الأنفال" و"التوبة"، وذلك لأنّهم اِختلفوا أكانتا سورة واحدة، أم هما سورتان، ولمّا اِختلفوا لم يكتبوها بينهما.

وقد تقدّم تفسير البسملة في مفتتح سورة الفاتحة. وجاء في نصّ الكتاب أن لا تتعاظموا عليّ، ولا تتكبّروا، وأْتُوني مؤمنين بالله الواحد الأحد خاضعين له. وفي هذا دعوة للإسلام.

- قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ (32) :

وسألت مستشاريها أن يشيروا عليها بما يرون من الرّأي، وقد أخبرتهم بأنّها لن تتّخذ قرارا بمفردها، وأنّ القرار الذي سيصدر عن مجلسهم بعد تشاورهم وتبادل الرّأي فيه فيما بينهم هو الذي ستمضي فيه، وهم شهود على أنّ الرّأي الذي عملت به كان رأيهم. كانت الملكة حكيمة في هذا التّصرّف : اِعتمدت المشورة، وحمّلتهم المسؤولية عن قرارهم حتّى لا تواجه بمفردها سوء العاقبة إذا أشاروا عليها بغير الرّأي الأصوب الذي يحفظ لهم أمنهم وأمن البلاد وسكّانه.

- قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ (33) :

وكان في ردّ مستشاريها الكثير من الكياسة: طمأنوا الملكة بأنّهم لا يُغلبون، ولا يُقهرون إذا غُزُوا، لأنّهم أُولُو قوّة عسكرية، ولأنّهم شديدو البأس عند القتال: لا يجبنون ولا يولّون الأدبار. ثمّ ردّوا الأمر إليها تأدّبا وتقديرًا لمركزها، فهي الحاكم الأوّل الرئيسي، هي المسؤولة الأولى عن أمن البلاد، وفي سياسة التعامل مع الآخر من غير أهل البلاد، ثمّ وضعوا أنفسهم تحت إمْرتِها فيما تقرّره من قرار، وفيما تأمرهم به لتنفيذه على الوجه الذي تراه والأمر أمرُها أولا وآخرا. هذه مملكة متمدنة في سياسة تدبير أمورها.

- قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ (34) وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ (35) :

قالت الملكة: المواجهة العسكرية مع ملوك غزاة ذوي أطماع في التوسّع في سلطانهم تلحق بالبلاد المراد بسط نفوذهم عليها أضرارًا كبيرة بسكانها وبيوتهم ومزارعهم ومكاسبهم، وأوّل



المتضرّرين : حكّامُها، وأشرافُ القوم وأسيادُهم: يذلّونهم بالقهر، بسلبهم أرزاقهم، وسبي نسائهم، أو بالحبس، أو بهدر دمائهم ليرهبوا مَنْ خلفهم ليضمنوا خضوعَهم قَسْرًا لسلطانهم وحكّامهم الجدد. كذا يفعل جميع الملوك المتسلّطون على قرى الجوار. لذا فإنّ اِختيار المواجهة مع صاحب هذا الكتاب غير مضمونة العواقب، وإنّها ستلحق بنا أضرارًا وإن كان جندنا من ذوي القوّة والبأس. والرّأي عندي أن أرسل لسليمان وملئه هدايا نفيسة لنرى فعلهم بها فنفهم أغراضهم، ونعرف السبيل الأفضل للتعامل معهم ليكفّوا عنّا أذاهم.

ملكة حكيمة، وذات رأي سديد، وذات بُعد نظر في معالجة الخطر الخارجي الداهم، وقد اختارت اِختبار نوايا الخصم واِختبار قدراته قبل قرار المواجهة وتعريض البلاد وسكّانها لخطر غير مأمون العواقب، وأثبتت بمقترحها حسن تدبيرها، فتفوّقت به على مستشاريها من ذوي الرأي والمشورة، فدانت لها الرجال طواعية وعن اِقتناع. وكذا يجب أن يكون الحاكم: يشاور في الأمر، ويتخيّر الرأي الذي يحفظ الأمن للبلاد والعباد حفاظا على الأرواح والمكاسب.

- فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ (36) :

فلمّا جاء رسول الملكة بلقيس سليمان بهداياها، قال سليمان: أيصحّ أن تعطوني مالا عن ما أدعوكم إليه من نبذ الشرك للإيمان بالله وحده والإسلام له، فقد آتاني الله تعالى خيرا كثيرا ممّا آتاكم: آتاني الهداية للإسلام لدين التوحيد، وآتاني النّبوّة والحكم، وعلّمني منطق الطير، وجعل تحت إمرتي وفي خدمتي الجنَّ. بل أنتم الذين تفرحون بما يهدي إليكم من مال وهدايا.

- ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ (37) :

عُدْ إلى قومك أيّها الرّسول وأخبرهم أنّي أدعوهم للاهتداء للإيمان بالله الواحد الأحد، ونبذ الشرك، فإن رفضوا الإسلام فإنّي آتيهم بجنود لا طاقة لهم بمقاومتهم لأنّهم من الإنس والجنّ والطير وهم كثر لا يقدرون على مواجهتهم وقتالهم، ولا يطيقون، وعندئذ يخرجونهم ممّا كانوا فيه من نعيم وخيرات إلى ذلّة المنفى أو السجن وهم مهزومون. هذا التّهديد من سليمان هو للتّخويف قصد الردع عن التفكير في المواجهة والاقتتال محافظة على الأرواح البشريّة إلاّ إذا كانوا شديدي العناد، وفي ردّ الهدية دلّ على أنّه ليس من أصحاب الأطماع، وإنما هو داعٍ للاهتداء للرّشاد وللإيمان الحقّ.

- قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ (38) :

لمّا ردّت هدية الملكة، وأبلغها رسولها ما رأى عند سليمان من عزّة وقوّة وسلطان ومهانة ولمّا بلّغها بما سمع منه من حكمة ودعوة للإيمان، وبما رآه منه وممن حوله من صلوات وتسابيح



علمت وعلم مستشاروها أنّ الأمر جدّي للغاية، ومنذر بأخطار جسيمة وأنّ ملكهم مهدّد بالزّوال، وأنّ سليمان ليس من ذوي الأطماع في توسيع سلطانه، وإنّما هو داعٍ لدين جديد.

ولمّا كان همّ الملكة المحافظة على أمن بلادها، واستقراره، وحماية أرواح مواطنيها قرّرت أن تُسافر في ركب عظيم مهيب لسليمان للتّفاوض معه، ولسماع مطالبه منه مباشرة، ولتعرف عزمه وغايته.

وعلم سليمان بخبر سفرها إليه حين شارفت حدود مدينته، فأراد أن يظهر لها شيئا من الفضل الذي آتاه الله تعالى لتعرف صدقه، ولتعرف قدرة ربّه الذي يدعوها لعبادته، فرأى أن يحضر لها عرشها الخاص ليفاجئها به، ويبهتها بإحضاره، فسأل أعوانه ومساعديه من الإنس والجانّ: من منكم يستطيع أن يحضر لها عرشها الذي تجلس عليه في مجلسها قبل أن تأتيني والوفد الذي معها، عساهم يعرفون قدرة الله تعالى ويعرفون صدقنا فتسلم هي ومن معها ويهتدون جميعا للصواب.

- قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ (39) :

فتقدّم مارد من مردة الجنّ فقال أنا أحضره لك قبل أن ينفضّ مجلسك وتقوم منه، إنّي قادر على إحضاره دون أن يفقد شيئا من نفائسه، وسأحافظ عليه بأمانة.

- قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ (40) :

قال رجل مؤمن، فقيه، خصّه الله تعالى بعلم لا يعلمه غيره وإن كان نبيّا، من مثل الخضر صاحب موسى، ومن مثل الرجل الصالح الذي ورد ذكره في القرآن: لقمان، والله يؤتي شيئا من علمه لمن شاء من عباده المؤمنين الصالحين الصادقين. قال هذا الرّجل – وكان من بطانة سليمان ومن أهل ديوانه – أنا أحضره إليك في رمشة عين، قبل أن يرجع جفن عينك بعد فتحه. ودعا الرّجل بدعاء في صلاة، ثمّ قال لسليمان: اِمدد بصرك فمدّ نحو اليمين فإذا بالعرش أمامه. فما ردّ سليمان بصره إلاّ وهو عنده. ولمّا رأى سليمان عرش الملكة بلقيس موجودًا عنده قال هذا من نعمة الله عليّ لتأييدي وتحقيق رجائي. تفضّل عليّ بهذا ليختبرني أأشكره على نعمته وتأييده أم أجحدها بأن أنسب لنفسي ولجهدي هذا الفضل، وأغفل عن حمد الله تعالى وشكره. ومن شكر الله تعالى على نعمته وفضله فلا يرجع نفع شكره إلاّ إليه بما يحصل عليه من الأجر والثواب على الحمد والشكر. ومن جحد نِعَمَ الله تعالى عليه، وكفر بها، وغفل عن شكر ربّه فإنّ الله تعالى غنيّ عن شكره، وهو تعالى كريم لا يردّ نعمته وفضله على عباده وإن كانوا معرضين عن عبادته وطاعته وشكره.

ذكر محمد الطاهر ابن عاشور في تفسيره (ج19 ص271) في تعقيبه على هذه الآية : "وهذه المناظرة بين العفريت من الجنّ، والذي عنده علم من الكتاب ترمز إلى إنّه يتأتّى بالحكمة والعلم ما لا يتأتّى بالقوّة... وأنّ الاكتساب بالعلم طريق لاستخدام القُوى التي لا نستطيع اِستخدام بعضها بعضا، فذكر في هذه القصة مثلا لتغلّب العلم على القوّة."

وأُضيف إلى هذا درسٌ لنا بأن لا نستعين بالجنّ مطلقا، وإن كانوا قادرين على تحقيق ما نرجوه منهم سريعا وبدون جهد، وعلينا بالعلم والتزوّد بالتّقوى، وبأن نطلب ما يُستطاع، وإنّ طلب الخوارق والمعجزات هي للأنبياء والمرسلين لتأييدهم لتحقيق نشر ما يدعون إليه من التوحيد والعمل الصالح والحذر من المنكرات والمعاصي.

- قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ **(41)** :

قال سليمان للصنّاع عنده: غيّروا من هيأة عرشها وزخارفه حتّى نختبر ذكاءها ودقّة ملاحظتها في التعرّف عليه، أو تتحيّر فلا تهتدي لمعرفته.

ما أعجب أمر سليمان في اِستنباط فكرة اِختبار زائرته الملكة بلقيس! وهذا ليعرف أي منهج يتّخذه في التّعامل معها وفي محاورتها لإقناعها بدعوتها وقومها للهدى ولدين التوحيد، فليست محاورة الذكي النّبيه كمحاورةِ قليلِ الفهم والإدراك. وما أعجب أمر بلقيس في مخاطرتها بنفسها حين قرّرت أن تُسافر لسليمان الذي هدّدها عبر رسولها بغزو بلادها، وغامرت من شدّة حرصها على مجانبة المواجهة مع جند ملك قويّ للمحافظة على سلامة أمن بلادها وسلامة أرواح سكّانها. وأرادت أن تتطلّع بنفسها على ما عند من يهدّدها من قُوّةٍ لإيجاد عناصر تفاهم للتعاقد على المهادنة، فكلّ منهما يختبر الآخر. مفاوضة بين ملك حكيم عليم فَطن وقويّ وملكة ذكيّة ذات رُشد وحكمة في التّدبير وفي الحرص على المحافظة على سلامة البلاد والعباد الذين تحكمهم.

- فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ **(42)** :

فلمّا بلغت الملكة بلقيس مدينة سليمان، ودخلت عليه في مجلسه، عمد سليمان أن يجلسها على عرشها، فأراها إيّاه فسألها: أمِثل هذا عرشك؟ فأجابت كأنّه هو ذاته. كانت إجابتها تدلّ على ذكائها إذ لم تجزم بأنّه هو لأنّه قد رأت فيه تغييرا في الهيأة وبعض النقوش. ولكنْ لم يَغِبْ عنها أنّه عرشها، وإن كانت تستبعد أن يكون قد سبقها إلى ديوان سليمان. كانت إجابتها تدلّ على الذّكاء ودقّة الملاحظة فإنّه لا يغيب عنها صفة ما تملكه، ودلّت كذلك على الحيرة أو الدهشة. اِختبار سليمان كان غريبا، وعجيبا يدلّ على فطنة واسعة. (وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا) يتحيّر المفسّر في معرفة على من يعود ضمير المتكلّم (نا)، والمرجح أنّ هذه الجملة من قول سليمان،

وتعني أنّه قد أوتي العلم من عند الله تعالى بأنّ الملكة قادمة إليه وطائعة من قبل وصولها إليه ومن قبل عزمها على السفر إليه، وأنّه والملكة والمصاحبين منقادون لأمر الله تعالى.

- **وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ (43) :**

لقد كانت بلقيس راجحة العقل، وكان بإمكانها الاهتداء لضلالة قومها في المعتقد، ولكن الذي منعها من نبذ الشّرك والتطهّر من رجز الكفر هو أنّها كانت من قوم يعبدون الشمس، فتأثّرت بالبيئة التي كانت تحكمها، واِنطبع الشّرك في نفسها بالوراثة من جهة، وبالتّطبّع بطباع قومها، وتقليدهم في معتقدهم، وواجب الاحتفال معهم في اِحتفالاتهم الدينية لأنّها سيّدة لهم، ومنتمية لهم.

- **قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (44) :**

ثمّ أراد سليمان أن يستضيفها في قصره، وكانت ساحة قصره كهيأة السطح من زجاج أجْرَى من تحته ماءً، فلمّا تقدّمت للساحة ظنّتها لُجَّةً من بحر يجري تحت القصر، فكشفت عن ساقيها خوفا على لباسها من البلل، فقال لها سليمان هذه ساحة مصنوعة من زجاج فلا تخشي على نفسك ولا على لباسك من البلل بالماء. لمّا رأت بلقيس عرشها في ديوان سليمان، ولمّا رأت القصر وما فيه من آيات الفخامة وبراعة الصنع اِنبهرت بما رأت، وتحدّثت مع سليمان ووجدت فيه من الحكمة والهدى وحسن الأحدوثة والإقناع بما يدعو إليه من الإيمان بربّه العظيم القويّ العزيز الذي يؤيّد رسوله أيقنت بفطنتها ورجاحة عقلها أنّ دينها: دين قومها باطل، فأقرّت عندئذ لسليمان بأنّها ظلمت نفسها بعبادة الشمس، وبأنّها على ضلال في معتقدها، وأشهرت إيمانها بربّ سليمان: ربّ العالمين، وعزمت على الانقياد له ولشرعه ولما يأمر به، وآمنت بمثل ما آمن به سليمان، وما يدعو إليه من دين بني إسرائيل.

وهكذا أرشدها عقلها إلى الإيمان، ولم تمنعها عظمتها وما كانت عليه من جاه ومظاهر عزّة عن الإيمان بالله الواحد الأحد: ربّ العالمين. وهذا هو المقصد من رواية هذا الخبر ليعتبر به المشركون الذين لم يبلغوا ما بلغته ملكة سبإ من العزّة والعظمة والذكاء والفطنة، لم يمنعها سلطانها عن الإيمان بالله تعالى وتصديق رسوله والتواضع لله ولشرعه ولدعوة رسوله واِتّباعه، فلا يصرّ على الشّرك، وعلى المعتقد الباطل إلاّ معاند، مكابر، وجاهل، أو متغطرس، فمن عرف أمانة من اِصطفاه الله تعالى بالرّسالة، وعرف صدقه، فكذّبه بدون النّظر فيما جاء به من هدي، وعلم، وإفادة فإنّه لا يمكن أن يكون من ذوي الألباب. ومن أعرض عن النّظر في الحجج والأدلة ليميّز بها بين الحقّ والباطل، وليعرف بها طريقه إلى الصواب وإلى ما يرفع عن بصره الغشاوة فإنّه لا يمكن إلاّ أن يكون ممّن سَفِهَ عقلهُ، وعميت بصيرته، وممن أصابه الصمم، وغفل قلبه.

إفادة: في هذه القصة الكثير من العناصر التي يجب التركيز عليها لمعرفة المقاصد من ذكرها.

من أهمّ هذه المقاصد بيان فضيلة الذكاء، وإعمال العقل فيما يأتيه من علم يفضح الضلالة، ويبيّن الحقّ، فإنّه العاقل الفطن سرعان ما يهتدي للصواب، ويصلح أمره. لا يجب أن نغفل عن وجه الاعتبار من أهمية تسجيل قول النملة، أو أن نغفل عن كشف المقصد من تكليف هدهد بأمر قد قدّره الله تعالى لغايات عديدة، فجعله يتخلّف عن الحشد لينبّه لأمر أهمّ وأخطر. وإنّه لمِمَّا يحزّ في نفسي أنّ بعضهم قد أهمل النّظر في هذه المقاصد، وتحليل أبعادها للتنبيه لحسن تقدير الله عزّ وجلّ، وفي حكمته في تسيير أمر خلقه، وفي التيسير على رسوله تبليغ رسالته، وعمد بَدَلَ ذلك لذكر روايات غير صحيحة، لم يثبت صدقها من مثل عرض قائمة طويلة من جنس الطير، وما يقوله كلّ صنف في تسبيحه لله عزّ وجلّ. وعلم منطق الطير لا يعلمه إلاّ الله عزّ وجلّ، وما خصّ به داود وسليمان وحدهما دون سواهما. وقد ذكر بعض المفسّرين رواية عن سليمان وبلقيس يُنزّه العاقل نبيّ الله عنها. فليكن تدبّرنا للقرآن الكريم، وفي بيان معاني آياته قائما على اِستخلاص المقصد والغرض المنشود من ذكر القصة، أو من فرض هذا الحكم أو ذاك... لقد مرّ بنا زمن في تاريخنا كثر فيه رواة اِختلقوا أكاذيب ووضعوا أحاديث أضرّوا بها جوهر العلم.

- وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ (45) :

قد تبيّن لنا فيما سبق ذكره أهمية رجاحة العقل والذكاء في البلوغ بالإنسان للاهتداء للحقّ، وللاستغفار من الضلالة، أمّا في هذه الآية إلى الآية 53 التي جاءت في عرض نبذة من قصّة صالح مع قومه ثمود فقد جاءت على عكس ما سبق ذكره. تبيّن هذه النّبذة أثر النّشأة على الإفساد في الأرض في رفض الاهتداء للصواب والاستقامة على العمل الصالح، وهي لا تؤدّي بأصحابها إلاّ إلى الهلاك. وفي عرض هذه النبذة تحذير أهل الفساد من مشركي العرب من سوء العاقبة. والمعنى: ولقد أرسلنا إلى قوم ثمود صالحا رسولا من عند ربّهم يدعوهم لنبذ الشّرك، ولعبادة الله الواحد الأحد وتخصيصه بالطاعة والدعاء فإذا هم يفترقون على هذه الدعوة إلى فريقين: فريق اتّبع الرّسول، واهتدى إلى الإيمان الحقّ واِستغفر ربّه ممّا كان عليه من ضلالة وغفلة، وفريق ثان أصرّ على الكفر، ومشاقّة الرّسول وتكذيبه، وأصرّ على معاداته ومعاداة أتباعه وإيذايتهم لصدّهم عن سبيل الله تعالى. والفريقان مختلفان في الرّأي والعمل ويتخاصمون.

- قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ (46) :

وقام صالح في الكافرين واعظا فقال لهم: لم تستعجلون العقاب والعذاب بدل الرّحمة؟ هلاّ تبتم إلى الله تعالى وطلبتم مغفرته على كفركم ومعاصيكم لعلّ الله يرحمكم فيرفع عنكم غضبه وسخطه، وينجيكم من عذابه.

- قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ (47) :

وقال له قومه: إنّنا نتشاءم بوجودك معنا وبوجود أتباعك، فكلمّا رأيناكم أصابتنا المكاره والشدائد، وأجابهم نبيّهم: شؤمكم ستلقونه عند الله تعالى يوم الحساب، وإنّكم تختبرون في هذه الدنيا في إيمانكم وفي أعمالكم، وتختبرون في طاعاتكم ومعاصيكم، وستعذّبون بذنوبكم.

- وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ (48) :

وكان في مدينة ثمود وهي أرض بالجزيرة العربية، وهي الحجر، أطلالها ما تزال قائمة، كانت بيوتهم منحوتة في الجبال وكانت حصينة ومنيعة، والآثار تشهد على شدّة ما أصاب المدينة من دمار وخراب. و(الرهط) هي المجموعة من النّاس إذا زاد عددهم على العشرة، والعدد تسعة يدلّ على الكثرة، والمعنى وكان في المدينة جماعات من النّاس، منهم جماعة من الزعماء العتاة، وجماعة أخرى كانوا أهل كفر ومعاصٍ، وجماعة أخرى من قطّاع الطريق واللصوص، وجميعهم يفسدون في الأرض بأعمالهم ولا يُصلحون.

- قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ(49) :

اِجتمع جمع من هؤلاء المفسدين في ناديهم فتآمروا سِرّا على الكيد برسولهم صالح، وقرّروا قتله وزوجه ومن معهما بليل على حين غفلة وغِرّة، وأقسموا بآلهتهم على الستر على بعضهم وكتمان السّر حين ينفّذون أمرهم، وقرّروا أن يقولوا لوليّ الدم أو القصاص إذا سألوهم عمّن قتل صالحا ومن معه بأنّهم لم يشاهدوا أحدا يقتلهم، ولم يشهدوا قتلهم، وأن يصدّق بعضهم بعضا في إنكاره، وقرّروا أن يقسموا بأنّهم صادقون في تبرئة أنفسهم للتهرّب من القصاص أو دفع الدية. وفي هذا تعريض بزعماء مشركي مكة الذين اِجتمعوا ذات يوم في دار النّدوة وقرّروا أن يقتلوا محمدا صلّى الله عليه وسلّم على يد فتية من قبائلهم ليفرّقوا دمه على جميع القبائل فيعجز أولياؤه على الثأر لدمه، وقد كان قرارهم هذا بعد مناقشتهم في أحد الخيارات الثلاثة: القتل، أو النّفي، أو الحبس. (أنظر الآية 30 من سورة الأنفال).

- وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ (50) :

ودبّروا سوءًا بالرسول والمؤمنين معه، وأرادوا هلاكهم، وقضى الله تعالى أمرا آخر، قضى أن يعجّل بعذابهم يأتيهم فجأة وبغتة دون أن يشعروا بحلوله حتى لا يأخذوا حيطتهم.

- فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ (51) :

فتأمّل في عاقبتهم واِعتبر بها، وانظر فيما جرى لهم من بقايا آثارهم. لقد أهلكناهم جميعا فلم يَنْجُ من الهلاك منهم أحد.

- فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ (52) :

فتلك مساكنهم خاوية منهم ومُقفرة. هلكوا بسبب كفرهم وطغيانهم وتآمرهم على رسول الله وعلى المؤمنين. وإنّ في هذا عبرة لقوم يعرفون بأس الله تعالى ويعرفون قدرته.

- وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ (53) :

وأمّا الذين آمنوا فقد نجوْا من الهلاك والعذاب. أنقذهم الله تعالى تكريما لإيمانهم ولخشيتهم من عذابه وعقابه.

- وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ (54) :

هذه الآية إلى الآية 58 في التذكير بعاقبة قوم لوط للاعتبار بها قصد التّحذير من معصية الله تعالى، وللتّحذير من إتيان الفاحشة المِثلية. والمعنى: وأُذكر ما قاله لوط عليه السلام لقومه: لقد عاب عليهم إتيان الفاحشة المنكرة، وأنّبهم على السكوت عليها وعلى عدم التناهي عنها واِستنكارها، بل كانوا يستبيحونها علانية.

- أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ (55) :

قال لهم: ما أغرب أمركم حين تشتهون إتيان الرجال بدل النساء، إنّكم قوم سفهاء طائشون، شاذّون.

- فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ(56) :

وقال هؤلاء الشواذ ردًّا على موعظة لوط: أخرجوا لوطا ومن معه من الذين يستنكرون علينا هذا الفعل من قريتنا، إنّهم أناس يتنزّهون عمّا نفعل. ولقد قالوا هذه الجملة اِستخفافا بدعوة لوط واِستهزاءً.

ولقد شهدنا في عصرنا الحاضر دعوات كهذه التي جاءت على ألسنة قوم لوط في الدفاع عن حقّهم في ممارسة هذه الفاحشة المنافية للفطرة، ولكرامة الجنس الإنساني، وإباحة التناسل فيما يسمّون أنفسهم بالمثليين. وإنّهم لا يستحيون في الظهور في منابر إعلامية للدفاع عن ما يسمّونه حقّهم في حريّة تصرّفهم في أجسادهم.

- فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ (57) :

ولمّا قضى الله تعالى بأن ينزل عقابه على قوم لوط، أوحى إلى رسوله أن يغادر وأهله القرية ليلا حتى لا يتّبعه أهل السوء من القوم، وبهذا أنجاهم الله عزّ وجلّ من أن يُصَبَّ فوق رؤوسهم

العذاب، وحكم تعالى على زوجه التي كانت تكشف أسرار زوجها إلى قومه، حكم عليها أن تهلك مع القوم، وأن تعذّب مثلهم. وهكذا ينجي الله الّذين آمنوا وكانوا يتّقون، ويعذّب العصاة المذنبين.

- **وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ (58) :**

وأنزل الله تعالى على القرية وسكّانها حجارة من السماء كالمطر، فدمّرت بيوتهم على رؤوسهم، ودفنوا تحت أنقاضها وكان هذا المطر مشؤوما عليهم. وهكذا تكون عاقبة كلّ من أُنْذِر بعذاب لمعاصيه.

- **قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ (59) :**

تتناول هذه الآية إلى آخر السورة مسائل في العقيدة. وموضوع هذه الآية إلى الآية 66 في عقيدة "التوحيد". والخطاب في كلّ هذه الآي موجّه للإنسان العاقل المتدبّر الذي يسمع وَيَعِي ما يسمع، والذي ينظر في آيات الله الكونية فيعرف بها حقيقة ما يَبْلُغه من إرشاد إلى الله الحقّ، الأحقّ بالعبادة والطاعة. والمعنى: أُشكر الله على نعمة إرساله رسولا منكم ليبلّغكم آيات الله لتهتدوا بها إليه، وتجتنبوا الضلالة، وعلى نعمة الأمان على عباده الذين اِختارهم للنّبوّة والرّسالة. ثمّ اِسألوا أنفسكم: أعبادة الله الحقّ الذي أرسل إليكم رسلا لهدايتكم، وأنزل عليهم كتبا للاهتداء بها للصواب في الإيمان والطاعات خير أم عبادة أصنام لا تنفع عُبَّادها في شيء من الهدي، ولا تقدر لهم على شيء؟ والاستفهام للتقرير، وغايته حفز العقول على التّدبّر.

- **أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ (60) :**

عبادة مَن خير لكم؟ عبادة أصنامكم الصمّاء الحجريّة أم عبادة الذي خلق السماوات والأرض بقدرته، وحكمته في الإبداع والتّسيير، وهو القيّوم عليهما، والذي أنزل لكم من السماء لشُربكم ولإنبات الشجر المثمر ولإنشاء الحدائق ذات الجمال، وما كانت لكم أيّ قدرة على إنبات شجرها الغابي الكثيف ذي الظّلال الوارفة؟ أتدعون إلاها آخر غير الله الخالق القادر المنعم؟ بل إنّ عبّاد الأصنام يميلون عن الحقّ إلى الباطل حينما يشركون بالله تعالى غيره.

- **أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ (61) :**

الله الحقيق بالعبادة والطاعة هو الذي جعل لكم الأرض مكانا تستقرّون فيه: على اليابسة سكنكم، والذي فجّر لكم منها ينابيع تسيل منها الأنهار بمياه عذبة لتشربوا منها ولتسقوا أنعامكم، ولترووا بها زرعكم ونباتكم، وجعل لها جبالا ثوابت راسخة حتى لا تميل بكم الأرض، ولتكون حركتها في دورانها مُعَدَّلة في سرعتها، وفي هذه الجبال منافع لكم بما تدّخره لكم من معادن.



ومن عظيم قدرة الله الذي تُدْعون لعبادته وطاعته وللتسبيح بحمده وقدسه أنّه جعل بين البحرين المختلفين في الخصائص سدّا حتى لا يختلط الماء العذب بالماء المالح، وحتّى يحافظ كلّ منهما على خاصيته ومنافعه وثقله. أهناك إلاه غيره ممّا تشركون به مع الله تعالى قد خلق شيئا، أم له قدرة على فعل شيء، أم قد أنعم عليكم بأيّ فضل؟ والاستفهام هنا للإنكار لأنّ الإجابة عنها سهلة وهي بالنّفي، إذ ليس مع الله تعالى إلاه آخر، ولكنّ أكثر المشركين يجهلون حقائق الأمور، ويجهلون دلائل القدرة، وآيات الإنعام، فحادوا عن الصواب، وأعماهم جهلهم عن النّظر وعن الفهم.

- أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ **(62)** :

وهذه في التأكيد على صفات الله تعالى: السميع والمجيب، والمنعم على الإنسان باستخلافه في الأرض. والمعنى: من الذي يستجيب لدعاء الّذي تضطرّه الحاجة أو الشدّة والكرب فتدفعه للإلحاح في طلب عون الله تعالى لكشف ضرّه وكربه وما وقع فيه من سوء الحال؟ ومن الذي كرّم بني آدم فقضى أن يستخلفهم في الأرض ليعمروها ويسعوا فيها. أإلاه غير الله عزّ وجلّ قضى بهذا، ولكنّ الغافلين المعاندين قليلا ما يهتدون لهذه الفضائل ويذكرونها ليشكروا ربّهم على ما أنعم عليهم، وينصرفون لأصنامهم يقدّسونها ويعظّمونها من غفلتهم وقلّة الإدراك.

- أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ **(63)** :

وهذه من آيات إنعام الله عزّ وجلّ. والمعنى: ومَنْ غيرُ الله تعالى يرشدكم الطريق إذا سافرتم لبلاد بعيدة عبر البحر، عند دخولكم لُجَجَهُ فتكونون وسطها في ظلمة اللّجج وظلمة اللّيل، أو برّا إذا دخلتم مفاوزه ومتاهاته في ليل بهيم، أو في وقت مخيف من نهار؟ ومن غير الله عزّ وجلّ يرسل الرياح التي تبشّركم بقدوم الغيث لشربكم وسقيكم وريّكم ولإحياء الأرض؟

أهناك إلاه مع الله ليُعينه على فعل هذا، أو يفعله عوضا عنه؟ تعالى الله عمّا يشركون من دونه آلهة لا تقدر على شيء، ولا وجود لها أصلا.

- أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ **(64)** :

الاستدلال على وجوب الإيمان بالله وحده دون سواه فيما سبق من الآي قام على توجيه النّظر لتدبّر آيات الله المنظورة في الكون ليعرف بها الحقّ، ثمّ يستقيم عليه. وينتقل الاستدلال في هذه الآية مع المواليتين من النّظر المحسوس إلى الاستدلال بالمنطق العقلاني. فهذه لذوي



العقول الواعية، وذوي البصيرة. وفيهما تمهيد للإيمان بالبعث، وهكذا يحتكم الرّبط بين هذه الفقرة والفقرة الموالية التي خصّصت لمعتقد البعث والحساب. والمعنى: الله الذي تُدْعَوْن لعبادته وحده، ولطاعته هو الذي أنشأ الخلق كلّه: بشرا وحيوانا وجمادا من غير أصل كائن قبله، فهو الذي اِبتدعه من غيرِ مثال، وجعل لكلّ ما خُلق خصائصه لتواجده، ثمّ يعيده إليه لأنّه ملك له. اِسألوا عمّن خَلَقَ هذا الوجود كلّه وهذا الخلق، ومن يُفْنِيه، هل فعله إلاه من آلهتكم التي تَدْعونَ؟ واِسألوا عمّن يرزقكم من السماء غيثا، ويرسل الرياح اللواقح، وعمّن يرزقكم من الأرض من خيراتها التي تطعم، ومن كنوزها؟ أهو الله الخالق الرّزّاق أم لكم إلاه آخر قد رزقكم من السماء والأرض فأطعمكم وسقاكم وأحياكم؟ إذا كان لكم إلاه قد أنعم عليكم بشيء، أو خلق لكم شيئا واِبتدعه فأظهروا دليلكم وبيّنوا ما خلقه لكم وقدّموا حججكم ودلائلكم على خلقه وإنعامه إن كنتم صادقين في اِدّعائكم لألوهيته...

- قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ **(65)** :

أخبرهم أنْ لا أحد من الخلق – سواء أكان من أهل السماء أم من أهل الأرض يعلم ما اِستأثر الله تعالى بعلمه، كتوقيت قيام الساعة، وعلم آجال الخلق، لا يعلم الغيب إلاّ الله عزّ وجلّ، ولا أحد من الخلق يعرف متى سيبعث للحساب، ومتى يقوم النّاس من قبورهم، ولن يشعر أحد بِدُنُوِه. قال تعالى (وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ)(الأنعام الآية 59).

- بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ **(66)** :

(ٱدَّٰرَكَ) من أدرك الأمر إدراكا: علمه، وعرفه. لقد كان بعض المشركين حين يبلغه شيء من الوعيد والوعد اِستهزأ به إنكارا لوقوع البعث، وربما تمادى في اِستهزائه فتحدّث عمّا سيكون فيه إذا حدث بعث كأنّه يعرف ما سيكون مصيره، وهو الذي ينكر حدوثه، ويشكّ فيه شكّ المكذّب به، وما هو في واقع الأمر إلاّ أعمى البصيرة، وغافل عن حقيقة الأمر، وجاهل لها وغير مدرك لعاقبته.

- وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ **(67)** :

هذه الآية لغاية الآية 75 في التأكيد على عقيدة البعث، وفيها تحذير من الوعيد الدنيوي كذلك. والمعنى: وقال الكافرون بالبعث: إذا صرنا بعد موتنا ترابا يُذَرُّ وكذلك صار آباؤنا من قبلنا أئنّا لعائدون إلى الحياة، وإلى الصورة التي كنّا عليها عند خروجنا من قبورنا بعد أن كنّا ترابا؟ واِستفهامهم هذا يدلّ على الاستحالة، وإنكار وقوع هذا الإخبار.

- لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ **(68)** :

لقد أخبرنا نحن وآباؤنا بهذا الأمر من قبل أن يأتينا به محمد. وما هذا إلاّ من خرافات الأقدمين التي ليس لها وجه من الحقيقة.

- قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ (69) :

قل – يا محمد – لهؤلاء المكذّبين بالبعث، والمستهزئين بالوعيد: تفسّحوا في الأرض، وسيحوا فيها، وسافروا في أقطارها وتبيّنوا في آثار الأقوام المجرمين المكذّبين رسلهم بما جاؤوهم به والمستهزئين بالوعيد لتعرفوا عاقبة إنكارهم واستهزائهم للاعتبار إن كنتم تعتبرون.

- وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ (70) :

ولا تحزن – يا محمد – إذ يكذّبونك، ولا تكن في حرج واِنقباض الصدر من هزئهم وسخريتهم ممّا تنذرهم به.

- وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (71) :

ويسألونك عن البعث وقيام الساعة وعن وعيدهم متى سيكون إن كنت صادقا فيما تتوعد به، وما كان سؤالهم إلاّ من اِستبعادهم لحصول ذلك.

- قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ (72) :

أخبر هؤلاء: لا تستهزئوا بالوعيد فعسى أن يكون قد اِقترب منكم شيء من هذا الوعيد في هذه الدنيا قبل آخرتكم، فيصيبكم بعض العذاب الذي تستعجلون وقوعه فيكم.

- وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ (73) :

وإنّ الله عزّ وجلّ لذو رحمة وفضل على النّاس يمهل الكافرين، ولا يعجّل بتعذيبهم عسى أن يثوبوا لرشدهم، فيتوبوا، ولكنّ أكثر النّاس من المكذّبين المكابرين المعاندين لا يشكرون الله تعالى على هذا الإنعام، فلا يزدادون بهذا الإمهال إلاّ هُزُءًا.

- وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ (74) :

وإنّه تعالى عليم بما تخفي صدورهم من شكّ وريبة واِضطراب بين التّصديق والتكذيب، وعليم بما يجهرون به من قول وهزء، وتكذيب.

- وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ (75) :

إنّ خبر السماء عند الله عزّ وجلّ. كلّ ما يأتي منها ممّا يغيب على النّاس علمه وتقدير حصوله في زمنه مُسَطّر عند الله في كتاب محفوظ يبيّن كيفيّة حصول الأمر، ومَقصده، وزمن حصوله وحدوثه بدقّة، وما إلى ذلك من خبرها من مثل تقدير إنزال الهدى والوحي على من اِصطفاه الله لرسالته: عمّ سينزل الوحي، وفي أيّ زمن، وعلى أيّ قوم هو مقَدَّرٌ ومسجّل عند الله في كتاب بدقّة ويغيب على النّاس معرفة دقائق تفصيل ذلك، وممّا يغيب على النّاس من خبر السماء – وهو عند الله معلوم الوقوع ومسطور في كتاب – تصريف الريّاح والسحب مثلا لخير أراده بقوم وبأرضهم، أو لعذاب وسوء أراده بقوم قضى بأن يهلكهم بما كسبت أيديهم من سوء.

فلا شيء يقع مصادفة، أو عبثا، كلٌّ في كتاب من قبل أن يُحدثه. وكذلك الشأن فيما يجري في النّاس، وفي الأرض التي يعيشون عليها، فما يحدث فيها من نكبات أو جوائح للإنذار والاعتبار ليتوب النّاس ويستغفروا ربّهم، أو فيما يأتيهم منها من خير، وما يخرج منها من كنوز ليختبروا في شكرهم، أو في بطرهم واِستعلائهم على النّاس هو في كتاب مسطور يوضّح كلّ شيء.

- إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76) :

بعد التأكيد على عقيدة التوحيد، وعقيدة البعث، جاءت هذه الآية وما بعدها لغاية الآية 81 في التصديق بكتاب الله العزيز: القرآن الكريم. والمعنى: إنّ هذا القرآن يخبر بني إسرائيل ما اِختلفوا فيه في كثير من قصص الأنبياء، من مثل قصة ولادة عيسى ابن مريم ونبوّته، وتبرئة أمّه مريم، والكثير مما زادوا وحرّفوا في قصص الأنبياء والمرسلين ليعرفوا حقائق الأمر، فجاء هذا في بيان الحقائق، وهذا من أقوى الدلائل على صدق نبوّة محمد صلّى الله عليه وسلّم الذي لم يكن قبل نبوّته يعلم شيئا من قصص الأنبياء والمرسلين. وكان على بني إسرائيل أن يكونوا أول الشهود على نبوّة محمد صلّى الله عليه وسلّم وعلى صدقه لأنّهم أهل كتاب وقد جاءهم ما يكشف ما حرّفوا في كتبهم، ولكنّهم لم يفعلوا، ومن علم الحقّ فكتمه لِطمْسه كان شيطانا أخرس. وكان حريّا بهم أن يكونوا من أوائل المؤمنين.

- وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (77) :

هذه في صفة القرآن: إنّه يهدي للحقّ وللرّشاد وللسبيل القويم في المعتقد والسلوك العَدْلِ. وهو رحمة للمؤمنين لأنّه يبشّرهم برضوان ربّهم، ويطمئن قلوبهم، ويزكّي نفوسهم، ويُنير بصيرتهم، ويفتح بصائرهم على الحقّ، ويكشف لهم الأباطيل.

- إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ (78) فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ (79) :

الآيتان في تأييد الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وشدّ أزره. والمعنى: إنّ ربّك – يا محمد – سيفصل بينك وبين الذين يكذّبونك من بني إسرائيل، ومن بني قومك الذي يطعنون في رسالتك ولا يصدّقون بأنّ القرآن يوحى إليك من ربّك، وسيقضي فيهم بما يستحقّون من العقاب والعذاب، وسيظهرك عليهم حتى يعلموا أنّك مُؤَيّد بنصر الله، وأنّك الرّسول الصادق العليم. وإنّ ربّك هو العزيز الذي لا يُغلب، ولا يردّ قضاؤه على الذين ظلموا، وهو العليم بما يجب فعله لنصرك وإظهار دينك، ولفضح كفرهم وكيدهم. فلا تبال بالمكذّبين، واِستعن بالله في تبليغ رسالتك، واثبت فإنّك على الحقّ الواضح بالنّظر في آيات الله المنظورة وبالدليل العقلي وبهذا القرآن وبالوحي، فأمْضِ لما أُمرتَ به.

- **إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ (80) :**

هذه لتدعيم النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وتثبيته لمواصلة دعوة قومه للهدى للدّين الحقّ وللتوكّل عليه تعالى دون سواه، وإن اِنصرف جمع منهم عن السماع له وأعرضوا عن اِتّباعه. والمعنى: لا تأبَهْ–يا محمد–بالذين يصمّون آذانهم عن السماع إليك إذا دعوتهم للإيمان بالله وحده، وللاستقامة على دينه وطاعته، فإنّ مثلهم مَثَلُ الموتى الذين لا يسمعون، ولا يعون، ولا يستجيبون لاتّباعك.

- **وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ (81) :**

ولست بقادر على إرشاد العميان للصواب لإنجائهم من تِيههم وضياعهم لأنّهم لا يبصرون. وهذا مثل للّذي دُعِيَ للهدى فانصرف عنه وأصرّ على كفره وأعمى بصيرته عن النّظر في دلائل الحقّ ودلائل الباطل. بلّغْ دعوتك لمن يسمع لك، ويصدّق بما جاءك من الوحي والدلائل، فأسْلَمَ وآمَن بالله وحده، واِتَّبعَكَ، وأخْلَصَ في طاعة الله الواحد الأحد، واِنقاد لأمره.

- **وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ(82) :**

هذه الآية إلى الآية 90 في وعيد الكافرين وإنذارهم وتحذيرهم من سوء العاقبة، وفي تبشير المؤمنين بحسن المآل، وإذا اِقترب الوعد الحقّ لتقوم الساعة أخرج الله تعالى للنّاس آية معجزة لتعظهم حتى يؤمنوا، ويتداركوا أمرهم قبل أن يفاجئهم الموت والفناء. وهذا من رحمة الله تعالى بخلقه وتفضّلا منه تعالى. إنّ أغلب النّاس لا يصدقون في إيمانهم التصديق اليقيني بآيات الله الإعجازية الظاهرة والمقروءة والتي تأتي على ألسنة رسله. إنّهم في شكّهم يعمهون، وكان الإنسان أكثر شيء جدلا.

وتكلّم المفسّرون السابقون في هذه الدابّة. قال قائل منهم هي إنسان، ما هو بعالم ولا بواعظ، لأنّ الكلام لا يكون إلاّ بلسان إنسان. وقال أغلبهم : هي دابّة تخرج من صخرة، وهي آية معجزة تكلّم النّاس، وقد اختيرت لأن تكون دابّة تحقيرا للكافرين. واِستشهدوا على أقوالهم بروايات مرفوعة للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم في موضوع أشراط الساعة، وهي روايات مضطربة، لو جاء على لسان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رواية صحيحة ما اِختلفوا في بيان معنى الآية، وماهِيَة هذه الدابّة. عدم تطابقها مع بعض وكثرتها دليل على عدم صحة الروايات.

- **وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ فَوۡجٗا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمۡ يُوزَعُونَ (83) :**

هذه في الانتظام للتقدّم للحساب يوم القيامة، في ذاك اليوم: يوم الجمع للحساب، يتقدّم الكافرون المكذّبون بيوم الدّين وبالقرآن، ودلائل صدق الدعوة للحساب جماعات وزمرا. ويُوقف أوّلهم ليلحق

بهم آخرهم ليصطفّوا في اِنتظام. قال تعالى (وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)(الجاثية الآية 28).

- **حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (84) :**

حتّى إذا وقفوا عند الميزان للحساب سُئِلوا عن دلائل تكذيبهم بدلائل التّوحيد، وصدق رسل الله وبيوم القيامة، وبالوعيد، والحال أنّهم لم ينظروا فيها للعلم بصدقها، وأعرضوا عن سماعها لمعرفة دلائل الحقّ. ويُسألون يومئذ عمّا كان يشغلهم عن النّظر فيما جاءهم من العلم والهدى. والاستفهام هنا للتوبيخ.

- **وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ (85) :**

وحقّ عليهم يومئذ الوعيد الذي أُنْذِرُوا به بسبب كفرهم وإعراضهم عن سماع دعوة رسلهم، ووجب عليهم العذاب، فإذا هم لا يتكلّمون لأنّهم لا يجدون لأنفسهم حجّة ولا وسيلة أو سببا للدفاع عن أنفسهم.

- **أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (86) :**

هذه الآية للدلالة على أنّ الاهتداء للإيمان بالله وحده دون سواه ليس بالأمر العسير الذي يصعب إدراكه. يكفي أن يتدبّر الإنسان فيمن جعل الليل مظلما ليستريح فيه الإنسان من عناء سعيه بالنّهار، والذي جعل له النّهار مضيئا ليستعين بضوئه على تحصيل رزقه وقضاء شأنه. فمن تدبّر هذه الآية المنظورة والمُعاشة التي يمضي بها الإنسان حياته كاملة بخيرها وشرّها ويعرف بها زمنه ووقته تعرّف بها على الله عزّ وجلّ، وعرف بها قدرته، وفضله، وحسن تدبيره. فهذه الآية مفيدة لقوم يؤمنون ليعرفوا بها أدلّة التّوحيد.

- **وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ(87) :**

هذه كالآية (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ) في(الزمر الآية 68). والمعنى: وحين يأذن الله تعالى بقيام الساعة يأمر المَلَكَ "إسرافيل" فينفخ في الصور النّفخة الأولى فيخاف جميع الخلق خوفا شديدا من صوت البرق فيموتون جميعا خوفا وفزعا إلاّ من شاء الله تعالى من ملائكته أو من موجوداته ألاّ يموتوا، ثمّ يُنفخ في هذا الصور نفخة ثانية فيقوم النّاس خاضعين ليُعْرَضوا على ربّهم للحساب عن إيمانهم وأعمالهم، ولتحقيق الوعد أو الوعيد.

- **وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (88) :**

الآية تُشير إلى حقيقة علمية و هي "دوران الأرض". ويوم تقوم الساعة تفقد الجبال خاصيتها في الثبات والاستقرار، فالذي ينظر إليها يراها جامدة لا تتحرّك، ولكنّها في واقع الأمر تسير سيرا، تفقد صلابتها وتصبح كالصوف المنفوش، وتسير السير البطيء كسير السحاب، وهذا من تقدير الله عزّ وجلّ الذي أحسن كلّ شيء خلقه، وجعل له أجلا لا ريب فيه. وإنّه تعالى عليم بما يفعل عباده، لا يفوته من أمرهم شيء. وهذا للتحذير ليحسن الإنسان إيمانه وعمله ليلقى ربّه وهو راضٍ عنه.

- مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ (89) :

هذه في كرم الله تعالى وفضله على المؤمنين الذين آمنوا بالله وحده، ولم يشركوا به أحدا، وعملوا بالطاعات وعملوا من أعمال البرّ ما يرجون بها الثواب والأجر من عند الله يوم الحساب، فإنّهم مبشّرون في ذاك اليوم بأن يلقوا من المثوبة والأجر أكثر مما يأملون وذلك بكرم من الله تعالى وإحسانه وإنعامه، ثمّ هم مبشّرون يومئذ بالأمن والسلامة والأمان من الخوف والفزع حين يقومون يوم البعث.

- وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (90) :

وهذه من عدل الله تعالى، وفي تنفيذه وعيده في الكافرين حتى يعلموا أنّه الحقّ من ربّهم. والمعنى: ومن قام للبعث وكان في دنياه كافرا جاحدا، فإنّه يلقى في نار جهنّم على وجهه مكبوبا اِحتقارا ومهانة. وهل يجازى الإنسان عمّا لم يفعل، أو يعمل، أو يقدّم من الخيرات؟ إنّ الحصاد لمن غرس وأنبت.

- إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ (91) :

تشعرنا هذه الآية مع الآيتين المواليتين باختتام السورة، وفيها عودة على ما بدئت به السورة من الإيمان بالله تعالى، والإقبال على تلاوة القرآن، وعلى العمل بالطاعات التي أمر الله بها، والاهتداء للإسلام. ولئن كان الخطاب مُوَجَّهًا للنّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم إلاّ أنّ كلّ مسلم معنيٌّ به ومأمور به. والمعنى: إذا سُئلت عن دينك فقل إنّما أعبد الله الواحد الأحد ربّ مكة المكرّمة حيث بيته الحرام والذي هو مالك كلّ ما على الأرض، وما في السماء، وهو القائم عليهما، والمتصرّف فيهما، وهو الذي يرثهما، وأمرت أن أكون مسلما لا أشرك بالله، وأن أتوجّه بطاعاتي له وحده راجيا أن ألقاه راضيا عنّي يوم القيامة، يوم يقوم النّاس لربّ العالمين. وهذا الأمر الذي أمر به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليعلّمه للمسلمين جميعهم.

- وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ(92) :

وأمرت بأن أقرأ القرآن مرارا، مرّة بعد مرّة دون ملل للتذكّر والاعتبار. فمن اِهتدى للإسلام فإنّما ينفع نفسه باهتدائه. ومن تَوَلّى عن الصواب، وابتعد عنه فإنّي بريء منه لأنّي أنا رسول من الذين ينذرون الضالّين الكافرين المشركين من عذاب الله، ولست عليه بوكيل.

- وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ **(93)** :

وثابر على شكر الله تعالى وحمده إذ هداك للإيمان به ولطاعته وإذ خصّكَ برسالته، وعلّمك ما لم تكن تعلم، وكان فضل الله عليك عظيما. وسترون– أيّها الكافرون المكذّبون بالوعيد–عذابه وسخطه، فتعرفون صدق ما كنتم توعدون، وإنّ الله عليم بما تقولون وبما تعملون وليس بغافل عنكم.

(فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ) (يوسف الآية 101)



رقمها	ســــورة **القصــــص**	آياتها
28	ـــــ مكيّة ـــــ	**88**

سمّيت هذه السورة بسورة "القصص"، ولا يعرف لها اِسم آخر. وفيها عرض للكثير من جوانب حياة موسى عليه السلام بدءًا من وَضْعه، وإلقائه في اليمّ، إلى قتله للقبطي، فهجرته إلى مدين، وزواجه من اِبنة شعيب، ثمّ مناداته بالجبل وتكليفه بالرّسالة، مع عرض لمظاهر طغيان فرعون إلى أن هلك غرقا في اليمّ، وختمت قصته بإتيانه الكتاب.

وإنّ عرض هذه القصّة بعناصرها المختلفة هي من دلائل صدق نبوّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم، إذ لم يكن يعلم من أمرها شيئا حتى جاءه الوحي بها، ولذلك جاء في هذه السورة ما يدعو أهل الكتاب للتّصديق بمحمد وبنبوّته.

واِختصّت هذه السورة بعرض قصّة قارون الذي طغى بماله، وجحد نعمة ربّه عليه فخُسف به.

وفي هذه السورة آيات للوعد والوعيد، وعرض لآيات من آيات القدرة في الخلق واِنفراد الله تعالى بالإنعام لإفراده بالعبادة والطاعة، شأنُها في ذلك شأنُ السور المكية.

- طسٓمٓ **(1)** تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ **(2)** :

كشأن سور الطواسيم، فإنّها تبدأ بالتّنويه بالقرآن الكريم، واِستعمال اِسم الإشارة: "تلك" للبعيد استعمالٌ مقصود ليدلّ على أنّ هذا الكتاب بعيد عن منال من يريد الإتيان بمثله، أو على تحريفه لأنّه كتاب معجز، ولأنّ الله تعالى حافظه. وهو كتاب واضح الدلالة على أنّه من عند الله عزّ وجلّ.

- نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ **(3)** :

تقرأ في هذا الكتاب خبر موسى مع فرعون بالصدق لينتفع المؤمنون بالموعظة منه، وللاعتبار به.

- إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ **(4)** :

هذه الآية مع الآيتين المواليتين مقدّمة لعرض مظاهر كثيرة من رعاية الله لموسى منذ ولادته إلى تكليفه بالرّسالة، وإتيانه الكتاب، ومظاهر من تأييده لتغليبه على أعدائه، ومظاهر من نقمته على الكافرين.



وتعتبر هذه الآية في الفنّ القصصي مقدّمة لتحليل الوضع الاجتماعي والسياسي للبيئة التي ولد فيها موسى عليه السلام.

وقد كان الخطباء العباسيون الثائرون على خلافة الدولة الأموية للانقلاب عليهم يفتتحون خُطبهم بهذه الآيات لإثارة حماسة مناصريهم للثّورة على وُلاة الدولة الأمويّة وللانقلاب عليهم.

والمعنى: إنّ فرعون قد تجاوز حدّه في التّعالي على النّاس الذين يحكمهم بالقهر، والجبروت، وهذا من الطغيان، وقد قسّم محكوميه إلى طوائف: منهم المقرّبون من الأشراف، ومنهم الرعاع، ومنهم الخَدَم والمسخّر للأعمال الشاقّة من مثل العبيد. والطائفة المستضعفة من محكوميه – وجلّهم من بني إسرائيل الذين سكنوا مصر في عهد يوسف عليه السلام ثمّ اِستقرّوا فيها وتكاثروا بتناسلهم – كان يذبح أبناءهم الذكور ليقطع نسلهم، ويبقى على المواليد الإناث فلا يقتلهنّ ليَكُنَّ خادمات لبيوتهم ولمفاسدهم، إنّ فرعون كان من المفسدين في الأرض بسبب طغيانه وظلمه وبطشه بالمستضعفين.

- وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ (5) :

(وَنُرِيدُ) هي إرادة الله تعالى ومشيئته وقضاؤه. إنّه سبحانه وتعالى لا يرتضي أن يُظلم عباده الضعفاء لأنّه سبحانه العَدْلُ، ووليّ المستضعفين، ومجير المظلومين، ووكيل من لا سند له ولا حول له ولا قوّة.

والمعنى: وقضى الله تعالى أن يَمُنَّ على عباده المستضعفين في الأرض المقهورين بأن يخلّصهم من ظلم الظالمين المتجبّرين، وبأن يرفع شأنهم فيجعلهم ناجين ومنصورين بنصر الله تعالى لهم على مَنْ ظلمهم بتقديره، ويهلك أعداءهم بآية من عنده تعالى، وبأن يجعلهم قوما هداةً آمرين بالمعروف، وناهين عن المنكر، وبأن يملّكهم أرضا واسعة يعيشون فيها آمنين مطمئنّين.

- وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ (6) :

وقضى الله تعالى أن يثبّت أقدامهم ووجودهم في مكان من الأرض، فيجعل لهم وَطَنًا وسلطانا، ويُرِيَ فرعون ووزيرَه ومستشاره هامان وجنودهما من هؤلاء الذين كانوا عندهم مستضعفين ومحتقرين وأذلاّء عندهم ما كانوا يخشونه منهم. كان فرعون قد رأى في منامه رؤيا فسّرها له كهنتُه بأنّ هلاكه سيكون على يد فتى من بني إسرائيل سَيُولَدُ، فقضى فرعون عندها بأن يُقتل كلّ مولود ذكر يولد من بني إسرائيل، وأرسل عيونا له لِتَرَصُّدِ كلّ اِمرأة حامل من بني إسرائيل حتى إذا وضعت كانوا على رأسها فإن أنجبت ولدا قتلوه، وإن كانت المولودة أنثى تركوها لها. وفي تلك الفترة حملت أم موسى فتخفّت على الأعين، ولم تظهر حتى عند الجيران والأقارب

خوفا من الوشاية ونقل الخبر فتكون محلّ متابعة أعين فرعون، حتى وضعت مولودها سرّا، فما كان يعلم بأمرها، وما كان معها إلاّ اِبنتها أخت موسى وهارون الذي وُلد قبل ولادة موسى.

- وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ **(7)** :

هذه الآية إلى الآية 43 في عرض لعناصر من حياة موسى عليه السلام، تتلوها آيات أخر في بيان أغراض هذا العرض إلى الآية 55 في عنصرين أساسيين: وُجّه الخطاب في العنصر الأوّل للنبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم، ووجّه الخطاب في العنصر الثاني لبني إسرائيل.

والوحي إلى أم موسى الوارد في هذه الآية ليس بمثل معناه الذي يكون مع الرّسول، وإنّما هنا هو بمعنى الإلهام. وحكى الأصمعي عن جارية أعرابية أنّها قالت في هذه الآية: جمع الله تعالى في هذه الآية: خبريْن، وأمريْن، ونهييْن، وبشارتين. قصدت بالخبرين: (وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ) و(فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ). وأمّا الأمران فهما في قوله تعالى : (أَرْضِعِيهِ) و(فَأَلْقِيهِ)، والنهيان في : (وَلَا تَخَافِى) و(وَلَا تَحْزَنِىٓ)، والبشارتان في: (إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ) و(وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ).

والمعنى : وألهمنا أم موسى (قد يكون هذا الإلهام بما رأته في منامها ممّا يجب عليها فعله ممّا جاء في هذه الآية) أن أرضعي وليدك حين تضعينه سرّا، ومتخفية عن أعين جواسيس فرعون والوشاة (قيل أرضعته ثلاثة أشهر أو أربعة)، فلمّا خافت أن يكشف أمرها، وخافت على وليدها عملت بما ألهمت به: أرضعته جيّدا ثمّ وضعته في صندوق صُنع من بَرْدِي أعدّته أخته عند أحد الصنّاع، ودهنته من الداخل بالقار، وهي مادة شبيهة بالزفت، ثمّ وضعت فيه الوليد، وألقته في نيل مصر، (وهذا من أعظم البلاء على الأم! فما أعظم ما يُبتلى به المقرّبون عند الله عزّ وجلّ ورسله!). وأُلهمت بأن لا تخاف عليه من الغرق والهلاك، وبأن لا تحزن على فراقه فإنّه سيعاد إليها، وسيردّ إليها بعد حين، وبشّرت بأنّه أُصْطُفِيَ لأن يكون رسولا من رسل الله الهادين النّاس لدين الله القويم (وهذا من أعظم البشائر).

- فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ **(8)** :

واِلتقطت جارية من جواري زوجة فرعون التابوت، فحملته إلى سيّدتها، فلمّا فُتِح لها فوجئوا بوجود صبيّ داخله، وقذف الله تعالى محبّته في قلب زوجة فرعون، فرغبت في تبنّيه، ولمّا عرضت الأمر على زوجها رَجَوا أن يكون لهما هذا الفتى قرّة عين لهما (وقد مضى ذلك في سورة "طه") رغم أنّ فرعون كان يتشاءم من صبية بني إسرائيل على ما رآه في منامه. ما أعجب قضاء الله عزّ وجلّ وتقديره!



وقضى الله عزّ وجلّ أن يكون هذا المولود الذي اِلتقطوه من اليمّ عدوّا لفرعون وملئه في الدّين، ويسبّب لهم الحزن بهلاكهم. إنّ فرعون وهامان وجنودهما كانوا آثمين بظلمهم للمستضعفين، وعصاة مذنبين بما يفعلون في الصبية من بني إسرائيل : ذكورا وإناثا.

وممّا يجب الاعتبار به من هذه الآية: أنّ أمر الله تعالى نافذ، ولا رادّ لقضائه، وأنّ له سبحانه وتعالى تقديرا عجيبا في تصريف أمر إنفاذه لحكمه. ألا ترى كيف جعل العدوّ يأوي إليه عدوّه الذي سيظهر له عداوته في الدّين، وسيكون سببا في هلاكه وحزنه، آواه في قصره، وأنشأه في بلاطه وعنايته من حيث يرجو أن يكون قرّة عين له! ومن المستفاد من الآية أنّ نهاية الظالم لعباد الله المستضعفين مأساوية، فالله سبحانه وتعالى ذو اِنتقام من الظالمين، يعذّبهم بعذاب الإذلال والقهر في دنياهم، ولهم في الآخرة عذاب أشدّ وأنكى. فهلاّ اِعتبر حكّام البلدان بهذه العاقبة التي انتهى إليها فرعون وجنده ليتّقوا الله تعالى في المحكومين. ولنا في تاريخنا الكثير من وجوه الاعتبار بسوء عاقبة الحاكمين الظالمين.

- **وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ (9) :**

ولمّا جيء بالصبيّ لآسيا زوجة فرعون، ورأته سُرّت به وأحبّته، وعرضت على فرعون أن تتبنّاه، وأن تُرَبِّيَهُ عندها، وألحّت عليه بأن لا يقتله لأنّه لم يغب عنها وعنه من ملامح الصبيّ أن يكون من بني إسرائيل وكان فرعون يتشاءم من صبيانهم لتلك الرؤيا التي رآها في منامه، ألحّت عليه بأن لا يفعل آمِلَةً أن يكون سببا في إدخال السرور عليهما وإدخال البهجة عليهما في حياتهما وبيتهما، وأن ينفعهما عند الحاجة. رجته بأن يسمح لها بتبنّيه، والحال أنّهم لا يشعرون بأن سيكون مصدر همّهما وسببا في هلاك فرعون وجنده ولا يعلمون ما يخفيه الغيب لموسى ولفرعون وملئه. ولا يعلم الغيب إلاّ الله سبحانه لأنّ الغيب خاضع لإرادته وتقديره وسابقِ عِلمه، والإنسان مسَيَّرٌ لما قُدِّرَ له. وجاءت جملة (وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ) في صيغة الجمع ليشمل الكهنة والسحرة والملأ من آل فرعون، فجميعُهم لم يشعروا بما ستحمله لهم الأيّام في مستقبلها.

- **وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (10) :**

(وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا) قال المفسّرون في تفسيرها أقوالا. ذهب ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة، وهم من الصحابة أنّها بمعنى: بعد أن ألقت أم موسى وليدها في اليمّ صار فؤادها خاليا من ذكر كلّ شيء إلاّ من ذكر موسى (رواه القرطبي في تفسيره ج13 ص355).

وقال أبو عبيدة: "أصبح فؤادها فارغا من الغمّ والحزن لعلمها بأنّه لم يغرق".



وقال الكسائي (من القرّاء): أصبح فؤادها ناسيا ذاهلا، وَالِهًا. وعن اِبن القاسم (الفقيه المصري) عن مالك (بن أنس صاحب المذهب المالكي) أنّه قال: "الفراغ هنا ذهاب العقل"، والمعنى: أنّها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والدهش، وذلك أنّ القلوب مراكز العقول، وعلى هذا ذهب الزمخشري في (الكشّاف ج3 ص158) وقال القرطبي (المرجع السابق): بطل قلبها وذهب لا قلب لها من شدّة ما ورد عليه".

وعموما فإنّ المعنى يدلّ على شدّة تأثّرها بفراق اِبنها، وبإلقائه في اليمّ، فجعلها في ذهول وشرود ووجوم لا تعي بما يحدث من حولها، وهذا بلا شكّ من عظيم الكرب والهمّ الذي أصابها، وما كانت تستطيع أن تحتفظ به عندها خوفا عليه من الذبح على أيدي أعوان فرعون الذين كلّفوا بذبح كلّ صبيّ ذَكَرٍ يولد في بني إسرائيل. وصارت هذه الجملة مثلا يجري على ألسنة بعض العرب للدلالة على الذهول والحيرة وضياع التركيز في كلّ قول أو عمل. (إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا) ولمّا كانت هي مرضعة موسى وكان تردّدها على القصر كثيرا، أو تردّد الجواري المتوالي عليها لتفقّد الرّضيع كانت تسمع منهنّ نسبة موسى إلى فرعون، يَقُلنَ عنه : اِبن فرعون... وكان هذا ممّا يؤذيها ويثيرها، وتكاد تفضح أمرها، وتصرّح بأنّه اِبنها، وأنّها أمّه التي ولدته لولا أن ثبّتها الله تعالى وقوّاها بالصبر حتى ترى في مستقبل الأيّام منه ما يُثلج صدرها لتكون من المصدّقين بوعد الله تعالى، وبالبُشرى التي تلقتها، والإيمان في هذه الآية مستعمل في معنى التصديق، وليس بمعنى التحوّل من الكفر إلى الإيمان لأنّ أم موسى كانت من المؤمنات الصادقات من بني إسرائيل على ملّة آبائها: إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

- وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ **(11) :**

وقالت أم موسى لابنتها أخت موسى حين ألقت بموسى في نهر النيل: تابعي مسير الصندوق – وقد كان على حافّة النّهر – دون أن يشعر بك أحد حتى تعلمي ما يحدث له وبِيَدِ مَنْ يقع، ولمّا وقع بأيدي جواري آسيا اِمرأة فرعون لم يشعرن بوجود أخت موسى ولم يَرَيْنَهَا.

- وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ **(12) :**

وقدّر الله تعالى لهذا الوليد الرّضيع رفض اِلتقام كلّ ثدي قُدِّمَ له ليرضع منه، فاضطرّت اِمرأة فرعون لأن تبحث له عن مرضعة، عندئذ تقدّمت أخت موسى فأشارت على المنادين عن المراضع إلى بيت أمّه، ومدحتها لهم: إنّها اِمرأة ناصحة وخدومة ومتخلّقة وتحسن كفالة الصبية من غير اِستغلال، أو طمع. وما كان رفض موسى لكلّ ثدي قُدّم له إلا من حكمة تقدير الله عزّ وجلّ حتّى يردّ الفتى لأمّه، ويحقّق وعده لها بردّه إليها. سبحان الحكيم العليم.

- ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (13) :

وعُرض ثدي أم موسى على الصبي فقبله، ورضع منه واِرتوى وسكت عن بكائه وصراخه ونام في حضن أمّه. سرّت بذلك اِمرأة فرعون فسلمته للمرضعة وأوصتها به خيرا ووهبتها ما وهبت. وكذا ردّ الله تعالى موسى إلى أمّه كي تسرّ به ولا تألم لفراقه ولتتأكد أنّ وعد الله ثابت وواقع لا ريب فيه. وكذا قضى موسى فترة رضاعه عند أمّه ومع أخيه هارون وأخته في بيتهم.

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (14) :

ولمّا بلغ موسى نهاية نموّه، وقوّة بدنه، واِكتمل عقله ورشده، (وَٱسْتَوَىٰ) وصار قادرا على قيادة أمّة وتوجيهها والحكم فيها بحسن التدبير وبالحزم والعزم آتاه الله تعالى (حُكْمًا) النّبوّة، والسلطان، و(وَعِلْمًا) وتفضّل عليه بالعلم الشرعي، والحكمة في العمل بالأحكام الشرعية، وفي الطاعات الإلاهية. وهكذا يكرم الله تعالى من حَسُن معتقده ودينه، وحَسُن عمله، وأخلص في الطاعات.

ولقد جاء في (سورة يوسف الآية 22) قوله تعالى : (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) دون ذكر لفظ (وَٱسْتَوَىٰ) كما جاء في هذه الآية من سورة القصص.

- ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ (15) :

ودخل موسى ذات يوم المدينة خفية في وقت تكون فيها شبه خالية من نشاط سكّانها من مثل زمن القيلولة الحارّة، فوجد في طريقه شخصين يتخاصمان بشدّة: أحدهما من بني إسرائيل، والآخر قبطي مصري، فطلب الإسرائيلي دعمه وإغاثته ليقوّيه على عدوّه، فتدخل موسى بينهما ووجّه للمصري ضربة بقبضة يده على صدره، فكانت الضربة قويّة خرّ على أثرها الرجل قتيلا، وقضى عليه. فلمّا رآه موسى ميّتا ندم ندما شديدا عمّا فعل فقال هذا من أثر عمل الشيطان في نفسي حين أثار غضبي الشديد، وضيّع عليّ الأناة ومعالجة الأمر بالحسنى إنّ الشيطان عدوّ للإنسان، يدفعه للعمل الذي يغضب الله تعالى، وللمعصية الواضحة.

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (16) :

وشعر موسى بذنبه فسارع للإنابة لربّه يطلب مغفرته عن معصية قد اِقترفها على وجه الخطإ، لم يكن يريدها، وأقرّ لربّه بأنّه قد ظلم نفسه بإتيان عمل شنيع، فأكرمه تعالى بأن غفر له عمله فإنّه سبحانه كثير المغفرة لعباده المؤمنين المنيبين إليه بالتوبة، وهو كثير الرّحمة بهم لا يؤاخذهم عمّا فعلوا من سوء عن غير قصد سيّء.



- قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ (17) :

واصل موسى دعاءه لربّه فقال ربّ بما تفضّلت به عليّ من الاهتداء للإقرار بذنبي، وللتّوبة، وطلب المغفرة على ما أرشدت إليه المؤمنين إذا أذنبوا للإسرار للتوبة وللإنابة وطلب المغفرة، فلن أكون مستقبلا معينا ولا ناصرا لأهل الخصومة.

- فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ (18) :

وأصبح موسى في اليوم الموالي من الحادثة في المدينة خائفا من ترصده للقبض عليه لمحاكمته، وفي حكم المصريين فإنّ كلّ من يقتل مصريا وهو من غير المصريين والسكّان الأصليين للبلاد يُعْدَم. وأصبح ينتظر الأخبار ويتنصت لما يقال عن القاتل والقتيل في أوساط النّاس، فإذا هو يفاجأ بالاستغاثة به عن بعد بصوت مرتفع ويناديه لينصره على خصمه، فلمّا اِلتفت لمناديه وجده نفس الرّجل الذي اِستغاثه بالأمس وكان سببا لقتل القبطي على وجه الخطإ، فقال له موسى: إنّك رجل بعيد عن الرّشاد، وإنّك رجل مشاكس وكثير الخصومات، ولا تدفع إلاّ للوقوع في الزّلل الواضح، وإنّك شيطان غويّ من شياطين الإنس المضلّين.

- فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ (19) :

ولمّا همّ موسى بالتدخّل لفضّ النّزاع وفكّ الاشتباك، ولمّا كان موسى قويّ البنية وكان قد تدرّب على فنون القتال في قصر فرعون على عادة القوم، إستعان بقوّته للفصل بين الاثنين، وإبعادهما عن بعض، فتوهّم الإسرائيليّ لمّا سمع من موسى تأنيبه ووصفه له بالغويّ المبين أنّه يريد البطش به، ولمّا كان فاسد الخُلق وكثير الشّجار والخصومة قال لموسى مذعورا، أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس، فأفشى بهذا الاتّهام السرّ الذي كان بينهما. وكان القتيل القبطيّ خبّاز فرعون، وقد أحرج أعوان فرعون وجندهم أن يخفى عليهم القاتل لأنّ عدم كشفه يدلّ على تقصيرهم، وأنّ كشفه يدلّ على حزمهم. وما كان هذا الإفشاء للسرّ من الإسرائيليّ إلاّ من فساد طبعه، ومن فساد خلقه، وطار بهذا الإفشاء خبر قتل موسى للقبطيّ فصار مطلوبا للقضاء، ولمّا كان القتيل قبطيا وكان القاتل إسرائيليا فإنّ الحكم في القضية يقضي بإعدامه. وإنّ من سفهِ عقل الإسرائيلي المستغيث بموسى ونذالته أنْ وصفَ ناصره بالأمس بأنّه يريد أن يكون جبّارا في الأرض – والجبّار هو الذي يريد الشرّ بالنّاس باستعمال القوّة والشدّة والعنف– واتّهمه بأنّه لا يريد أن يكون من المصلحين بين النّاس بالحسنى وبالمعروف، وهما اِتّهامان لا يزيدان موسى إلاّ

تورّطا وشرّا، وهذا من عمل اللئيم. وقديما قيل: "... وإن أنت أكرمت اللئيم تمرّدا" وقيل : "اتّق شرّ من أحسنت إليه" إن كان من اللئام.

- وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ (20) :

وقدم إلى المدينة رجل من آل فرعون كان يكتم إيمانه، وكان يعرف موسى حين كان في القصر، وقصر فرعون كان في منطقة (أُقْصُر)، وأقبل موسى فأعلمه بأنّ أشراف الدولة يتشاورون في أمره، وأنّهم يضمرون له كيدا ويحبكون له مؤامرة ليوقعوه فيها قصد التخلّص منه بإعدامه، ونصحه بالخروج من أرض مصر سريعا وفي تخفّ، وأنّه لم يرد له بهذا المقترح إلاّ خيرا لصالحه.

لم يكن لأولئك علمٌ بعدُ بقتل موسى للقبطي. لو كانوا قد علموا لقبضوا عليه ونفّذوا فيه أمرهم، كانوا فقط يبحثون له عن ذريعة للفتك، فلذلك جاءه هذا الرّجل، وصادف أن لقيه عند إفشاء خبر الحادثة. وهذا من تقدير الحكيم العليم المطّلع على السّرائر، وإنّه تعالى برحمته يسخّر عبدا من عباده لينفّذ الأمر الذي قضاه حفظا لعبده أو عباده المؤمنين.

- فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ (21) :

فسارع موسى بالخروج من أرض مصر خائفا من أن يدرك فيقبض عليه ويردّ إلى القوم ليفتكوا به، وكان يحترس من أن يراه أحد أو يرقبه أو يتعقّبه، وهو يدعو ربّه أن ينجيه من القوم الظالمين ليحفظه ويستره حتى يخرج من البلاد إلى أرض في بلد آخر.

- وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (22) :

وتوجّه في طريق هجرته لخارج مصر باتّجاه قرية مدين، وهي قرية شعيب عليه السلام، ودعا ربّه أن يوجهه وأن يرشده للطريق الخالي من العقبات والذي فيه نجاته.

- وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) :

ولمّا بلغ بئرا كان القوم يسقون منه أنعامهم، وجد حوله جماعة كبيرة من النّاس يسقون أنعامهم، ووجد اِمرأتين بعيدتين عن الجمع تنتظران مغادرتهم للمكان لتتقدّما لسقي أنعامهما، وكانتا تمنعان أغنامهما عن الاختلاط بغنم الآخرين وعن الاستباق لماء البئر. اِقترب منهما موسى وسألهما عمّا يمنعهما من سوق أغنامهما للسقاء، فقالتا لا نسقيها حتى يصرف الرعاة مواشيهم ويرجعوا بها، وأبونا شيخ كبير لا يقدر على ورود البئر، ولا على سوق مواشيه، ولا على الرعي. ذكر ابن العِبري في تاريخه : "شعيب" عند اليهود اِسمه : يثرون بن رَعْوِيل، له سبع



بنات. واِسم المرأتين اللتين خرجتا للسقي هما (ليّا) و(صفُّورة). وذكر ابن عاشور في تعقيبه على هذه الآية في تفسير "بجواز معالجة المرأة أمور مالها، وظهورها في مجامع الناس إذا كانت تستر ما يجب ستره، فإنّ شرع من قبلنا شرعنا، ولم يأت من شرعنا ما ينسخه". ولم تعد هذه المسألة تثار في عصرنا لم تعد تثار مسألة تشغيل المرأة وتعليمها ومشاركتها في الحياة السياسية وفي جميع مجالات الحياة والأنشطة الاجتماعية، وقد غزت المرأة جميع مجالات الحياة التي كانت تُعدّ من خصائص الرجال، وأثبتت جدارتها في العمل والتوجيه والتنظيم والتعليم والتطبيب ونجحت في كلّ ميدان اِقتحمته.

- **فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ (24) :**

فساق أغنامهما للبئر، وسقاها لهما، فلمّا اِنصرفتا اِتّخذ مكانا تحت ظلّ شجرة للاستراحة وما كان معه من زاد، فالتجأ إلى الله عزّ وجل يطلب عونه ورزقه. كان في دعائه أدبٌ، إذ اِفتتحه بالثّناء عليه بأنّه قد تفضّل عليه بالخير، وبالإنعام، ولكن مع هذا الإنعام ما يزال يفتقر إلى رحمته ومزيد فضله ليأوي إلى مكان آمن، وليجد طعامه وشرابه، وعبّر بدعائه عن حاجته لربّه.

- **فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (25) :**

ولم يلبث زمنا طويلا حتى أقبلت عليه إحدى المرأتين: قيل هي : "صفوريا" في مشية المحتشمة والخجولة، فقالت له إنّ أبي يدعوك لضيافته ليمنحك عن ما سقيت لنا أجرك. لا شكّ أنّ المرأتين حينما عادتا باكرا للحضيرة على غير عادتهما، أخبرتا أباهما بما حصل معهما مع هذا الرجل الغريب الذي كان شهما فأخذ عنهما الأغنام وسقاها لهما مع جمع الرعاة، ولم يتركهما تنتظران حتى ينصرفوا، فأحبّ شعيب أن يتعرّف عليه ليشكره على ما فعل، ولم يكن لشعيب ولد، ولا خادم، ولا زوج بنت، فقد يلقى من هذا الرجل الشهم ما يعينه على قضاء الحاجة. ولمّا تقابل موسى مع شعيب أخبره بقصة حياته، وبسبب خروجه من أرض مصر، فطمأنه شعيب على نفسه وأمّنه على حياته معه، وبأنّه قد تخلّص من تهديد القوم الظالمين.

- **قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ (26) :**

قالت إحدى المرأتين لأبيها: اِتخذه أجيرا عندك وراعيا للأغنام والقيام بالشؤون التي نحتاجها فإنّه يبدو قويّا قادرا على العمل، وإنّه أمين على المواشي يحسن التعامل معها.

- **قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (27) :**



وعرض شعيب على موسى أن يزوّجه إحدى إبنتيه بشرط أن يعمل عنده ثماني سنوات راعيا للمواشي، وهذا هو مهر إبنته لتحلّ له زوجة، وأضاف فإن زدت عليها سنتين فذلك من إحسانك ومن المروءة، وليس من الشرط، ولست أريد أن أشدّد عليك في العمل، ستجد عندي المعاملة بالحسنى إن شاء الله، ولن تشقى معنا. وهذا من خلق النّبوّة والسماحة. واِستنبط الفقهاء من هذه الآية جواز أن يختار الوليّ لابنته الرّجل ليزوّجها له إذا رأى فيه من الدّين والخلق والسعي إلى العمل ما يجعله يطمئنّ على مستقبل إبنته عنده.

- قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ(28) :

ووافق موسى على العرض، وعلى الشرط للزوّاج بالإجارة على أحد الأجلين: فإذا قضى ثماني سنوات فقد وفّى بالعهد، وبرئت ذمّته، وإن زاد عليها سنتين فليس له أن يطلب عنهما أجرا عن عمله. وأشهد الله تعالى على العهد الذي بينهما للوفاء به، وجعل موسى الله تعالى وكيلا يوكل إليه الأمر، ويُعهد عليه عند الخُلف بالعهد.

وحين يتعمّق المؤمن في تحليل سير هذا الحدث: خروج موسى هاربا من مصر دفعه إليه رجل من آل فرعون ساقه إليه الله تعالى، ثمّ بلوغ موسى إلى مدين كان مُوَجَّهًا بتقدير من الله عزّ وجلّ حتى بلغ البئر، فكان له أن يلتقي بشعيب النّبيّ عليه السلام، فإذا به يعرض عليه الزواج من إحدى اِبنتيه فوفّر الله تعالى له المكان الآمن، والملاذ الآمن، والزوّاج بابنة نبيّ، فانظر في تقدير الله عزّ وجلّ وفي حكمة تسيير أمره.

- فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29) :

فلمّا وفّى موسى بعهده الأجل المتفق عليه، وزاد عليه مازاد من مروءته، خرج بأهله: زوجته ومعهما ابنهما من مدين راجعا إلى أهله بمصر، وفي الطريق وحينما أرخى الليل سدوله وكان الطقس باردا أبصر موسى عن بُعدٍ نورًا، اِستبشر برؤياه فقال لزوجه: ابقوا هُنا، فلقد رأيت نورا صادرا عن نار متّقدة، سأتوجّه إليه عساني أجد عند النّار من يرشدني للطريق، أو أحصل على قطعة غليظة من الحطب المشتعل لنوقد بها نارا نتدفّأ بها.

- فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (30) :

وهكذا تُسيّرُ القدرة الرّبانية الإنسان. أراد موسى أمرا، وشاء الله تعالى أمرا آخر. وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. لمّا اِقترب موسى من المكان الذي تهَيَّأ له أنّ فيه نارا تتّقد نودي باسمه



من جانب الوادي على يمينه في المكان المقدّس حيث الشجرة، وَوَجد موسى هناك في نفسه أنّ الله يُكَلِّمُهُ، وسمع موسى الصوت يقولُ لهُ بأنَّ مُكَلِّمَهُ هُو اللّهُ ربّ العالمين عزّ ذكره.

- وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ (31) :

وأمره الله جلّ وعلا بأن يرمي عصاه على الأرض. فلمّا رماها تحوّلت، رآها تتحرّك وتهتزّ بقوّة كأنّها جانّ فخاف موسى وهرب سريعا دون أن يلتفت وراءه من شدّة ذعره، فنودي عليه بأن لا يهرب وبأن يعود إلى حيث كان، وطمأنه بأنّه آمن على نفسه من كلّ ضرّ.

- ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ (32) :

وأمر موسى بأن يدخل يده في جيب صدره في فتحة الثوب العليا حيث يدخل الرأس. فلمّا فعل خرجت يده بيضاء من غير برص. وقد كان موسى أسمر البشرة – وأمر بأن يضمّ يديه للتّأدب، وليحسن الإصغاء لما سيؤمر به – وقد كنّا في صغرنا نؤمر من معلّمينا أن نضمّ أيدينا، وأن ننتبه لما سيقال لنا أو سيشرح لنا لنحسن الإصغاء والفهم، فتعلّمنا بهذا الانضباط والتركيز في تلقي القواعد العلمية، ويعرف المعلّم التلميذ شارد الذهن من عدم الضمّ فيسرع لتنبيهه للتركيز على الدرس، أو ربما دعاه لمكتبه ليسأله عمّا يشغل باله ويشرده فيكشف المعلّم بهذا مرضه وعلّته أو سوء تغذيته وقلّة نومه أو تعبه أو عقده من المشاكل العائلية التي يعيشها في بيته.

وأبْلَغَهُ الله جلّ وعلا بأنّ عصاه، وإخراج يده بيضاء من غير سوء من جيبه هما معجزتان ودليلان على صدق إرساله إلى فرعون وملئه من ربّ العالمين لدعوتهم للاستقامة على الدين الحقّ لأنّهم قد خرجوا عنه إلى الادّعاء الباطل في تأليه من لا حقّ له في الألوهية.

- قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (33) :

وعبّر موسى لربّه أن سبب تخوّفه من الظهور في بلاط فرعون هو أنّه مطلوب لديهم للقضاء فيه بإعدامه لأنّه قتل مصريا على وجه الخطإ.

- وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ(34):

وسأل موسى ربّه أن يدعّمه بإرسال أخيه هارون معه إلى فرعون وملئه برسالته ليكون له عونا وسندا، ولأنّه أفصح لسانا منه – فقد كان في لسان موسى رتّة – وبهذا يوضّح ما يقوله، وعبّر لربّه عن تخوّفه من أن يكذّبوه فلا يسمعون له، ولا يصدّقون رسالته.



- قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ (35) :

وتفضّل عليه ربّه بالاستجابة لطلبه لتأييده، وقضى بتقويته وإعانته بأخيه، وبشّره بأنّه تعالى سيؤيّدهما بالحجّة والمعجزة وبالغلبة فلا يقربهما فرعون وملؤه بأذى بما يؤتيهما الله من أسباب الحفظ والمنعة، وسيكونان مع من اِتّبعهما من المؤمنين من الغالبين والمنتصرين عليهم.

- فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ (36) :

ولمّا قابل موسى فرعون وملأه، وأخبره برسالته، وأظهر لهم مؤيّدات صدقه بما آتاه الله تعالى من معجزة واضحة، أنكروا عليه أن تكون دلائله من عند الله، واِتّهموه بإتيان السحر والشعوذة الكاذبة، واِتّهموه في صدقه بدعوى أنّهم لم يعلموا من آبائهم السّابقين أنّ الله عزّ وجلّ يبعث رسلا.

- وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (37) :

وأجاب موسى عن هذا الاتّهام بأنّ الله تعالى أعلم من الجميع بمن جاء بالرّشاد وبالحقّ من عنده، وإنّ الله جلّ وعلا أعلم بمن سيكون له النّصر والغلبة والتأييد، وإنّ الكاذب والظالم لابدّ أن يكشف أمرُه ويُفضح، ولن يفوز بالنّجاة من فضح كذبه وظلمه. وفي هذه الإجابة الكثير من الفطنة. فيها اللّين في القول، وفيها الشهادة بالله وتفويض الأمر إليه لتأييد المحقّ والصادق، وبهذه الشهادة بربّه نفى الألوهية عن فرعون، وفيها الوعيد بأمر الله وقضائه، وفيها التّعريض بسوء عاقبة الظالمين، ولم يكذّب الملأ في اِتّهامهم، ونفى عنهم الهدى دون أن يُثير حمية أحد أو غضبه، ودون أن يدخل في الدفاع عن نفسه أو مجادلة، وقطع بهذا عنهم كلّ قول.

- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (38) :

هذه الآية ممّا يُستشهد بها على طغيان فرعون، وعظيم كبريائه، فقد قام في الملإ محذّرا بتذكيرهم بأنّه ليس لهم من إلاه يُطاع ويقدّس غيره، وبأنّه ليس له علم بوجود إلاه للقوم غيره. جاء في(النازعات الآيتان 23-24) (فَحَشَرَ فَنَادَىٰ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ). ولم يكن يقصد بأنّه الخالق وإلاّ لَلَزِمَهُ الدليلُ، ولكن كان يقصد أنّه لا يُقدّسُ غيره، ولا يخشى أو يُطاع أحدٌ غيره. وأمر وزيره هامان بأن يصنع له طينا مطبوخا للبناء (وهو الأجر عندنا، وقيل: الفراعنة أول من صنعوه واِخترعوه). ليبني له به بناية عالية شاهقة (وتشهد الآثار الفرعونية المصرية: الأهرامات بأنّه كان



فيهم صنّاعٌ ومهندسون فنّانون ومهرة لم ينافسهم في براعتهم في بناء أمثالها أحد). وعلّل طلبه هذا العجيب بأنّه يريد أن يطلع إلى إلاه موسى ليتعرّف عليه، وهو متأكّد من أنّ موسى من الكاذبين في ما جاء به من وجود إلاه غيره هو الأحقّ بالألوهية والطاعة.

- وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39) :

ولقد طغى فرعون وجنوده في أرض مصر، وتجبّروا، وظلموا النّاس وقهروهم، وأذلّوهم، وسخّروهم لأعمالهم بدون أجر، وظنّوا أنّهم مانعون من محاسبتهم على ظلمهم، من ظنّهم الخاطئ بأن ليس لهم رجوع إلى الحياة بعد موتهم للحساب.

ومن المُستفاد من الآية أنّ من فضيلة الإيمان بيوم الحساب واِعتقاده هو ردع الظالم عن التمادي في ظلمه، وحفز العاصي للكفّ عن معاصيه.

- فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ (40) :

ولقد اِنتهى الأمر بفرعون وجنوده أن سيّرناهم إلى عمق نهر النّيل. فلمّا صاروا فيه أغرقناهم ولم نخرجهم منه أحياء، فتأمّل كيف كان عاقبة الذين ظلموا أنفسهم بالكفر وبتكذيب الرّسل للاعتبار.

- وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ (41) :

وجعلنا هؤلاء المغرقين قادة ورموزا يوجّهون أتباعهم إلى الهلاك ولأن يكونوا من أهل النّار، ويوم القيامة لا يجدون من ينقذهم من العذاب أو يجيرهم منه.

- وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ (42) :

وألحقنا بهم في دنياهم اللعنة، فلا تلحقهم الرّحمة بل طردوا منها وأبعدوا عنها، ويوم القيامة تُشَوَّهُ خلقتهم لتقبيح مناظرهم لإذلالهم، وليكونوا من المُبعدين.

- وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (43) :

وبعد الخلاص من فرعون وجنوده وأعوانه، ومن قبله أهلكنا الأمم السالفة من أهل الكفر والعصيان وتكذيب الرّسل، تفضّلنا على موسى بأن آتيناه التوراة، وهو كتاب أنزلناه ليكون مصدر ضياء للمؤمن به وقارئه للاهتداء به لتنوير العقل، وجعلنا ما فيه عبرا للاتعاظ بسوء عاقبة الكافرين الضالّين، ورحمة للمؤمنين بما فيه من بشائر لهم بالخير وحسن العاقبة وبالأمان من العذاب رجاء أن يتذكّر بها الذّاكرون فيؤمنوا، ولا يضلّوا، ولا يعصوا الله تعالى فيما أمر.

وبهذه الآية يختتم عرض هذه النّبذة من قصة موسى مع فرعون والتي جاءت لبيان ما جاء في مقدّمة السورة في المنّ على الذين اِستضعفوا في الأرض، وجعلهم أيمّة، وجعلهم الوارثين للعلم، وفي تنفيذ وعيد الله في فرعون وهامان وجنودهما الذين أنذروا به ولكنّهم اِستحقّوا به.



• وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (44) :

الخطاب في هذه الآية لغاية الآية 61 موجّه للنّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم. الفقرة الأولى منها للآية 55 لحضّ بني إسرائيل ومشركي قريش على التّصديق بهذا النّبيّ. وآية صدقه أنّه جاءهم بخبر موسى لِمَا كان في ميلاده ونشأته وزواجه وبخبر رسالته وإنزال الكتاب عليه بعد هلاك فرعون وجنده، وهي أخبار يعلم علماؤهم صدقها، وما كان لهذا النّبيّ أن يأتي بها لو لم يُوحَ إليه بها وهو النّبيّ الأمّيّ الذي كان يجهل قبل بعثته الأديان وأخبار الأنبياء والرّسل. فهذا التّذكير بشيء من قصة موسى من دلائل صدق هذا النّبيّ، وقد أُخِذَ على بني إسرائيل العهدُ من قبل أن يؤمنوا بمن يأتيهم من رسل الله وبأن يؤيّدوهم إذا علموا صدقهم.

وأمّا الفقرة الثانية للآية 61 ففي وصف الذين لا يستجيبون لدعوة هذا النّبيّ من العرب. والمعنى: وما كنت – يا محمد – حاضرا أو شاهدا عند الوادي أو بجانب الجبل لتنقل خبر كلام الله تعالى لموسى حين كلّفه بالرّسالة لتنقل خبر ذلك للنّاس، وما كنتَ من أهل زمانه، وإنّما هذا وحيٌ من عند الله ليتبيّن الجميع بالحجّة الدامغة بصدق الخبر بأن ما تتلوه هو وحي من عند الله عزّ وجلّ حقّا وصدقا، وأنّك رسول الله. وفيها حفز للعرب للإيمان وللعمل للآخرة.

• وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45) :

ولقد أُخِذَ العهد على بني إسرائيل في التّوراة والإنجيل ليؤمنوا بالرّسول النّبيّ الأميّ الذي سيأتيهم. قال تعالى: (ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ) (الأعراف الآية 157) ولكن إنقضت أمم وزالت، وتباعد عليهم العهد والزّمن فنسوا ما عاهدوا الله عليه. وما كنت مقيما فيهم كمقام موسى ومقام شعيب لتذكّرهم بالوعد والوعيد والعهد، ولكنّا قد قضينا أن نرسل رسلا لهدي النّاس، وأرسلناك – يا محمد – في أهل مكة، وآتيناك فيه هذه الأخبار لتأييدك.

• وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (46) :

وما كنت – يا محمد – بجانب الجبل حين نادينا موسى لمّا أتى الميقات مع السبعين رجلا، ولكن أوحينا إليك بهذا رحمة بالنّاس للعلم، وللاعتبار لتحذّر قوما لم يأتهم قبلك من رسول يحذّرهم من عاقبة الكفر والمعصية عساهم يثوبون لرشدهم فيتوبوا وتخبت قلوبهم وليستقيموا على الدين الحقّ وعمل الصالحات.



- وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (47) :

لولا أن يقول النّاس حين ينْزل بهم سخط الله وعذابه بسبب كفرهم، لو أنّ الله أرسل إلينا رسولا للاهتداء قبل نزول العذاب لكنّا مؤمنين، وما نزل علينا سخط الله، ويظنّون أنّ هذا عذرٌ لهم، وما هم بمُعْذَرين.

- فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ (48) :

فلمّا جاءهم محمّد صلّى الله عليه وسلّم رسولا من عند ربهم حقّا، وبالقرآن من عند الله معجزة قالوا: هلاّ جاء بمعجزات مثلما جاء بها موسى من مثل العصا وغيرها. لقد كفروا من قبل بمعجزات موسى، فحينما أظهرها لهم اتّهموه وأخاه بالسحر والشعوذة، وقالوا: موسى وهارون ساحران متعاونان، وقالوا: إنّا بجميعهم كافرون: بموسى وهارون ومحمد، والتوراة والإنجيل والقرآن، لا نصدّق بأنّهم رسل الله وأنّ كتبهم من عند الله.

- قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (49) :

قل – يا محمد – لهؤلاء المشركين ولأهل الكتاب المكذّبين بك وبكتابك، إذا كفرتم بالتوراة والقرآن، فأتوا بكتاب من عند الله أهدى منهما ليكون لكم عذرا لكم في التّكذيب وفي الاتهام بالسحر والشعوذة وسأكون من أتباعكم إن كنتم صادقين.

وفي هذه الآية تحَدٍّ لكلّ المكذّبين بالقرآن وبالتوراة للإتيان بمثلهما، وخاصّة بمثل القرآن في فصاحته وبيانه، وعلمه وحججه ودلائله، وهديه وإرشاده.

- فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (50) :

فإن أصرّوا على تكذيبك – يا محمد – وأصرّوا على رفضهم للاستجابة لدعوتك للإيمان بالله وبرسوله وبكتابه، وبوعده ووعيده، وهديه، فلا تأْبَهْ لشأنهم، ولا تتضايق منهم أو تحزن فإنّما هم منقادون لما تُزيّن لهم أنفسُهم المعاندة المكابرة. وليس من أحد أبعد عن الهدى والاهتداء من الذي اِنقاد لهوى نفسه بغير علم، ولا حجّة أو برهان، إنّما عنادا واِستكبارا. إنّ الله لا يحبّ الكافرين الظالمين لأنفسهم بإتيان المعاصي وبالتكبّر في الأرض وبالهزء بالرّسل وبالوعيد ولا يهديهم لسبيله القويم لأنّهم ليسوا أهلا لذلك.

- وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ (51) :



ولقد أبلغنا قريشا وبني إسرائيل ما جرى في الأمم السالفة من الكافرين والمكذّبين، وأنزلنا القرآن متواصلا بعضه بعضا لعلّهم يتّعظون، ويهتدون، ويعرفون قدرة ربّهم عليهم، ويعتبرون.

- ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ (52) :

لقد آمن قوم من أهل الكتاب بمحمد صلّى الله عليه وسلّم قبل مجيئه، وهم به وبرسالته مصدّقون. لقد علموا بالبشارة به فآمنوا به، فلمّا بعث النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وسمعوا منه صدّقوه وآمنوا بما أنزل عليه من مثل سلمان الفارسي، وعبد الله بن سلاّم. وقد قيل إنّ هذه الآية نزلت في السبعين قسّيسا الذين أوفدهم النّجاشي للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ليسمعوا منه. وأيّا كان المعنى فإنّ العبرة هو الاستدلال بإيمان هؤلاء على أنّ القرآن وحي من عند الله تعالى، وأنّ محمدا رسول من عند الله حقّا وصدقا.

- وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ (53) :

هؤلاء حين يقرأ عليهم القرآن يقولون: صدّقنا به وبما فيه من قبل نزوله، ومن قبل بعثة محمد صلّى الله عليه وسلّم. إنّه حقّا من عند ربّنا. إنّا كنّا من قبل نزوله مؤمنين به وبأنّه سينزل على نبيّ سيبعث به، وإنّا مُوحّدُون.

- أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ (54) :

روى أبو موسى عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: "ثلاثة يؤتون أجرهم مرّتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيّه وأدرك النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فآمن به، واتّبعه، وصدّقه فله أجران (وهذا في موضوع هذه الآية). وعبد مملوك أدّى حقّ الله وحقّ سيّده فله أجران. ورجل كانت له أمة فغذّاها فأحسن غذاءها، ثمّ أدّبها فأحسن تأديبها، وعلّمها فأحسن تعليمها، ثمّ أعتقها، وتزوّجها فله أجران" (حديث صحيح رواه مسلم والبخاري وأحمد والتّرمذي والنّسائي وابن ماجه، أُنظر فيض القدير للمناوي ج3 ح عدد 1548 ص 333). فهؤلاء الذين آمنوا من قبل بالعهد ولمّا جاءهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم آمنوا به وصدّقوه يُؤْتَوْن أجرهم مضاعفا، وهم الذين يدفعون الأذى بالصبر على التحمّل والكلام الحسن، ولا يقابلون السوء بمثله، وقد روى عن معاذ بن جبل أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد وعظه ذات يوم فقال له".. وأتبع السيّئة الحسنة وخالق النّاس بخلق حسن". وهؤلاء ينفقون من أموالهم في وجوه البرّ والطاعات صدقة وإحسانا ولا يبخلون عن مؤازرة الفقير والضعيف والملهوف.

- وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ(55) :

ومن صفات هؤلاء الخُلقية في تعاملهم مع من يخالفهم في الدّين والمعتقد والعمل أنّهم لا يحضرون مجالس اللغو ترفّعا عن السَّقَطِ من القول وعن الخوض في القول الباطل السخيف أو الفاحش، وإذا كانوا في مجلس ثمّ خاض بعض من الجلساء في حديث ينافي المروءة وحسن الحديث قاموا منه، وغادروه. قال تعالى (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا)(النساء الآية 140). وعند الاختلاف في المعتقد فإنّهم لا يخوضون مع الكافرين في جدال، وإنّما يحسمونه باللين فيقولون: لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، ولا يتجادلون معهم الجدال العقيم الذي فيه العناد والمكابرة. يغادرون مجلس اللغو في هدوء قائلين: لكم الأمان منّا حتى لا تسمعوا منّا ما تكرهون، وإنّا لا نطلب معاشرة من يجهل ديننا ويجادلنا فيه.

- إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ **(56) :**

هذه في الفقرة الثّانية الموجهة لمشركي العرب وعند جلّ المفسّرين، وكذلك في الصحيحين فإنّ هذه الآية قد نزلت في شأن أبي طالب عمّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم الذي دعاه صلّى الله عليه وسلّم أن يؤمن بالتّوحيد وأن يسلم وأن ينطق بالشهادة، وفي السيرة النبويّة لابن هشام (ج2 ص47) كان الرّسول يقول له: "أي عم، فأنت فَقُلْهَا أستحلّ لك بها الشفاعة يوم القيامة". ولكنّه لم يسمعها منه، وقد أحزنه هذا كما أحزنه إعراض جمع من أقربائه وأهله عن الاستجابة لدعوته، فجاءت هذه الآية ليفوّض الأمر لله سبحانه. والمعنى: إنّك لا تستطيع أن تدخل للإسلام من تشاء ممن أحببت من قومك وأهلك. الإيمان لا يكون بالموالاة والمجاملة والمحاباة أو القسر، ولكنّ الله يهدي للإسلام من قدّر له الاهتداء لسلامة فطرته، ورقّة قلبه، وحسن طَوِيتِه. والله أعلم النّاس بمن اهتدى لدينه الحقّ، وأحبّ الله ورسوله، ورجا القربى من الله، وأحسن في طاعته.

ولقد سارت الجملة (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ) على ألسنة النّاس لضرب المثل بالمكابرين المعاندين، يرون الحقّ ويعرفونه ولكنّهم ينكرونه عُلُوًّا واستكبارا.

- وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ **(57) :**

هذه في الرد على تعلّل مشركي مكة في رفضهم للاستجابة لدعوة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم للإسلام. قالوا إنّا نخشى إن اتبعناك فيما تدعونا إليه من الهدى أن نُغْزَى في أرضنا، ونلقى الأذى، ونخرج من بلدنا ظلما وعدوانا. وكان الرّدّ: ألم يجعل الله بلدهم حرما آمنا يحرم فيه القتل ويحرم غزوه، وقد علموا ما جرى لأصحاب الفيل حينما أرادوا غزوه؟ وقد سخّر الله لهم أن تُجلب الخيرات إلى البلد وأهله من كلّ جهة ومن كلّ مكان ومن كلّ الثمر، وكلّ رزق من عند الله عزّ

وجلّ ومن تقديره. ولكنّ أكثرهم لا يعقلون، يتعلّلون بعلّة واهية للتهرّب من الاستجابة للدعوة للإسلام، فإنّ من رزقهم بخيراته وهم على الكفر يرزقهم بخير منها لو أسلموا.

- وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ (58) :

ولقد أهلك الله الكثير من سكّان القرى الذين كفروا بالنّعم، وطغوا بما أعطوا من أسباب العيش الهنيء الكريم، وتلك آثارهم من بيوتهم القفراء الخالية المدمّرة لم تُعمّر من بعدهم إلاّ ما قلّ منها، وورث الله تعالى أرضهم وديارهم. وفي هذا وعيد لأولئك الذين تعلّلوا بالخوف من الغزو إن هُمُ آمنوا، وهذا ليعلموا أنّ تماديهم في الكفر هو الذي يُنْذَرُونَ به بالهلاك، فإن أرادوا السلامة فعليهم أن يسلموا لله تعالى.

- وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ (59) :

وإنّ من رحمة الله بعباده أنّه لا يهلك القرى الكافرة دون أن يرسل في أكبرها وأهمّها حيث يسكن أكثر النّاس والسادة والقادة رسولا يرشدهم للصواب ويبيّن لهم الحقّ والباطل، وليحذّرهم من الكفر والمعصية فإن هُمُ آمنوا نَجَوْا من العذاب، وإن هُمُ ظلموا أنفسهم بالتّمادي في كفرهم ومعاصيهم فإنّ الله عزّ وجلّ يهلكهم لظلمهم.

- وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (60) :

هذه للتّحذير من التّفريط في العمل للآخرة بالانشغال بجمع المكاسب الدنيوية دون سواها، فخيرٌ من هذا الانتفاعُ بما أنعم الله علينا من الخيرات من مال، وأولاد، وصحة، وثمرات لحياتنا في دنيانا، وللتنعّم بمظاهر زينتها ورفاهها، وأن نعمل من أعمال الطاعات لله عزّ وجلّ، وأعمال البرّ طمعا فيما عنده تعالى من خير دائم ونعيم غير زائل، وهذا من حسن تصرّف العاقلين الرّاشدين. والاستفهام في (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) للتّرغيب في العمل للآخرة للفوز بما هو خير من نعيم الدنيا الزّائل، وهو الخلود فيما أعدّ الله تعالى من فضائل لعباده المؤمنين العاملين الصّالحات طمعا في رضوانه. وفيه دعوة لإعمال العقل للاهتداء لمعرفة أيّ توجّهٍ من هذين هو الأفضل.

- أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ (61) :

هذه في التّرغيب للعمل للآخرة. والمعنى: أيّهما أفضل أن يلقى المرء ما وعدناه به من خير عميم، ونعيم دائم يوم القيامة أم الذي تمتّع في دنياه بنعيمها ثمّ يأتي يوم القيامة بكفره فتحضره



الملائكة إلى الحساب ثمّ إلى النّار فيلقى عذابا مقيما؟ والاستفهام للتّخيير، وللترغيب في الفوز في الآخرة.

- وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ (62) :

هذه إلى الآية 67 في مشهد من مشاهد الحساب عند الميزان للتّحذير والإنذار من الكفر وتبعاته، وللتّرغيب في التّوبة وفي الإيمان والعمل الصالح. والمعنى: ويوم القيامة يُدْعَى المشركون ليستدعوا آلهتهم التي كانوا يعبدونها ويقدّسونها، وكانوا يزعمون أنّهم شركاء لله تعالى في الألوهية لتنصرهم، وتنقذهم ممّا هم فيه من فُجَاءةِ السؤال.

- قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ (63) :

وتُحْضَرُ شياطينهم وكهنتهم الذين كانوا يَغْوُون النّاس لطاعاتهم في ضلالاتهم، وقد حقّ عليهم وعيدُ الله ليكونوا من المخلّدين في العذاب فيقولون: ربّنا هؤلاء الذين دعوناهم للمعصية وللضلالة فاتّبعُوها من تلقاء أنفسهم ومن رغبتهم، وقد عصوا وضلّوا مثلما عصينا وضللنا. نتبرّأ إليك ممّا كانوا يعبدون، وممّا كانوا يفعلون، ونتبرّأ من ولايتهم ونصرتهم، ولم يكونوا يعبدوننا، لم نكن آلهتهم، وما كان لنا عليهم من سلطان إلاّ أنا دعوناهم فاستجابوا لنا.

- وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ (64) :

وقيل لهم: نادوا أصنامكم التي كنتم تدعونها، وتطلبون عونها وشفاعتها ونصرتها، فنادوا عليها فلم تستجب لهم ولم تحضر. كانوا يعبدون السراب، ورأوْا جهنّم وما ينتظرهم من العذاب، لو أنّهم إهتدوا لمّا جاءهم الهُدى ما كانوا ليروا هذا العذاب.

- وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (65) :

ويسألون يومئذ عند الحساب، وهو وقوف عند الميزان – ماذا قلتم للمرسلين حين دعوكم للإيمان؟

- فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ (66) :

فغابت عليهم الحجج، ولم يدروا ما يقولون، وتحيّروا في الإجابة فخرست ألسنتهم، ولا يلتفت أحدهم للآخر ليجد عنده مخرجا من الحيرة، أو عذرا ليعتذر به عن إعراضه عن دعوة الرّسول له للإيمان، ولا يجد أحدا يتكلّم أو يصرّح بشيء.

- فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ (67) :

وهذه لفتح باب الرّجاء لمن تدبّر هذه الآيات فأُرْشِد واِهتدى لما ينقذه من شدائد يومئذ والحيرة التي ليس منها مخرج. أمامه بابُ التّوبة مفتوح ليتدارك أمره وينقذ نفسه من معصية الكفر والشرك، وعليه أن يصحّح معتقده في الله الواحد الأحد فيخصّه وحده بالعبادة والطاعة والتقديس

والدعاء، وليُثْبِتَ حسنَ إيمانه فلابدّ له من أن يدلّ عليه بصالح العمل وخالص الطاعات رجاء أن يكون من الفائزين برحمة ربّه ورضوانه ومن الفائزين بنعيمه والنّاجين من عذابه.

- **وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (68) :**

بعد أن حذّر تعالى من شدّة العناء يوم الحساب لمن اِتّخذ إلاها آخر غير الله تعالى، ورغّب في التوبة والإيمان، جاءت هذه الآية إلى الآية 75 في دلائل القدرة، وآيات الإنعام لله تعالى للإيمان به وحده دون سواه، ولطاعته وحمده على فضائله، وحذّرت من اِتّخاذ إلاه آخر غيره ليس لمن يعبده برهان على وجوده وعلى اِستحقاقه للألوهية. والمعنى: (وَرَبُّكَ) – يا محمد– ومن ورائه كلّ إنسان في هذا الوجود – يخلق ما يشاء من الخلق – عاقلا أو غير عاقل أو جامدًا – وكلّ مخلوق ملك له لأنّه من صنعته وإبداعه وهو الذي أوجده في هذا الكون، وهوالذي يحدّد له وظائفه ومهامه وغاية إيجاده، ويختار شكله وجنس تكوينه وصنفه، ولم يخلق أحد غيره كلّ ما هو كائن في هذا الوجود، أو اِختار شكله، أو اِختار مادة تكوينه، فالكلّ ملك له، وهو المتصرّف فيه إيجادا وعدَما، والكلّ صائر إليه، وما كان لأحد غيره أن يتدخل في ما يختار، وما يجوز له ذلك. واِسأل الإنسان هل اِختار خلقه وهل اِختار زمن وجوده أو مكان نزوله للحياة أو هل اِختار نسبه وأهله، وهل كان يستطيع هو أو غيره أن يختار شكله ومحيطه وذويه، فالله سبحانه يخلق ما يشاء ويختار، وتعالى عن أن يُشرك به أحد في الخلق أو الخِيَرة. وفي هذه الآية ردّ على الذين كانوا يودّون أن تكون الرسالة قد نزلت على رجل من القريتين عظيم ليعلموا أنّ الله تعالى هو وحده الذي يصطفي من عباده من يشاء ليجعله رسولا إلى قومه، وما كان لأحد من النّاس الخيرة في اِختيار رسول الله إليهم.

- **وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (69) :**

وإنّه سبحانه وتعالى عليم بخفايا النّفس وما تُحَدِّثُ به صاحبها، ولا تخفى عليه خائنة الأعين، ولا ما يُتكتَّم به من الأسرار، وَيعلم بكلّ ما يصدر عن النّاس من قول أو عمل أو تدبير، ولا يخفى عليه من أمر خلْقِه شيءٌ.

- **وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (70) :**

إنّه هو الله الحقّ الحقيق بالعبادة والطاعة، وهو واحد أحد، لا شريك له ولا ندّ. ليس للخلق كلّهم من إلاه غيره، لا إلاه إلاّ هو. وله وحده الشكر والثّناء لما أمدّ خلقه من نِعَمٍ لا تُحصى ليحيوا وليتكاثروا. وله وحده الفصل العدل بين النّاس في دنياهم وآخرتهم، ينصر رسله والمؤمنين، ويعاقب الكافرين المكذّبين، وفي الآخرة يفصل بين النّاس بالعدل فيما كانوا فيه يختلفون ويتنازعون ليعطي كلّ ذي حقّ حقّه، ولا يردّ بأسه عن الظالمين.

• ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ﴾ (71) :

هذه من آيات الله الدالّة على الحكمة في التّقدير، وعلى التّفضّل على النّاس بتنظيم أمر حياتهم وسعيهم وراحتهم، وهي من الآيات التي تحفّز النّاس لمعرفة ربّهم والتّعرّف عليه من آيات خلقه الطبيعية المنظورة. والمعنى: اِفرضوا لو جعل الله حياتكم ووجودكم في ظلمة دائمة إلى يوم القيامة هل كان بإمكان أيّ إلاه ممّا تعبدون غير الله أن يأتيكم بضياء يبدّد لكم الظلمة. (أَفَلَا تَسۡمَعُونَ) أفلا تنصتون لمثل هذه الحجج لتعقلوها فتبصروا الحقّ ببصائركم؟ وفي هذه الجملة تحفيز مشركي العرب ليسمعوا لهذا القرآن وينصتوا لما يُتلى عليهم منه ثم ليتدبّروا آياته ليميّزوا بين الحقّ والباطل، وليتعرّفوا لربّهم الحقّ.

• ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٍ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ (72) :

وعلى العكس من ذلك اِفرضوا أن جعل الله عليكم النّهار ضياء دائما لا ينقطع إلى يوم القيامة مَنْ مِنْ آلهتكم التي تدعون غير الله يقدر على أن يأتيكم بليل لتستريحوا فيه من شقاء عملكم وسعيكم رحمة بكم؟ (أَفَلَا تُبۡصِرُونَ) البصر هنا هو رؤية البصيرة الواعية العقلانية التي تسترشد بالحجج والدلائل الواضحة للعيان.

• ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ (73) :

من رحمة الله تعالى بكم، ومن رأفته عليكم أن جعل لكم الليل والنّهار متعاقبين لترتاحوا وتناموا ليلا، ولتطلبوا من خيراته ورزقه بسعيكم في الأرض نهارا، وعساكم تعقلون هذا الفضل فتقابلوا هذه النّعمة بشكر الله على حسن تقديره وعلى رحمته.

• ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ (74) :

وإيّاكم أن تشكروا غيره، أو أن تتّخذوا إلاها آخر غيره حتى لا ينادى عليكم كما ينادى على المشركين يوم القيامة حين يقفون عند الميزان للحساب فتسألون عن شركاء الله تعالى في الخلق والإنعام وفي الألوهية كما تدّعون وكما تتوهمون، فتفاجؤون يومئذ بغيابهم وعدم الوجود لما كنتم تعبدون ولما كنتم ترجُون شفاعتها.

• ﴿وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا فَقُلۡنَا هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ (75) :

وأخرجنا لكلّ أمّة نبيّهم الشاهد عليهم، وقلنا للكافرين منهم: أظهروا دليلكم على تكذيبه وحججكم على صدق ما كنتم تعبدون وما تفعلون. يومئذ يوقنون بأنّ الحق في العبادة هو لله

وحده دون سواه، وأنّ الحقّ في الهدى للدّين الحقّ هو الذي جاءهم به رسولهم. وضاع عنهم يومئذ ما كانوا يكذبون، وما كانوا يدّعون، وضاعت عنهم الحجّة وكُبِتُوا وخَرَسُوا

- **إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ (76) :**

هذه الآية إلى الآية 82 في قصة قارون، واسمه بالعبرية : قورح. كان من ذوي قرابة موسى، قيل هو ابن عمه وابن خالته من الأم، وقيل هو عمّه، جعله فرعون رئيسا على قومه من بني إسرائيل المقيمين بمصر، ولقي عنده الحظوة، وجمع بهذه الرئاسة ثروة طائلة من الرّشاوي ومن بخله. ولمّا خرج موسى ببني إسرائيل من مصر كان قارون من بينهم، وكان موسى عند غيابه يُنِيبُ أخاه هارون، وجعله سيّدا عليهم وعالمهم في الشريعة، فراحت بهذا عن قارون الزّعامة، فحسد موسى وهارون على ما آتاهما الله من فضله، فجمع من حوله نفرا من سِبْطِه، سبط "لاوي"، واِعتزل عن القوم تكبّرا وتعاظما. وتمام قصّته تذْكره هذه الآي. ووجه الاعتبار في هذه القصّة التّعريض بزعماء قريش المتعاظمين ليحذروا من عاقبة البطر والكفر والطغيان على الأهل وبني الجنس، فإنّها عاقبة سيّئة ومؤلمة كسوء عاقبة قارون.

ومعنى الآية: إنّ قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب كان من قوم موسى من بني إسرائيل، تكبّر على بني قومه، وتجبّر بكثرة ماله، وتجاوز حدّه في اِحتقار الضعفاء والفقراء، ولقد رزقه الله تعالى من النّقود، ومفاتيح الممتلكات الشيء الكثير الذي صار حملها ثقيلا على الجماعة الكثيرة القويّة من النّاس. ولقد وعظه الواعظون من قومه بأن لا يبطر بالنعمة وبأن لا يستكبر بها على النّاس فإنّ الله سبحانه لا يحبّ المستكبرين المتعاظمين عليهم بما آتاهم من فضله ولا يحبّ البَطْر بالنّعمة.

- **وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ (77) :**

ونصحوه بأن يطلب بما آتاه الله من فضله الفوز بنعيم الله في آخرته بالإحسان للفقراء والمحتاجين وبالبذل في وجوه البرّ للنّجاة من المؤاخذة عن البخل والبطر يوم الحساب وللنّجاة من هول العذاب دون أن يحرم نفسه من الاستمتاع بخيراته في وجوه الحلال. وعليه أن يقابل فضل الله عليه بالإحسان للفقراء ممّا أعطاه الله للتّوسعة عليهم، وحذّروه من المعاصي ومن الاستكبار لأنّ الله سبحانه لا يحبّ العصاة المذنبين والمتكبّرين.

- **قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ (78) :**



وكان من مظاهر جحود قارون واستكباره أنّه لمّا وعظ بأن يحسن للفقراء كما أحسن الله تعالى إليه من فضله، أنكر أن يكون قد آتاه الله شيئا ممّا كسبه، ونسب حصوله على ثروته الطائلة إلى جهده، وذكائه وفطنته وحسن تدبيره ولعلمه ذلك لأنّه كان ماهرا ومختصّا في صناعة خلائط لمواد صالحة للبناء، وبما يسمّى عندنا بالصناعة الكيمياوية. ونسي أنّه قد وُجد من قبله من كان أكثر منه سَعَة في المال والرّزق، وكان زعيما في قومه، وأقوى منه جاها وسطوة، وأكثر منه أعونًا وجندا، ولكن لمّا كفر وطغى جاءه أمر الله فهلك هلاكا لم يردّه عنه ماله ولا جاهه ولا زعامته. ويوم القيامة لا يسأل عن ذنوبهم المجرمون لأنّ الله تعالى لا يحبّ الكافرين، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يكلّمهم، ولا يزكّيهم، وإنّما يساقون عند قيامهم إلى النّار وإلى العذاب.

- فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79) :

وعنَّ لقارون ذات يوم أن يخرج على قومه في مظاهر بَذَخِه، وعظمته، ورفاهه، وحُسن بزَّتِه، ومن حوله خدمُه وأعوانه على خَيْلِه ليغِيظَ من نزع عنه سيادته على قومه، ولينافسه فيها، وكان يقصد هارون، وليستميل قلوب بعض النّاس علّهم يصيرون إليه، فيزداد بهم أتباعه وأنصاره، وكان يريد بهذا الخروج في غياب موسى الذي ذهب إلى ميقات ربّه مع السبعين رجلا من أشراف القوم، كان يريد أن يرضي شهوة نفسه في الظهور بمظهر العظمة والفخامة حتى قال الذين يغريهم متاع الحياة وزينتها: نتمنّى أن يكون لنا مثل ما عند قارون من مال وزينة وخدم ورزق، إنّه صاحب نصيب وافر من حظوظ الدنيا ومتاعها وخيراتها.

- وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ (80) :

ولمّا سمع منهم أهل الإيمان والعلم هذا التّمنّي قالوا لهم: لا تقولوا هذا الكلام، ثواب الله تعالى عن الإيمان وحسن العمل في الطاعات وأعمال البرّ خير من متاع الدنيا الزّائل والذي يعقبه عقاب وعذاب. ولا يُوَفَّق لهذا الثواب ويحظى به إلاّ الرّاضون بقسمة الله، والصابرون على ما هم فيه.

- فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ (81) :

فقضى الله تعالى أن يجعل الأرض تغور بقارون وبداره، وتنطبق عليه، وهذا من أثر نوع من الزلازل، تنشقّ الأرض فتبتلع جملة من المساكن ومن المزارع مع من فيها ثمّ تلتئم. ولمّا حصل هذا لم يجد قارون من أتباعه وأنصاره من ينجده وينقذه من الهلاك بانطباق الأرض عليه وعلى



داره، فلم يكن من النّاجين من عقاب الله ليجعله عبرة للنّاس ليعلموا أنّ عاقبة الاستكبار في الأرض وعاقبة الجحود جدُّ سيّئة ومؤلمة.

- وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ **(82) :**

ولمّا رأى مَنْ كان يودّ أن يكون على حظّ كبير من متاع الدنيا وزينتها على ما كان عليه قارون ما حدث له صاروا يتأوّهون من شدّة ما أصابهم من عجيب الهول الذي عاينوه ويقولون: وَيْ، وَيْ للتعجّب والتّفجُّعِ، أما ترى إلى ما فعل الله بقارون، إنّ الله يبسط الرّزق لمن يشاء من عباده، ويهب لمن يشاء من الرزق على قدر حاجته له. لولا أن حفظنا الله تعالى من الهلاك لكنّا الآن في باطن الأرض مُطْبَقَةً علينا. وَيْ، وَيْ إنّه لا نجاة للمستكبرين الجاحدين لفضل الله عليهم من الهلاك والعذاب إلاّ للمؤمنين.

- تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ **(83) :**

هذه في الموعظة المستفادة من قصّة قارون بعد الاعتبار من خسفه وداره ليعلم المؤمن أنّ الفوز بنعيم الآخرة لا يكون من نصيب المستكبر في الأرض والمفسد فيها بظلم العباد، أو باحتقارهم. إنّما الفوز والعاقبة المحمودة الحسنة من نصيب المؤمنين الذين يخافون الله تعالى ويطيعونه.

- مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ **(84) :**

من جاء يوم الحساب بالتوحيد وصدق الإيمان بالله وحده وبالطاعات والعمل الصالح فإنّه سينال خيرا عظيما وجزاءً مضاعفا عمّا أتى به وعمّا قدّمه في حياته لآخرته جودا وتكريما من الله. ومن جاء بالكفر وبالمعاصي فلا يجازى العصاة المذنبون بالعقاب إلاّ على قدر عصيانهم لأنّ الله تعالى هو العدل، لا يظلم أحدا مثقال ذرّة، فإنْ عوقب الإنسان في آخرته فإنّه هو الذي جنى على نفسه لأنّه أتى بعمل يستوجب معاقبته عليه.

- إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ **(85) :**

الخطاب في هذه الآية إلى الآية الأخيرة من السورة موجّه للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فيها تنويه بشأنه، وعرض لمظاهر من تكريمه، وفيها تأييده ليثابر على تبليغ دعوته، وفيها ما يشير لوعده بالنّصر، وخصّ به كذلك الوعّاظ في بعض الوجوه، وأمّا الآية الأخيرة التي خُتمت بها السورة فهي عامّة في التأكيد على كلّ مؤمن ليتمسّك بالتّوحيد.



والمعنى: إنّ الذي أنزل عليك القرآن، وأوجب عليك تبليغه للنّاس لمرجعك ليوم المَعَاد، وهو يوم القيامة لترى جموع أتباعك على كثرتهم، وما سينالون من خير وفضل من عند ربّهم، ولترى المكذّبين بك والذين شاقّوك، وحالهم حينما تجابههم الحقائق ولترى المصير الذي سيصيرون إليه. بلّغ – يا محمد – النّاس بأنّ ربّك عليم بالمهتدي الذي آمن بالحقّ، وآمن بالتنزيل، وبيوم البعث والوعد والوعيد، وعليم بمن كذّب وكفر وأشرك وأصرّ على ضلاله الواضح، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون.

وجاء عند بعض المفسّرين أنّ هذه الآية قد نزلت لمّا خرج الرّسول صلّى الله عليه وسلّم من مكة مهاجرا إلى المدينة، وحين بلغ "الجُحفة" في طريقه إليها، اِشتاق إلى مكة، فأنزل الله تعالى عليه هذه الآية لتثبيته، ولوعده بالعودة إليها منتصرا فاتحا لها لإظهار دينه. وورد في صحيح البخاري أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قد أُورِيَ في المنام أنّه قاصد إلى أرض ذات نخل، ثمّ نزلت الآية. ولعلّ تفسير هذه الآية على ما جاء في بيانها على وجه التّعميم يعطي عمقا لمعنى الآية وفي التّبشير بسعة نشر هذا الدين من بعد وفاة الرّسول خير من ربطها بسبب نزول مختلف فيه عند بعضهم – والله أعلم –.

- **وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ(86):**

وما كنت تتوقّع، أو تنتظر أن ينزل عليك ربّك القرآن، وأن يرسلك به الله إلى الخلق، ولكن حَبَتْكَ رحمة الله فاصطفاك لذاك، فلا تكوننّ عونا للمشركين الكافرين ومساعدا بمجاملتهم، بل اشدد عليهم، وقل للمؤمنين أن لا يخالطوهم.

- **وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ(87) :**

وثابر على تبليغ رسالتك إلى النّاس، وأسمعهم آيات الله وهديه وإرشاده ووعده ووعيده بعد أن أنزلت إليك لتبلّغهم بها، وأدع إلى عبادة الله وحده وطاعته، وادع الناس لشكره، ولنبذ الشرك، واجهر بالتنزيل، ولا تسكت عن تسفيه عبادة المشركين وتسفيه آلهتهم، ولا تعذرهم، وأدع المؤمنين لأن لا يهادنوا المشركين.

والمقصود بـ (فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ) و(وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ) إثارة حماسة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وحماسة المؤمنين كي لا يخشوا ردّ فعل المشركين الكافرين، ولأن يتجرّؤوا عليهم، وكان هذا تمهيدا لما نزل من بعدُ للإذن للمؤمنين بقتالهم.

- **وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ(88) :**

الخطاب في هذه الآية عام لكلّ مؤمن لأن لا يعبد إلاها آخر غير الله سبحانه، لأنّه تعالى إلاه واحد لا شريك له، ولا ندّ، وكلّ شيء وكلّ كائن صائر إلى الهلاك والفناء والاندثار إلاّ ذات الله العلية، فإنّه سبحانه وتعالى حيّ دائم، باق على الدوام، لا يعتريه ما يعتري الخلق لأنّه هو الخالق والواجد الموجود.

وهو تعالى الملك والحاكم والقاضي والمتصرّف في خلقه يوم الحساب بحكمه، ولا أحد غيره يعيد الخلق للحياة بعد موتهم وفنائهم، وما من إلاه غيره يحاسب الخلق عمّا يعملون. لذا فهو الأحقّ بالألوهية، الحقيق بالعبادة والطّاعة والخشية. وما سواه من الآلهة مما يدّعيه المشركون باطل، ومن اِتّخذ إلاها آخر غير الله تعالى فهو في ضلال مبين.

رقمها	ســـــورة **العنكبـــــوت**	آياتها
29	ـــــ مكيّة ـــــ	**69**

سمّيت هذه السورة بسورة العنكبوت لورود المثل فيها ببيت العنكبوت ولم يرد في سواها. وهي من آخر ما نزل من السور المكية، لم ينزل بعدها إلاّ سورة المطفّفين، وهذا ما يفسّر كثرة ما جاء فيها من آيات الإنذار بإهلاك القوم الكافرين، وضرب المثل بما جرى في بعض الأمم السالفة الذين كذّبوا رسلهم، وتحدّوا عذاب الله باستئصالهم، مع تحذيرهم من الوعيد بعذاب أشقّ في آخرتهم. وقد جاء فيها توجيه المسلمين للمداومة على أمرين مهمّين: تلاوة القرآن لما فيه من ذكر الله والثناء عليه، وإقام الصلاة لما لها من فضائل على حمل صاحبها على الاستقامة على دين الله. وقد جاء فيها الإشارة بالإذن لهم بالهجرة، وإرشادهم لتجنّب مجادلة أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن. وقد جاء فيها – كما في كلّ السور المكيّة – التأكيد على الإيمان بالبعث وبالحساب، والتّصديق بالرّسل، وبأنّ كلّ إنسان مسؤول عن نفسه يوم الحساب لا ينفعه أحد ولا ينصره أحد من العذاب إذا كان من أهل المعاصي.

- الٓمٓ **(1)** :

هذا الافتتاح الذي جاء في هذه السور المكية، وفي السور المكية الثلاث الموالية (الرّوم، لقمان والسجدة) قد أثار اِنتباه القرشيين قصد فهم المقصود منه، بمثل ما أثار اِنتباه المدنيين لمّا نزلت سورة البقرة مفتتحة بهذه الحروف الثلاثة. وبمثل ما تحيّر من كان قبلنا في فهم سرّ هذا الافتتاح تحيّر من جاء بعدهم إلى يومنا هذا في معرفة غرضه. والمؤمن حينما يتحيّر في فهم شيء من أمر التّنزيل يردّ الأمر إلى الله عزّ وجلّ صاحب هذا التنزيل ليقول: الله أعلم به وبغرضه.

وقد جاء هذا الافتتاح في هذه السورة للتّنبيه وللتحذير من يوم الحساب، وجاء في سورة الروم للتّنبيه بأنّ الغلبة تكون للمؤمنين وإن دارت عليهم الدائرة يوما، وفي السور الأخرى جاء هذا الافتتاح للتنويه بشأن القرآن ولبيان أهميته.

- أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ **(2)** :

هذه الآية إلى الآية 7 في تنبيه الإنسان بأنّه معرّض في حياته الدنيوية للاختبار في صدق إيمانه، وفي صبره على الشدائد، وليعلم أنّ حياته في دنياه جهاد، وأنّ الآخرة هي دار الجزاء، ويجب الإعداد لها بحسن العمل.

والمعنى: أيظنّ النّاس أن يتركوا بدون إختبار في صدق إيمانهم. الإيمان ليس بالقول فحسب بل يمتحن إيمان الإنسان بالشدائد، وبالتعرّض للأذى بسببه، والابتلاء فيه لتُعْرَفَ درجاتُ صدق النّاس في إيمانهم، وفي هذا التّنبيه إعداد نفسي للمؤمنين ليتجلّدوا بالصبر، وليستعينوا به في ما سيلحقهم من أذى أو شدائد مستقبلا.

- وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ **(3)** :

ولقد أُفتتن المؤمنون السابقون من الأمم السالفة بأذى الكافرين، وبشدائد المحاصرة والخوف، وذلك ليُعْرَفَ الصادق في إيمانه، والثّابت عليه رغم الأذى فيه، والمتمسّك به عن قناعة وكرها للضلالة بعد أن تبيّن له الحقّ والباطل، ويتميّز عن المنافقين أو المتردّدين.

- أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ **(4)** :

وهل يظنّ العُصاة المذنبون الذين يؤذون المؤمنين، والذين ينكرون الدّين الحقّ ويهزؤون بالوعيد ويستبعدونه أنّهم مفلتون من العذاب، أو أنّ الله تعالى يعجزه أن يهلكهم بعذاب. إذا كانوا يظنّون ذاك فهم واهمون، وبئس ما يحكمون به على أنفسهم من إستحقاقهم للعذاب إذا تمادوا في سوء أعمالهم.

- مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ **(5)** :

من كان يحبّ ما عند الله تعالى من خير، ونعيم، وأجر وثواب فإنّ كلّ آت قريب، وإنّ يوم القيامة الذي جعله الله أجلا للحساب للمثوبة آت لا محالة، ولا ريب في وقوعه. والله سميع لما تدعون، ولما تطلبون، وعليم بحالكم، وبما يصير معكم، ومطلّع على أعمالكم.

- وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ **(6)** :

ومن جاهد في حياته الدنيوية – والجهاد هنا ليس بمعنى القتال، لأنّ هذه الآية مكيّة، ولم يؤذَنْ بعد للمسلمين بالقتال، ولأنّ الموضوع العامّ لهذه الفقرة من الآيات في تقييم العمل الدنيوي، وفي الحثّ على الصبر على الابتلاء في الدنيا لتحمّل أذى الكافرين ومشاقتهم. الجهاد هنا جهاد النفس بمقاومة الأهواء وحملها على ترك المعاصي، وحملها على الرغبة في عمل الطاعات وأدائها، وهو أيضا جهاد بدني للعمل للكسب. من جاهد نفسه فقاوم الشهوات الممنوعة طاعة لربّه، وعمل أعمال البرّ، وسعى ليعفّ نفسه، ويكسب قوته بجهده من وجوه الحلال فإنّما ينفع نفسه بهذه المجاهدة. وإنّ الله غنيّ عن العالمين: لا تنفعه طاعة، ولا تضرّه معصية.

- وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ **(7)** :



هذه في تبشير المؤمنين الذين صدقوا في إيمانهم وعملوا بالطاعات وأعمال البرّ بأن الله سبحانه يغطّي على سيّئاتهم حتى لا يؤاخذهم عليها، ويبشّرهم بمضاعفة الأجر والثواب على أعمالهم بأكثر ممّا يتوقّعون.

- وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (8) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ (9) :

كان العرب يعظّمون طاعة الوالدين، ويستنكرون بشدّة عقوقهما وخاصة عقوق الأمّهات. وفي بداية الدعوة للإسلام عمد بعض الوالدين لصدّ أبنائهم عن الاستجابة لهذه الدعوة بتهديدهم بمقاطعتهم إذا أسلموا واِستجابوا لله ورسوله. وقد وقعت حوادث في هذه المغاضبة، من بينها ما جاء في سنن الترمذي "أن سعد بن أبي وقّاص – وكان بارّا بأمّه :حَمْنَةَ بنت أبي سفيان، قالت له أمّه حين أسلم، ما هذا الدّين الذي أحْدَثْتَ؟ والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كُنتَ عليه أو أموت، فتتَعَيَّرَ بذلك أبد الدّهر، يُقَالُ: يا قاتِلَ أُمِهِ، ثمّ إنّها مكثت يوما وليلة لم تأكل ولم تشرب ولم تستظلّ، فأصبحت وقد جَهِدَتْ، ثمّ مكثت يوما آخر وليلة لم تأكل ولم تشرب، فجاءها سعد وقال: يا أمّاه، لو كانت لك مائة نَفْس، فخرجت نفسا نفسا ما تركتُ دِيني، فكلي إن شئت، وإن شئتِ فلا تأكلي، فلمّا يئست أكلت وشربت". في مثل هذه المجاهدة من الوالدين لردّ الأبناء للشّرك بعد إسلامهم نزلت هاتان الآيتان في حكم التّعامل مع الوالدين في هذه الحال.

والمعنى: الأصل في معاملة الإنسان لوالديه أن تكون قائمة على البرّ والإحسان – كذا يوصى الله تعالى الإنسان لما لهما من فضل سابق عليه، ولما لهما من حقّ عليه إزاء فضيلة الإنجاب، والقيام على رعايته وتغذيته وتربيته وتنشئته والمحافظة عليه ولمحبّتهما له. لكن إذا تعدّى أمر الطاعة، وواجب البرّ والإحسان لفرض ردّه من الإيمان الحقّ بالله وحده إلى الشّرك بالضغط والمشاقّة فإنّ واجب الطاعة يَنْفَضُّ وينحلُّ، وعلى كلّ فرد أن يتحمّل مسؤوليته أمام الله عزّ وجلّ عند المحاسبة عن الإيمان، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. المعاملة بالإحسان تظلّ قائمة في كلّ معاملة مع الوالدين إلاّ في مسألة المعتقد، فإنّ كلّ إنسان مسؤول أمام الله يوم الرّجوع إليه عن معتقده وعن عمله، ولا يشفع والد في ولده خاصّة إن كان مشركا، ولا مولود بشافع عن والده إذا كان ملحدا وكافرا.

والذين آمنوا بالله وحده، وأخلصوا له في الطاعة والعبادة، وعملوا صالحا من أعمال البرّ فإنّ الله عزّ وجلّ يبشّرهم بأن يجعلهم في زمرة الصالحين لينجوا من العذاب، وليفوزوا بما أعدّ لهم من النّعيم.

- وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ (10) وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ (11) :

الآيتان في طائفة من النّاس يقولون بأفواههم: آمنّا، ولمَّا يَدْخُلِ الإيمان في قلوبهم، وهم الذين يبتغون بدينهم تحقيق المصلحة، إذا أصابهم مكروه بسبب تديّنهم، وأوذوا بسببه ارتدّوا إلى الكفر، ولم يثبتوا على إيمانهم، وقد عدّهم الله تعالى من المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويُبْطِنون الكفر. والمعنى: ومن النّاس من يدّعي الإيمان، ويصرّح بلسانه للمؤمنين أنّه مؤمن، فإذا أُفتتن فيه وأوذي على أنّه مؤمن خاف على نفسه من عذاب الكافرين، اِرتدّ للكفر سريعا وأنكر إيمانه كأنّ عذاب النّاس بمثل عذاب الله، وهو لا يعلم أنّ عذاب الله أشدّ وأبقى. هؤلاء إذا رأوا نصرا عند المؤمنين وفوزا بغنائم سارعوا إليهم يطلبون نصيبهم منها على أنّهم من أنصارهم، هؤلاء هم المصلحيّون وأهل الطمع، ليسوا من هؤلاء إذا أوذوا، وهم منهم إذا غنموا. وإنّ الله عزّ وجلّ عليم بخفايا صدورهم، وإنّ الله تعالى كاشف أمرهم بافتتانهم، وإنّ الله عليم بالمؤمنين الصادقين. وكأنّ الآيتين في تفسير ما جاء في الآية الثانية من هذه السورة.

- وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (12) :

الآية فيما يعتمده المشركون من وسيلة للتّغرير بالذين آمنوا لصدّهم عن سبيل الله حتّى لا يخافوا ممّا جاء الكافرين من الوعيد. والمعنى: وقال الذين كفروا للذين آمنوا لا تغيّروا دينكم، وكونوا على ملّتنا، وإذا كنتم تخافون ما بلغكم من وعيد من لم يؤمن ولم يسلم بالعذاب الشّديد فإنّنا سنحمل عنكم ما توعدون، فلا تخشوا شيئا. كلاّ، لن يحملوا عنهم ذنوبهم إذا اِرتدّوا، فلا أحد يحمل ذنوب غيره، وكلّ إنسان مسؤول عن نفسه: عن معتقده وعمله، وإنّهم فيما يدّعون من حمل الخطايا عن الآخرين كذب واِفتراء، وما هو إلاّ من التّغرير للصدّ عن سبيل الله الحقّ.

- وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (13) :

هذه في وعيد هؤلاء المغرّرين بالمؤمنين بسبب إنكارهم للبعث والحساب. إنّهم سيأتون يوم القيامة مثقلين بما يحملون من ثقل أخطائهم في كفرهم وشركهم، وثقل ذنوبهم في التّغرير بالنّاس لصدّهم عن الإيمان الحقّ مع ثقل هزئهم بالوعيد، وكفرهم بيوم القيامة والحساب. وسيسألون عمّا كانوا يدّعون كذبا ويختلقون من الأباطيل وصنوف التكذيب.

- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ (14) :



هذه الآية للآية 40 للاعتبار بأمم سالفة. كان فيهم من آمن واتّبع الرّسول فأنجاهم الله تعالى من العذاب الذي لحق بالكافرين منهم والمكذّبين برسلهم والهازئين بالوعيد، وذلك للتّحذير من سوء عاقبة الكفر. ومن الأمم الذين ضرب بهم المثل قوم نوح عليه السلام. لبث فيهم رسولهم ألف سنة إلاّ خمسين عاما يدعوهم للإيمان بالله تعالى وطاعته، ولنبذ الشرك، وكان يحذّرهم من عذاب الله وعقابه في الدنيا والآخرة، فكذّبوه، وهزؤوا به وبالوعيد، فأغرقهم بعذاب الغرق في الماء لكفرهم وشركهم وإصرارهم عليه إلاّ الذين آمنوا.

- **فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ (15) :**

وأمّا الذين آمنوا بنوح، وحملهم معه في السفينة فقد أنجاهم الله تعالى من الغرق، وجعل ما حدث للقوم عظة وعبرة للنّاس جميعهم إلى آخر الزّمان.

- **وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (16) :**

ومن خبر إبراهيم عليه السلام أنّه دعا قومه لعبادة الله تعالى، وترك عبادة الأصنام، ودعاهم للخشية من عذاب الله ونقمته في دنياهم وآخرتهم، ونصحهم بأن يتّبعوا ما دعاهم إليه خيرا لهم من التّمادي في معصيتهم وضلالهم إن كانوا يعقلون، وإن كانوا يعرفون قدرة الله عليهم.

- **إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ (17) :**

ونبّههم بأنّهم يعبدون أصناما لا تعي ولا تسمع ولا تبصر، جمادات يتّخذونها آلهة من دون الله الأحقّ بالعبادة والطاعة، وينسجون من خيالاتهم أكاذيب وافتراءات حولها لتعظيمها، وهي أصنام لا تنفعهم بشيء من الرّزق والإنعام، وأرشدهم لأن يعبدوا الله الرّزّاق ولأن يطلبوا من الله تعالى من فضله، وأُشكروا له لأنّكم ستُرجعون إليه ليحاسبكم عمّا تعبدون وما تعملون.

- **وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ (18) :**

وإن تكذّبوا بما جئتكم به، وبما أدعوكم إليه، وممّا أحذّركم منه فقد كذّب مَنْ كان مِن قبلكم بما جاءتهم به رسلهم فساءت عاقبتهم، وما على الرّسول إلاّ أن يبلّغ قومه بما أرسل به إليهم بلاغا واضحا في وعده وفي بيان وجوه الحقّ ووجوه الضلال، ولا يستطيع لقومه شيئا إذا لحقهم عذاب الله بسبب كفرهم وتكذيبهم.

- **أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ(19) :**

هذه في حفز العقل للاقتناع بالتّأمّل وبالتفكّر والتدبّر بأنّ إعادة الحياة لمن مات بعد حياته أمر يسير على خالقه. والمعنى: أو لم يتأمّلوا وينظروا بالبصيرة والعقل كيف ينشئ الله الخلق من ماء مهين، ثمّ يكبر، ويقوى، فإنّ إعادة الحياة له بعد مماته أمر سهل على الله عزّ وجلّ، لا يُعْجِزُهُ.



وهذه الآية من توجيه الله تعالى لتوعيتهم وتعليمهم.

- قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (20) :

وقال لهم إبراهيم: تجوّلوا في الأرض، وتأمّلوا في الطبيعة: في الحيوان، في النبات، وفي البحر وإنتاجه، وتعرّفوا في الخلق كيف ينشئ الله تعالى الموجودات، كيف يوجد من الميّت الحيّ، إنّ الله تعالى على كلّ شيء قدير، فآمنوا بالبعث، وإعادة الحياة إلى الأموات حين يأذن ببداية الحياة الآخرة غير الحياة الدنيوية.

- يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21) :

وفي الآخرة يعذّب الله من يشاء لنفسه أن يكذّب بيوم الحساب وبالوعيد، ومن شاء أن يكفر، وهذه لمن عدله. ويرحم الله تعالى بفضله مَنْ آمن وصدّق برسله وشاء أن يكون مؤمنا يطلب رحمة ربّه. وإنّكم أيّها النّاس راجعون إلى الله للحساب ومُرَدّون إليه للعقاب أو للثّواب.

- وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ(22) :

واحذروا من وعيد الله فإنّ الكافرين ليسوا بمفلتين من عذاب الله بالهرب في الأرض، ولا بالهروب إلى السماء والصعود إليها، وليس لهم غير الله من معين ولا نصير لينصرهم بالنّجاة من العذاب والإفلات منه ولينقذهم منه.

- وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (23) :

وهذه لتأكيد وعيد الكافرين بعدم الإفلات من عذاب الله وخاصّة الذين كفروا بيوم البعث وبالحساب، وكذّبوا بآيات الوحدانية ودلائل ضلالاتهم، وكذّبوا بالقرآن، هؤلاء لا يرحمون وعليهم باليأس من الرحمة ومن تخفيف العذاب الأليم عنهم. وهذه الآية من تحذير الله تعالى لجميع عباده من أن يُحْرَمُوا من رحمته، جاءت تأكيدا لإنذار إبراهيم لقومه الكافرين.

- فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (24) :

ومن غريب أمر قومه أنّهم قابلوا موعظته بتهديده بالقتل أو بإعدامه حرقا لإخماد صوته، ولصدّه عمّا يدعوهم إليه من الهدى، فأنجاه الله تعالى من النّار التي رموه فيها على أعين النّاس لإرهابهم حتى يظلّوا على ما هم عليه من الشرك وعبادة الأصنام طائعين ذليلين، وأخزى الله بإنجائه من أراد به سوءًا، وفي هذا عبرة للمؤمنين ليعلموا أنّ الله ناصرهم زمن الشدّة ومخزي أعدائهم.



- وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ (25) :

ولمّا خرج إبراهيم من المحرقة سليما، غير مصاب بمكروه إذ كانت له النّار بأمرٍ من الله القدير بردا وسلاما، قام في الحضور خطيبا – وهم في غمرة من دهشتهم – لقد اِتخذتم الأصنام من دون الله الحقّ آلهة مجاملة بينكم وللمحافظة على توادّكم لبعضكم، وأنتم تعلمون أنّها لا تنفعكم بشيء، ولكنّكم يوم القيامة عندما ستقفون بين يدي الله، وتتحقّقون أنّكم كنتم على باطل وضلالة ستتبرّؤون من أصنامكم ورؤسائكم وكهنتكم الذين كنتم توادّونهم وتجاملونهم، وحينما ستلقون في عذاب النّار سيشتم بعضكم بعضا، وستتسابون، وستدعُون على بعضكم بمزيد العذاب وبما هو أسوأ منه، ويومئذ لن تجدوا من ينقذكم من الله وسخطه. وهذا لحضّهم على إنقاذ أنفسهم من ضلالهم قبل فوات الأوان.

- فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (26) :

فآمن بإبراهيم اِبنُ أخيه: لوط، واِتّبعه، وصدّق بما جاء به، وخرج صحبة عمّه من البلاد، وهاجر معه حيث وجههم الله (وقد هاجر إلى الشام). إنّ الله هو الغالب القاهر الظالمين وهو تعالى الحكيم في تدبيره لإنجاء عباده المؤمنين.

- وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (27) :

وتفضّل الله تعالى على إبراهيم بالولد في كبره وكبر زوجته سارّة واسمه إسحاق، وأحياه حتى رأى حفيده يعقوب من إسحاق تكريما لإبراهيم، ورفعا لمنزلته لأنّه كان من أهل العزم، ثمّ جعل في ذريّته النبوّة، الأسباط، وداود وسليمان، وموسى وهارون، وزكرياء ويحيى وعيسى ومن ذرّية إبراهيم: إسماعيل ومن إسماعيل جاء النّبيّ الخاتم: محمد صلّى الله عليه وسلّم، فإبراهيم أب الأنبياء بلا منازع، وآتى الله بعضا من ذرّيته كتابا منزلا. آتى داود الزبور، وآتى موسى التوراة والألواح، وآتى عيسى الإنجيل، وآتى محمدا صلّى الله عليه وسلّم القرآن المهيمن. وجعله تعالى يُذكر بالخير، ويُدْعى له في صلاة المسلمين عند التّشهّد الأخير، وإنّه في القرآن في الدرجات العليا في زمرة الصالحين.

- وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ (28)

وأذكر إذ قال لوط لقومه مستنكرا عملهم القبيح، إذ كانوا يستبيحون فعل الفاحشة في جنس الذكور، لم يسبقهم لهذه الفاحشة المنافية للفطرة أحد غيرهم من جميع الخلق لأنّها من العمل الشاذّ.

- أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (29) :

كان القوم يمارسون الشهوة الجنسية "المثلية" المنافية للأخلاق وللفطرة، وكانوا من قطّاع الطرق على المسافرين لسلبهم، وغصب أرزاقهم، وسبي نسائهم، وكانوا يروّعون أصحاب القافلة، وكانوا يشربون الخمرة، ويعربدون، ويأتون أعمال الفجور، فلمّا عاب لوط عليهم أعمالهم هذه، ووعظهم بأن ينتهوا عنها، وحذّرهم من عقاب الله عزّ وجلّ إن هم لم يصلحوا ما يعملون ولم يتوبوا إلى الله سبحانه اِستخفّوا بالوعيد، وقالوا له ساخرين، وفي تحدّ قل لربّك يرسل علينا عذابه إن كنت من الصادقين في هذا الوعيد.

وفي هذه الآية تعريض بما كان يفعل مشركو العرب: كانوا قطّاع طرق، وكانوا يأتون في نواديهم المنكر خاصّة عند صاحبات الرّاية الحمراء الفاسدات في ما يأتين من الفاحشة، وفيها تعريض لهم في تحدّيهم بالوعيد الذي كان يبلغهم من آي القرآن في التّحذير والوعيد، كان بعضهم يقول للنّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم حين يسمعون وعيده على نحو ما جاء في (سورة الأنفال الآية 32) (وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ).

- قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ (30) :

ولمّا رأى لوط من قومه الهزء بالوعيد، واِستخفافهم بموعظتهم، وإعراضهم عن السماع له والاستجابة له، دعا ربّه بأن ينصره على المفسدين في الأرض وذلك بأن ينجيهم منهم، ومن سوء عاقبتهم.

- وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ (31) :

ولمّا جاءت الملائكة إبراهيم بالبشرى بولادة إسحاق من زوجته سارّة العجوز، أخبروه بأنّهم مرسلون إلى قرية (سدوم) حيث قوم لوط لتدميرها، وإهلاك أهلها فيها بعذاب الدمار بقلب بيوتهم على رؤوسهم رأسا على عَقِب لأنّهم كانوا ظالمين لأنفسهم بالكفر وبمعاصيهم، وكانوا ظالمين لرسولهم بالاستخفاف بمواعظه وبوعيده.

- قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ (32) :

وقال إبراهيم من خوفه على لوط وأسرته من أن يصابوا بعذاب، إنّ في القرية لوطا، فطمأنوه عليه بأن قالوا نحن أعلم بمن فيها من المؤمنين. سننجي من كلّ سوء ومن كلّ مكروه لوطا وأهله



من ذريّته ومن أتباعه من المؤمنين إلاّ اِمرأته إنّها ستكون هالكة مثل قومها لأنّها كانت على زوجها لفائدة أهلها من أهل القرية، كانت تفشي إليهم سرّه، ولم تكن معينة له ولا مساندة له.

- وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ **(33)** :

ولمّا دخلت الملائكةُ: أي رسل الله على لوط في وجوه حسان شعر بحرج كبير وضيق شديد لدخولهم عليه وتحرّج من اِستضافتهم خوفا عليهم من أن يتعرّضوا للضيق وللاعتداء من جماعة من قومه، ولمّا رأوه على تلك الحال طمأنوه، وأخبروه بأنّهم رسل الله لقومه – والملائكة لا تنزل على قوم إلاّ لتدميرهم واِستئصالهم، ودعوه لأن لا يخاف ولا يحزن على نفسه وأهله من المؤمنين لأنّهم منجّوهم جميعا من كلّ سوء ومن كلّ مكروه يُصيب القوم، إلاّ امرأته قضى الله تعالى فيها أن تكون من المُغْبرين مع القوم.

- إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ **(34)** :

وأخبروه بأنّهم سيمطرون أهل القرية بحجر مدمّر لا يقع على شيء إلاّ دمّره وأهلكه، وذلك بسبب خروجهم عن طاعة الله، وطاعة رسوله، وبسبب فحشهم، واِستخفافهم بالوعيد.

- وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ **(35)** :

وأنجى الله تعالى لوطا وبناته ومن تبعه من المؤمنين، ودمّر القرية وترك فيها آثارا تدلّ على هول الدّمار الذي أصابها ليعتبر بها العاقلون الذين يعتبرون بسوء عاقبة إتيان المعاصي ليهتدوا. وقال تعالى في خطاب لمشركي العرب في (الصافّات الآيتين137-138) (وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ).

- وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ **(36)** :

وأرسل الله تعالى إلى قرية مدين شعيبا عليه السلام رسولا، فدعاهم لعبادة الله وحده، وللإيمان بيوم القيامة وبالحساب، وللعمل بما ينفعهم لآخرتهم طلبا لثواب الله وتكريمه ونعيمه، وللنجاة من عذابه، وحذّرهم من التّمادي في معاصيهم، وبأن لا يقطعوا الطريق على المسافرين لينتهوا عنها، وليكونوا من الصالحين.

- فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ **(37)** :

فكذّبوا رسولهم، ولم يسمعوا له، وعصوا الله فيما أمرهم، ورسوله فيما حذّرهم منه، فعاقبهم بعذاب الزّلزلة الشديدة النّاتجة عن الصاعقة، فأصبحوا في ديارهم ميّتين هالكين جاثمين على ركبهم من شدّة ما أصابهم من الخوف والفزع.



- وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ (38) :

وبمثل ما جرى على قوم لوط وأهل مدين من عذاب الاستئصال جرى على قوم عاد، وقوم ثمود، عصوا رسلهم وكذّبوا بما جاؤوهم به من الهدى والموعظة الحسنة لعمل الصالحات، وترك المعاصي والحذر من عمل السيّئات، وتلك آثار مساكنهم المدمّرة وقراهم الخربة دالّة على ما أصابهم من الهلاك والدمار. عصوا الله ورسله، وزيّن لهم الشيطان التّمادي في معاصيهم فأبعدهم عن السبيل القويم الذي يقيمهم على الحقّ والعمل الصالح، ولم يكونوا قادرين على التعرّف على الحقائق بالاستدلال والنّظر بسبب تعطيلهم لعقولهم، وبصائرهم، فهلكوا على عماهم وعلى ضلالاتهم.

- وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ (39) :

ولقد هلك قارون، وكان من بني إسرائيل، آتاه الله تعالى مالا وافرا، وسعة من الرزق فجحد نعمة الله عليه، وطغى بما آتاه الله من النّعم على المستضعفين فخسف الله تعالى به وبداره الأرض ليعتبر سوء عاقبته الطغاة الجاحدون. وهلك فرعون وهامان بالغرق في قاع النّهر لأنّهما أفسدا في الأرض باستعباد العباد وبالجبروت، وبادعاء فرعون الألوهية ليكونا عبرة للطغاة المتجبّرين، ولقد حذّرهم موسى بما جاءهم من المواعظ، وبالدعوة للهدى من سوء عاقبة الظلم، فلم يحذروا، واِستخفّوا بالوعيد، وتمادوا في اِستكبارهم في الأرض علوّا، وتعاظموا على النّاس، وأذلّوهم، فماتوا هلكى، وما كانوا قادرين على الإفلات من العقاب والعذاب والهلاك.

- فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبًا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ (40) :

كلّ من سبق ذكرهم عوقبوا بسبب ذنوبهم، وبسبب إعراضهم عن الهدى، ولأنّهم آثروا التمادي في معاصيهم واِستخفّوا بالوعيد، فمن هؤلاء (مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبًا) والحاصب عند العرب هي الرّيح العاصفة التي تحمل الحصى والثّلج والبَرَد، وقد هلك قوم لوط بالحاصب المدمّر. وهلك قوم ثمود وقوم شعيب بالصاعقة، وهي الصيحة، وخُسف بقارون الأرض، وأُغرق قوم نوح وفرعون وجنده حتى هلكوا، ولم يظلمهم الله تعالى بما ألحق بهم من صنوف هذا العذاب، ولم يعاقبهم ظلما ولكنّهم هم الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم وكبريائهم وبإفسادهم في الأرض وبمعاصيهم.

- مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ (41) :

هذه الآية مع الآيتين المواليتين في ضرب المثل بعبادة المشركين للتّوعية والموعظة لأهل الوعي والإدراك. مثل الذين يعبدون آلهة أخرى غير الله على أنّها ناصرة لهم وحافظة لهم من كلّ مكروه ومن العذاب كمثل العنكبوت التي بنت لنفسها بيتا من خيوطها لتحتمي فيه من الرّياح والمطر ولتسكنه في أمان، وإنّ بيتها من أضعف البيوت لا يقي من شيء، ولا يحمي من شيء لأنّه من الخيوط الرقيقة الضعيفة وبلا أسس وقواعد. وينتفع بهذا المثل العالمون الذين يعقلون الحجج، ويعرفون إشاراته، ويدركون مقاصده، ويفهمون أبعاده.

- إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (42) :

إنّ الله سبحانه يعرف أنّ كلّ ما تدعون من دونه من آلهة من الأصنام، أو ممّا تَنْسُجُه أوهامكم لا تنفعكم بشيء، وأنّها لا تملك من صفات الألوهية من شيء، وينبّهكم لهذا بالحجج ويضرب المثل وبالاعتبار بما جرى للأمم السالفة الذين كانوا يعبدون آلهة أخرى غير الله، فلم تنصرهم آلهتهم عندما جاءهم عذاب الله، والله هو العزيز الذي لا يُغلب، وهو الحكيم في هدي النّاس وفي إرشادهم وموعظتهم.

- وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ (43) :

وتلك الأمثال نوضّحها للنّاس للتّوعية والتنبيه، وما يفهمها ولا يدرك أبعادها ومقاصدها إلاّ الذين عرفوا الله وقدّروه حقّ قدره، وعرفوا آياته، وفهموا حُجَجَه.

- خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ (44) :

خلق الله السماوات والأرض حقّا، وكلّ إلاه يعبد سواه لم يخلق شيئا، وليس من يقدّسه ويعبده دليلاً على ألوهيته، فكلّ عبادة لغير الله الخالق هي عبادة باطلة، إنّ في آيات الخلق دلائل واضحة للمؤمنين على ألوهية الله ولا إلاه سواه.

- ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ (45) :

يحسن بكلّ مسلم أن يحفظ هذه الموعظة الرّبانية ليذكّر بها نفسه، وليَعِيَها، ويجتهد في العمل بها لأنّها تتضمّن عناصر جامعة تحمل المؤمن المسلم على الاستقامة على الدين، وعلى العمل الصالح معا في يُسر. وحَرِيّ بالأيمّة الوعّاظ أن يذكّروا بها المصلّين في خطبهم الجمعية لما لها من أهمية في ضمان طاعتهم لربّهم، وضمان عملهم بالتنزيل. وعناصر هذه الموعظة أربعة:



- تدعو الآية للمداومة على تلاوة القرآن. والمقصد من هذه المداومة تجديد تذكير المؤمن بمواعظه وهديه لما يقيه من الضلالة، ويؤتيه رشده بما فيه من عرض لقصص الأنبياء والصالحين، ومن ضرب المثلات للاعتبار، وفيه أدعية قرآنية لطلب خيري الدنيا والآخرة، وللتقرّب إلى الله زلفى. وإنّ المداومة على تلاوة القرآن تحمي قارئه من عمل السيّئات، وتحفّزه على أعمال البرّ، وعلى حسن الخلق، فيكون من الصالحين.

- وأمّا العنصر الثاني ففيه الأمر بالمداومة على إقام الصلاة، وقد بيّن تعالى المقصد من هذه المداومة: (إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ). الصلاة من أجلّ أعمال الطاعات لله تعالى، فيها ذكرٌ لله بالتكبير والتسبيح، والحمد، وبقراءة القرآن، وبالدعاء، وبالتّشهّد بالتّوحيد. فيها قيام لله تعالى وركوع له في خشوع، وسجود له في خضوع وتذلّل. يؤدّيها المؤمن في طهارة حسيّة في ثيابه وبدنه، وطهارة روحية من رجس الأوثان والشّرك، لذلك قيل : "الصلاة عماد الدين".

وإنّ من فضائل أداء الصلاة على هذا النحو إمتثالا لأمر الله طمعا في رحمته ورضوانه، وخوفا من عذابه، وطلبا للهداية ولفتح أبواب الرّزق والفلاح والتوفيق في كلّ عمل بعون من الله، في خمس أوقات بين ليل ونهار لا تمنح للمؤمن فراغا للانصراف للهو، وتقيه من اِتّباع الأهواء خوفا من أن لا يُستجاب لدعائه ورجائه من ربّه فلذلك هي تُقِيمُه على الاستقامة على طاعة الله، وتحميه من الزّيغ إلى المعصية وتحميه من الفحشاء وكلّ عمل منكر ومناف لحسن الخُلق، وللعمل الصالح. فهي الواقية من السيّئات، وهي المنجيّة من المهالك، وهي الفاتحة لأبواب الخيرات، وهي عماد أعمال الطاعات.

- وثالث العناصر: ذكر الله. وذكرُه تعالى يعني وجوب مراقبة الله في النّفس في كلّ قول أو في كلّ عمل، وهذا ما عبّر عنه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم "بالإحسان" في حديث أسئلة جبريل عليه السلام، وهو أن يعبد الإنسان ربّه كأنّه يراه، فإن لم يكن الإنسان ليرى ربّه، فإنّ الله تعالى يراه. والله تعالى سميع، فلا يجب أن يقول المسلم قولا نهى الله تعالى عباده عن قوله من مثل الكذب والنّميمة والشّتيمة والقذف... ويذكر الإنسان ربّه في الملمّات ليتصبّر، ويذكره في المسرّات ليشكره على نعمته وفضله، ويذكره عند خلوته تعظيما وخوفا وطمعا، ويذكره إذا رأى مؤمنا أو مؤمنة في عسر فأعطى وأنفق ممّا آتاه. يذكر ربّه في منهياته حتى لا يقربها.

وعند الرّازي وابن عاشور في تفسيرهما، والنصّ لابن عاشور "أن ذكر الله هو الإيمان بوجوده، وبأنّه واحد، فبعدما أمر تعالى نبيّه والمؤمنين بعملين عظيمين: تلاوة القرآن، والصلاة، أردف ذلك بأنّ الإيمان بالله هو أعظم من ذلك إذ هو الأصل"، وزاد الشيخ ابن عاشور لتأكيد رأيه :

"وذلك من ردّ العجز على الصدر، عاد به إلى تعظيم أمر التوحيد، وتفظيع الشرك من قوله: "إنّ الله يعلم ما تدعون من دونه من شيء" إلى آخر هذه الآية (التحرير والتنوير ج 20 ص 261).

وإنّ ذكر الله يعني كذلك إستحضار الله في النّفس عند أداء الواجبات الدينيّة أو المدنية الحياتية مع الآخر حتى تؤدّى في إخلاص، وفي حسن الأداء، خالية من الرّياء أو الغشّ، ويعني إستحضار علم الله عزّ وجلّ الذي لا تخفى عليه خائنة الأعين، وما تخفي الصدور عند الوقوف عند حدوده في النّواهي وفي المحرّمات طاعة، وإمتثال للأمر. إنّ هذا الذكر على ما جاء في جميع هذه المظاهر هو "أكبر" عند الله تعالى، أي أكبر طاعةً لله، وأكبر ظاهرة تدلّ على صدق الإيمان، وتمامه، وعلى الإخلاص، إنّ ذكر الله على هذا النحو أكبر من كلّ عبادة لأنّه من حسن العبادة وأعظمها.

- وأمّا العنصر الرابع ففيه التّذكير بأن الله سبحانه مطّلع على أعمال كلّ مسلم، وذلك ليخشى الله فيها، وحتّى لا يأتي فاحشة أو منكرا أو معصية وهو يعلم أنّ الله مطّلع عليه، وفيه كذلك التّحذير من عمل كلّ مخالفة أو محذور، بل قد يكون في هذا التّحذير ترغيب لأن يعمل المرء أعمال البرّ التي رغّب فيها الله طلبا لرضوانه. فهذا العنصر لتحفيز النّفس للعمل للآخرة بما يرضي عنها ربّها.

وهكذا إذا عمل المسلم بهذه العناصر الأربعة كان حقّا على صراط ربّه المستقيم، وكان بحقّ من عباد الله الصالحين.

- ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ **(46)** :

الآية في تحديد منهج الحوار مع مؤمني أهل الكتاب. والخطاب في هذه الآية للعلماء والوعّاظ الذين يمتلكون الحجج، ومنطق الاستدلال، والنّباهة لفحص أدلّة الآخر من أهل الكتاب، والذين يحسنون فنّ الحوار وقواعد الجدل بصدر رحب، ولسان فصيح البيان، وفكر ثاقب. ومن لم يملك وسائل هذا الحوار من عامّة النّاس فلا يجوز لهم الخوض في محاورة أهل الكتاب في الدين خشية أن يتحوّل الحوار بينهم إلى سباب، أو إتّهام بالكفر، أو إلى إقتتال أو عنف، فإنّ الحوار في الآية مشروط بأن يكون بالتي هي أحسن، ومن ليس له علم واسع بالمنطق وبتاريخ الأديان وبوسائل الاحتجاج فليس معنيا بهذا الخطاب.

والمعنى: لا تحاوروا أهل الكتاب إلاّ بالأسلوب الأمثل لتقديم الإسلام: عقيدةً، وأحكاما، ومواعظ، ونصّا في صورة مقنعة، وجليةٍ، وبدون حِدَّةٍ في النّقاش، ودون تبادل إتّهام، ودون طعن في الرّسل أو في الكتب، ودون إستفزاز، يجب أن يكون الحوار قائما على تبادل الحجج، فإن

أعيتكم الحجج فاحسموا الأمر بالإقرار بأنّكم تؤمنون بما أنزل إليكم، وبما أنزل إليهم، وبأنّ إلاهكم وإلاههم واحد، وأنكم مسلمون لله الواحد الأحد حتّى لا تختلفوا أو تنازعوا. وأمّا المعاندون منهم، أو الرافضون للسّماع لكم وللمجادلة بالحجج، أو الذين لا خلاق لهم، والهازئون فلا تجادلوهم في الدّين، وأعرضوا عنهم، والمستفاد من الآية أنّ الإسلام لم ينزل بنسخ الأديان السماويّة السابقة، وبقتال أهل الكتاب، أو بمعاداتهم، أو بالكفر بكتبهم وبشعائرهم، وهذا من أهم الدلائل على التسامح الديني في الإسلام، الإسلام لا يرفض إلاّ الشرك والإلحاد، والتكذيب بالرسل وبالكتب وبعقيدة التوحيد.

- وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ (47) :

هذه في التّصديق بالقرآن الكريم. والمعنى: ولقد أنزلنا إليك – يا محمد – القرآن كذلك لتثبيتك، وللتصديق بك وبرسالتك، وإنّ أهل الكتاب من اليهود والنّصارى يصدّقون به لأنّه قد جاءتهم كتب مع رسلهم، ولأنّه قد جاءهم الأمر على ألسنة رسلهم وفي كتبهم للتصديق بما ينزل على رسل الله من كتب. ومن هؤلاء المعاصرين لك من يصدّق به من مثل سلمان الفارسي، وكعب الأحبار، ومنهم من ينكر ويكذّب بهذا القرآن، وبآيات الله ودلائله ومواعظه وهؤلاء هم مشركو قريش، والكافرون بالله وبرسله وبكتبه وباليوم الآخر، وإن كان بعضهم من مثل الوليد بن المغيرة ليعلم أنّه يستحيل أن يكون من كلامك، ولكنّه يكفر به مكابرة وعنادا.

- وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ (48) :

هذه في الإشارة لدليل من دلائل صدق نبوّة محمد صلّى الله عليه وسلّم، وصدق التنزيل الذي يقرأه على النّاس وحيا من عند ربّه بلا رَيْبٍ. والمعنى: لقد لبثت في قومك سنين طويلة قبل أن تكلّف بالرسالة، وتؤتى الوحي لا تقرأ على قومك أيّ حديث، أو أمر، أو موعظة، ولم يعرفوا عنك أنّك تكتب حروفا وكلاما بيدك. لقد عرفوك أمّيّا لا تعرف شيئا عن الأديان السماوية، وما كنت تخبر النّاس بأخبار الأمم السالفة، ولم تعش في بيئة متعلّمة، ولا يُعرَفُ لك معلّم، فلمّا جاءتك النّبوّة وجاءك الوحي ونزل عليك تنزيل الرّحمان اِتّهموك في صدقك، واِتّهموك في ما تقرأه عليهم بأنّه من اِفترائك، رغم أنّك لم تكن تقرأ عليهم شيئا قبل نزول الوحي عليك، ورغم علمهم بأنّك لم تكن تخطّ بيمينك حروفا وكلمات تُقرأ. لو كنت قبل نزول الوحيّ غير أمّيّ، لو كنت قبلُ قارئا وكاتبا لشكّ في صدقك القائلون بأنّ هذا القرآن من تأليفك ومن كلامك، والمستفاد من هذه الآية أنّ أمّيّة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم لم تكن نقيصة، وإنّما قضى الله تعالى أن يكون عليها لتكون من دلائل صدقه، وجاء القرآن بلسان عربيّ مبين معجز يتحدّى البلغاء والفصحاء بأن

يأتوا بسورة من مثله في فصاحته وبيانه، ومن مثل الرّسول في أمّيّته في القراءة والكتابة. وقد جاء القرآن بأخبار الأمم السالفة وما كان للقرشيين علم بها فأنّى لأمّيّ يجهل الأديان أن يأتي بها ولم يعلّمه أحد من البشر خبرهم، وجاء القرآن بدلائل القدرة والخلق ودلائل الوحدانية ودلائل بطلان الشّرك، فأنّى لغير المتعلّم أن يتكلّم بها، وأن يتكلّم بخبر السماء وخبر الأفلاك السّماوية وأبراجها وأخبار ما تضمر أنفس الكافرين من المُكر. كلّ هذه العناصر شاهدة على صدق الرّسول صلّى الله عليه وسلّم فيما يبلّغ قومه من أمر ربّهم ومن هديه وشرعه وأحكامه ووعده ووعيده.

- بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ (49) :

"بل" أي كلّ ما يقوله المكذّبون بالنّبوّة وبالوحي والتّنزيل باطل، فالقرآن عند علماء اليهود والنّصارى وحي من عند الله حقّا وصدقا، وما جاء فيه من آيات هي واضحة الدلالة بأنّها من عند الله حقّا، وما ينكر هذه الدلائل إلاّ الكافرون المشركون عنادا ومكابرة.

- وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (50) :

وقال هؤلاء الذين لا يقرؤون ما أنزل إليهم، ولا يتدبّرونه ليعرفوا من بلاغته، ومن هديه وأخباره أنّه من عند الله تعالى، قالوا يستحيل على أحد من البشر أن يأتي بمثله: هلاّ جاءنا محمد بمعجزات باهرة حسيّة نراها من مثل ناقة صالح، أو عصا موسى، أو قصر سليمان لنصدّقه، ونصدّق برسالته. أخبرهم – يا محمد – بأنّك رسول من عند الله حقّا جئتهم لتحذّرهم من عذاب الله ليهتدوا فينجوا بأنفسهم من المهالك. والمُستفاد من الآية أنّ من أفضل درجات الإيمان أن يكون تصديقا بالقلب عن علم، وعن نظر بالبصيرة في الدلائل التي يسمعها وعَلِمها وعن قناعة عقلية. وهذا خير من الإيمان الذي يكون عبر الانبهار بمعجزة خارقة حسّية، وليس عبر الوعي والإدراك من ذات النّفس عن قناعة.

- أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (51) :

أليس يكفي هؤلاء المشككون أنّ الله أنزل عليهم القرآن يقرأ عليهم فيعرفون منه وبه أنّه معجزة باهرة. وإنّه (لَرَحْمَةً) لهم في دنياهم لأنّه ينقذهم من الضلالة، ويهديهم للصواب، وللاستقامة على الدّين الحقّ وشرعه. وإنّه (وَذِكْرَىٰ) لهم لما فيه من إرشاد لهم لما ينفعهم في دنياهم وإنّه يدلّهم على العمل الذي يحقّق لهم الفوز بالنّعيم في آخرتهم، وينقذهم من العذاب يومئذ. وهذه الفضائل لا ينعم بها إلاّ المؤمنون به والعاملون بشرعه وأحكامه وهديه.

- قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ (52) :



هذه للحسم في مسألة التّكذيب بالرّسول وبالقرآن. والمعنى: أخبرهم – يا محمد – بأنّ الله كافيك بأن يكون شهيدا على صدقك حتى يعلموا أنّك لا تأبه بتكذيبهم، والله سبحانه لا يخفى عليه شيء ممّا يجري في السماوات والأرض. والذين يعبدون الأصنام وكفروا بالله وحده، وبرسوله، وأنكروا كتابه، وجعلوا لله أندادا وشركاء قد خسروا أنفسهم باتّباعهم الباطل واِجتناب الحقّ والإعراض عنه، وخسروا أعمالهم لأنّها مُحْبطة بسبب كفرهم، وخسروا آخرتهم.

- وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ ۚ وَلَوۡلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ(53) :

ومن عناد المشركين وإصرارهم على التّكذيب بالتّنزيل وتحدّيهم للإنذار بالوعيد طلبُهم باستعجال إنزال العذاب. ولولا الأجلُ الذي حدّده الله تعالى لعقاب الكافرين، وهو يوم القيامة لأتاهم عذاب الاستئصال والتّدمير فهلكوا جميعا، وسيأتي المُصِرّين عليه عذابُهم على حين غفلة دون إشعار مسبق ليفاجؤوا به.

- يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ (54) :

يطلبون التّعجيل بعذابهم، فليطمئنّوا فإنّهم سيستقرّون في جهنّم ليذوقوا عذابها، وإنّ جهنّم مستوعبة لهم، وتحويهم جميعا.

- يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (55) :

يوم يحويهم العذاب في جهنّم حتّى يغطيهم من فوق رؤوسهم، ويكون لهم بساطا من تحت أرجلهم فلا يترك أحدا يفلت منه قائما أو جالسا، يومئذ يقال لهم – وهم يُكْتَوُون به – ذوقوا ما كنتم تهزؤون به، وتكذّبون به، وما كنتم تستعجلونه كفرا به وبالوعيد.

وفي القرآن الكريم الكثير من مثل هذه الآي في الإنذار والتّحذير من الوعيد للتّرغيب في الإيمان، ونبذ الكفر والشّرك، وقد أعذر الله تعالى بهذا التّحذير والنّذير كلّ كافر.

- يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ (56) :

الخطاب في هذه الآية إلى آخر آية من السورة موجّه لجميع المؤمنين. والآيات في موعظتهم، وفي تبشيرهم بالحسنى، وفي التّعريف بالصفات التي يحبّها الله تعالى فيهم، وفيها تذكير بفضائل الله عليهم وعلى جميع خلقه للتّرغيب في التّوكّل عليه وحده، وفي تخصيصه وحده بالدعاء، وفي ترغيبهم في الآخرة التي هي خير من حياة الدنيا. وفي هذه الآية ترغيب في الهجرة ليجدوا أرضا آمنة لعبادتهم حتى لا يفتنوا في دينهم، وكأنّها تمهيد للإذن بالهجرة بل هي في الإذن لهم بالرحيل عن مكة إلى أرض الله الواسعة. ونداؤهم بـ (يَٰعِبَادِيَ) فيه إضافة تشريف وتكريم وترغيب في طاعته، وهذا النّداء خاصّ بالذين آمنوا به تعالى، وخصّوه بالعبادة والطاعة.



إنّ أرضه واسعة فاسكنوا منها ما تجدون فيها أمنكم في عبادتكم لله عزّ وجلّ، وأمنكم على أنفسكم من الفتن في دينكم.

- كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (57) :

واِعلموا أنّ كلّ مخلوق سينتهي إلى الموت بعد حياته، ثمّ من بعد موته سيبعث وسيرجع إلى خالقه ليحاسبه عن عمله، فلا تغفل – يا أيّها العبد المؤمن – عن العمل ليوم الرّجوع إلى الله بعد حياتك وموتك.

- وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ (58) :

وهذه في تبشير المؤمنين العاملين الصالحات من أعمال الطاعات وأعمال البرّ بأنّهم سيأْوُون عند رجوعهم إلى ربّهم في منازل رفيعة في الجنّة حيث يجدون الرّفاه والنّعيم المقيم الدائم، وما أحسن ثواب العالمين بأمر ربّهم وبطاعاته.

- ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (59) :

وهذا التكريم جزاءٌ لهم على صبرهم على أذى من عاداهم في دينهم، والذين توكّلوا على ربّهم فخرجوا من أرضهم وبلادهم إلى أرض الله الواسعة ليعبدوا ربّهم في أمن وأمان.

- وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (60) :

وهذه في طمأنة المتردّد في عزمه على الهجرة خوفا على نفسه من الافتقار لرزقه وطعامه، وذلك بتذكيره بأنّ الله عزّ وجلّ كفيل برزقه، فبمثل ما يرزق كلّ دابّة هائمة في أرض الله الواسعة لتحيا إلى أجلها يرزقه هو أيضا، ولا يَدَعُه، وهو تعالى الذي يسمع طلبه، وهو العليم بحاجته فيرزقه سبحانه على قدر ما يشاء له.

- وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ(61)

إن هؤلاء المشركين الذين يَفْتِنُون المسلمين لإيمانهم بالله الحقّ الخالق الرزّاق لئن سألتهم من خلق السماوات والأرض، وأنشأ الشمس والقمر، وسخّرهما للغاية التي خلقا لها ليقولنّ بكلّ تأكيد هو "الله"، ولا ينسبون الخلق لأصنامهم وآلهتهم.

فكيف يَعْدِلون عمّن يرزقهم والذي يطعمهم، والذي خلق هذا الملكوت، وسخّر لهم الأرض ليعبدوا غيره، ثمّ ليفتنوا من يعبد الخالق الحقّ، أليس هذا من عمى بصيرتهم، يقولون نقيض ما يفعلون.

- ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (62) :

الله يوسّع الرّزق على من يشاء من عباده، على نحو ما قدّر له حين خلقه، ويضيّقه على البعض ويقتّره ليحتاج بعضهم لبعض، وليمتحنوا فيما آتاهم الله كيف يعملون. إن الله بكلّ شيء عليم بما يصلح له أو بما يجب أن يختبر به، أو ليسخّره لأمرٍ ما.

- وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (63) :

ولئن سألت هؤلاء المشركين المكذّبين بالتنزيل وبآيات الله من نزّل من السماء ماء فأحيا به الأرض، وجعلها مخصبة بعد موتها وتصحّرها لأقرّوا بكلّ تأكيد بأنّه هو الله. قل لهم عندئذ الحمد لله إذ تعترفون وتقرّون بأنّ الله تعالى هو الذي يحيي الأرض بعد موتها بما ينزل من السماء فلماذا لا تقرّون بالبعث، وبقدرة الله عزّ وجلّ على إحياء الموتى، ولماذا تتصرّفون مع الدعوة لعبادة الله وطاعته وللنّظر في آياته وتدبُّرِها تَصرُّفَ من لا يعقل، إنّكم تُقرّون بشيء وتأتون نقيضه.

- وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (64) :

هذه للتّرغيب للعمل للآخرة، وكيلا يغترّ المؤمن بحياته في دنياه فيغفل عمّا هو خير منها. والمعنى: إنّ الحياة الدنيا تغري الإنسان فيها بملذّاتها ومفاتنها، وتشغله وتلهيه بالمال والجاه والانبساط، وتخدعه بما فيها من مظاهر الهزل، وقضاء العمر في اِتّخاذ وسائل التّرفيه وأسباب المرح، وتدعو النّفوس لمزيد الإقبال عليها، وهي فانية، وسائرة إلى زوال. أمّا الدار الآخرة فهي (الْحَيَوَانُ) أي الحياة فيها دائمة وباقية، ليس فيها موت، فالحيوان يعني جنس الحياة الدائمة. والنّاس لو كانوا يعلمون ما في الحياة الآخرة الباقية من أسباب النّعيم الرّغد والرّفاه وأسباب التّكريم لأقبلوا على العمل لها للفوز فيها بنعيمها، ولم ينشغلوا عنها في حياتهم الدنيوية.

- فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (65):

وهذه في صورة أخرى من تناقض المشركين مع أنفسهم بين من يدعونه عند الشدّة، وما يدعونه عند خلاصهم من الأزمة وبعد نجاتهم. إنّهم إذا ركبوا السفينة دعوا الله بإخلاص وبإلحاح لإنجائهم إذا فاجأتهم ريح عاصف، وإذا هاج البحر وعلا موجه، وشعروا بالخطر على أنفسهم من الهلاك، لكنّهم حين ينجون من الخطر، ويصلون إلى البرّ سَلِيمِينَ يعودون لشركهم ولتقديس أصنامهم، ويغفلون عمّن كانوا يدعونه عند شدّتهم وعند شعورهم بالخوف على أنفسهم من الهلاك. وما هذا إلاّ من قلّة وعيهم بمن يستجيرون بما تمليه عليهم فطرتهم عند الشّدّة، وبما يدعون عند رخائهم.

- لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (66) :

فدعْهُم لعمى بصيرتهم عندما يكفرون بما جاءهم من الهدى، وحين يجحدون فضل الله عليهم حين فرّج كربتهم عند شدّتهم، ودَعْهم ينعمون قليلا بما هم فيه من الرخاء والغفلة، وسوف يشهدون عاقبة غفلتهم وجحودهم يوم يلقون ربّهم يوم القيامة.

- **أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ (67) :**

هذه لتذكير مشركي قريش بفضل الله عليهم إذ جعل بلدهم : "مكّة" مكرّمة، وبلدًا آمنا لمن أقام فيها ومن حولها يحرم فيها القتال الغصب، والنّاس من حولهم غير آمنين على أنفسهم، وعلى ممتلكاتهم، قد يقتلون إذا هوجموا على غرّة، وقد يُسْبَوْن، أو يُسلبون. أليس هذا من فضل الله تعالى عليهم حين جعل بلدهم آمنا ليأمنوا على أرواحهم وعلى نسائهم وعلى أرزاقهم، ومن أعظم النّعم التي أنعم بها عليهم من تشريعه. أبغير الله الذي أنعم عليهم بهذه النّعمة الفضلى يؤمنون ويدعون ويعبدون، ويجحدون شكر الله المنعم الحقّ، ويكفرون به؟

- **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ (68) :**

ليس أحدا أظلم لنفسه ممن كذّب على الله الواحد الأحد وجعل له شريكا، أو ندّا، ولا أحد أظلم لنفسه ممّن كذّب برسول الله محمد صلّى الله عليه وسلّم، وأنكر عليه رسالته، ولم يصدّق بالقرآن وبالوحي وبشرع الله الذي أنزل الله، وأعرض عن تدبّر آياته، واِتّباع هديه لمّا جاءه. أليس يستحقّ هذا الكافر الجاحد المكذّب لنفسه أن يكون مثواه في جهنّم ليستقرّ فيها إلى الأبد؟

- **وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ (69) :**

وأمّا الذين آمنوا بالله وحده، واتّبعوا رسوله، وصدّقوا بكتابه، ثمّ دعوا النّاس للاهتداء إلى الدين الحقّ والاستقامة عليه، وصبروا على ما أوذوا فيما يدعون إليه، فسيوفّقهم الله لأن يكونوا على الطريق السويّ الذي يوصلهم لنيل مرضاة ربّهم ورحمته، وإنّ الله تعالى لمع الذين أحسنوا في تبليغ دعوة ربّهم، وفي نصرة رسوله، وفي الاستقامة على دينه، معهم لتوفيقهم في جهودهم، ومعهم لنصرتهم، ومعهم لحفظهم من كلّ أذى، ومعهم بالدّعم والرّحمة والرّضى.



آياتها	ســـــورة الــرّوم	رقمها
60	ـــــ مكيّة ـــــ	30

سمّيت بسورة "الرّوم" لإخبارها عن غلبة الرّوم بعد هزيمتهم، ولم يذكر هذا الإخبار في غيرها. وهي سورة مكيّة، ولذلك فإنّ مواضيعها في التّأسيس للعقيدة السليمة. ومن ميزة هذه السورة كثرة الاستدلالات على وجود الله تعالى وعلى وحدانيته، وعلى وفرة إنعامه، وعلى عظيم قدرته.

وقد نزلت هذه السورة قبل سورة "العنكبوت"، ونزلت بعد فرض "الصلاة" التي فرضت في السنة العاشرة للبعثة تقريبا، ولذلك جاءت فيها الدعوة لإقام الصلاة، وإقامة الوجه للدين حنيفا، وفيها حضّ على الإنابة إلى الله عزّ وجلّ، ومخاطبة المؤمنين لإيتاء الزكاة، وترك التعامل بالربا، وفيها شأن كلّ السور المكيّة وعد ووعيد، وعرض لمشاهد النّعيم في الجنّة، ولمشاهد من مظاهر العذاب يوم القيامة، وذلك للإنذار والتّحذير مع آيات للاستدلال على القدرة على بعث الأموات.

- الٓمٓ (1) غُلِبَتِ ٱلرُّومُ (2) فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ (3) فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ (4) بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (5) :

هذه الفقرة من الآيات شاهدة على نبوّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم، فقد جاء فيها إخباره بأنّ أهل فارس قد غلبوا الرّومان، وهذا ما كان قد أسرّ المشركين من أهل قريش لأنّهم كانوا على نفس الملّة من الشّرك، وكان الرّومان مسيحيين من أهل كتاب، ولكن أنبأ الله تعالى نبيّه صلّى الله عليه وسلّم بأنّ الغلبة ستكون للرّومان بعد اِنهزامهم، وسيغلبون أهل فارس وهذا من الإخبار بالغيب، وستكون غلبتهم على مشركي أهل فارس في زمن قريب.

(لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ) أي أنّ الله مدبّر لشؤون خلقه من قبل وقوع الأحداث وبعدها. وحين تحصل غلبة الرّوم على الفُرس سيفرح المؤمنون بانتصار أهل الكتاب على المجوس. ينصر الله من يشاء من عباده لأمر قد قدّره لغاية، وهو تعالى عزيز غالب لا يغلب، وهو كثير الرّحمة بعباده المؤمنين، لا يتركهم للقهر، بل يمنع عنهم الأذى.

وفي هذه الآي تعريض بمشركي مكة، كانت لهم الغلبة على المسلمين في أول عهد ظهور الإسلام، حين كانوا مستضعفين، ولكنّهم سينتصرون قريبا على المشركين لأنّ الله تعالى ينصر عباده المؤمنين، وقد ثبت هذا النّصر يوم بدر حين اِنهزم المشركون وذُلّوا، وفرح المؤمنون بنصر الله.



- وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ (6) يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ (7) :

إنّ وعد الله بنصر المؤمنين على أعدائهم وعد ثابت ومؤكّد، لا خُلف فيه، ولكنّ أكثر المشركين والكافرين لا يعرفون قدرة ربّهم عليهم، ولا يعرفون أنّ الله على نصر عباده المؤمنين لقدير، ولا يعلمون أنّ كلّ شيء يسير وفق تقديره في الزّمن الذي قدّره. إنّ هؤلاء لا يعرفون إلاّ ما يجري ظاهرا في حياتهم الدنيويّة اليومية، ولا يعرفون ما يخفى عنهم في مستقبل أيامهم، وهم عمّا ينتظرهم من عذاب في آخرتهم جاهلون وغافلون.

- أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ (8) :

أو لا يتدبّر هؤلاء الرّافضون للدعوة للإسلام لتوحيد الله ونبذ الشّرك في خلقهم أنفسهم: مَنْ خلقهم؟ وكيف خُلِقُوا، ولِمَا خُلِقُوا. ما خلق الله السماوات والأرض التي يعيشون عليها، وما بينهما من فضاء رحب واسع بما فيه من كواكـب ونجـوم وأبراج عبثا، بلا غاية. خلقهما وخلق ما بينهما ليكون كلّ هذا الملكوت دالاً على خلقه، وعلى قدرته، وليكون دالاً عليه، وكلّ إنسان وكلّ مخلوق في السمـاوات وفي الأرض سائر إلى زوال، وكلّ شيء له زمن موقوت لنهايته. وإنّ كثيرا من المشركيـن كافرون ببعثهـم بعد موتهم، وكافرون بلقاء ربّهم للحساب لجهلهم لقدرة ربّهم.

- أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ (9) :

هذه في الاتعاظ والاعتبار بما سبقهم من الأمم ليعرفوا سوء عاقبة الكفر، وأنّهم مهزومون فليسوا بأشدّ قوّة من أسلافهم. والمعنى: أو لم يجولوا في الأرض في أسفارهم في رحلتي الشتاء والصيف فينظروا في آثار القوى المدمّرة ليعتبروا بسوء عاقبة الأمم السالفة. كانوا أشدّ من مشركي قريش بأسًا في الحرب، وأكثر رجالا وسلاحا، ولقد ملكوا الأرض وحرثوها وغرسوها وزرعوها، وأقاموا عليها قصورهم وديارهم وبناياتهم وعمرانهم، وعمروها بجميع مظاهر الحياة، وها هي الآن خالية منهم إلاّ من آثارهم الدالّة عليهم. لقد جاءتهم رسلهم بآيات ربّهم ليؤمنوا به، وليقيموا على شرعه وطاعته فكذّبوهم، وكفروا بربّهم وبآياته وجحدوا نِعَمَه عليهم، فظلموا أنفسهم بكفرهم، فعاقبهم الله بعذاب الاستئصال، وما ظلمهم الله بما فعل بهم، ولكن كانوا هم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر، وتكذيب الرّسل.

• ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (10) :

ثمّ سيلحق زعماء الكفر وسادة القوم الكافرين عاقبة أسوأ من عاقبة هلاكهم في الدنيا، سيحشرون في جهنّم عقابا لهم على تكذيبهم بوعيد الله وبآيات الله التي جاءتهم، ولهزئهم بالوعيد وإنكاره ليعلموا أنّه الحقّ من ربّهم.

• ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (11) :

الله جلّ وعلا خلق الخلق، وأنشأه من العدم، ثم يُميتهُ ليُعيده إلى العدم، ثمّ بعد إماتته يرجعه إليه ليُحاسبه عمّا عمل في حياته. والقصد من الآية أن يدرك الإنسان بأنّه لم يخلق عبثا، وعليه أن يؤمن بأنّه عائد إلى خالقه للحساب ليعدّ نفسه لهذه العودة، وحتى لا يظنّنّ أنّ وفاته تعني نهايته التي لا رجعة منها. والغاية أن يؤمن الإنسان بالبعث للحساب.

• ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ (12) :

ويوم تقوم السّاعة، ويتمّ بعث الأموات، ويقوم النّاس لربّ العالمين للحساب وهو أحكم الحاكمين (يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ) يسكت المكذّبون بالبعث وبالحساب سكوت الواجمين، سكوت الحيرة والندم، ويكتئبون، وهم في حيرة وصدمة وبهتة.

• ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ (13) :

ويومئذ يفقدون آلهتهم التي كانوا يدعون من دون الله، وكانوا يأملون بعبادتهم أن تكون لهم ناصرة وشافعة لهم من كلّ سوء ومكروه. ويومئذ تتبرّأ منهم آلهتهم، وتكفر بعبادتهم. قال تعالى في مثل هذا المعنى (يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ)(العنكبوت الآية 25).

• ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ (14) :

ويوم تقوم الساعة ينفصل أهل الإيمان عن أهل الكفر. قال تعالى: (وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ)(يس الآية 59) أي اِبتعدوا أيّها المجرمون عن المؤمنين، واِنفردوا، لا يختلط يومئذ أهل التكريم والمبشّرون بالأمن من الفزع (يومئذ) بالذين هم في ذاك اليوم مبلسون وفَزِعُون.

• ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ (15) :

هذه مع التي تليها في تفصيل أسباب تفرقة أهل الإيمان عن الكافرين. فالذين آمنوا وعملوا بالطاعات وعملوا أعمال البرّ فسيجدون أنفسهم في أرض ذات أشجار وجمال ومُتَعٍ، وذات رائحة طيّبة وعطرة، في حال من السرور والغبطة والمرح، وفي سعادة.

• ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ (16) :

وأمّا الذين كفروا بالله إلاها واحدا، وكذّبوا برسله، وكذّبوا بدلائل نِعَمِه وقدرته وجحدوها، وكذّبوا بالبعث ويوم الحساب، وهزؤوا بالوعيد واستبعدوه فأولئك سيجدون أنفسهم في عذاب دائم، لا يفوتهم، ولا يستطيعون الإفلات منه.

- فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ (17) :

هذه مع الآيتين المُواليتين فيما يجب أن يقرّ به كلّ مؤمن. وهذه الآيات يذكّر بها المؤمن نفسه كلّ يوم إذا أصبح، وحين يُمسي. والمعنى: تنزّه الله تعالى عن الندّ وعن الشريك، وعن كلّ نقص، وعن كلّ عيب، وعن الحاجة للصاحبة والولد في كلّ وقت وحين: صباحا ومساءً، وله الصلاة، وهو المعبود الحقّ، وله الطاعة.

- وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ (18) :

ولله وحده الثناء الجميل والشكر على نِعَمِه وعلى رحمتِه، وهو تعالى المحمود في السّماوات وفي الأرض وإن لم يحمده أهل الأرض ممن خلق. هو وحده المُستحقّ للحمد لنعمة الخلق والإيجاد والإنشاء والإمداد بأسباب الحياة والرزق في كلّ وقت وحين في الظهيرة حين يُطعم الإنسان ويرزق وعند قيلولته للاستراحة من عَنَاء السَّعْي، وفي العشي إذا اِطمأنّ على رزقه وعند إيوائه لبيته وأهله.

- يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ (19) :

إنّه تعالى يخرج النّبات الحيّ من الحبّ اليابس الميّت، ويخرج الكائن الحيّ من إنسان وحيوان وطير من نطفة: من مني يمنى في بويضة وهما عنصران لا حياة فيهما يتفاعلان فتتكوّن من اتّحادها نطفة ثمّ علقة ثمّ يخرج منهما كائن حيّ. ويكون الكائن حيّا فإذا هو يموت ويصبح جثّة هامدة لا حياة فيها سرعان ما تتحلّل فتعود ترابا. ويتطوّر الكائن الحيّ بتجدّد الخلايا فيه، فكلّ يوم يطلع عليه تموت في جسمه خلايا وتنشأ خلايا متطوّرة حتى إذا شاخ وهرم وضعف فيه إنتاج الخلايا وتجدّدها وتوقفت عن نشاطها مات الكائن الحيّ، وكلّ هذا صائر بتقدير الله تعالى وبحكمته في الخلق والإنشاء وخلق أسباب الحياة. والأرض قد تكون جافّة وقاحلة لا تنتج شيئا من الزّرع والثمر، فإذا أنزل الله عليها الماء اِهتزّت وأنبتت من كلّ زرع أو ثمر، كذلك يكون بعث البشر حين يأذن الله تعالى ببعثهم، يحييهم بقدرته بعد موتهم فإذا هم يخرجون من قبورهم ويعودون بعد فنائهم إلى حياة أخرى لا يعرف كينونتها وخصائصها إلاّ الله سبحانه لأنّ هذه المسألة من علم الغيب والله على كلّ شيء قدير، فكما خلقنا أوّل مرّة لا يعجزه أن يعيدنا ثانية بعد موتنا...

نسأل الله تعالى الأمن والأمان حين نحيا وحين نموت وحين نبعث وعند الوقوف عند الميزان، ونسأله عزّ وجلّ الفوز برياض الجنان يومئذ برحمته وبرضوانه وهو الجواد الكريم.

- وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ **(20)** :

هذه الآية مع الآيات الموالية لها لغاية الآية 29 في دلائل القدرة الإلاهية ودلائل الإنعام قصد تصحيح المعتقد في الإلاه الذي يجب أن يُعْبَد ويطاع ويحمد على فضله، هي آيات للتعرّف على الله الحقّ للاهتداء إليه. وقد أعيد لفظ (وَمِنْ ءَايَٰتِهِ) لمزيد التنبيه والتّعريف، ولحفز الفكر على التدبّر، ومعنى الآيات هنا هي الدلائل، والحجج الثابتة. والمعنى: ومن دلائل قدرة الله الحقّ ودلائل إنعامه أنّه هو الذي خلقكم من مادة ترابية في الأصل الأوّل، ثمّ جعل تكاثركم بالتّناسل فإذا أنتم حاليا بشر تعمّرون جوانب الأرض، وتسكنونها في كلّ جهة منها وتتكاثرون.

- وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ **(21)** :

لتفسير هذه الآية يجب التركيز على معاني المفردات التالية: (أزواج– السكن– الودّ والرّحمة) لمعرفة لطائف الفوارق بينها، ولكشف المقصد من جَعْلها، ولإدرَاك مخاطر فَقْدِها بين الأزواج. وهذا أمر يجب تعمّق التفكير فيه لأنّ الآية قد حضّت عليه لقوله تعالى (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) فالتفكّر فيها أمر مندوب لإدراك المقاصد والحكمة الإلاهيّة في الخلق.

والمعنى: ومن دلائل حكمة الله في الخلق والتّدبير (أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا). قوله هذا يعني أنّ النّفس البشرية لا يستقيم حالها إلاّ بانضمام زوجها لها. خلق الله تعالى للإنسان عينين إثنين في ذاته، ويدين زوجين، ورجلين اثنين إلخ...، فاستقام أمره في مشيه، وفي عمله، وفي دقّة بصره. قال في سورة (الذاريات الآية 49) (وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)، وقال في سورة(النجم الآية 45) (وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ) وحتّى في النبات خلق الزّوجين قال تعالى (وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ)(الرعد الآية 3) وتبعا لهذا فإنّ حياة البشر لا تستقيم إلاّ بوجود الزّوجين. دوام وجود البشريّة لابدّ له أن يقوم على اثنين: الذكر والأنثى. الرجل لابدّ له من الأنثى ليحيا الحياة الطبيعيّة المستقرّة، والأنثى لابدّ لها من زوجها الرجل لتستقرّ حياتها ولتدوم عمارة الأرض، فحاجة كلّ واحد منهما للآخر هي حاجة حياتية ضرورية، جعلها الله تعالى أمرا حتميا. للرّجل وظيفته في الحياة وخصائصه، وللأنثى وظيفتها في الحياة وخصائصها، ولا غنًى لأحدهما عن الآخر ولا فضل لأحدهما على الآخر: الإثنان ركنان مهّمان لدوام حياة البشر على الأرض. هذا معنى(أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا). والغاية من هذه الحاجة الضرورية لبعض تحقيق (السكن) لكليهما. والسكن هنا يعني الطمأنينة، والرّاحة النّفسية، والاستقرار، وليتحقق هذا

السكنُ لابدّ من التّزاوج بين الاثنين المختلفين في الجنس، وفي الوظائف والخصائص. والتزاوج بين مثلِيين لا يحقّق هذا السكن لأنهما لا يكمّلان بعضيهما في الوظائف والخصائص، كما لا تستقيم حياة إنسان برجلين يمنيين بغير يسرى، أو أن يعمل بيدين يسريين بدون يد يُمنى.

والتزاوج بين الذكر والأنثى يُعين على تحقيق "الإفضاء" لبعض. وحتى يفضي أحدهما للآخر لابدّ أن يتقدّمه : "طلب، وقبول وإيجَاب"، ولذلك جُعل هذا الطلب والإيجاب ركنا أساسيا ليتمّ السكن على ركيزة متينة. ولابدّ من إشهارِه حتى لا يكون هذا التزاوج سريّا، أو بالمراكنة فتضيع حُقوق أحدهما على الآخر. فلذلك جعل "إشهار" الزواج ركنا أساسيا لحُصوله. وإنّه من المروءة والفضل أن يتقدّم الطالب للمطلوب بهدية تليق بمقامه ليلقى طلبُه الحُظوة، ولذلك جعل "المهر" ركنا أسياسيا لهذا التزاوج ليتحقّق السكن على أسس متينة ومعلومة في الوسط العائلي. عندنا – نحن المسلمين- الرجل هو الذي يقدّم المهر لمن يطلبها للزواج، وفي شرائع أخرى فإنّ والد المرأة هو الذي يُقدّم الهدية للرجل الراغب في الزواج بابنته.

والله تعالى لِيُبارك هذا التزاوج الذي يحقّق السكن للاثنين الذكر والأنثى وعد بأن يجعل بينهما "مودّة" و"رحمة". المودّة من الودّ، وهي المحبّة. وإذا أحبّ المرء شيئا أو أحدًا أخلص له في المحافظة عليه من كلّ ما يُؤذيه، وحرص على الإحاطة به، وعمل على إرضائه. هذا العنصر إذا توفّر بين الزوجين سَعدا ببعض، وحَافظا على حُسن علاقتهما ببعض، وحَفِظَاها من كلّ ما يُفسد بينهما. من أجل الودّ يشقى الرجل في سعيه ويتعب التعب المضني ويسترزق فإذا آوى إلى سكنه ووجد فيه من يحبّه هان عنده تعبُه وأنفق من ماله طواعية وعن نفس رضية في كلّ ما يُطلب منه قضاؤه والإنفاق فيه من غير تردّد، بل ينفق كلّ مالِهِ رجاء إسعاد من يحبّ. والمرأة تشقى وتتعب وتعدّ كلّ ما يرغب فيه زوجها وإن كان ثقيلا عليها عن نفس رضية كذلك دون شكوى ودون مَنٍّ، وإنّما تفعله رغبة في إرضائه محبّة فيه، فلا يزدادان بهذا إلاّ حبّا وتفانيا في إسعاد الطرف الثاني. وأمّا "الرّحمة" فتعني الحنوّ، والسعي إلى التخفيف من عناء الزوج إذا مرض، أو عيي، أو أُصيب في ماله، إنّها البلسم عند المكاره للسَّلْوى، وحين تثقل الزوجة بحملها وحين تضعُ وتُرضع وتتعب من شغل البيت ومن مشاغل مهنتها في مجتمعها وعند مرضها، بدون التّراحم لا يحصُلُ حسنُ المعاشرة، ولا التّعامل بالمعروف والحسنى.

ومن الحكمة أن يحافظ الأزواج- رجالا ونساءً- في حاضرنا على هذا الفضل الربّاني، إذ قضي أن يجمع بين الزوجين بالمودّة والرّحمة لتدوم علاقتهما في ظلّ سكنهما على هذين العنصرين.

ولمّا قد تغيّر واقع المرأة المعاصرة الثقافي والعلمي والاجتماعي تبعا لنجاحها في الدراسة وفي جميع الأنشطة الاجتماعية والسياسية والعلميّة، وحتّى في البحوث العلمية الدقيقة وفي مجال الاِختراعات والاكتشافات والإبداع الثقافي، وقد اِقتحمت جميع الميادين التي كان يحتكر فيها النّفوذ جنس الذكر من مثل الطيران، والرتب العالية في الأمن وفي الجيش وفي القضاء العدلي، والخبراء في الاقتصاد وفي الطبّ، وفي تحمّل مسؤوليّة إدارة شؤون الدولة فهي الوزيرة وهي رئيسة الحكومة، وهي رئيسة البرلمان وما إلى ذلك... ومع مسؤوليتها الوظيفيّة، فإنّها زوجة – ربّة بيت مسؤولة تمام المسؤولية عمّا يكون فيها وما يجري، وهي في الآن ذاته أمّ ذات أبناء تتابع كلّ ما يهمّ صحتهم البدنية والنفسيّة وكلّ ما يهمّ تعلّمهم ونشأتهم التربوية.

هذا التحوّل في مسار المرأة المعاصرة في حياتها العامّة وحياتها الزوجيّة فرض على الزوج أن يتعامل معها معاملة الشريك في المعاش ومسار حياتهما وفي المسؤولية في توفير عناصر قيام الأسرة على الودّ والمحبّة والتعاون والتآزر وحسن المعاشرة.

ولا يدلّ اِرتفاع نسبة الطلاق في المجتمعات المعاصرة إلاّ على أنّ الرجل ما يزال يحبّ أن يحافظ على مكانته "سيّدًا" في البيت، والزوجة –عنده– لعمل البيت ولإرضاء شهواته. ما يزال الرجل – مع خروج المرأة للتعلّم وللعمل ومع منافستها له في جميع مجالات المسؤولية– غير قابل لأن يكون شريكا فاعلا مع زوجته في تقاسم جميع مشاغل البيت والحياة الزوجية. ولا تنجح هذه المجتمعات في تغيير عقلية الرجل ليتحوّل من "السيّد" إلى "الشريك" إلاّ بالتربية في البيت وفي المدرسة وفي العمل الجمعياتي على تغيير نظرته الدونية للمرأة.

هذه المقاصد تدرك بالتّفكّر في معنى "السّكن"، وفي حكمة مشروعية إنعام الله تعالى على الزوجين بأن يجعل بينهما "المودّة" و"الرّحمة". إذا أدرك هذه المقاصد وهذه الحكمة أدرك حينها شيئا (من آياته) تعالى التي ينبّه إليها في هذه الآية.

ولو أنّ السادة الوعّاظ والدعاة ركّزوا على هذه المقاصد وحكمة المشروعية التي جاءت في هذه الآية في تبليغها للنّاس لفهمها وللعمل بها لأنقذوا مجتمعاتهم من تفشي ظاهرة الطلاق فيهم ومن الكثير من مآسي إهمال العيال بعد الطلاق، ولأقنعوهم بأنّ الذكر والأنثى قد خُلِقَا ليكونا زوجين لبعض لتتكامل حياتهُما، وأنّهما في نفس مستوى درجة الإنسانيّة والأهميّة في الحياة، وليس لأحدهما فضل على الآخر، وأنّ الأنثى لم تخلق لأن تكون متاعا للرّجل لإشباع شهوته الجنسية ولأن تكون له خادمة في بيته. هما معًا "السّكن"، هما معا مرتبطان بودّ من الله تعالى وبرحمة منه عزّ وجلّ. ولا يجب أن ينسى الرجل أنّ اِمرأة هي التي ولدته وأنجبته وكانت راعية له حتى شبّ وكبر وتزوّج، وهي أم له، عليه واجب البرّ والطاعة لها، وأنّه قد أنجب من زوجه بنتا

ستكون لذكر زوجة، وليس يرضى لها الإهانة والمهانة والطلاق والإذلال أو أن تكون متعة لممارسة الجنس، وأنّ لهذا الرجل أختا يغار عليها من أن تُهان أو تذلّ.

- وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ (22) :

ومن دلائل القدرة العظيمة لله الحقّ الحقيق بالألوهيّة والطاعة والعبادة أنّه خلق السماوات والأرض. ولم يخلقهما غيره. أفيعقل أن يعبد غيره وهو لا يملك أيّ قدرة، وليس له أيّ دليل على أنّه خلق شيئا. فكلّ إلاه سوى خالق السماوات والأرض هو إلاه باطل، وألوهيته زعمٌ باطل، وإنّ كلّ ادّعاء لألوهيته ادّعاء باطل. فاعبدوا الله خالق السماوات والأرض، وهو إلاه واحد، لا إلاه سواه، جعل لكم السماوات سقفا محفوظا زيّنها لكم بالكواكب والنّجوم، وجعل لكم الأرض مهادا للإقامة عليها وللسعي فيها، وجعلها موطن رزقكم فاشكروا الله الخالق. ومن دلائل تنويعه لخلقه لتعرفوا قدرته أنّه خلق البشر مختلفين في ألوان بشرتهم: منهم الأبيض، ومنهم الأصفر، ومنهم الأسمر، ومنهم الأشقر، وجعلهم مختلفين في لُغاتهم وفي طباعهم، وفي أنماط حياتهم، وعاداتهم وتقاليدهم بسبب اِختلاف بيئاتهم، وتنوّع المناخ، وإن كانوا جميعا متّفقين في أصل التكوين والخلق، وهذا دليل على تنويع الخلق لتعرفوا عظيم القدرة، وكلّ هذه الاختلافات في الألوان واللّغات والطباع دلائل لجميع النّاس على أنّ الله سبحانه يتصرّف في شؤون خلقه كما يشاء بحسب ما جعل بيئاتهم مختلفة في الخصائص ليتكيّفوا معها، وهذا من حسن التّقدير ليحيا جميع الخلق على اِختلاف بيئاتهم آمنين.

- وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (23) :

ومن دلائل إنعام الله على عباده أن جعل يومهم على فترتين أو جزأين، جعل فيه فترة للرّاحة حين يَلُفُّهم الليل بظلمته، فَيَسْتَسْلِمُون للنّوم للاستراحة من التّعب الذي أجهدهم في فترة النّهار الذي جُعل لهم للسّعي لكسب الرّزق بالعمل في ضوئه وحركته، وما كسبهم ورزقهم إلاّ من فضل الله تعالى عليهم لأنّه هو الرّزّاق. وهذا الدليل على فضل الله على عباده يستوعبه ويدركه كلّ من يسمع ما يُتلى عليه من هذا الحديث، ويتدبّره ويعيه، فإذا قُرِئَ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا فستعرفون به ربّكم إذا وعَيْتُم. فإذا عرفتم دلائل إنعامه فاشكروا له، وأطيعوه، ولا تعبدوا إلاها آخر غيره.

- وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (24) :



ومن دلائل فضل الله تعالى على عباده أن يريهم البرق الذي يبشّر بنزول الغيث، فيخافه بعضهم لما يعقبه من رعد وصواعق، أو خوفا من أن يعقبه نزول ماء بالبَرَدِ فيهلك الزّرع والثّمر، أو نزول ماء بغزارة وبقوة فيجري السيول ويكون الطوفان المخرّب للأرض وللبيوت والمهلك للمواشي، ويستبشر به آخرون طمعا فيما يأتيهم به من ماء يروي عطشهم، ويسقي بهائمهم، ويحيي أرضهم بعد جفافهم وجدبهم، فتخصب ليأكلوا ويبتغوا الرّزق، وإنّ في إحياء الأرض بعد موتها بالجدب بإنزال الماء دليلا لذوي العقول وأهل الرّشاد ليعرفوا به قدرة ربّهم على إحياء الموتى، وبعثهم بعد فنائهم. فهلاّ صدّقوا بالبعث بعد الموت.

- **وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ(25) :**

هذه الآية للدلالة على أنّ الله تعالى هو القائم على أمر السماوات والأرض لتبقيا على حالهما وعلى نظامهما ولتبقى الكواكب والنّجوم والأقمار التي في السماء منتظمة في دورانها وفي مدارها المحدّد لها، ولولا حكمة الله في التّقدير والقيام عليها لانفطرت السماوات وانتثرت الكواكب، ولهلكت الأرض وكلّ من عليها. قال تعالى (وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ)(الحج الآية 65). والقادر على هذا الأمر قدير على أن يبعثكم من قبوركم إلى الحياة للحساب (إِذَا دَعَاكُمْ) أي إذا نُفخ في الصور النفخة الثانية للقيام. قال تعالى (فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ)(يس الآية 50) فهذه الآية للتنبيه للقدرة على البعث بدليل القدرة على القيام على أمر السماوات والأرض.

- **وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ (26) :**

(وَلَهُ) اللام للملكية، أي أنّ كلّ من في السماوات ومن في الأرض من الكائنات الحيّة وغير الحيّة ملك لله يتصرّف فيها بحسب إرادته، لا يعارضه أحد. كلّ ما فيهما قائم مطيع خاضع لأمره ولمشيئته.

- **وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (27) :**

وهو الله الذي أوجد الخلق بقدرته وأمره ومشيئته ثمّ يميته ويفنيه، ثمّ حين يأذن ببعثه فإنّه يعاد للحياة ويرجع إليه للحساب، للجزاء أو للعقاب. وإنّ أمرَ بعث الأموات بعد فنائهم أمرٌ يسيرٌ عليه، لا يعجزه: (إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ)(يس الآية 82). وله تعالى الوصف الأعلى في الكمال والجلال ليس كمثله شيء، وهو العزيز الذي لا يُغلب، ولا يردّ أمره، وهو الحكيم في الخلق والإنشاء والتدبير والتقدير ليحيا كلّ لأجله. فهذه الآية ليعرف بها المشركون



ربّهم الحقّ لينتهوا عن شركهم، وليستقيموا على دين التّوحيد، وليعبدوا ربّهم الخالق العزيز الحكيم، وهي كذلك لإثبات البعث لمن ينكره.

- ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (28):

هذه في إقناع المشركين بوحدانية الله تعالى، واستحالة أن يكون له شريك من مخلوقاته، وذلك بضرب المثل بما تعارفوا عليه في عرفهم الاجتماعي، فإنّه ممّا لا يعقل عندهم، وممّا لا يمكن أن يحدث عندهم في مجتمعهم أو يصير أن يتّخذ السيّد عبيدا له لخدمته مسخّرين لطاعة أوامره، ثمّ يصبحون شركاء له في ما ملك وفيما يملك من رزقه، ويستحيل عليهم أن يتصوّروا أن يخشى هذا السيّد من عبيده إن تصرّف في رزقه بحريّة خوفا من أن لا يوافقه عبيده الذين صاروا شركاء له في رزقه على أن يفعل بما يملك ما يشاء. هذا أمر لا يعقله عاقل، ولا يتصوّره أن يحدث. وهكذا فإنّه لا يمكن أن يخلق الله خلقا قانتين له، خاضعين لمشيئته، ثمّ يكونون شركاء له في الألوهية، هكذا يوضّح الله الدليل على وحدانيته لقوم يفهمون ولهم عقول يدركون بها الحقائق ويميّزون بها بين الحقّ والباطل. كان العرب لا يتصوّرون يوما أن يكون عبيدهم سواء لهم في القدر والمنزلة ومشاركين لهم في أرزاقهم، فجاءهم هذا المثل أحسن دليل لإقناعهم بوحدانية الله. ولقد كان العرب يقولون في تلبيتهم عند طوافهم بالبيت: "لبيك لا شريك لك، إلاّ شريكا هو لك" فأبطل الله لهم بهذا المثل تلبيتهم، وصحّح لهم معتقدهم.

- بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (29):

بل اتّبع المشركون أهواءهم في الشّرك وعبادة الأصنام بغير هدى، وبغير سلطان وعلم يقيني. ولا أحد بقادر على إقناع المعاند الذي عطّل عقله، وأصمّ أذنيه عن سماع الحقّ، والله لا يهدي من لا يحبّ أن يسمع إرشاد ربّه، أو أن يتدبّر دلائله، وليس لهؤلاء من يدفع عنهم الضرّ يوم الحساب، ولا من ينصرهم لينجيهم من العذاب.

- فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30) :

بعد تلك الدلائل على وحدانية الله تعالى، وعلى بعض من مظاهر قدرته، وإنعامه، وحكمة التّقدير، جاءت هذه الآية مع الآيتين المواليتين في التّرغيب في التديّن بالدّين الحقّ: دين الإسلام. والمعنى: فتوجّه بنفسك: روحا وجسدا نحو ربّك الحقّ، مائلا عن الشّرك، مستقيما على دين التّوحيد: دين الإسلام، هو دين الفطرة التي خلقكم الله عليها، لا تغيير لدين الله الذي فطركم



عليه: دين التّوحيد، دين الإسلام، هو الدّين المستقيم الذي لا اِعوجاج فيه، ولكنّ أكثر النّاس الذي يشركون بالله والذين يعبدون سواهُ لا يعلمون وجه الحقّ، وضلّوا عنه لعنادهم ومكابرتهم، أو لتقليدهم الأعمى لضلالات آبائهم، أو اِتّباعا لأسيادهم.

- مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ **(31)** :

وهذه في موعظة من ربّهم للنّصح والإرشاد. والمعنى: فارجعوا إلى ربّكم بالتّوبة من الشّرك، واِستغفروه، وأطيعوه، واِخشوا عقابه ونقمته باجتناب ضلالة الشرك، وأقيموا الصلاة لله وحده عبادة خالصة له، وطاعة، وطلبا للمغفرة، واِحذروا من الشّرك وأهله، ولا تكونوا منهم.

- مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ **(32)** :

لا تكونوا من المشركين الذين اِبتدعوا في الدّين ما ليس منه، فتفرّقوا أحزابا وفِرَقا في الدّين بما أحدثوا فيه من بِدَعٍ، وتأويلات، وبما أدخلوا فيه من أوهام وأساطير، وصار كلّ حزب متمسّك بما هو عليه في مذهبه، وابتعدوا بهذا عن الدّين الحقّ الذي يوحّد ولا يفرّق لأنّ شريعته واحدة. والمستفاد من الآية التّحذير من الابتداع في الدّين فإنّه يفرّق، ولا يجمع، ولقد أضرّ القائلون في الدّين بغير علم دقيق يقيني بجوهره النّقي الصافي، وتشدّدوا في الإصرار على آرائهم ففرّقوا ولم يجمعوا النّاس على كلمة واحدة، وعلى صفّ واحد، واِجترأ بعضهم على الحديث النّبويّ فنسب إلى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ما لم يَقُل، وذلك لدعم مذهبه، وما أبشع ما فعل في الوضع والكذب على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم!

- وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ **(33)** لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ **(34)** :

الآيتان إلى الآية 37 في جحود المشركين لِنَعم ربّهم عليهم من تناقض تصرّفاتهم بين مَنْ يَدْعُون عند الإصابة بالضرّ، وما يعبدون من دونه في رخائهم وأمنهم، بما يشهد على غفلتهم وتعطيلهم للعقل لتقييم تصرّفهم على الفطرة، وعملهم على التقليد الأعمى. والمعنى: عندما يُصاب النّاس بالخوف على أنفسهم من الهلاك يتضرّعون إلى الله لينقذهم ممّا هم فيه ولا يدعون غيره، وذلك من الفطرة التي فطر الله النّاس عليها. عند الشدّة والضرّ والعسر لا يدعو العبد إلاّ ربّه الذي خلقه، والذي يعتقد أنّه لا أحد سواه يفرّج كربه، لا يستجير بإلاه غيره، ولا يستنجد بإلاه آخر غيره. ولكنّه سُرعان ما ينسى مَنْ كان يدعوه، ومن كان يستجيره عند شدّته حينما يزول عنه البأس، وحين تنفرج كربته، وحين يرحم، ويعود للشّرك فيقدّم القُربان للأصنام، ويقدّسها، ويعظّمها، ويغفل عن شكر ربّه الذي رحمه وأنقذه، ويغفل عن حمده، وبهذا يكفر بنعمة ربّه ويجحدها. كلّ من يقدّم "قربانا" (ما نسمّيه عندنا وِعْدَة) لغير الله تعالى عند كشف ضرّه بعد كَرْبِه يُعَدُّ من

"الشرك" كما جاء في الآية 33، وجاءت الآية الّتي تلتها في تحذير هذا الفاعل من الوعيد في آخرته. لذا وجب العدول عن هذا التوجّه الخاطئ، ووجب إزاء ذلك تخصيص الله تعالى بالشكر على فضله تعالى في كشف الضرّ والكرب لأنّه تعالى هو الحفيظ وهو اللّطيف وهو كاشف الضرّ سبحانه.

- أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ (35) :

أم قد جاءهم كتاب بما يقولون عن آلهتهم التي يعبدون من دون الله عزّ وجلّ، فأمرهم بعبادتها وتقديسها، وأخبرهم هذا الكتاب بألوهيتها وبشراكتهم لله سبحانه في الطاعة والتّقديس. إن كان لهم كتاب بهذا فليظهروه، فإن لم يأتوا به فإنّهم يزعمون فيما يدّعون زعما باطلا من أوهامهم.

- وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ (36) :

إنّ النّاس من غير المؤمنين إذا أنعم الله تعالى عليهم بِنِعَمِه بطروا بها وتكبّروا، ونَسُوا فضل ربّهم عليهم ولم يشكروه، وإذا أصابهم مكروه في رزقهم وكسبهم ومتاعهم بسبب سوء تصرّفهم فإنّهم ييأسون ويحزنون، ويلجؤون للأساليب غير المشروعة ليستردّوا شيئا ممّا ضاع عنهم، ولا يذكرون الله تعالى. قال تعالى (لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ)(فصلت الآية 49).

وهناك طائفة من المنتسبين للإيمان إذا أذاقهم الله نِعَمًا من عنده ووسّع لهم في الرّزق والخيرات تكبّروا، وإستعلوا على النّاس، ولا يؤدّون حقّ الله عليهم فيما فرضه عليهم إزاء ما آتاهم من الخير، يردّون ما آتاهم الله من الخير إلى جهدهم وذكائهم، ولا يذكرون فضل ربّهم عليهم، وربّما اِنزلقوا إلى المفاسد والمحرّمات. وإذا ضاع عنهم كسبهم أو ضعف أو خسروا خسارة كبيرة بسبب ما قدّمت أيديهم من سوء عملهم أو من غشّهم أو بسبب سوء تقديرهم تركوا الصلاة وتركوا الطّاعات، وتذمّروا من القضاء والقدر، وقالوا فيه ما يقولون من كلام الكفر، قال تعالى في أمثالهم (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ)(الحج الآية 11). وما أكثر هؤلاء المَصلّحيّين في المجتمعات الإسلاميّة وما هكذا يكون الصادقون في إيمانهم.

- أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (37) :

أو لم يدرك النّاس أنّ بسط الرّزق لبعضهم، أو تضييقه على آخرين إنّما هو من حكمة الله في قسمة الأرزاق على عباده للاختبار، وليحتاج بعضهم لبعض لأعمالهم، فمن بُسِطَ له في الرّزق يمتحن في شكره، فإذا بطر به، وتكبّر، وإمتنع عن أداء حقّ الله فيه كان وبالا عليه، ومن قدر الله عليه رزقه فإن اِجتهد وكدّ وعمل كان خيرا له، وإن اِنحرف للسرقة والغصب ساءت

عاقبته. إنّ في تقدير الله تعالى في قسمة الأرزاق حكمةً يدرك مقاصدها المؤمنون بأنّ لله في خلقه شؤونا وتدبيرا هو أعلم بها، وعلى المؤمن أن يرضى بما قدّر الله له وقَسَمَ.

- فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ (38) :

هذه الآية مع الآية المُوالية في موعظة المؤمنين الذين يرغبون في أن يضاعف لهم الأجر يوم الحساب، وفي أن يكونوا من المفلحين. وجاءت الآيتان في أعقاب الآيات التي تحدّثت عن كسب الأرزاق ليعلموا وجوه الشكر على النّعمة. والمعنى: إذا آتاك الله تعالى فضلا ونعما فاذكر أقرباءك بالصلة والعون عند حاجتهم، ولا تقطع صلتك بهم تكبّرا واِستعلاءً. وأقرب الأقرباء الوالدان والأخوة والأخوات والأعمام والعمّات والأخوال والخالات وكلّ من له حقّ في الصلة من مثل الأصهار والجوار وأصحاب الفضل عليه في النشأة والتربية والمشاركة في العمل. وأحسن للمسكين الذي أقعدته الإعاقة أو المرض عن السعي لكسب الرّزق أو أقعده العجز وتقدّم العمر، وأحسن لابن السبيل الذي اِحتاج في سفره، وكان بعيدا عن أهله وبلده وقومه، وقد سافر في طاعة: في طلب الرّزق، أو طلب العلم، أو هاجر بدينه من ديار الكفر خوفا على نفسه من الفتنة. هذا الإنفاق يباركه الله إذا أريد به طاعة الله ورضوانه وثوابه، ولم يكن للرياء وطلب السمعة، هؤلاء هم الفائزون بنعيم الله تعالى ورضوانه يوم الدين.

وتعتبر هذه الآية من ركائز تأسيس النّظام الاجتماعي في المجتمع الإسلامي الذي يجب أن يقوم أولا على حسن الصلة بذوي القُربى. والغرض المقصود من هذا الأساس ضمان وحدة المجتمع القائمة على الودّ والإحسان. وقد جُعل هذا الأساس من أعمال البرّ، ومن العمل الذي يضمن فلاح المؤمنين. وأمّا العنصر الثّاني فمَبْدَؤه مساندة المساكين وأبناء السبيل بما يضمن قضاء شؤون حياتهم من مال الإحسان طلبا للأجر والثواب من عند الله. وهذا من أفضل ما يُستدلّ به على أنّ الإسلام دين المؤازرة، ودين التّعاون، وهذا من أرقى مظاهر مبادئه الإنسانيّة. وإنّ المجتمع الذي يُؤَسَّسُ على الودّ والصلة والتعاون والمؤازرة ومساعدة ذوي الفاقة والحاجة لهو المجتمع الموحّد المتكافل الذي يطيب فيه عيش الإنسان، وإنّه المجتمع المدني الفاضل. هذه هي المدنية الحقّة التي لا يُهَمَّشُ فيها مسكين ولا ذو حاجة وفاقة.

- وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ (39) :

تدعيما لتوجيه المؤمنين للتّعامل مع بعض بالإحسان ليكوّنوا المجتمع المتماسك المتضامن الإنسانيّ المتمدّن، جاءت هذه الآية لاجتناب التّعامل بالربا عند الاقتراض. ولمّا كانت هذه الآية

مكيّة، فإنّ الآية التي نزلت بعدها بالمدينة قد جاءت بتحريم المال الرّبويّ، فكأنّ هذه الآية كانت تمهيدا لتحريم الرّبا بعدها، وعلى هذا النّحو يجب أن تقرأ هذه الآية حتى لا تؤخذ ذريعة عند بعضهم ليقول بعدم تحريم الرّبا مستشهدا بنصّها الذي لا يفيد التحريم، إنّما يُفيد التّرغيب في اِجتناب التّعامل به لأنّه يزيد المحتاج حاجة وعسرا، ويزيد الجَشِعَ جشعًا وطمعا وثراءً من وجه غير مشروع على حساب صاحب الضائقة. المال المكتسب بالربا (فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ) أي لا يحبّه الله، ولا يعتبر الاقتراض بالرّبا لمساعدة ذي الحاجة لقضاء حاجته عملا من أعمال البرّ عند الله عزّ وجلّ، إنّما هو من مال الاستغلال.

ورغّبت الآية في إيتاء الزكاة لمساعدة المحتاج على قضاء حاجته على أن يكون إيتاؤها بغير مَنٍّ ولا أذًى، وإنّما يُرادُ بإيتائها وجه الله، أي يرادُ بها نيلُ مرضاته وثوابه. ويبشّر الله تعالى المزكّين بمضاعفة أجرهم على إحسانهم، وقد نزلت هذه الآية قبل إنزال آية فريضة الزّكاة بالمدينة.

- ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىۡءٍۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ (40) :

هذه الآية في الاستدلال على الوحدانية، وعلى اِستحقاق الله وحده للألوهيّة، لا إلاه إلا هو بدليل أنّه هو وحده الذي خلق كلّ البشر، لم يخلقهم إلاه آخر غيره، فهو وحده الخالق. وهو الذي قسم الأرزاق بين عباده لحكمة قدّرها تقديرا في توزيعها ليحتاج بعضهم لبعض وليكونوا مختلفين، وليمتحنوا فيما رزقوا. وما من إلاه غيره قد رزق عبدا من عباد الله. ثمّ إنّه سبحانه وتعالى الذي حدّد لجميع خلقه من البشر آجالا محددة ليميتهم، حتى إذا جاء أجلهم لا يتسأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون. بيده سبحانه وبأمره جلّ وعلا وبتقديره للزمن يكون خلق كلّ فرد من البشر، ويكون تحديد رزقه، ويتّم تحديد أجل حياته ووجوده، ثمّ إنّه سبحانه وتعالى يعيد إحياءهم بعد مماتهم لمحاسبتهم على أعمالهم. وما من إلاه غيره يخلق إنسانا، أو يرزقه، أو يُميته، أو يعيد إحياءه بعد مماته. واِسألوا الذين ينسبون لغير الله سبحانه وتعالى الألوهيّة من زعمهم هل لهم من آلهتهم من خلق إنسانا أو كان له فضل عليه في رزقه أو كان له قدرة على إماتته؟ فإن لم يكن لآلهتهم أيّ قدرة على فعل شيء من هذا فلماذا يعبدونها، ويغفلون عن عبادة الله الحقّ المنزّه عن كلّ نقصان وعيب، والعليّ الأعلى الذي ليس كمثله شيء، وهو صاحب الفضل على الخلق، ولماذا ينصرفون عن الإيمان بوحدانيته، وعن طاعته؟ والاستفهام للتّوبيخ والتّقريع على الغفلة والجهل والزعم الباطل الذي لا يقوم على حجّة، ولا دليل.

- ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِى ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ(41) :

هذه الآية من خير ما يُستشهد بها على إفساد الإنسان للبيئة في البرّ وفي البحر، ولقد تعدّى إفساده إلى الغلاف الجوي المحيط بالأرض بما أحدث من ملوّثات لهذه العناصر الثلاثة، وبالنفايات المضرّة والمسمّمة للتربة أو للمياه أو للهواء بما يتسبّب له وللكائنات الحيّة على وجه البسيطة من أمراض مهلكة وقاتلة. أضف إلى هذه الملوّثات والنّفايات التّفجيرات المروّعة التي يرمي بها هنا وهناك للغلبة بما يسمّيها قنابل نووية وصواريخ وقنابل محرقة ومدمّرة يهلك بها كلّ كائن حيّ، ويثير غبارا سامّا كثيفا من أثر الدمار الشامل، وبما يأتي بها على الأخضر واليابس، وحتّى الحيتان في لجج البحار تطفو على سطح الشواطئ ميّتة من أثر تجاربه لأسلحته المدمّرة، أضف إلى ذلك الحرائق الهائلة التي يحدثها ليعبّر بها عن غضبه أو عن ثورته على نظامه، وأفسد الإنسان البحر بالمياه الفاسدة التي تُفرزُها مصانعه أو محطّات تطهير مياه الفضلات. لقد ظهرت الكثير من مظاهر إفساد الإنسان للبرّ والبحر وهوائه بما يفعله بيديه، وبنفسه، وبمخترعاته المدمّرة. وتبع هذا الإفساد تفشّي الأمراض المستعصية، وظهرت حشرات سامّة، وفيروسات خفية لا تُرى بالعين المجرّدة ألحقت بالنّاس أضرارا عصيّة أفقدتهم حياتهم كهذا الذي سمّي بـ (كوفيد 19) من سلالة فيروس (كورونا). فكانت هذه الأضرار من بعض ما عمل النّاس ببيئتهم السليمة، أفسدوها فأضرّوا بأنفسهم، ولعلّهم يرجعون عن إفسادهم ليصلُح حالُهم، وليسلمُوا من الأذى ومن البلايا المهلكة.

وتشعرنا هذه الآية بأنّ الإنسان هو المسؤول الأوّل عن الإضرار ببيئة الأرض: برّا وبحرا وجوّا. وإنّ الحجر الصحي الذي فُرِضَ على الإنسان قهرا وقسرا للحصانة من الإصابة بفيروس (كوفيد19) والذي عطّل وسائل النقل عن الجولان من ذلك الطائرات والسيارات والقطارات وغير ذلك من العربات التي تشتغل بالمحروقات عن الحركة، والذي عطّل المصانع الملوّثة عن العمل، فلم تعد مداخنها السوداء تنفث دخانها في الهواء، قد نتج عنه صلاح "الأوزون"، فسدّت ثقوبه، ممّا ينبئ بأنّ زمن الثورة الصّناعية التي تسبّبت في تلويث البيئة قد أذن بالأفول إذا رَامَتْ البشرية أن تعيش في بيئة نظيفة سليمة لا تنتشر العدوى المهلكة في أرجاء الأرض ولا تتسبّب في الأمراض المستعصية القاتلة من مثل السرطان الرئوي.

وقد فسّرت هذه الآية عند أسلافنا قبل معرفتهم بالتلوّث البيئي على النحو التالي: لقد ظهرت في البرّ وفي البحر الكثير من المعاصي وشاعت فكثرت ذنوبهم، وشاع فيهم الظلم، ويحصل مثل ذلك بيننا اليوم، فأصيبوا بعقوبة من الله عزّ وجلّ بسببها لعلّهم يتوبون، ويثوبون لرشدهم. وتكون هذه الآية ترغيبا في الإنابة إلى الله تعالى بالتوبة وبالإقلاع عن المعاصي، وتحذيرا من التمادي في ظلم النّاس وإتيان المنكرات.

- **قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ (42) :**

هذه للاعتبار بعاقبة الأمم السالفة من المشركين قصد التّحذير من التّمادي في الشّرك، ومن التّمادي في الغفلة عن الاهتداء للدّين القيّم. والمعنى: تجوّلوا في الأرض، وأُنظروا في آثار الأمم السالفة من قبلكم من المشركين لتعرفوا هول ما حلّ بهم من عذاب الله تعالى للاعتبار، وللحذر من الوقوع في نفس العاقبة.

- فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ **(43) :**

وللحذر من عاقبة سيّئة كالتي أصابت الأمم السالفة، توجّه بعبادتك وطاعتك ودعائك لله تعالى على دين التّوحيد، الدّين القائم على العقيدة السليمة، والذي تُمْلِيه الفطرة من قبل أن يفاجئك اليوم الذي ستُحاسب فيه على دينك، وهو اليوم الذي لا صارف له، وهو يوم واقع حتما في الأجل الذي حدّده له الله تعالى. في ذلك اليوم يتفرّق النّاس إلى سعداء ينزلون منازل النّعيم في الجنّة، وإلى تعساء أشقياء يساقون إلى جهنّم ليقيموا في عذابها.

- مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ **(44) :**

من كفر بهذا الدّين القيّم ولم يتبعه، وأصرّ على شركه، فسيكون كفره وبالا عليه، وسيتحمّل جريرته. ومن اِهتدى للإسلام وعمل عملا صالحا في الطاعات وأعمال البرّ فقد مهّد لنفسه إقامة في مكان يستريح فيه.

- لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ **(45) :**

هذه الإقامة الممهدة للاستراحة فيها قد جعلها الله جزاءً للمؤمنين الطائعين العابدين العاملين الصالحات، والاستقامة على شريعة الدين القيّم تفضّلا منه تعالى وتكريما لهم. وأمّا الكافرون فلا ينعمون بمثل هذا النّعيم لأنّ الله عزّ وجلّ لا يحبّهم لعصيانهم وكفرهم به.

وقد جاءت هذه الآيات الأربعة ترغيبا في العمل بمواعظ الله تعالى به في الآيات السابقة التي حضّت على الاستقامة على الدين القيّم وعلى الإحسان، وحذّرت من الإفساد في البرّ والبحر.

- وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ **(46) :**

هذه إلى غاية الآية 53 في بعضٍ من دلائل إنعام الله عزّ وجلّ على خلقه وفي حكمة تقديره في قسمة فضائله على الأقوام لاختبارهم في صدق إيمانهم، وفيها آيات للاستدلال على وقوع البعث ليؤمنوا به.

والمعنى: ومن دلائل فضل الله على عباده أنّه يرسل الرّياح التي تبشّرهم بنزول الغيث النّافع ليشربوا ويسقوا أنعامهم ولِرَيِ أرضهم ولينعموا برحمته عليهم. ويرسل الرّياح لتجري به سفنهم في البحر في سلام بأمر من الله تعالى وتقديره ليطلبوا مصالحهم في التجارة، أو الصيد، أو السفر.



وعساكم – يا عباد الله – تشكرون ربّكم على فضله وعلى رحمته حتى لا تكونوا من الجاحدين. وعساكم تدركون هذه الفضائل فتعرفوا بها نعمة ربّكم عليكم.

- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ (47) :

هذه الآية لتسلية النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حتى لا يحزن من إعراض قومه عن السماع له، وعن الاستجابة لدعوة ربّهم للاستقامة على الدّين القيّم، وقد حملت الآية إنذارا لقومه من انتقام ربّهم إذا تمادوْا في إجرامهم، وبشرى للمؤمنين بالنّصر. وجاءت هذه الآية في غضون عرض دلائل وحدانية الله سبحانه ودلائل قدرته وإنعامه على خلقه، إشعارا للنّاس بأنّ من رحمة ربّهم بهم أن أرسل إليهم رسلهم لهديهم حتى لا يتركهم لأنفسهم، فإنّ الله بالنّاس رؤوف رحيم، ومن رحمته بهم ورأفته عليهم إرسال الرسل إليهم مبشّرين ومنذرين. والمعنى: ولقد أرسلنا من قبلك –يا محمد– رسلا إلى قومهم، فجاؤوهم بالمعجزات والدلائل على صدقهم، والدلائل على ضلالاتهم، والدلائل على وحدانية الله وفضائله عليهم، فكذّبوهم، ولم يؤمنوا فانتقم الله منهم بعذاب الاستئصال واستبدلهم بآخرين، ونصر المؤمنين بأن أنجاهم من العذاب، ومن اِفتتان المجرمين الذين ينسبون لله ما ليس بحقّ اِفتراءً عليه.

- ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (48) وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ (49) :

الآية في بيان تصرّف الله تعالى في ملكه كيف يشاء، وفي الاستدلال على شيء من رحمته بعباده ليرفع عنهم اليأس. والمعنى: الله الذي تُدْعَوْنَ لعبادته وطاعته لأنّه الله الحقّ المنعم عليكم بالرّزق هو الذي يرسل الرّياح التي تهيّج السحب فتنشرها في الفضاء الرّحب وتجمعها جمعا حتى يصير سحابا واحدا مكثّفا كيف يشاء الله له ويقدّر، وقد يجعله (كِسَفًا) أي قطعا متفرّقا، فترى (ٱلْوَدْقَ): قطر الماء يخرج من خلاله، فإذا نزل بقوم أراد الله بهم خيرا، وأراد لهم الرّزق والسقي والريّ والغوث إذا هم يسرّون ويبتهجون ويستبشرون بعام خصيب بعد أن كانوا قبل نزول القطر مكتئبين حزينين لاحتباس الغيث عنهم.

- فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (50) :

فتأمّل إلى ما يعقب إنزال القطر على الأرض: كيف تخضر بعد جدبها، وكيف تنتعش فينبت فيها الزّرع، وتنمو الأشجار وتزهر وتثمر. إنّ الّذي أحيا هذه الأرض بعد موتها وقحطها

قادر على أن يحيي الموتى يوم البعث للحساب. إنّ الله على كلّ شيء قدير، لا يعجزه أيّ شأن من شأن خلقه في السماوات وفي الأرض، فآمنوا بربّكم الحقّ ودعوا شرككم وآلهتكم الذين تدعون، وآمنوا بيوم البعث وأعِدُّوا له عُدَّته، ولا تكونوا من المُعاندين ولا من الغافلين: وهذا المقصود من الآية.

- **وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ (51) :**

ولئن أرسل الله على القوم ريحا رأوه مصفّرا، لا يبشّر بالغيث، وإنّما يتوقّعون منه شرّا لزرعهم ولزهر الشجر أو ثمره، وينذر باقتلاع سقوف بيوتهم غير المبنية، واِقتلاع النّبات، لا يذكرون ربّهم عند رؤيته ليدعوه خوفا ممّا ينزل بهم، وطمعا في أن ينقذهم منه ومن ضرره، وإنّما يظلّون على كفرهم، ويسخطون. إنّهم عند الغيث والرحمة، وعند اِستبشارهم لا يشكرون الله، وعند توقّع الضرّ لا يذكرون الله ولا يدعونه، وإنّما يسخطون ويكفرون.

- **فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ (52) وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ (53) :**

الآيتان في تسلية النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ليعلم أنّ مَثَلَ الكافر كالميّت لا يسمع ما يُقال له، ولا يستجيب لما يُدعى إليه، أو أنَّ مَثَلَهُ كمثل الأصمّ الذي لا يسمع نداءه إذا كان هاربا من شيء، ولستَ بقادر –يا محمد– أن ترشد الأعمى إلى سبيله وهو لا يبصر جهةً ولا علامة، وهو في حيرة. أسْمعْ ما أُنزل إليك من ربّك مَنْ كان يصدّق بالوحي، وبكلام الله وبدلائله في خشوع، وكان مستجيبا لأمر ربّه في خضوع عند سماع هديه. المؤمنون المسلمون أمرهم إلى الله تعالى في خشوع وخضوع هم الأولى بأن تُسمِعَهم ما أُنزل إليك ليهتدوا به، وأعرض عمّن تولّى عن ذكر الله.

- **ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ (54) :**

هذه الآية في الاستدلال بالقدرة على الخلق تمهيدا للتّصديق بالبعث الذي جاءت به الآيات الموالية لها إلى آخر السورة. وفيها ما ينذر الكافرين به من سوء العاقبة وهول المفاجأة عند وقوعه. والمعنى: الله هو الذي خلقكم من (ضَعْف): من ماء مهين، ثمّ صرتم علقة، وبعدها تحوّلتم إلى مضغة لحم، ثمّ أنشأكم نفسا بشرية، ثمّ من بعد ضعفكم وأنتم أجنّة في بطون أمهاتكم، ثمّ مواليد رضع، ثم أطفالا صبية صغارا أمدّكم بقوّة، فصرتم شبابا ثمّ كهولا، ثمّ من بعد قوّة أبدانكم ردّكم إلى الضعف فجعلكم شيوخا ذوي شيبة، ومنكم من صار هرما عجوزا لا يقدر على شيء من الحركة والنشاط. الله الذي تُدْعون لعبادته وطاعته هو الخالق الحقّ، يخلق ما



يشاء من جنس البشر: ذكورا وإناثا، ويخلق أجناسا أخرى مختلفة: وهو كثير العلم بأحوالكم، وبأعمالكم، وبما في نفوسكم، وهو عظيم القدرة في الخلق، وفي تصرّفه في شؤون كلّ ما يخلقه من الكائنات الحيّة وغير الحيّة. ذلكم الله ربّكم فاعبدوه، وأُشكروا له.

- وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ (55) :

وهذه للتّنبيه لقيام الساعة لبعث الأموات من قبورهم للحساب. والمعنى: ويوم يأذن الله تعالى بقيام الساعة يُبعث جميع الأموات من قبورهم، فيظهرون منها أحياء اِستجابة لأمر ربّهم الخالق القدير. وحين يقوم الكافرون للْبعث، ويلقون أنفسهم أحياء بعد مماتهم يشعرون كأنّهم لم يلبثوا في قبورهم غير زمن قصير، وذلك عند فنائهم ينتفي عندهم الشعور بالزمن وبمروره. ويفاجأ المكذّبون به بوقوعه، وقد كانوا (يُؤْفَكُونَ) أي منصرفين عن ذكره، وعن الإيمان به في دنياهم، ومكذّبين به.

- وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (56) :

ويومئذ يقول لهم (ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ): هم الملائكة، أو الأنبياء، أو هم علماء الأمم، وربما هم المؤمنون عموما، فالله أعلم بهم، وليس في التّعريف بهؤلاء قول ثابت عند المفسّرين السابقين، يقولون لهم: لقد لبثتم في قبوركم الزّمن الذي قدّره الله في علمه وقضائه حتى جاء هذا اليوم: يوم البعث لحشر النّاس جميعهم لمحاسبتهم عن إيمانهم وعن أعمالهم، ولكنّكم فرّطتم في الإعداد له لكفركم به، ولتكذيبكم بحصوله، وقد رفضتم العلم به والتّصديق به.

- فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (57) :

في ذلك اليوم لا ينفعُ الذين ظلموا أنفسهم بالبعث اِعتذارُهم عن التّكذيب به وإنكاره والهزء به، ولا هم يُعذرون، (وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) ولا يردّ عنهم عتابُ الله وعذابُه لهم وغضبُه عليهم.

- وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (58) :

ولقد أنزلنا للنّاس في هذا القرآن دلائل متنوّعة للتّصديق بوحدانية الله، وبضلالة الشّرك، وللتّصديق بيوم البعث وبدلائل الإنعام لشكر الله وحده، وبدلائل القدرة في الخلق، ودعوناهم للنّظر في آثار الأمم السالفة الذين كذّبوا بالدين للاعتبار بها، ولئن جئتهم – يا محمد – بآية معجزة ليقولنّ المصرّون على الكفر والتّكذيب وعلى الشرك إن أنتم – أيّها الرسل– إلاّ تكذبون فيما جئتم به من أمر التّوحيد، ومن إرشاد لإبطال الشّرك، وإن أنتم إلاّ سحرة، كم قال الذين من قبلهم لرسلهم.



- كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ **(59)** فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ **(60)** :

وهكذا جعل الله قلوب الجاهلين – وما جهلهم إلاّ من عنادهم ومن مكابرتهم – مغلقةً غيرَ قابلة لنور المعرفة، فأعمت البصيرة، وأصمّت الآذان. رفضت سماع الحقّ، والنّظر في الدلائل. فاصبر – يا محمد – على إعراضهم عنك، وعن تهرّبهم من السماع لك فإنّ لهم موعدا واقعا حتما لن يُخْلَفُوهُ، ويومئذ يتبيّن لهم الحقّ، ولا تجعل تكذيبهم لما تحدّثهم به يستفزّك ويحملك على الغضب عليهم، أو الحزن عليهم حتى تكاد تهلك بسببهم ما داموا يصرّون على التّكذيب بالدلائل القطعية، ولا يؤمنون بها إيمانا يقينيا صادقا.

وهكذا تختم السورة بتسلية النّبيّ عمّا كان يشعر به من الحزن والألم بسبب إعراض قومه عن الاستجابة لدعوة الحقّ لإنقاذ أنفسهم من جهالتهم وضلالاتهم. فلندعُ الله بدعاء الحواريين (رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ)(آل عمران الآية 53) رجاء أن يكتبنا من عباده المؤمنين الموقنين.



آياتها	ســــورة لـقمــــــان	رقمها
34	ـــــ مكيّة ـــــ	31

سمّيت سورة "لقمان" لاختصاصها بذكر قصّة موعظة لقمان لابنه. وهي سورة مكيّة، ولذلك فموضوعها في العقيدة. وتُعتبر هذه السورة أنموذجا حسنا في توجيه الأبناء لما يقيمهم على العقيدة السليمة، والسلوك الحميد، وحسن الأخلاق والمعاملة، ولذلك يذكر لقمان بوصفه الحكيم، لحكمته في إرشاد اِبنه.

وفي هذه السورة آيات للترغيب في أعمال الطاعات وأعمال البرّ، وفي التوجيه لما يحقّق للمؤمن أن يكون من المفلحين، وفيها دلائل عظمة الخلق والتقدير لله عزّ وجلّ، وفيها ما يدعو الإنسان لشكر ربّه ولتقواه، وللإعداد ليوم الحساب.

ولَكَمْ أودّ أن لا يغفل مخطّطو البرامج التعليمية للمدارس الإعدادية عن إدراج هذه السورة للحفظ وللتفسير في حصة التّربية الدينية لما فيها من حكمة في إرشاد النشء لما ينفعهم في دينهم وحسن علاقتهم بالنّاس، ولما يفتح أذهانهم لدلائل عظيم القدرة الرّبانية.

- الٓمٓ (1) تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ (2) هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ (3) :

هذه في الثناء على القرآن الكريم. إنّه يتضمّن آياتٍ مَنْ عقلها وتدبّرها واِهتدى بها اِمتلك زمام الحكمة، وصار حكيما. قال تعالى (ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا)(الإسراء الآية 39) فلذلك فهو الكتاب الحكيم الذي ينطق بالحكمة ويرشد إليها وإلى الحقّ، وإلى المنطق العقلي، ويرفع عن قارئه والعامل به الجهالة والضلالة. فيه آيات الرّشاد وآيات الاهتداء للصواب، وهو يجلب الرّحمة للّذين يحسنون فهمه والعمل به في عقيدتهم ودينهم وفي معاملاتهم مع الآخر، وذلك بإنقاذهم من التّورّط في الزّلل والخطإ، ومن الوقوع في الفواحش والسيّئات والمنكرات التي تحطّ من قدر الإنسان وكرامته.

- ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ (3) أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ (5) :

هاتان في بعض من صفات المحسنين المنتفعين برحمة ربّهم، والمعنى: إنّهم هم الذين يحافظون على أداء صلاتهم لله تعالى في أوقاتها طاعة لأمر ربّهم، وفي خشوع، وحسن أداء، وهم الذين يؤدّون ما عليهم من واجب الإنفاق من أموالهم على المُحتاجين من ذوي قرابتهم



والمساكين والفقراء وأبناء السبيل، وهم الذين يؤمنون إيمانا ثابتا وصادقا بالقيام للحساب عند بعثهم بعد مماتهم. إنّهم على درجة عالية من الهدى. دلّ على هذه الدرجة الرفيعة العالية اِستعمال اِسم إشارة للبعيد (أُوْلَٰٓئِكَ). وهذا الهدى قد مَنَّ به عليهم ربّهم لأنّهم من الذين اِهتدوا بكتابه الحكيم. ويبشّرهم ربّهم بالفوز بالنّعيم، وبالنّجاة من السوء جزاءً على طاعتهم لربّهم.

- **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ (6) :**

لمّا جاء في الآيات السابقة الثناء على القرآن لأنّه كتاب حكمة وهدى ورحمة، جاءت هذه مع التي تليها في ذمّ من يستبدل سماع آيات الحكمة بالسماع للغو الحديث وللهو والهزء. قيل (على ما رواه القرطبي في الجامع ج14 ص52 المجلد السابع، وعلى ما رواه غيره، وفي السيرة النبويّة لابن هشام خبر بهذه الرواية بشيء من الاختلاف في الشواهد ج2 ص7): "نزلت في النّضر بن الحارث الذي كان يشتري كتب الأعاجم عن أخبار رستم، واِسفنديار، وكان يجلس بمكة، فإذا قالت قريش إنّ محمدًا قال كذا ضحك منه، وحدّثهم بأحاديث ملوك الفرس ويقول: حدِيثي هذا أحسن من حديث محمد، (حكاه الفرّاء والكلبي وغيرهما...). وقيل: كان يشتري المغنّيات فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلاّ انطلق به إلى قينته فيقول: أطعميه، واِسقيه، وغنّيه، ويقول: هذا خير ممّا يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه".

وعموما فإنّ الآية في وعيد الذين يتعمّدون صرف النّاس عن الاستقامة على الدين ليكونوا أمثالهم في الكفر، أو الإلحاد، إنّهم موعودون بعذاب يذلّهم، عذاب يحطّ من قدرهم، ويجعلهم محترقين. وهذا الوعيد يشمل أولئك الذين يشغلون النّاس عمدا بلهوهم، وبألعابهم، وبحديثهم السّاخر من الدّين، ومن الاعتقاد في البعث ومن هيئة المصلّين وحديث الوعّاظ والدعاة لينفّروهم من الدين ومن الصلاة ومن الطاعات ومن المؤمنين، وليستميلوهم للتحرّر من القيم الدينية ومن الالتزام بالطاعات باسم حرية المعتقد، وحرية التّعبير، ورغبة في التمتّع بلذّة الحياة، وإنّ بعضهم يزيّن الفواحش باسم حرية الفرد في جسده، وإنّ بعضهم، باستغلالهم وسائل الإعلام ووسائل الاتصال الاجتماعي، يزيّنون للشباب التحرّر من كلّ ما يسمّونه تقاليد دينية، وباسم الثقافة ورقيّ الفنون يبثّ بعض الشعراء والكتّاب اليساريين في ندواتهم الثقافية وفي مسارحهم، أو في منشوراتهم في كتبهم أو صحفهم، في المغرمين بمتابعة أنشطتهم سمومَهم التي تصرف النّاس عن الدّين، ويتّخذون بعض المعتقدات أو الطاعات مواضيع للتندّر والسخرية لصدّ النّاس عن التديّن، هؤلاء موعودون بعذاب الإذلال تحقيرا لشأنهم.

- **وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (7):**

إنّ الواحد من هؤلاء حينما تقرأ عليه آيات الله يغادر المجلس، ويهرب من سماع ما يُقرأ عليه متعاليا عن التّذكير والموعظة، وغير مبال، ولا مهتمّ بما سمع كأنّ في أذنيه ثِقَلاً في السمع، أو صمما حين تتلى عليه آيات الله عزّ وجلّ. هذا وأمثاله مبشّر بعذاب أليم موجع يوم القيامة – شاء أو أبى أن يؤمن بيوم القيامة للحساب. والتّبشير هنا مستعمل للإغاظة.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ (8) خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (9) :

وعلى نقيض أولئك، فإنّ الذين آمنوا بربّهم وأطاعوه، وعملوا الصالحات من أعمال الطاعات وأعمال البرّ مبشّرون بإيوائهم في جنّات النّعيم والتكريم يُقيمون فيها إقامة أبدية، لا يتحوّلون عنها. وهذا وعد من الله تعالى وعدا ثابتا حقّا، والله هو العزيز الذي لا يردّ حكمه، وهو الغالب على أمره، وهو تعالى الحكيم في تدبير أمر عباده جزاءً وثوابا.

- خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ (10) :

هذه في بديع صنع الله، وفي حكمة التقدير في الخلق، وفي عظمة إنشاء السماوات، خلقها الله تعالى ورفعها عالية مرتفعة سقفا للأرض بغير أعمدة وعرصات، والسقف عند البشر لابدّ له أن يقوم على أعمدة، فكيف بني سقف الأرض مرتفعا عاليا بغير أعمدة – كما نراها وكما يراها جميع الخلق أليس هذا من عجيب الخلق ومن عظمته؟ قال تعالى (ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا)(الرعد الآية2) (وقد تقدّم تفسيرها)، فكيف تمّ هذا البناء وهذا الخلق؟ أمرٌ مُعْجِزٌ، علمُه عند الله عزّ وجلّ الذي لا يعجزه شيء في أمر الخلق والإيجاد. خلقُه للشيء لا يخضع لنواميس الحياة والصناعة. إذا نظر المرء في السماوات وتدبّر أمر قيامها اِنتهى للقناعة بأنّ خالقه وخالق السماوات والأرض هو الله الحقّ، الحقيق بالألوهية، ولا إلاه غيره.

وألقى في الأرض جبالا راسخة ثابتة لتكون مستقرّة، لا تهتزّ بما عليها من الخلق، وهذا من حكمة التقدير ليأمن النّاس على حياتهم. ونشر فيها من كلّ صنف ونوع من الدوّاب: منها ما ينتفع بلحومها وألبانها، ومنها ما يُنتفع بركوبها وحمل أثقاله، ومن نعم الله تعالى على خلقه أن أنزل من السماء ماء فأخرج به من الأرض من كلّ صنف حسن من النّبات ذي النّفع والفائدة لطعامه، أو للظلّ، أو للريحان، أو لصناعته، وليقضي منافع أخرى.

فاعرفوا ربّكم الخالق المنعم بهذه الدلائل، واعبدوه وأطيعوه، واشكروا له، ولا تعبدوا سواه ممّا لم يخلق شيئا، ولم ينعم عليكم بشيء، وليس له من آية ودليل على وجوده وعلى قدرته.

- هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ (11) :



لقد دلَّكُمْ الله على دلائل خلقه وآيات أنعامه وعلى الحجج البيّنة الدّالة على عظيم قُدرته، وعلى حكمته في التدبير ، فاذكروا، أو أظهروا ماذا خلقت هذه الآلهة التي تعبدون من دون الله إن كان لها خلق لِتُبَرِّرُوا عبادتكم لها من دون الله الخالق العزيز الحكيم. بل إنّ المشركين في بُعْدٍ بَيِّنٍ عن الصّواب، وفي تِيهٍ عن الحقّ لأنّ كلّ ما يعبدون من آلهتهم هو من زعمهم الباطل ومن أوهامهم، ولا يملكون عن ألوهيتها أيّ دليل أو كتاب أو حجّة.

- **وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ (12) :**

هذه إلى الآية 19 في موعظة "لقمان" لابنه. و"لقمان" رجل صالح من بني إسرائيل، كان أسمر البشرة كبير الشفتين هو ابن أخت "أيّوب" عليه السلام، أو ابن خالته على ما ترويه بعض الرّوايات. كان قاضيا في قومه، وحضر نبوّة "داود" عليه السلام، فترك في عهده القضاء، فلا قضاء لأحد مع وجود نبيّ. وكان رجلا حكيما، حسن الإيمان، تقيا، وعالما بأحكام الشرع، عاش قبل بعثة "داود"، وأدرك بعثته. آتاه الله تعالى (ٱلْحِكْمَةَ)، والحكمة هنا لا تعني النّبوّة، وإنّما تعني الإصابة في الحكم والفُتْيَا والقول من تمام العقل، وحسن الإدراك لأبعاد المسائل أو أغراضها بما لَهُ من عفّة في الدّين والخلق، ومن تقوى. ومن أجلّ مظاهر حكمته وتقواه أنّه كان عبدا شكورا. قال تعالى عن نبيّه "نوح" عليه السلام في الثّناء على دينه وخلقه (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا)(الإسراء الآية 3).

وكثرة شكر العبد لربّه وحمده تعالى دليل على حسن إيمانه، وتمام إدراكه لفضل ربّه عليه، ومن يشكر ربّه على نعمه فهو المُستفيد من شكره لربّه لما يلحقه على ذلك من جزيل الأجر والثواب، لأنّ الله تعالى غنيّ عن شكر عباده. و(وَمَن كَفَرَ) أي كان جاحدا لنعم الله تعالى عليه، وغافلا عن ذكره لربّه فإنّ الله تعالى مُسْتَغْنٍ عن شكر خلقه لأنّه تعالى المحمود على كلّ حال من ملكوته، قال تعالى (وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)(الإسراء الآية 44).

- **وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13) :**

(الموعظة) هي إرشاد الناس إلى التّوبة، وإلى تقوى الله، وإلى طاعته، وإصلاح السيرة في التّعامل مع محيطهم البشري. وهي من الأب أو الأمّ إلى الابن نصيحةٌ وإرشاد، ووصية لما ينفع الولد في دينه ودنياه، وغالبا ما تكون من خالص تجربة الوليّ في حياته ينقلها لابنه لتحقيق سلامته. ومعنى الآية: وأُذكر ما قال لُقمان في موعظته لابنه: يا بنيّ اِحذر من الإشراك بالله الواحد الأحد، لا تكن مشركا، كن موحّدا. إنّ الشّرك بالله أعظم ذنب لما فيه من اِفتراءٍ على الله بغير علم، ولما فيه من ظلمٍ لذات المشرك، لأنّه بشركه يحرم نفسه من رحمة ربّه وغفرانه.

• وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ (14) :

ثمّ ذكّر لقمان اِبنه بشريعة ربّه– وهذا من المواعظ الحسنة– ومن حكمة الوليّ أن يوصي اِبنه للعمل بشريعة ربّه ليضمن له سعادته في آخرته، فقال له: ولقد أوجب الله على الإنسان أن يبرّ بوالديه وألزمه بطاعتهما –ما لم يكن أمرهما في معصية الله– وخاصّة العناية بوالدته تكريما لتحمّلها مشقّة الحمل به حينما كان جنينا في بطنها، وفي الطلق عند ولادته، وعند رضاعه ورعايته زمن ضعفه ونشأته حتى فطمته. لقد قضت عامين من عمرها تمرّ من مشقّة وضعف وتعب إلى مشقّة وضعف وتعب، فألزم طاعتها ورعايتها وشكرها وشكر والدك على ما قدّما لك. وأشكر الذي خلقك وصوّرك وأنشأك، ستعود إلى الله ليحاسبك عمّا أوجبه عليك، فلا تَعْصِهِ فيما أمرك.

• وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (15) :

ومن شريعة الله تعالى أن لا تجبهما لدعوتهما إذا ألحّا عليك وبالغا في الإلحاح عليك لأن تشرك بالله ما ليس لك علم به، ولا حجّة، ولا كتاب، لا تطعمها في الافتراء على الله بنسبة الشريك له ولا النّدّ ولا الولد، ثابر على التّوحيد، وحافظ على معاملتهما المعاملة الحسنة، وصاحبهما الصحبة الحسنة في كلّ ما يمسّ الحياة الدنيويّة. صِلْهُما الصلة الحسنة. وصاحب من يذكّرك بالله تعالى وبطاعته وبالإنابة إليه بالتّوبة وخالص الطاعات، واِقتد بسيرته، واِعلم – يا بنيَّ – أنّ الله عزّ وجلّ قد أخبرنا بأنّا عائدون إلى الله بعد مماتنا حين يَبْعَثُنا للحساب، ويومئذ يَعْرِضُ علينا أعمالنا التي كنّا نعمل في دنيانا للجزاء أو للعقاب، فقدّم لنفسك ما تُثاب عليه، ولا تتقدّم للحساب بما تُؤَاخَذُ عليه فَتُعَاقَبَ.

• يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ (16) :

وهذه الموعظة في تعريف اِبنه بعظيم قدرة الله عزّ وجلّ، وبأنّه اللطيف الخبير ليخشى الطفل ربّه، ويراقب الله في نفسه وفي عمله. والخردل: نبات عشبيّ ينبت بريًّا في الحقول مع الزّرع أو على حافّة الطريق، حَبُّه صغير جدّا، ووزنه خفيف جدا لا يزنُهُ ميزان لخفّته كأنّه ذرّة من غبار. وقد أفاد لقمان ابنه بضرب هذا المثل: بأنّ الله تعالى قادر على اِستخراج حبّة من خردل تقع في صخرة أو تطير في الهواء مع الغبار في السماوات أو تقع في باطن الأرض لأنّه تعالى محيط بها وبوقوعها أو بارتفاعها إلى السماء، وعليم بمكانها، وهذا من سعة اِطلاعه، ومن إحاطته بكلّ شيء علما، ومن عظيم قدرته على الإتيان بها رغم حقارة حجمها وخفّة وزنها ممّا يجعلها تطير



مع الرّيح. أفاده بأنّ الله تعالى محيط بأدقّ الأجسام من مخلوقاته: المُخْتَفِي في أصلب مكان، أو في أقصاه، أو في أصعب مكان منالا لسعته واِنتشاره، إذا كان تعالى محيطا علما بحبّة من خردل، فكيف يخفى عليه شيء من أمر خلقه من بني البشر الذين حمّلهم أمانة التكليف وأخبرهم بأنّهم مسؤولون عن إيمانهم وعن أفعالهم، وأنّهم راجعون إليه للسؤال وللحساب للمثوبة والجزاء، أو للمؤاخذة والعقاب. قال تعالى (مَالِ هَـٰذَا ٱلۡكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا)(الكهف الآية 48). فليأخذ الإنسان حذره فيما يقول وفيما يفعل حتى لا يندم عمّا يصدر منه ممّا يُؤاخذ عليه. موعظة بليغة فيها تحذير شديد من قول اللّسان، وعمل اليد، وسعي الرجل، ومن سوء الظنّ والنّية، وفيها دعوة لمراقبة النّفس في سلوكها ومعتقدها. (إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) بعباده المؤمنين، يهديهم، ويرشدهم للصواب، ويتوب عليهم إذا تابوا، ويغفر لهم إذا اِستغفروه، ويرحمهم إذا اِسترحموه، ويؤمنّهم من عذابي الدنيا والآخرة. وإنّه تعالى (خَبِيرٌ) بما يصلح لهم في دنياهم فيؤتيهم منها ويرزقهم على قدر حاجتهم، ومطّلع على ما يفعلون فيكتب لهم الأجر والثواب على ما يحسنون من الأعمال.

- **يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ (17) :**

ورغبةً في أن يكون ابنه من ذوي العزم، نصح لقمان ولده بثلاث:

- المداومة على إقامة الصلاة، لأنّ المداومة عليها تقي العابد من الوقوع في المعصية، لأنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.
- ونصحه بأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، لأنّ الداعي لأعمال البرّ يستحيي من أن يأتي المنكر، والذي ينهى الناس عن المنكر لا يجوز له أن ينهى عن شيء ويأْتِيَهُ. الداعي إلى الصلاح والتقوى والذي ينهى النّاس عن المنكر يكون قدوةً عند النّاس، فيصير بهذه الصفة أشدّ النّاس حرصا على مراقبة نفسه في سلوكه حتى لا يقع فيما ينهى النّاس عنه، أو يمتنع عمّا يدعو النّاس إليه من أعمال الطاعات، وبهذه النّصيحة يضمن لقمان لابنه حسن سلوكه، ولأن يكون له عند النّاس شأن وحظوة.
- وأمّا النّصيحة الثالثة ففي دعوته للصبر على المكاره، وهذه صفة مميّزة عند أولي العزم، قال تعالى (فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ)(الأحقاف الآية 35). وهذه الصفة من صفات القوة، فلا يقدر على اِحتمال أذى النّاس دون أن يردّ الفعل إلاّ القويّ ذو العزم، وما يقابل السيّئة بالصفح والمغفرة إلاّ من كان ذا عزم قويّ. قال عزّ وجلّ (وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ)(الشورى الآية 43).



- ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (18) :

ونصحه بأن لا يعرض بوجهه عن النّاس تكبّرا، وِاحتقارا لهم، ونهاه عن أن يمشي فيهم بِخُيلاَء، لأنّ الله تعالى لا يحبّ المتكبّر، المتعاظم، المعجب بنفسه، كثير الكلام عن نفسه بمناقبه ومحاسنه. والغرض من هذه النصيحة أن يجعله قريبا من النّاس، أَثِيرًا عندهم، يحبّهم ويحبّونه، ويطْمَئِنُّونَ لإرشاده حين يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر. ومن أفضل الصفات في العَالِمِ الواعظ التقِيّ أن يكون "متواضعا". يُؤثر عن الإمام مالك قولُهُ: "من تواضع للنّاس رفعه الله ومن ترفّع عن النّاس وضعه الله". والمستكبر عن النّاس لا يكون محبوبا عند النّاس، ولا عند الله تعالى، وإذا وقع في مأزق، أو حلّت به مأساة لم يجد في من حوله من يتعاطف معه أو يشدّ أزره، بل ربّما شمت فيه شامتون، واِعتبر بما حدث له المعتبرون.

- ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ (19) :

وفي نصيحته الأخيرة دعاه لأن يتوسّط في مشيه بين الإسراع والإبطاء ليمشي بتؤدة، وبأن يخفض من صوته إذا تكلّم، ولا يرفعه كالذي يفعله أهل الفضائح، وحتى لا يكون صوته شبيها في اِرتفاعه كنهيق الحمار مزعجا منكرا لا يستلطفه النّاس.

والغرض من هذه النّصيحة أن يكسب ابنه "وقارا" من مشيته وأن يتّصف "بالسّكينةِ" إذا حدّث أو تكلّم. ولقد اِشترط الفقهاء في الأيمّة الخطباء بالمساجد في شروطهم التحسينية أن يصعد الإمام على المنبر في سكينة ووقار، حتى يحظى عند المصلّين بتقديرهم، وليكون فيهم ذا مهابة، وذا حظوة ومنزلة فيكسب بهذا ثقتهم، فينصتوا له، ويطمئنوا لمشورته.

وفي هذه الآية إشارة لصفة ذميمة في الإنسان إذا كان يرفع صوته في المجلس بدون موجب، فإنّ رفْعَ الصوت في المجلس منافٍ لرجاحة العقل، وللتأدّب مع النّاس، وهي صفة منفّرة لصاحبها.

- ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ (20) :

عودة لعرض بعضٍ من دلائل التّوحيد، ودلائل الإنعام مع هذه الآية إلى الآية 32. ومعلوم أنّ الغرض المقصود من مثل هذا العرض هو توجيه نظر النّاس لشواهدَ كونيةٍ منظورة ليتعرّفوا بها على الله الحقّ الحقيق بالألوهيّة والعبادة والطاعة، وللفت اِنتباههم لضلالهم إذا عبدوا غيره ليس له في الوجود وكلّ ما فيه دليل واحد على خَلْقه أو وجوده أصلا، فيهتدوا بهذا وذاك للدّين الحقّ فيسلموا له. وفي هذه الآي تنبيه لمظاهر عديدة في حياة النّاس تدلّ على إنعام الله تعالى عليهم في خلقهم وفي إنجائهم عند الشدائد وفي تسخير بعض ممّا خلق ليبتغوا منها منافع لهم،



وذلك ليشكروا له: عبادةً، وطاعةً، وتسبيحا، وليتخلّصوا من أوهامهم في تقديس غيره ممّا لا فضل له عليهم، وفي الآيات تحذير من الكفر، ومن الجحود.

الاستفهام في (أَلَمۡ تَرَوۡاْ)، وفي آيات آخرى في هذه الفقرة (أَلَمۡ تَرَ) للحضّ على معاينة شواهد دالّة على إنعام الله تعالى على خلقه، وعلى معاينة شواهد دالّة على توحيده لمعرفة الله الحقّ معرفة يقينيّة، وهذه الشواهد مرئية بالعين المجرّدة، فهي شواهد محسوسة، وهناك شواهد أخرى تعرف بالبصيرة وبالتدبّر العقلاني، وتعرف بالدلائل العقلية المنطقية. والشاهدان في هذه الآية: شاهد مرئي هو في تسخير ما في السماوات من مثل: تكوير اللّيل على النّهار، وظهور الهلال أو القمر لمعرفة حساب الأشهر والأعوام، ومنها ظواهر النجوم الدالّة على عظيم القدرة، ومنها سير السّحب. وأمّا ما في الأرض فقد سخّر الله تعالى للإنسان الدواب لركوبها أو لإطعامه أو سقيه من ألبانها، وسخّر له الأرض لحرثها وزرعها وغرسها لتنبت له الزرع والشجر وتخرج له الحبّ والثمر، وسخّر له البحر ليركبه أو لينعم بحيتانه طعاما. أليس في هذه الشواهد ما يدلّ الإنسان على فضل ربّه عليه ليجد طعامه وشرابه ولسعيه ولراحته وسكنه ولسفره.

وأما المشهد العقلاني فلينظر الإنسان بعين بصيرته في النّعم التي ينعم بها في حياته الظاهرة من مثل الصحة والقوة والإنعام عليه بالرّزق والزوجة والولد. وفي النّعم الباطنة من مثل الإنعام عليه بملكة العقل والسمع والبصر والذوق ونعمة الفهم ونعمة التعبير بلسانه عمّا يطلب وعمّا يرفض، ومن نعمة الإحساس ومشاعر السعادة أو الألم... "وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها".. أفلا يذكرها الإنسان ليعرف فضل خالقه عليه ليشكره على فضله، ولينصرف عن شكر الأصنام التي لا تنفع بشيء. ورغم كلّ هذه الشواهد المرئية، والمعلومة بالعقل والبصيرة فإنّ من النّاس من يتكلّم في الذات الإلاهية فينسب إلى الله الواحد الأحد شريكا، أو ندّا، أو صاحبة وولدا بغير علم، وبغير حجّة ودليل، ولا اِطّلَع على كتاب يرشده لما قال، يخاصم في وحدانية الله، ويهزأ بوعده ووعيده، ويكذّب بالوحي وبكتابه وبشريعته عنادًا، ومكابرة، وعن جهل، ودون أن يتدبّر ما أُنزل، يتجرّأ على الله العزيز القدير، وعلى الرّسل، وعلى الكتاب.

- **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ(21) :**

وإذا قيل لهؤلاء المجادلين المخاصمين اِسمعوا ما أنزل الله واِهتدوا به رفضوا الدعوة وأعرضوا عن السمع وقالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا في ما يعبدون وفي ما يعتقدون، ولا نخالفهم. إنّه التقليد الأعمى الذي يعطّل العقل والسمع عن التدبّر، وعن الإصلاح. عجبا لأمرهم لقد زيّن لهم الشيطان أعمالهم فاتّبعوه، وما يقودهم الشيطان إلاّ للعذاب بالنّار المحرقة في جهنّم.



- وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ **(22)**

وعلى نقيض هؤلاء، فمن يُفوّضْ أمره إلى الله عزّ وجلّ، ويخلص له في الطاعة والعبادة والتوجّه إليه بالدعاء والخشوع وهو مخلص في عبادته وطاعة أمره: نَهْيًا وواجبا فقد تمسّك بالطرف الأوثق مع الله تعالى، واعتصم مع عهده المتين، وكلّ أحوال العباد صائرة إليه في الخاتمة والنهاية، ومن تمسّك بالحبل المتين فإنّه لا يقع في المهلكة.

- وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ **(23):**

وأمّا من كفر بالله الواحد الأحد، ولم يؤمن بكتابه وبرسله، ولم يطعه فيما أمر ونهى، فلا يحزنك – يا محمد – كفره. سيعود هو ومن معه من الكافرين إلى الله يوم القيامة فيخبرهم بما كانوا يعملون من المعاصي وبما كانوا يضمرون من الكفر والتكذيب، وإنّ الله لا يخفى عليه شيء من أمرهم ولو كان مُضمرا في صدورهم، وفي باطن نفوسهم.

- نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ **(24) :**

نمهلهم لينعموا بحياتهم في دنياهم حتى تنقضي آجالهم، ثمّ نحشرهم بالقوّة وعلى كُرْهٍ منهم في عذاب شديد ثقيل على أنفسهم وعلى أجسادهم تحمُّله.

- وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**(25) :**

ولئن سألت المُشركين عمّن خلق السماوات والأرض ليقولنّ بألسنتهم بأنّه هو الله بكلّ تأكيد على ما تمليه عليهم فطرتهم. قل الحمد لله إذا نطقتم بالصواب، وشهدتم بألسنتكم وأقررتم بأنّ الله هو خالق السماوات والأرض، وليست أصنامكم التي تعبدون. ولكنّ أكثرهم لا يدركون تناقضهم مع أنفسهم، ولا يعلمون أو يعقلون أنّهم يؤمنون بأنّ الله هو الخالق، ولكنّهم يعبدون غيره، ويقدّسون أصنامهم التي لم تخلق لهم شيئا، فبين ما يقرّون به من فطرتهم وبين ما يفعلون تناقض بيّن وواضح.

- لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ **(26) :**

لله ملك كلّ ما في السماوات وما في الأرض، وإنّه تعالى هو الغنيّ عن عبادة كلّ الخلق، لأنّهم هم المُحتاجون إليه، وهو تعالى غير محتاج لعبادتهم وطاعتهم، فإن عبدوه وأطاعوه فهم المنتفعون بعبادتهم وطاعتهم، ولا ينقصه شيء إذا اِنصرف العصاة عن عبادته وطاعته. وهو تعالى المحمود في السماوات والأرض، وقد حمد الله ذاته العليّة قبل أن يحمده الحامدون، فمن حمد وشكر فلنفسه، ومن شكر يزيده الله من فضله، ومن كفر وجحد فهو الخاسر.

• وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ (27) :

هذه الآية ممّا يصعب تفسيرها لأنّ العقل البشري أعجز من أن يدرك أبعادها، فهي تشير لسعة علم الله، وسعة إحاطته بشؤون مخلوقاته على اِختلاف أجناسهم، وأنماط وجودهم، وعلى اِختلاف آجالهم، وهذا من شؤون "القيّوم" سبحانه. ولمّا كان الزّمن متغيّرا في الحياة الأولى، فإنّ علم الله محيط بما صار ماضيا، وبما هو صائر حاضرا، وبما سيكون مستقبلا: بعيدا وقريبا. وعنده تعالى تقدير لما سيكون في الآخرة، ممّا يعرف "بالغيبيات". كلّ هذا وغيره ممّا لا يحصى ولا يعدّ، ممّا عرف وممّا لم يعرف بعد، مُسَطَّرٌ عنده تعالى في كتاب. لهذه الأسباب، ولغيرها ممّا لا يستوعبه أيّ عقل بشريّ – مهما بلغ من درجةٍ في العلم والاطلاع، والفهم – يعسُر على كلّ مفسّر أن يَتَبَيَّن معى هذه الآية، وأن يُبَيِّنَ أغراضها. لا يَسَعُه إلاّ لأن يكتفي بالإشارة بأنّ ما يقدّره الله تعالى لمخلوقاته التي وجدت ثمّ فنيت، والموجودة حاليا، والتي ستوجد من بعدنا لحياتهم ولأرزاقهم ولمهامهم، وتحديدا لآجالهم وآثارهم في حياتهم الدنيوية، وفيما سيكون مصيرهم في آخرتهم، لو كُتب للأقلام أن تسطّر في كتاب لما سيكون معهم في التّقدير، لوجب أن تُبرى كلّ الأشجار التي هي على الأرض لتصنع منها الأقلام لكتابة المقدّر لهم، ولن تكون هذه الأشجار كافية. فإذا أضيف لهذا التّسجيل كتابة كلّ ما يقدّر لكلّ الكائنات التي خلقت على وجه الأرض: برّا وبحرا وجوّا، ممّا يمشي على اثنين وعلى أربع، أو يطير، أو يزحف، وما يوجد في باطنها من كنوز ومن المدّخرات من الماء، وما في البحار من كائنات وكنوز، وما يقدّره الله تعالى لكلّ كوكب سيّار لحركته، وأُفوله، ومهامه، لو كان كلّ هذا التّقدير قُدِّر له أن يكتب في كتاب ويسطّر لعجزت كلّ الأشجار على توفير الأقلام المبراة منها لكتابته، ولَمَا أوْفَتْ البحارُ لمدّ هذه الأقلام بالحبر اللاّزم لكتابة ما يقدّر في هذا الملكوت، ولو مدّته سبعة أبحر بمدادها من الحبر، والعدد سبعة يُفيد الكثرة، ولا يعني العدد حصره بهذا الرقم فحسب. ومع هذا كلّه فإنّ كلمات الله الخاصة بالتّقدير، والإحاطة بشأن مخلوقاته وحاجاتهم وتحديد آجالهم وأرزاقهم لا تتوقّف، ولا تنفد، أو تنقطع. ولذلك كان أمره إذا أراد شيئا (أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ)(يس الآية 82) سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء، وهو القدير العظيم، العزيز الذي عزّ في ملكه، وعظُم، وهو الحكيم في التّقدير والتّدبير.

• مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ (28) :

ما خلقكم – أيّها النّاس – ولا بعثكم بعد مماتكم أحياء جميعكم إلا كخلق نفس واحدة عند الله تعالى، إنّه أمر يسير عنده سبحانه، إنّه يقول للشيء كُن فيكون، فلا يظننّ أحد أنّه مُفْلت من بعثه، أو يحسبنَّ أنّ أمر البعث أمر عسير معجز. إنّ الله سميع لمن يشكّكون في أمر البعث

ولمن يكذّبون به ولمن يهزؤون به، وبالوعد والوعيد، وبصيرٌ بما يعملون ومطّلع عما يفعلون مع المؤمنين ليشكّكوهم في هذا الأمر لصدّهم عن سبيل الله.

- **أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ (29) :**

الاستفهام في هذه الآية لِلَفْتِ اِنتباه الذين لا يؤمنون بقدرة الله تعالى في إدخال الليل في النّهار لتكون الظلمة ليجدوا زمن الليل الهدوء والسكينة والراحة من عناء سعيهم في نهارهم، ثمّ يمضي الليل ويدخل فيه النّهار فيقوم فيه النّاس ليمارسوا أنشطة حياتهم. وسخّر الله تعالى الشمس لتفيد الخلق بما تشعه فيهم من ضوئها ليبصروا حاجاتهم وشؤونهم، وتشعّ فيهم حرارتها لينتفعوا بها لصحتهم وما كتب الله لهم من فوائدها، وسخّر لهم القمر للإضاءة ولمعرفة الزمن وتعداد الأيّام والشهور. وكلّ ما خلق الله من الكائنات صائر إلى أجل محدّد عند الله لنهايته حتى الشمس والقمر والسماوات والأرض. والله سبحانه عليم بما يفعل عباده من الطاعات أو من المعاصي. وهو تعالى خبير بما يصلح لهم لبقائهم ولرزقهم ولقضاء شؤونهم، فيقدّره لهم كلٌّ حسب ما شاء الله له لحكمة أرادها له.

- **ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ (30) :**

(ذَٰلِكَ) أي ويُستفاد ممّا سبق ذكره أنّ الله عزّ وجلّ هو الحقيق بالألوهيّة، هو الله الحقّ الذي يجب أن يعبد، ويطاع، و(ٱلۡحَقُّ) على ما جاء في تفسير الرّازي "هو الثبوت، والثابت هو الله، هو الثابت المطلق الذي لا زوال له" (التفسير الكبير ج25 ص 100). وإنّ كلّ إلاه يُعبد سواه هو إلاه باطل من اِختلاق الوهم والأساطير، لا يملك دليلا على ألوهيته، وهو مسلوب لكلّ قدرة وكلّ صفة للسمع وللإجابة. (وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ) العظيم الذي لا يبلغه أحد وهو الأعلى في مكانته وقدره وتقديره وفي تصرّفه في شؤون خلقه، وهو العليّ في قدسيته، وهو الكبير في عظمة شأنه وفي سلطانه. وهاتان صفتان من صفات الجلال والعظمة.

- **أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ (31) :**

اِستفهام آخر للتنبيه لفضل آخر من فضائل الله على عباده. فمن فضله تعالى على خلقه أنّه جعل البحر مسخّرا لحمل سفن التجّار والمسافرين ليبتغوا من فضل ربّهم في الرّزق، أو لتقريب المسافات، فهذا التّسخير من رحمة الله ومن فضله على عباده ليعرفوا بعضا من نِعَمِه عليهم. وإنّ الصّابرين على طاعة الله عزّ وجلّ والشّاكرين له يعلمون فضل ربّهم عليهم في هذه النّعمة، وفي نعم أخرى حين يبلغون مقاصدهم في سلامةٍ وأمان من الغرق.



- **وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (32) :**

وإنّ بعضا من النّاس إذا ركبوا البحر في سفنهم وصادفهم هيجان البحر حتى علا الموج سفنهم وغطّاهم فصار كالغمام يصبّ فوق رؤوسهم الماء صبّا، ويحبس عليهم الهواء والضوء، وأخافهم تذكّروا حينذاك ربّهم فصاروا يدعونه بإخلاص وإلحاح لينقذهم من الهلاك والغرق المحتوم، وقد رأوا الموت يتراقص فوق رؤوسهم، ويبتهلون في تذلّل وخضوع لله وحده، ولا يستغيثون بغيره، ولا يذكر أحدهم آلهتهم ولا يدعونها، فلمّا نجوا وبلغوا شاطئ البحر أحياء سالمين، فمنهم من يتردّد بين الإيمان والكفر، ويشكّ في آلهته، ولكنّه قليل العبادة والطاعة لله عزّ وجلّ. وما يجحد فضل الله عليه في إنجائه وفي قدرته عليه إلاّ كلّ (خَتَّارٍ) غدّار، والختر أقبح من الغدر وأشنع خلقا، و(كَفُورٍ) كثير الكفر والجحود.

- **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ۚ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (33) :**

هذه موعظة من الله عزّ وجلّ للنّاس جميعهم: مؤمنين وغافلين. في هذه الموعظة دعوة لتقوى الله طلبا لمرضاته، ورغبة في النّجاة من عقابه وعذابه وغضبه. وإنّ تقوى الله تكون بأمرين: بالامتثال لأمره، وباجتناب نواهيه. وفيها دعوتهم للحذر من الحساب يوم القيامة. في ذاك اليوم لا يغني عن المرء شيء، ولا ينجيه من العذاب إذا كان من أهل المعاصي والدُه، ولا تنفعه شفاعته فيه، ولا ينقذه منه مولودٌ له بالافتداء. كلّ اِمرئ يتحمّل جرائر عمله إذا كان مذنبا، فلينقذ المرء نفسه بإصلاح عمله في دنياه وبتقوى الله قبل أن يُوافيه أجله وقبل يوم الحساب. هذا وعد الله، وهو وعد ثابت في تحذيركم من يوم الحساب، وإنّ وعده ببعثكم وعد واقع حقّا، لا خُلف فيه، فأعدّوا له عدّته، واخشوا سوء المصير في ذاك اليوم، واِحذروا أن تخدعكم الحياة الدنيوية وزينتها فتصرفكم عن طاعة الله وتقواه، واحذروا أن يخدعكم من يزيّن لكم المعصية، ويبعدكم عن طاعة الله، وإيّاكم أن يُغَرّرَ بكم حتى لا تندموا يوم لا ينفعكم ندم، احذروا مصاحبة أهل السوء.

- **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (34) :**

بعد تلك الموعظة هدًى من الله عزّ وجلّ، جاءت هذه الآية للتّذكير بسعة علم الله، وبفضله، وبتقديره، وبحكمته في التّدبير، فأذِنَ هذا التّذكير باختتام السورة على ما بدأت به من الثّناء على هذا الكتاب الذي فيه هدى للنّاس بمواعظه، وبعرض آيات الإرشاد لدلائل التوحيد والإنعام ليعرف النّاس الدّين الحقّ.

إنّ الله سبحانه هو وحده الذي يحدّد وقت وقوع القيامة، ولا يعلم موعدها وأجلها أحد غيره، فهي من الغيبيات. وهو تعالى المنعم بإنزال الغيث رحمة بخلقه للسقي والريّ وإحياء الأرض. وهو تعالى الذي له علم بما في أرحام الإناث، يعلم العقيمة منهنَّ، ويقدّر لرحم كلّ أنثى ما ستنجب من ذكر وأنثى: الصالح منهم والعاقّ، ويحدّد عند حمل كلّ أنثى لمولودها أجله وكسبه وسعادته أو شقاوته. وهذا علم يستأثر به الله وحده لأنّه هو الخالق. ولا يُعْرَفُ عن المولود عند ولادته ماذا سيكون علمه وماذا سيكون كسبه ولكنّ الله يعلمه لأنّه هو الذي يقدّره له. ولا يعرف أيّ إنسان إذا حيي متى يكون أجله، وفي أيّ مكان سيموت: سيموت على فراشه، أو في غربته، أو يموت في البحر، أو في الجوّ من طائرة تسقط، وإنّ الله تعالى عليم ما كُتِب له، والله خبير بما يقول جميع خلقه وبجميع أعمالهم، وخبير بما يصلح لهم فيرسله إليهم وخبير بما يخيفهم فيرسله إليهم من حين لآخر ليخشوا ربّهم وليذكّرهم بقدرته عليهم ليتوبوا.

نسأل الله السلامة وحسن العاقبة.

آياتها	ســــورة **السّجـــــدة**	رقمها
30	ـــــ مكيّة ـــــ	**32**

هي سورة "السّجدة" في المصاحف. وفي كتب السيرة تُسمّى سورة : "الم تنزيل السّجدة". سمّاها الرّازي في تفسيره سورة "المضاجع" لما جاء فيها: (تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ).

عند الدرامي هي "المنجية"، وفي صحيح البخاري أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يقرأها في الركعة الأولى من صلاة الصبح من يوم الجمعة، وفي الثانية يقرأ بسورة الإنسان. وعند الترمذي في سننه عن جابر بن عبد الله أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يقرؤها بسورة الملك قبل أن ينام.

وهي سورة مكيّة، فهي في العقيدة، ومن أهمّ ما جاء فيها هو الترغيب في النّجاة من العذاب يوم القيامة، وفيها وعيد الفاسقين بعذاب في الآخرة، وختمت بوعد المؤمنين بالنّصر والفتح المُبين. وكشأن كلّ السور المكيّة فإنّ فيها آيات للتّنبيه لدلائل التّوحيد.

- الٓمٓ (1) تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (2) أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ (3) :

إذا أُفتتحت السورة بـ (الٓمٓ) فغالبا ما يأتي بعدها التّنويه بكتاب الله: القرآن الكريم. وجاء في هذه الآيات ما يرفع من شأن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لإثبات صدقه، وردّ تهمة الافتراء عنه، وما يرفع من شأن هذه الأمّة لأنّ الله قد أكرمها بتنزيله إليهم فجعلها أمّة كتاب، وما كانت من قبله ومن قبل مجيء نبيّهم أمّة كتاب للاهتداء به إلى الله الحقّ، والدّين الحقّ. فهذا التّنزيل فخر لهذه الأمّة.

والمعنى: لاشكّ في أنّ القرآن نزل على محمد صلّى الله عليه وسلّم من الله ربّ الخلق جميعهم، وسيّد الملكوت والوجود بأرضه وسمائه. يقول المكذّبون به والمشكّكون في الوحي إختلق محمد هذا الحديث من عند نفسه.

كلاّ لم يختلقه، ولم يَفْتَرِه، بل إنّه كتاب من عند الله تعالى حقّا نزل وحيا على محمد صلّى الله عليه وسلّم بواسطة جبريل عليه السلام لتحذير المشركين والكافرين والملحدين والغافلين من عذاب الله، ولم يأتهم من قبل إرسال محمد صلّى الله عليه وسلّم برسالة الإسلام وبالقرآن رسولٌ ولا كتابٌ ليتهدوا به للدّين الحقّ، وليحذّرهم من الشرك والكفر، ويحذّرهم من عقاب الله تعالى إن لم



يؤمنوا ولم يهتدوا، والغاية من هذا التّنزيل أن يرشُدُوا للحقّ وللصّواب، وليُنقِذُوا أنفسهم من عقاب الله عزّ وجلّ. فَبِمَ يوصف مَنْ عَلِم بهذا التنزيل، وعلم بخبر إرسال النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم للعالمين ليهتدي بما جاءه به من عند ربّه وحْيًا حقّا وصدقا فأعرض عنه، وتولّى عن قراءته وتدبّر آياته، ولم يرغب في سماعه حينما يبلغ سمعَه ما يتيسّر من ذكره؟

- **ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (4) :**

هذه إلى الآية التاسعة في دلائل الخلق والتّوحيد وحكمة التّدبير. الله الحقيق بالألوهية والعبادة والطاعة هو الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما من فضاء رحب وأجواء وغازات في ستّة أزمنة. واليوم عند الله ليس بقياس اليوم على الأرض، ذلك لأنّ الآية تتحدّث عن زمن الخلق للأرض قبل أن تكون وتوجد، ولذا فإنّ اليوم يعني فترة زمنيّة قد تقدّر هذه الفترة الزّمنية التي هي عند الله يوم واحد بآلاف السنين عندنا أو بملايين من السنوات بحسابنا الزّمني. واليوم في اللّغة بمعنى الوقت.

(ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ): أمر الاستواء، والعرش وكيفيته من علم الله تعالى، ولا يعرف أحد من البشر معنى صحيحا ثابتا لهذه الجملة. ليس لديكم من ناصر ينصركم ويدفع عنكم البلاء والأذى غيره لأنّه هو الوليّ الحقّ، ولا أحد يشفع بين يديه فيما يقضي فيه، إذ لا قضاء بعد قضائه، ولا رادّ لقضائه وحكمه. (أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ) إستفهام لتحفيز العقل على تدبّر آيات خلق الله ليعرف قدرته وفضله وليعرف أنّه الله الحقّ فيهتدي لطاعته وعبادته، ولا يعبد إلاها آخر غيره.

- **يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ(5) :**

لقد أشكل على جميع المفسّرين: الأوائل منهم والمتأخرين – فَهْمُ هذه الآية، وتحيّروا في بيان معناها، فأوردوا فيها أقوالا كثيرة لمن سبقهم في التّفسير دون أن يرجحوا قولا على قول، وتركوا للقارئ والدارس أن يتخيّر ما يطمئن إليه من الأقوال والآراء. وقد عمد الإمام زين الدين محمد بن أبي بكر الرّازي (المتوفى نحو سنة 664 هـ) لأن يضمنّها في تصنيفه: "غرائب آي التنزيل" (حقّق هذا الكتاب جماعة من علماء الأزهر برئاسة الشيخ إبراهيم عطوة عوض سنة 1410 هـ). وذلك لأنّ في معرفة المُراد من قوله تعالى (يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ) إشكالا وغموضا يجعل المفسّر يذهب إلى التأويل، واِختلفوا في تحديد المقصود بالضمير (هو) في فعل (ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ). ووقعوا في إشكال تقدير زمن اليوم عند الله عزّ وجلّ، فهو في هذه الآية (كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ)، وهو في (فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)(المعارج الآية 4). روي أنّ ابن عباس – رضي الله عنهما – سئل عن هاتين الآيتين، فقال: "يومان ذكرهما الله تعالى في كتابه، وإنّي أكره أن أقول في كتاب الله بما لا

أعلم" (ذكر في كتاب غرائب التنزيل ص 380 ط. الأزهر). وقد رجعت إلى عدد من كتب التفسير لأَسْتَأْنِسَ ببياناتهم لهذه الآية، فلم أجد بيانا أفضل ممّا كتبه شيخنا الجليل محمد الطاهر ابن عاشور في كتابه (التحرير والتنوير ج21 ص 213 ط. تونس) قال الشّيخ: "وقد أفاد التّركيب أنّ تدبير الأمور من السماء إلى الأرض من وقت خَلْقِها وخَلْقِ ما بينهما يستقرّ على ما دبّر عليه، كلّ بحسب ما يقتضيه حال تدبيره من اِستقراره، ويزول بعضه ويبقى بعضه مادامت السماوات والأرض، ثمّ يُجْمَع ذلك كُلّه فيصير إلى الله مصيرا مناسبا لحقائقه، فالذوات تصير مصير الذوات، والأعراض والأعمال تصير مصير أمثالها، أي يصير وصفها مصير أصحابها إلى علم الله وتقدير الجزاء، فذلك المصير هو المعبَّرُ عنه بالعروج إلى الله فيكون الحساب على جميع المخلوقات يومئذ. واليوم من قوله: (فِي يَوۡمٍ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٍ) هو اليوم الذي جاء ذكره في (وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ)(الحج الآية 47) ومعنى تقديره بألف سنة أنّه تحصُلُ فيه من تصرّفات الله في كائنات السماء والأرض ما لو كان من عمل النّاس لكان حصول مثله في ألف سنّة، فَلَكَ أن تقدّر ذلك بكثرة التّصرّفات أو بقطع المسافات، وقد فُرضت في ذلك عدّة اِحتمالات. والمقصود التّنبيه على عظيم القدرة، وسعة ملكوت الله وتدبيره. ويظهر أنّ هذا اليوم هو يوم الساعة، أي ساعة اِضمحلال العالم الدنيوي، وليس اليوم المذكور هو يوم القيامة المذكور في سورة المعارج. قال ابن عبّاس: ولم يُعَيّن واحدا منهما. وليس من غرض القرّاء تعيينُ أحد اليومين ولكن حصول العبرة بأهوالهما".

- ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (6) :

الله الذي تدعون لعبادته وطاعته هو الله الخالق المدبّر للأمر من السماء والأرض، وهو الذي يعرج إليه الأمر، وهو العليم بما تكنّ صدور العباد، وبكلّ ما يجري في السماوات والأرض وما بينهما ممّا يخفى على العيون، ولا تبصره الأبصار، وممّا لا تدركه العقول، والعليم بكلّ ما يغيب على جميع البشر ممّا سيحدث لهم أو فيهم أو في بعض أقطارهم وأحوالهم في مستقبل أيامهم، وهو العليم بآجالهم، والعليم بما سيكون إذا أذن برجوع جميع الخلق إليه، وبما سيكون في الآخرة من أمور. وهو تعالى العليم بالحادثات التي شوهدت وبما أعلن، إنّه تعالى لا يغيب عن علمه شيء في الأرض وفي السماوات وما بينهما، لقد أحاط بكلّ شيء علما. وهو العظيم في ملكه الذي لا يردّ حكمه وقضاؤه، والذي يطاع في كلّ أمر، وهو الغالب على أمره، وكلّ شيء دونه ولا يقربه شيء ولا يدنو إلاّ بإذنه. وهو كثير الرحمة بعباده المؤمنين لا يعذبهم ولا يخذلهم، بل يؤمّنهم على أنفسهم وينصرهم على أعدائهم، ويهديهم سبل السلام، وينعم عليهم بنعيمه الدائم حين يُرجعون إليه.

- ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾ (7) :

وهو تعالى الذي أتقن كلّ شيء خلقه وصنعه، وبدأ خلق جنس الإنسان من طين: من تراب وماء. والإنسان حين ينظر في تكوين جسمه: ظاهريا وباطنا يعرف دقّة الصنع، وحسن التدبير في تفاعل كلّ ما خلق فيه مع بعض. وفي كلّ ما خلق الله من حيّ متحرّك من مثل الحيوان والحشرات، ومن حيّ جامد من مثل الشجر والزرع والنبت، وكلّ ما هو جامد يرى الإنسان الدارس للطبيعة وأحيائها وخواصّها بديع صنع الله تعالى، وعجيب الخلق في دقّة ما خُلق.

- ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ (8) :

ثمّ جعل من آدم نسلا ينشأ من خلاصة من ماء ضعيف محتقر، هو خليط من منيّ الرجل مع ماء بويضة المرأة فيتولّد من اِجتماعهما وتفاعلها نطفة يُخلق منها إنسان معدّل في تكوينه وخلقه.

- ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾(9) :

هذه في بيان فضائل الله تعالى على الإنسان في خلقه، لذا وجب الانتباه لبيان معنى (سَوَّىٰهُ)، و(وَنَفَخَ فِيهِ)، ولمعنى الإضافة في (مِن رُّوحِهِۦ)، ومعنى (وَجَعَلَ)، ولأهمية تقديم (ٱلسَّمۡعَ) في صيغة المفرد على (وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ) في صيغة الجمع، ثمّ لماذا ختمت الآية بـ (قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ) والضمير في الفعل للمخاطبين وقد بدأت الآية بضمير الغائب المفرد، كتبتُ في معاني هذه المفردات وخصائص اِختلاف صيغها بيانا موسّعا في كتابي (تنوير المستنير ج 5 ص 643-645) لمن أراد التوسّع فيها. وعموما فإنّ معنى الآية في اِختصار يفيد بأنّ الله سبحانه قد قوّم خِلْقَة الإنسان فجعلها جميلة سوية، حسن المنظر، قال تعالى (لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ)(التين الآية4) وهذا لتكريم جنسه، فهو من أفضل خلق الله عزّ وجلّ حسنا وجمالا وتسوية في مظهره، وجعله مميّزا عن سائر خلقه بمسؤولية التّكليف ليكون محاسبا عن عمله، وأمدّه بملكات العقل والإحساس والفطنة والخلق والإبداع ليستخلف في الأرض، فكان خلقا سويّا : ظاهرا وباطنا.

ولم يكن ليُولد هذا الإنسان كائنا حيّا لولا نفخة من روح الله تعالى. هذه النّفخة، وهي من روح الله عزّ وجلّ من المسائل المُغْلَقَة على فهم البشر، لذلك نقول: وما كان ليولد المولود من رحم أمه إنسانًا حيّا إلاّ بأمرٍ من الله عزّ وجلّ حين يقدّر له الوجود والحياة في الأجل الذي حدّده له ليخرج للحياة، وحين يقدّر له أجله لحياته، ورزقه في دنياه، وحين يكتب له نصيبه من سعادته أو شقاوته، وما إلى ذلك من قضاء الله تعالى وتقديره. بدون هذا الأمر وهذا التقدير يُطرح الجنين من رحم المرأة لحما ودما في غير صورة، ولا نفس.

هذا ما يكون في شأن خلق الإنسان، ثمّ تتوجّه الآية لمخاطبة جميع النّاس لتنبيههم لفضل الله تعالى عليهم فيما ميّزهم به على سائر مخلوقاته، فقال (وَجَعَلَ لَكُمُ) أي أعطاكم، وخلق لكم، وصيّر لكم (ٱلسَّمۡعَ). والسّمع أوّل طريق للعلم والتعّلم والمعرفة وهو في هذه الخاصية خير من البصر، فكم من كفيف كان غزير العلم، واسع المعرفة، ولم يرَ في حياته خطّا ولا كتابا، وإنّما تعلّم بالسماع، وكم من مُبصر لم يبلغ درجة فكّ الخطّ، ولم يتعلّم القراءة ولا الكتابة. ومن أصابه صمم، واِنقطع عنه سمعه اِنقطع اِتصاله بمحيطه ولم يتعلّم إلاّ ما يستفيد به من تجربته. والسمع حاسّة للتّنبيه لندائه أو للحذر من خطر. والسمع نشيط دائما ولو كان صاحب السمع نائما. النّائم يوقظه الصوت الذي يناديه أو الذي يزعجه. والنّاس جميعهم يتّحدون في معرفة اِتّجاه الصوت وهيأته ومصدره إذا حدث فيهم حتى الأعمى منهم الذي لا يبصر. لهذه الخاصيات المميّزة تقدّم على(وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ). والنّاس في صفات إبصَارِهم للأشياء يختلفون في التمييز: قربا وبُعدا، ويختلط عند بعضهم التهيّؤ فيما يرون، ولا يتّحدون في تقييم ما يشاهدون في إفادته، أو في جماله، أو في أخطاره، ولذلك ورد في صيغة الجمع، كاللفظ الذي ورد في شأن الأفئدة التي هي القلوب. من النّاس من هو مرهف الحسّ، رقيق المشاعر، ومنهم من هو غليظ القلب، متحجّره. القلب وعاء الإيمان، ومن النّاس من هو مؤمن، ومن هو معاند ومكابر أو كافر. ومن النّاس من يتألّم لمنظر يشاهده أو حالة يعيشها فتفيض عيناه بالدمع، وأحيانا تفيض عند ذكر ربّه أو عند فقد عزيز عنده، ومنهم من يشمت أو لا يهتمّ ولا يتحرّك منه ساكن.لذلك هم مختلفون فجاءت الأفئدة في صيغة الجمع.

والإنسان مميّز بهذه الحواسّ عن سائر مخلوقات الله: السمع للعلم، والأبصار للاستفادة من المُشاهدة، وبالمشاعر والأحاسيس التي تتولّد في الأفئدة فتدفع الإنسان للتصرّف فيما يعيشه من أحَاسِيس وفق دينه وأخلاقه. فمن اِهتدى لاستغلالها لصالح نفسه وليعمل عملا صالحا ينفع به غيره ومحيطه البشري كان حَرِيًّا بأن يكون الإنسان الذي اِنتفع بما خلقه الله له، ومَنْ صَرَف نفسه عن الانتفاع بها من عناده ومكابرته وأنانيته واِتّباعه هواه فقد فرّط فيما ينتفع به لآخرته ولحسن ذكره في دنياه.

(قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ) هذه الجملة لبيان غفلة الكثير من النّاس عن إدراك ما خلق الله لهم في أنفسهم من حواسّ لينتفعوا بها للعلم، وللوعي وفتح البصيرة، ولاكتساب الحسّ المرهف من المشاعر التي تدفع للتطوّع لأعمال البرّ والخير. لو كانوا قد أدركوا هذه المنافع لوَجِلَت قلوبهم فغمرها الإيمان، ولخشعت لذكر الله تعالى، ولاهتدت مسامعهم بما سمعوا لآيات الله فاستجابوا لربّهم وآمنوا وعملوا صالحا، ولأبصرت عيونهم دلائل الخلق والإنعام فانطلقت ألسنتهم بالشكر لله

تعالى وبالتسبيح والذكر، ولكانوا مؤمنين شاكرين، فهذه جملة للعتاب ولحفز العقول على تدبّر هذه الفضائل في الآن ذاته.

- وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ **(10)** :

هذه إلى الآية 14 في التأكيد على عقيدة البعث، وفي مشاهد من يوم القيامة. والمعنى: وقال المكذّبون بالبعث: إذا صارت أبداننا ترابا وغابت في الأرض بتحلّلها سنبعث خلقا آخر جديدا. واِستفهامهم هذا يدلّ على اِعتقادهم باستحالة وقوع هذا البعث. ودفعهم لهذا الاعتقاد ولهذا القول أنّهم يكذّبون بلقاء ربّهم لمحاسبتهم على أعمالهم، ويكفرون بيوم القيامة.

- قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ **(11)** :

إنّ الموت بالأجل. والأجل يقدّره الله تعالى. فإذا حضر أجل الإنسان يرسل إليه الملك المكلّف بقبض روحه لينفّذ فيه أمر الله عزّ وجلّ، وبهذا ينقضي أجله ويموت، ويصبح بدنه جثّة من لحم وعظم لا روح فيها، وحين يأذن الله تعالى بقيام الساعة تعاد إليه روحه فيقوم حيّا ثانية، ويساق إلى الميزان بين يدي الله تعالى للحساب: للجزاء أو العقاب، وكذا يرجع الإنسان بعد مماته إلى ربّه.

- وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ **(12)** :

وحين تقوم الساعة يفاجأ المكذّبون بالبعث بعودة الحياة إليهم بعد مماتهم، ويفاجؤون بإمدادهم بسجلات أعمالهم، وبحشرهم للحساب فيُرَوْنَ يومئذ مُطْرِقي الرؤوس، لا يرفعون أبصارهم ولا رؤوسهم حزنا وندما، وحياءً من الله، وإشفاقا على أنفسهم ممّا ينتظرهم من السؤال، وتراهم يدعون ربّهم بأن يردّهم إلى الحياة الدنيويّة ثانية ليعملوا صالحا وعملا يرضون به ربّهم من غير معصية مقرّين بأنّهم قد عاينوا البعث والحشر والميزان، وقد سمعوا من التوبيخ والوعيد ما يردّهم للرشد والصواب، وأقرّوا بأنّهم متأكّدون وعالمون علم اليقين بأنّ ما جاءهم من خبر البعث والنشور وخبر الحساب والميزان هو خبر صادق ثابت لاشكّ فيه.

- وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ **(13)** :

تكلّم علماء الكلام من مذاهب المعتزلة، والإمامية، والجبرية في مسألة الجبر والاختيار، فقالوا في هذه الآية وفي هذه المسألة بآرائهم واِختلفوا، ولذا وجب أخذ الحيطة من الانتصار لرأي لمذهب من مذاهبهم دون آخر. وأقرب ما يجوز قوله في بيان هذه الآية أنّ الإيمان لا يكون بالإجبار والإكراه، وإنّما هو أمر اِختياري حتّى يصحّ التكليف، ويصحّ تحميل الإنسان مسؤوليته



في اِختياره بين الإيمان والكفر ليكون أحقّ بالجزاء أو بالعقاب على حسب مشيئته. قال تعالى (فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ)(الكهف الآية 29) فمن شاء آمن وأطاع اِختياريا لا جبرا، وله الجزاء عند ربّه لاختياره أن يتقرّب إليه بالإيمان والطاعة. ومن أعرض عن ذكر ربّه وآثر الحياة الدنيا آتاه الله تعالى بفضله ما شاء من دنياه، ثمّ جعل له جهنّم مقرّا لأنّه آثر البُعد عن ربّه قال تعالى (مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا)(الإسراء الآية 18) (العاجلة هي الدنيا).

ومن رحمة الله تعالى بعباده جميعهم أن أرسل إليهم رسلا، وأنزل لهم كتبا ليهتدوا إليها (لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ)(التكوير الآية 28) وقد غرس في كلّ إنسان فطرة سليمة ليهتدي بها لربّه، وآتاه عقلا وقلبا وسمعا وبصرا ليميّز بين الحقّ والباطل، والاستقامة والضلالة، فمن جاءه علم بالوعد وبالوعيد فآثر أن يعمل عمل الطامع في الوعد فقد اِختار لنفسه أن ينعم بما وُعِد به، ومن هزأ بالوعيد وتركه وراء ظهره فعليه أن يرضى بما سيصيبه من أثر هزئه وتكذيبه.

وللأشاعرة قول في مسألة الجبر والاختيار يُعتمد لأنّه أكثر اِعتدالا من أقوال أصحاب المذاهب الأخرى. وعموما فإنّ الله تعالى قضى بحكمته أن يكون الإنسان مسؤولا عن اِختياره لهدى نفسه أو الإعراض عنه ليكون مسؤولا عن اِختيار عاقبته بين الجزاء بالنّعيم أو العقاب بالجحيم. وقد قضى الله عزّ وجلّ أن يحشر في جهنّم، الشياطين الغاوين للنّاس، ومعهم كلّ من أعرض عن طاعة ربّه وكان من الغافلين.

- **فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(14) :**

ويقال يومئذ للمكذبين بيوم البعث وبالوعيد حين يحشرون في جهنّم تذوّقوا العذاب بسبب تكذيبكم بهذا اليوم وإنكاركم له، وأقيموا فيه إقامة أبدية، إقامة تطول بكم حتى تُنْسَوْا فيه، فلا تُذْكَرُون فيه حتّى لا تَخْرُجُوا منه كما كنتم تنسَوْن ذكر ربّكم ولا تذكرونه بطاعة ولا عبادة ولا تسبيح، وكذا يكون الجزاء من جنس العمل: نسيانٌ بنسيان.

- **إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ(15):**

هذه الآية إلى الآية 22 في صفات الذاكرين الله تعالى، وفي ما أُعِدَّ لهم من حسن الثواب والجزاء في آخرتهم على عكس أولئك الناسين ذكر ربّهم الذين توعدهم الله تعالى بعذاب دنيوي قبل ما سيلاقيهم من العذاب الأخروي الذي ورد ذكره في الآية السابقة. والمعنى: إنّما يؤمن (بِـَٔايَٰتِنَا): الفرائض، والوعد والوعيد، وبدلائل الوحدانية والفضائل، إيمانا كاملا (ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ



بِهَا): الذين يوعظون بها، فيصدّقون بها، ويتواضعون في قبول الموعظة، ويَقَعُون على وجوههم على بساط الأرض ساجدين في خشوع، وصلّوا لله تعالى شاكرين في خضوع تعظيما وتقديسا وتصديقا، ومنزهّين الله عزّ وجلّ عن كلّ عيب ونقص وعن الشريك والنّدّ والولد. وهذه كقوله تعالى (إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا)(الإسراء الآية 107).

- تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (16) :

تتنحّى جنوبهم عن الفراش للقيام للعبادة كلّما ذكروا ربّهم يطلبون رضوانه وغفرانه ورحمته وفضله، ويطلبون النّجاة من عذابه خوفا منه، وخشية من أن يقفوا بين يدي ربّهم بسجلّ فيه معاصيهم، وإنّهم ينفقون ممّا رزقهم الله من فضله صدقةً وإحسانا طلبا للأجر والمثوبة.

- فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (17) :

والله تعالى يعدهم بجزاء ومثوبة لا تستطيع نفس أن تتصوّر أو تتخيّل ما أعدّ الله لهم من النّعيم، سيلقون من التكريم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خَطَر على بال بشر. وقال ابن عبّاس في (قُرَّةِ أَعْيُنٍ): "الأمر في هذا أجلّ وأعظم من أن يُعرفَ تفسيره"(رواه القرطبي). وقال القُرطبي: "وهذه الكرامة إنّما هي لأعلى أهل الجنّة منزلا". وهذا التكريم قُدِّر لهم جزاء لهم على ما كانوا يعملون من الطاعات ومن الصدقات والإحسان، ومن قيام الليل للصّلاة وللدعاء والذكر والتّسبيح. وفي هذه الآية ترغيب في صلاة التّهجّد آخر الليل بعد غفوة من النّوم في أوله.

- أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ (18) :

الإستفهام واضح الدلالة، فإنّه يُفيد عدم التسوية بين المؤمن والفاسق. المؤمن هو العابد المطيع لله عزّ وجلّ، والفاسق هو الخارج عن الدّين والطاعة، فهما على طرفي نقيض.

- أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (19) :

(أَمَّا) هنا للتّفصيل، فالمؤمنون العاملون الصالحات من عبادات وأعمال البرّ يَعِدُهم ربّهم بإيوائهم في بساتين خاصّة للضيافة والتّكريم ثوابا لهم عمّا كانوا يفعلون من الطّاعات. وهذه للتّرغيب في الإيمان وعمل الصّالحات.

- وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (20) :

وأمّا الخارجون عن الدّين والطاعات، وكانوا من أهل الكفر فإقامتهم ستكون في النّار. كلّما حاولوا الإفلات منها أعيدوا فيها قهرا، وقيل لهم تذوّقوا عذاب النّار الذي توعدكم به الله تعالى ورسله فكذّبتم به، وهزأتم به لتعلموا أنّ وعد الله حقّ.

- وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21) :



هذه في وعيد الفاسقين بإصابتهم بمصائب الدنيا في المال، أو الولد، أو الصحة، أو بالأسر، أو الخوف، أو بعضها، مع ما سيلاقون من عذاب أشدّ وأبقى وأعظم في آخرتهم في جهنّم. وقد جاءهم هذا الوعيد لتحذيرهم منه، ولإنذارهم عساهم يتوبون عن فسقهم، وينيبون إلى الله تعالى بالاستغفار فينقذهم ممّا توعدهم به، وينجيهم منه، ويُبْدِلُه بمغفرة ورضوان.

- وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ **(22)** :

وما من أحد من البشر أظلم لنفسه ممن جاءه تذكير من ربّه بوعده ووعيده، ثمّ تولّى عن سماعه عنادا ومكابرة، واِستخفافا به، وأصمّ أذنيه، ولم يخش عذاب ربّه، ولم يشأ أن ينتفع بمواعظ الله جلّ وعلا. قضى الله أن ينتقم من المجرمين الذين أجرموا في حقّ أنفسهم بالشّرك والتّكذيب بالرّسل وبالهزء بالوعيد، وذلك بإيوائهم في نار جهنّم إيواءً لا يخرجون منه.

- وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ **(23)** :

هذه مع الآيتين المواليتين في الإخبار بإتيان موسى الكتاب بمثل ما جاء محمدا صلّى الله عليه وسلّم، وكان من أثر مجيء بني إسرائيل هذا الكتاب أن جعل منهم أمّة يهدون إلى الله، وفي هذا تبشير لأمّة محمد بأن يكون منهم من يهدون بأمر الله عزّ وجلّ إلى الحقّ، وبه يعدلون.

وفي هذه الآية إشكالٌ أغلق على المفسّرين السابقين أن يقولوا فيه قولا بيّنا يُطمأنّ إليه، وذلك بتحديد عودة الضمير الغائب في (مِّن لِّقَآئِهِۦ)، ولذلك أثبت اللفظ على حاله، والله أعلم ببيانه.

والمعنى: ولقد آتينا موسى عليه السلام التوراة من قبلك، فلا تكن في شكّ (مِّن لِّقَآئِهِۦ). وجعلنا هذا الكتاب لبني إسرائيل مصدرا للاهتداء به للدّين الحقّ وللصواب ولشرع الله.

- وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ **(24)** :

وجعلنا من بني إسرائيل أنبياء ورسلا وعلماء ووعاظا يرشدون النّاس للدين القويم بما جاءهم في كتاب الله ويعظونهم للعمل بشرع الله تعالى، وللاتعاظ بمواعظه، وليخشوه، وليطلبوا رضوانه ونعيمه، وقد وُكِل إليهم هذا الأمر حين صبروا على اِضطهاد فرعون وملئه، وعلى تحمّل معاناة التّيه، وتحمّل مشاقّ التّكاليف، وكانوا مصدّقين بوعد الله ووعيده، ومصدّقين بآياته ودلائل وحدانيته وقدرته وفضائله تصديقا ثابتا يقينيا، ويعلمون أنّها الحقّ من ربّهم.

وفي الآية إشارة للمسلمين للصبر على تحمل مشاق التكاليف، وعلى تحمّل أذى المعارضين المعاندين والكافرين ليكون منهم أمّة يهدون للحقّ، وللعمل بشرع الله تعالى.

- إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ **(25)** :

ولكنّهم بعد زمن اِختلفوا فيما بينهم في تأويل شرع الله تعالى وتفرّقوا إلى طوائف، وحرّف بعضهم ما جاءهم في كتاب الله ليشتروا به ثمنا قليلا. قال تعالى مخاطبا المؤمنين ليحذّرهم من

التفرّق في الدين إلى طوائف: (وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (آل عمران الآية 105) والآية هنا تبيّن أنّ الله عزّ وجلّ هو الذي سيحكم بينهم يوم القيامة في اِختلافاتهم التي قسّمت النّاس في عملهم بشرع الله بين مشدّد وبين محلّل، وإنّ الاختلاف في دين الله لا يرضي الله عزّ وجلّ.

- **أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ (26) :**

الخطاب في هذه إلى آخر السورة موجّه لمشركي العرب، وهي في الإنذار والتحذير. والمعنى: أفلا يتعظ هؤلاء المشركون بما حدث للأمم السالفة الذين هلكوا وخُرّبت بيوتهم ولم تبق منهم إلاّ آثارهم ليعتبروا، ليؤمنوا، ويدعوا الشرك، وليكفّوا عن التكذيب والهزء بالوعيد، ولقد مرّوا بقراهم ومشوا فيها وعرفوا ما حدث لمن كان يُقيم فيها. لقد كانت في أخبارهم عبر لمن اِستمع إليها. وَوعاها (أَفَلَا يَسۡمَعُونَ) اِستفهام للتوبيخ والتقريع لأنّهم لا يعتبرون بأخبار أسلافهم.

- **أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۚ أَفَلَا يُبۡصِرُونَ (27) :**

والخطاب في هذه لناكري البعث، والآية توجّههم للنّظر في إحياء الأرض، فبمثل ما يحيي الأرض اليابسة الجرداء التي لا نبات فيها حينما يسوق إليها ماء الغيث من السماء كذلك يحيى الموتى يوم البعث. وإنّهم ليرون تلك الأرض الجدباء قد أخصبت وأخرجت زرعا ليأكلوا منه، ولتأكل منه أنعامهم، فلماذا لا يوقنون بالبعث؟ ولماذا لا يشكرون الله تعالى على فضله؟

- **وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (28) :**

ويقول المكذّبون بوعد المؤمنين بنصرهم على المشركين، وبإظهار الإسلام على دين الشرك متى سيحصل هذا النّصر؟ ومتى سيقع إن كنتم صادقين فيما تُوعدون به؟ وما كان اِستفهامهم إلاّ للتحدّي. ولاستبعاد حصول هذا الإظهار لدينهم على دين الشّرك، والذي عبّرت عنه الآية بالفتح. ولقد تمّ هذا الفتح مبينا تحت أنظارهم وبوجودهم يوم بدر، ويوم فتح مكة، وكان وعد الله حقّا.

- **قُلۡ يَوۡمَ ٱلۡفَتۡحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ (29) :**

وأخبرهم – يا محمد – بأنّه حين ينصر الله المسلمين، ويهزم الكافرين ويعذّبهم بعذاب القتل بسيوف المسلمين، أو بطعنات رماحهم، أو بعذاب الأسر والذلّة، أو بعذاب الهزيمة والإذلال، فيومئذ لا ينفع الكافرين ادّعاؤهم الإيمان ليفلتوا ممّا يصيبهم، ولن يؤخّر عنهم حين يحين موعده. وقيل بأنّ يوم الفتح الحقّ هو يوم القيامة، وعلى هذا يكون المعنى: ويوم القيامة لا ينفع الكافرين

المستهزئين بالوعيد توبتهم وإعلانهم إيمانهم، ولا ينفعهم رجاؤهم بأن يعادوا للدنيا ليؤمنوا ويعملوا صالحا، ويومئذ لا يؤخّرون عن وقوع العذاب الذي يستعجلونه فيهم.

- فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ **(30)** :

الخطاب في هذه الآية للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حتى لا يَأْبَهَ بما يقول المكذّبون به والكافرون به وبما ينزل عليه من الوحي في وعيدهم. والمعنى: لا تجادلهم، ولا تهتمّ بهزئهم، وترقّب ما الله صانع بهم، وترقّب إظهارك وإظهار المسلمين عليهم بالنّصر، وإنّهم سيلاقون شرّ أفعالهم وأقوالهم. ولقد صدق الله وعده، فلمّا هاجر النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة أصاب أهل مكة جدب وأصيبوا بالقحط لسنين عرفوا فيها الجوع والعطش وهلاك بعضهم، ثمّ أصيبوا في بدر بهزيمتهم وقتل بعض زعمائهم من رؤوس الكفر، ثم كان فتح مكة، وصدق وعد الله ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده.

آياتها	ســـــورة الأحـــــــزاب	رقمها
73	ـــــ مكيّة ـــــ	33

سُمِّيت هذه السورة بسورة الأحزاب لما جاء فيها من تذكير المسلمين بفضل الله تعالى عليهم حين اِجتمعت الأحزاب عليهم لمحاصرتهم وقتالهم، فهزم الله الأحزاب وحده، "وكفى الله المؤمنين القتال". ومن الخصائص المميّزة لهذه السورة تشريف الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بأمر المؤمنين بالصلاة والسلام عليه، فيها آيات تدعوهم لطاعته، ولأن يتّخذوه أسوة حسنة لأنفسهم، وفيها ما يرشدهم للتأدّب عند مناداته بصفته، وليس باسمه، وللتّأدّب بأدب مخصوص إذا دعاهم لطعام عنده، وللتأدّب كذلك عند مخاطبة نسائه إذ شرفهنّ الله تعالى بأن رفع منزلتهنّ لأمّهات المؤمنين جميعهم. وفي السورة آية تملأ قلوب المؤمنين طمأنينة بتبشيرهم بأنّه تعالى يصلّي عليهم وملائكته ليخرجهم من الظلمات إلى النّور.

وفي السورة جملة من الأحكام أهمها: إبطال حكم التّبنّي، وعدّة المطلّقة قبل البناء. وإبطال الظّهار، وفرض الحجاب على أمّهات المؤمنين، وأمر المؤمنات بسدل جلابيبهنَّ على صدورهنّ، وختمت السورة ببيان ثقل الأمانة التي يحملها الإنسان في حياته.

وحذّرت السورة من المنافقين، وفيها الكثير من المواعظ للترغيب في الإيمان والإخلاص فيه، وفيها آيات خاصّة بنساء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وآيات للتحذير من خيانة منافقي أهل الكتاب.

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ **(1)** :

الخطاب في هذه الآية مع الآيتين المواليتين للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وفيها إرشاده للتّوكل على الله تعالى في عمله بما يوحي إليه، وللحذر من تغرير الكافرين والمنافقين بما يُظهرون له من النّصح. ولئن كان الخطاب موجّها خصوصا للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلاّ أنّ كلّ مؤمن معني به وخاصّة إذا كان مسؤولا عن أمّة، أو كان زعيما.

والمعنى: يا نبيّ الله (ٱتَّقِ ٱللَّهَ) أي داوم على العمل بأمر الله وطاعته، هو خير لك، وأنفع. ولا تسمع لنصح الكافرين والمنافقين من أهل المدينة فإنّهم لا يريدون لك ولأتباعك ولهذا الدين خيرا. إنّ الله تعالى يعلم ما تضمره نفوسهم، وما تخفيه نواياهم من الكيد لك، والله حكيم في تدبير ردّ كيدهم، وفي تدبير فضح نواياهم وأسرارهم، وتدبير حفظ المؤمنين من مكائدهم.



- **وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا (2) :**

واصل في تبليغ دعوتك، وتنفيذ ما تؤمر به، وقد جاءه في الوحي قوله تعالى (إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ)(المنافقون الآية 1)
وجاء في نفس هذه السورة (وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ)(المنافقون الآية 4).
إنّ الله سبحانه مطّلع اطلاعا تامّا ودقيقا على كلّ ما تعملون، وما تضمرون في أنفسكم فاحذروه.

- **وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا (3) :**

وفَوّضْ أمرك إلى الله فسيحميك من كلّ مكروه، ومن كلّ ما يدبّرون لك وللمؤمنين، وكفاك الله حفيظا لك وللمؤمنين، وهو حسبك.

- **مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ(4):**

في هذه الآية حكمان شرعيان: الأوّل في إبطال الظّهار. والظهار أن يقول الرجل لزوجته: أنتِ عليَّ كظهر أمّي ليحرّمها عليه، وبهذا لا تكون طليقة لتتحرّر منه، وليَحْرِمَهَا من حقّها في النفقة والمُتْعة، وليحرمها من حرّيتها في نفسها فتتزوّج بغيره، فلا هي حرّة ولا هي مطلّقة ولا هي متزوّجة، وهذا نوع من القهر وإذلال الزّوجة بحرمانها من حقوقها، وهو من أعظم الظلم.

وأمّا الحكم الثاني فبإبطال التبنّي. فليس الذي ينسب للإنسان من ولد لم يُنجب من صلبه ومن رحم زوجته وَلَدًا لَهُ بقوله. هذا قول بالفم الذي لا يجوز أن يحمل محمل الجدّ، أو يتَرَتَّب عليه ما تقتضيه البنوّة من الأحكام من مثل الميراث وغيره. يجب أن ينسب كلّ مولود لوالديه، هذا هو القول الحقّ الذي يأمر به الله، والله يهديكم بهذين الحكمين الشرعيَين إلى الحقّ، وإلى الصواب، وإلى السبيل القويم الذي ليس فيه ظلم ولا قهر، وليس فيه نسب باطل غير نسبة الولد لوالديه.

أمّا ما جاء في أوّل الآية (مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦ) فقد ورد لإبطال مُعتَقَدٍ واهٍ كان يتوهّمه بعض العرب حين يتأرجح معتقدهم بين الإيمان تارة والحنين للشرك أو لعمل من أعمال الكفر تارة أخرى، فظنّوا الظنّ الخاطئ بأنّ للإنسان قلبين في جوفه، وكذا فسّروا نفاقهم. وبهذه الثّنائيّة يفسّرون إعطاء العهد للعمل بأمر، ثمّ يظهر لهم أن ينقضوه بعمل غيره على عكسه وبخلافه، فجاءت هذه الجملة بإخبارهم بأنّ الله عزّ وجلّ لم يجعل لرجل من قلبين في جوفه. إنّ الله قد خلق في الإنسان قلبا واحدا. إمّا أن يكون الرّجل مؤمنا، أو أن يكون كافرا، أو أن يكون منافقا في معتقده، أمّا القلب في جوفه فواحد، وليس أكثر، ولا مبرّر للنّفاق ولا للتّحلّل من العهد ونقضه.

- ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾(5) :

هذه في مسألة معالجة ما كان قد حصل في أمر التّبنّي الذي نزل الحكم بإبطاله. إذا كان الطفل الذي تمّ تبنّيه معروف الأب، فيجب أن يردّ نسبه إلى أبيه. لقد كان لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم خادما أهدته له خديجة رضي الله عنهما وكان اِسمه: زيد، كان مَسْبِيًا من الشام، سبَتْهُ خيلٌ من تِهامة، فابتاعه حكيم بن حزام بن خُويلد، فوهبه لعمّته خديجة، فوهبته خديجة للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فأعتقه، وتبنّاه، فأقام عنده مدّة، ثمّ جاء عمه وأبوه يرغبان في فدائه، فقال لهما النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وذلك قبل بعثته: "خَيِّرَاهُ، فإن اِختاركُما فهو لكما دون فداء". فاختار زيد أن يكون مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وهذا قبل البعثة– فقام الرّسول صلّى الله عليه وسلّم عند ذلك فقال في قومه: "يا معشر قريش اِشهدوا أنّه اِبني يرثني وأرثه". فرضي عمّه وأبوه ذلك، واِنصرفا، فصار يسمّى: زيد بن محمد، فلمّا نزلت هذه الآية وأبطل الله التّبنّي صار يدعى باسم أبيه: زيد بن حارثة.

وبيّن الله تعالى في ردّ الطفل إلى نسبة أبيه بأنّه هو الأعدل عند الله، فإن لم يكن للطفل أب معروف نسبوه إلى ولائه، ويقال له: يا أخي، والأخوة هنا في الدّين. ويكون هذا الذي لا يحمل نسب أبيه لأنّه يجهله فإنّه من أتباع القوم، ولا يجوز إهماله ويرفع الحرج عن الذي ينادي أحدا باسم متبنّيه إن لم يكن يقصد إيذايته، وإذا كان هذا من فرط لسانه. فلم يكن يعرف الصحابي "المقداد" إلاّ باسم المقداد بن الأسود، ذلك لأنّ الأسود بن عبد يغوث كان قد تبنّاه في الجاهلية، وعُرف المقداد بهذا الاسم، وكان ينادى به رغم أنّه بعد نزول هذه الآية يقول: أنا ابن عمرو، ولكنّ النّاس ظلّوا لا يعرفونه إلاّ بالمقداد بن الأسود، وكذلك الصحابي سالم مولى أبي حذيفة، كان ينادى وكان يعرف باسم سالم بن أبي حذيفة. ولكن إذا تعمّد المرء مناداته باسم متبنّيه وهو يعرف اِسم أبيه، وذلك لهمزه ونبزه، وتذكيره بما كان عليه لتحقيره، فإنّ هذا ممّا ينهى عنه الله تعالى، ويؤاخذ عليه صاحبه. (وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡ) أي ويؤاخذكم الله بعد هذا الحكم بإبطال التبنّي إذا قصدتم التبنّي وعزمتم عليه بعد إذ جاءكم هذا الحكم. وكان الله غفورا رحيما فيما كنتم قد قصدتموه في تبنّيكم لأطفال نسبتموهم لأنفسكم، وهم من غير نسلكم، ثمّ تراجعتم فيه وأصلحتم نسب الأطفال الذين وقع تبنّيهم. وإنّ تشريع التبنّي في بلادنا، وإقراره في قضائنا المدني في أحوالنا الشخصية يُعَدُّ خطأ متعمّدا لا يُبيحه الله، ولا يُجيزُه ما جاء في هذه الآية من إبطال ما كان معمولا به ومجازا في الجاهلية. أعَوْدَةٌ للجاهلية بعد أن هدانا الله لما هو أقسط عنده وأعدل؟



وقد جاء في الحديث النّبويّ ما يرغّب المُتَبَنَّى لأن ينسب نفسه لأبيهِ – إذا كان يعلمه – خير له من يدّعي نفسه إلى غير أبيه لخير يريده أو لشرف النّسب، وذلك بتحذيره من سوء العاقبة، وذلك في قوله صلّى الله عليه وسلّم: "من ادّعى إلى غير أبيه – وهو يعلم – فالجنّة عليه حرام" (رواه البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود وابن ماجه عن سعد بن أبي وقّاص، وأبي بكر، وهو حديث صحيح)، وجاء في شرح هذا الحديث "أن التحريم خاصّ بجنّة معيّنة كجنّة عدن، أو الفردوس، وقد ورد الحديث على صيغة التّخويف والتغليظ" (أنظر فيض القدير للمناوي، ج6 ص 45 – الحديث عدد 8370).

- ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا **(6) :**

ذكر القرطبي وغيره من المفسّرين أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان لا يصلّي على ميّت عليه دَيْنٌ، فلمّا فتح الله عليه الفتوح قال: "أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفّي وعليه دَيْن فَعَلَيَّ قضاؤه، ومن ترك مالاً فَلِوَرَثته". وجاء هذا في صحيحي البخاري ومسلم. (أنظر الجامع لأحكام القرآن ج 14 ص 122).

وفي هذه الآية تشريف لنساء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ورضي الله عنهنَّ بأن جعلهنّ أمهات للمؤمنين من باب التكريم والتشريف ولتحريم التزوّج بهنّ بعد الرّسول صلّى الله عليه وسلّم.

وأمّا قوله تعالى (وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗا) فهو حُكم ناسخ لما كان يجري بين المؤمنين الذين هم الأنصار، والمهاجرين. لمّا آخى الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بينهم حين هاجر إلى المدينة جعل بعض الأنصار لإخوتهم المهاجرين نصيبا من ميراثهم، فجاءت هذه الآية لنسخ ما كانوا يفعلون، فبيّنت أنّ الإرث بالقرابة، لا بِألْحِلفِ، فتركوا الوراثة بالحلف وصارت الوراثة بالقرابة، إلاّ إذا كانت هناك وصية من باب الإحسان لمن يستحقّ المعونة والسَّنَد، فهذا جائز.

(كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا) أي هذا هو الحكم المكتوب والمسطّر في اللوح المحفوظ وفي شرع الله عزّ وجلّ.

- وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا **(7)** لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا **(8) :**

الآيتان في التّصديق برسائل جميع الأنبياء، وفي الالتزام بتبليغ الرّسالة. والمعنى: وإذ أخذنا العهد الموثق والمؤكّد من جميع الأنبياء، ومنك يا محمد ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم لأنّ يبلّغوا رسالة ربّهم إلى أقوامهم. وقد تقدّم ذكر محمد صلّى الله عليه وسلّم على الأنبياء



الأربعة الذين ذكروا بعده تشريفا له، وتكريما. وقد جرى ذكر هؤلاء الخمسة لأنّهم من أولي العزم، أو لأنّهم أصحاب كتب وشرائع ربانية.

وسيسأل الصادقين: وهم الرّسل، ومن بعدهم العلماء والوعّاظ عن تبليغ رسائل ربّهم إلى أقوامهم، وذلك لإشهادهم على من كفر من أقوامهم لتوبيخهم ولإقامة الحجّة والشهادة عليهم، وقد أعدّ الله تعالى لمن كذّب برسله، وأعرض عن العمل بشرعه، ولمن هزأ بوعده ووعيده عذابا موجعا. وهذه كقوله تعالى (شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ)(الشورى الآية 13) وكقوله عزّ وجلّ (فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ)(الأعراف الآية6).

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا **(9)** :

هذه الآية إلى غاية الآية 27 في غزوة الأحزاب أو غزوة الخندق. ولا يمكن فهم هذه الآي بدون الرّجوع إلى كتب السيرة النبويّة للبحث فيها لمعرفة أسباب وقوعها ودوافعها ومجريات أحداثها (أنظر كتابتنا في السيرة النبويّة: رسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم ص 305 – 339). ولقد جرت أحداث هذه المعركة بين سنتي الرّابعة والخامسة للهجرة بإيعاز من يهود بني النّضير الذين ألّبوا جماعة من عدّة قبائل من مشركي الأعراب مع مشركي مكّة وحزّبوهم على قتال المسلمين بالمدينة للفتك بهم، ولإخراجهم منها، وتآمروا مع غطفان على غزو المدينة، فخرجت قريش مع الأحابيش وبنو كنانة في عشرة آلاف مقاتل وخرجت معهم هوازن في ألف مقاتل، وكانوا قد قرّروا أن يغزوا المدينة على حين غرّة. ولقد بلغ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم العلم بخروجهم قبل أن ينظّموا صفوفهم، أبلغته بهذا الأمر قبيلة خزاعة التي رفضت مشاركتهم في هذا التحزّب. اِستشار الرّسول صلّى الله عليه وسلّم أصحابه في الأمر فأشار عليه سلمان الفارسي بأن يحفر خندقا يحيط بالمدينة، ولم يكن للعرب عهد بهذا الفنّ في حماية المدن من قبلُ. ولهذا عرفت هذه الغزوة بغزوة الخندق. وحُفر الخندق بسرعة، وبكلّ عزم وجدّية، فلمّا قدمت جيوش المشركين، ونصبوا خيامهم أسفل الوادي من الجهة الغربية للمدينة، واِنتصبت غطفان وهوازن من أعلى الوادي من جهة المشرق إلى جانب جبل أُحد، وكان اليهود داخل المدينة في حصونهم، فأحاط أعداء المسلمين بهم إحاطة تامّة من الداخل والخارج، وكان المسلمون قد خرجوا سرّا خارج المدينة وعسكروا تحت جبل سلع وجعلوا ظهورهم إلى الجبل، وجعلوا الخندق المحفور بينهم وبين أعدائهم فاصلا وحاجزا.

وجعلوا نساء المسلمين، ومعهنّ ذرّياتهم في مرتفعات المدينة، وقد أَمَّرَ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم عليهم الرجل الكفيف عبد الله بن أبي مكتوم. وحوصرت المدينة بضعا وعشرين ليلة



لم تكن فيها حرب إلاّ محاولة واحدة من ثلاثة فرسان من المشركين حاولوا تجاوز الخندق واِختراقه من جهة ضيّقة فقتل عليّ أحدهم، وفرّ الآخران، ولمّا اِشتدّ الأمر على المسلمين بهذه المحاصرة أرسل الله ريحا شديدة فأقلعت خيامهم، وقلبت قدورهم، وأطفأت نيرانهم، واختلّ أمرهم بذهاب مؤنتهم، وحدث تخاذل بينهم وبين يهود بني قريظة، واِنزعجوا من طول الحصار، فقرّروا أن يرتحلوا، فارتحلوا دون أن يحقّقوا غرضهم، ودون أن ينالوا من المسلمين شيئا وكفى الله المؤمنين القتال.

وفي الآيات الواردة في هذه الغزوة تفاصيل أخرى تفيد بأنّ النّصر كان من عند الله ليقويّ شوكة المسلمين، وبعد هذه الغزوة اِشتدّ عود المسلمين وصاروا شوكة وكسرت شوكة المشركين.

والمعنى: يا أيّها الذين آمنوا أُذكروا فضل الله عليكم إذ حاصرتكم جيوش الأحزاب من المشركين يوم الخندق مع تأييد من يهود بني النّضير، وبتأليب منهم، فحاصروكم من كلّ جانب، فأرسل الله عليهم ريحا عاصفة أفسدت خيامهم، وأهلكت مواشيهم، وأفسدت عليهم محاصرتهم، وأرسل عليهم جنودا من عنده أرهبوهم وأخافوهم، وكان الله عليما بما عملتم، وكان عليما بحالكم وبصيرا.

- إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ **(10)** :

واذكروا إذ حاصروكم من أعلى الوادي جهة جبل أُحد مشرقا، وعند أسفل الوادي غربا، وإذ شخصت أبصار المسلمين من الخوف والفزع على أنفسهم لمّا رأوْا عددهم وعدّتهم، حتى وصلت القلوب للحلوق من اِضطرابها ومن شدّة الخوف من الهلاك، وقد شكّ بعضهم في وعد الله تعالى بالنّصر، وكان الوضع مخيفا ومهيبا ومفزعا.

- هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا **(11)** :

في ذاك الموقف أُمتحن المؤمنون اِمتحانا في صبرهم، وفي ثباتهم عند المُواجهة، وفي صدق إيمانهم بوعد الله تعالى، واضطربوا اِضطرابا شديدًا بالفتنة.

- وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا **(12)** :

وأُذكروا إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض – وهم الذين يقولون آمنّا بأفواههم ولم يدخل الإيمان في قلوبهم، والذين يحسدون المسلمين على ما هم عليه من اِنضباط في طاعتهم لله ولرسوله – لقد أغرونَا بالنّصر ووعدونا به، وما كان هذا الوعد إلاّ من التّغرير لجرنا للخروج معهم. ولقد خرجوا مع الرسول ومع المؤمنين طمعا في الغنائم، فلمّا خافوا على أنفسهم وزلزلوا ندموا على الخروج نصرةً لدين الله، وهذا هو النفاق بعينه، وهذا مظهر من مظاهر مرض القلب.



- وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا **(13)** :

جاء في خبر الحادثة في السيرة النبويّة أنّ جماعة من المنافقين وعلى رأسهم زعيمهم عبد الله ابن أبيّ بن أبي سلول، ومعه أوس بن قَيْظي من بني حارث من سكّان المدينة قالوا لجماعة من الأنصار من ذويهم: ما الذي حملكم أن تخرجوا مع هؤلاء في قتال عشائرهم؟ وأن تقاتلوا قوما ليس بينكم وبينهم عداوة ولا عهد ولا ثأر، اِرجعوا لبيوتكم وأهليكم وأعمالكم. وكانوا قد قصدوا إحباط عزائم الأنصار، وإضعاف المسلمين بخروج الأنصار، وإرباك صفوفهم، ولعلّهم قصدوا إفساد المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار التي حقّقها الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بينهم.

أمّا يثرب فكانت اِسما للمدينة نسبة لأحد العمالقة الذي سكنها قديما وكان اِسمه يثرب، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يحبّ تسميتها "طابة". وسمّاها الله تعالى في كتابه في أربع عشرة آية "المدينة" فصارت تعرف بهذا الاسم دون غيره من الأسماء.

ومعنى الآية: وأذكر إذ عمد فريق من المنافقين والذين في قلوبهم مرض أن يحبطوا عزائم جماعة من الأنصار ممن خرجوا للقتال في جيش المسلمين فقالوا لهم: يا سكّان يثرب ما الذي يحملكم على قتال قوم ليس بينكم وبينهم عداوة ولا ثأر، وليس بينكم وبينهم صلة، عودوا لدياركم وأهليكم وأعمالكم. ولقد سمع لهم جمع من المرتبكين والخائفين فراحوا للرّسول صلّى الله عليه وسلّم يستأذنونه للرّجوع إلى ديارهم متعلّلين بأنّهم قد تركوا بيوتهم بدون تحصين، وبأنّهم يخافون عليها من السطو وسرقة أمتعتهم والعبث بها، ولم تكن بيوتهم عورة على نحو ما ذكروا، ولكنّهم كانوا يريدون الهروب من المواجهة، ومن القتال.

- وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا **(14)** :

هذه من الإعلام بالغيب. وبيانُها أن لو هوجمت المدينة من جميع الجهات والجوانب وحصلت الغلبة للمشركين الغازين، ودعا الغزاة الغاصبون هؤلاء المنافقين والذين في قلوبهم مرض لإعلان الكفر ولقتال المسلمين لاستجابوا لدعوتهم، وما تأخّروا في قتال المسلمين عن طيب نفس. إنّهم لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

- وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا **(15)** :

ولقد كانوا قد عاهدوا الله تعالى ورسوله أن ينصروا المسلمين، وأن يقاتلوا معهم، وبأن لا يخذلوهم عند المواجهة بالفرار منها، أو أن يتخلّفوا عن القتال. وإنّ العهد الذي يعاهد به المؤمن ربّه عهد ملزم للوفاء به، ومن نقضه سئل عند يوم القيامة، ومن سئل عن الخلف عن وعد الله عُذِّب.

وفي هذه الآية إشارة لما كانوا قد عاهدوا الله تعالى عليه ورسوله بعد غزوة أُحُد التي غادروها بعد أن خرجوا إليها، وتركوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يدعوهم للثّبات وللقتال، فلم يسمعوا له، وهربوا جبنًا، ثمّ بعد الواقعة وحين اطمأنّت المدينة عاهدوا الرّسول صلّى الله عليه وسلّم أن لا يتركوا غزوة بعدها. (أنظر غزوة أُحد في كتب السيرة النبويّة).

- **قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (16) :**

هذه في موعظة الهاربين من القتال خوفا على أنفسهم من الموت قتلا ليعلموا أنّ الموت بالأجل. والمعنى: أخبرهم أنّ الهروب من المشاركة في القتال لا ينفعهم للهروب من الموت أو القتل، وإن هربوا من المُواجهة فإنّ الموت آتيهم حتما حين يحضرهم الأجل، وإنّ تمتّعهم بالحياة بعد فرارهم من المواجهة لا يطول.

- **قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (17) :**

نبّهْهُم إلى أنّه لا أحد يقدر لهم على شيء ليردّ عنهم عقاب الله تعالى إن أراد عقابهم، ولا أحد يردّ عنهم رحمة وفضلا وسلامة ومنعة ونصرًا إن شاءها الله لهم. قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في موعظة له لابن عباس: "واِعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليُخْطِئَك، وما أخطأك لم يكن ليُصيبك..." وإنّهم لا يجدون أحدا غير الله سبحانه كافلا لهم، ومعتمدا، وناصرا، فليتوكّلوا على الله تعالى وليدعوه لينصرهم، وليخلصوا له في مواجهتهم لأعدائهم الكافرين، والقصد من هاتين الموعظة: هذه وسابقتها دعوة المؤمنين للثبات عند المُواجهة، وألاّ يجبنوا أو يخذلوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والصادقين من المسلمين، وأن يحسنوا توكّلهم على الله عزّ وجلّ، وأن يحسنوا الظنّ بوعده.

- **قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (18) :**

(قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ) لا يفيد هذا التركيب الظنّ، كما يقال في كتب النحو المدرسية بأنّ دخول (قد) على الفعل المضارع يفيد الشّكّ والظنّ. علم الله ليس فيه شكّ ولا ظنّ، وإنّما هو أمر يقيني. وهذا التّركيب في لغة العرب الحجازيين يفيد اليقين والتّحقيق كقوله تعالى(قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ)(النور الآية 64) وقد يفيد هذا التركيب الكثرة كقوله تعالى (قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ)(البقرة الآية 143). وقولنا: "قد يفيد" لا يفيد الشّكّ والظنّ، ووجب هذا التّنبيه حتى لا يقع الدارسون في الخلط في علم الله تعالى. ومعنى الآية: إنّ الله تعالى يعلم ما يفعله المثبّطون للهِمَمِ والعزائم في أوساط الأنصار الذين هم حديثو العهد بالإسلام ولمّا يتمكّن الإيمان في قلوبهم تمكّنا يقينيا ثابتا، وما يقولونه لهم ليصدّوهم عن مشاركة المسلمين في الخروج معهم للقتال دفاعا على إخوانهم، ونصرةً لدين الله

ولرسوله: تعالوا إلينا، وابقوا معنا بالمدينة حتى لا تهلكوا باتّباعكم محمدا صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه، ولا تخرجوا للحرب والقتال، وإنّهم لا يخرجون للقتال إلاّ نادرا.

- أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (19) :

لا تطمئنّوا لهؤلاء المنافقين ولا للذين في قلوبهم مرض، ولا تعتمدوا عليهم في شيء، ولا توكلوا إليهم أيّ أمر، فإنّهم بخلاء، ولا يحبّون أن ينفعوكم بشيء، ولا بنفقة لتجهيز جندكم للقتال بالسلاح أو بالمؤونة. وإذا نشبت حرب، وبرزوا للقتال ظهر عليهم سريعا الخوف والفزع كأنّ غاشية من غاشيات الموت قد أحاطت بهم وكأنّهم يعالجون سكرات الموت وذلك من خوفهم على أنفسهم من القتل والهلاك حبّا في الحياة، حتّى إذا اِنكشفت الحرب وتوقّف القتال آذوكم بكلامهم الحادّ، وبألسنتهم السليطة، لا يصل لغيرهم منهم نفعٌ ولا خير من شدّة شحّهم وحِرْصهم. أولئك لم يدخل الإيمان في قلوبهم، لذلك فإنّ أعمالهم في الطاعات التعبدية الظاهرة محبطة غير مأجورين عليها: وهذا من يسير الأمر على الله عزّ وجلّ لأنّه سبحانه لا يقبل من الأعمال إلاّ ما كان خالصا له عن إيمان صادق يقيني.

- يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (20) :

ومن غريب أمر أولئك المنافقين أنّهم لم يتفطّنوا لاِنْصراف الأحزاب حين تأذّوا بالرّيح فجمعوا أمرهم وغادروا أماكنهم، وفكِّ الحصار، ورجعوا دون أن ينالوا من المسلمين ما كانوا قد عزموا عليه من الفتك بهم فاستمرّوا في تثبيط عزائم الموالين لهم ليرجعوا للمدينة لديارهم. (وَإِن يَأْتِ ...) أي وإن يرجع إليهم الأحزاب ثانية يتمنّوا من جبنهم، ومن خوفهم على أنفسهم، ومن خوفهم من القتال لو كانوا من سكّان البوادي الخارجين عن المدينة، البعيدين عنها حذرا من القتل، وتربّصا للدوائر. ويسأل الذين لم يحضروا الأحزاب عن أخبار الأحداث: أما هلك محمد وأصحابه؟ أما غلب أبو سفيان وأصحابه؟ يسألون عن أخبار المسلمين –وهم في أطراف المدينة– متمنّين هزيمة المسلمين، ولو خرج هؤلاء في جند المسلمين ما رَمَوْا بنَبْل أو بحجارة إلاّ قليلا للرّياء ودفعا للملامة.

- لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (21) :

الخطاب في الآية للمؤمنين الذين يخرجون مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم للقتال لحضّهم على الاقتداء به صلّى الله عليه وسلّم في ثباته عند مواجهة الأعداء، وفي صبره، وفي حسن ظنّه بالله تعالى ووعده بنصر المؤمنين. والمعنى: لقد كان لكم في ثبات رسول الله عند خروجه

لقتال الأعداء قدوة حسنة. كان صابرا محتسبا متوكّلا على الله تعالى، وواثقا بربّه. فلْيَقْتَدِ به في إيمانه بصدق وعد ربّه، وفي عبادته، وفي عمله الصالح كلُّ من يرجو رضوانَ ربّه، ويرجو نعيمَ الآخرة، وكلُّ من يحبّ ذكر ربّه ويسبّح له كثيرا بالغدوّ والآصال. ولئن كانت هذه الآية خاصّة بالمؤمنين في زمن البعثة إلاّ أنّ العبرة بعموم اللفظ. وفي عموم الآية دعوة عامّة لجميع المؤمنين ليتّخذوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في عبادته وفي عمله الصالح وفي صبره وفي أخلاقه السّمحة وفي سلامة قلبه ونقاوة سريرته وفي خصاله الحميدة قدوةً حسنةً، إنّه من عباد الله المصطَفين الأخيار، وإنّ الاقتداء به في عبادته وعمله وخصاله ممّا يُتَقَرَّبُ به إلى الله عزّ وجلّ، وممّا يُؤَمَّلُ في الحشر في زمرته يوم الدّين فيكون من الفائزين بفراديس الجنان، والله عنده حسن الثواب لمن أطاعه وأطاع رسوله واتّخذ رسوله أسوة حسنة له.

وقال الفقهاء في اتّخاذ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أسوة حسنة في عبادته هو أمر واجب، وقالوا في اتّخاذه أسوة حسنة في عمله أمرًا مندوبًا.

- وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا **(22) :**

هذه في بيان موقف المؤمنين الصادقين عند خروجهم لصدّ هجوم الأحزاب على المدينة، وذلك في مقابلةٍ لموقف المنافقين والذين في قلوبهم مرض. لمّا رأى المؤمنون جموع حشود جند المشركين الذين اِجتمعوا مع الأحابيش لقتال المسلمين قالوا هذا ما أخبرنا به الله ورسوله من لقاء الكافرين لإظهار دين الله الحقّ على الباطل، وصدق الله ورسوله فيما وعد الله بإظهار دينه على الدّين كلّه، وما زادهم الحصارُ وشدّةُ الموقف والإصابةُ بالجوع إلاّ تصديقا بوعد الله تعالى بالنّصر، واِستسلموا لقضاء الله تعالى وتدبيره.

- مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا **(23) :**

هذه في الثناء على المؤمنين الذين ثبتوا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في غزوة الأحزاب، لقد صدقوا في الإيفاء بعهدهم مع ربّهم في نصرة دينهم بالصبر على الأذى، وعلى الجوع، وعلى المرابطة حول الخندق حماية للمدينة وأهليها، وعلى الثّبات على طاعة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعلى الاستجابة لدعوتهم حين دعاهم للجهاد. من هؤلاء من مات شهيدا، وأوفى بواجبه في الجهاد في سبيل الله، ومنهم من هو مرابط، وثابت في جهاده، ويترقّب الفراغ من الوفاء بعهده مع الله، (وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا) أي وما تخلّفوا عن اِلتزامهم بما عاهدوا الله ورسوله عليه، وما غيّروا فيه شيئا.



- لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا (24) :

والله تعالى يَعِدُ هؤلاء الصادقين بحسن الثّواب وجزيل الأجر جزاء اِلتزامهم بما عاهدوا الله عليه وبوفائهم به، ويتوّعد المنافقين بالعذاب إن شاء أن لا يوّفقهم للتوّبة، وإن لم يشأ أن يعذّبهم وفّقهم للتّوبة فتابوا قبل الموت. إنّ الله كثير المغفرة لمن تاب وأحسن عملا وهو تعالى كثير الرحمة بعباده المؤمنين العاملين الصالحات. وقد وفّق تعالى جمعا من الذين خرجوا مع جيوش المشركين في غزوة الأحزاب للتّوبة، فأسلموا، ثمّ أبلوا بلاءً حسنا في نصرة دين الله.

- وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا(25) :

هذه في نصرة الله تعالى للمؤمنين في هذه الغزوة. لقد أرجع الله تعالى كفّار قريش والذين تحزّبوا معهم من الأحابيش إلى قراهم وديارهم منهزمين في غضب وحنق لأنّهم لم يحصلوا على شيء من مرادهم، فماذا سيقال في عودتهم غير غانمين بعد خروجهم في جمعهم الحاشد؟ خرجوا للقتال فلم يقاتلوا، وخرجوا ليغنموا فلم يغنموا، وخرجوا لينتقموا فما اِنتقموا. تحمّلوا كلفة الإنفاق، وتجشّموا صعوبة التّرحال، وأطالوا مدّة الحصار والغياب عن أهليهم ثمّ عادوا كما خرجوا، لذلك كان غيظهم على أنفسهم وعلى فضيحتهم شديدا. ووفّرَ الله على المسلمين مشقّة القتال، ووفّر لهم عددهم وعدّتهم، وصرف عنهم الأحزاب من غير جُهد. والله سبحانه قويّ بقدرته، غير محتاج لعباده لينصر دينه وليظهره، وهو تعالى عزيز لا يُغلب، ولا يردّ أمره.

- وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا (26) وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا (27) :

وأخرج الذين عاونوا المشركين والمتحزبين معهم من حصونهم ومعاقلهم. والمقصود بهؤلاء هم يهود بني قريظة، فقد كان زعيمهم حُيَي بن أخطب من بني النّضير منضمّا إليهم، وهو الذي حرّض أبا سفيان على غزو المدينة. فلمّا صرف الله الأحزاب أمر رسوله أن يخرج إلى قريظة الذين أعانوا المشركين في حصارهم للمدينة، وكانت منازلهم وحصونهم بالجانب الشرقي من المدينة، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد عاد إلى المدينة من الخندق ظُهرا وكان بصدد الاغتسال وكان ينوي الاستراحة، فجاءه الوحي بأن يخرج إلى قريظة فنادى في النّاس أن لا يصلي أحدكم العصر إلاّ في بني قريظة، وخرج الجيش إلى قرية قريظة وحاصرها، واِستعصم أهل القرية بحصونهم مدّة عشرين ليلة، فلمّا أجهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرّعب،



وخافوا أن يقتلوا ويُسْتأصلوا، واِنهارت معنوياتهم خرجوا مذعورين تاركين وراءهم حصونهم وديارهم وأموالهم وسلاحهم (أنظر كتابنا رسالة محمد ص 336 – 339).

وقد قُتل من أهل الكتاب من بني النّضير ومن بني قريظة من قتل، وأسرت نساء وأطفال منهم. وأورث الله تعالى المسلمين مع الحصون والديار أرضهم التي لم يكن أحد منهم يدخلها ويطؤها، وأرضا أخرى من أملاكهم لم يدخلها أحد منهم من قبل، فتحها الله عليهم بما قذف في قلوب المتآمرين عليهم من أهل الكتاب من الرعب، ووهبها لهم بغير قتال، وكان الله تعالى على كلّ شيء قدير، لا يعجزه أيّ أمر ولا يعجزه فتح المدائن، وإظهار دينه من غير قتال.

وهكذا اِنقلب الحال على مشركي مكة، وسكّان البوادي من الأحابيش، رجعوا لديارهم خائبين لم ينالوا خيرا، وإنّما أصابتهم ريح قلعت أوتاد خيامهم، وطمست أعينهم بالتراب، وماحت الخيل بعضها ببعض فهلك كثير منها، وكانوا قد خسروا إبلا ومواشي لطعامهم. وفي المقابل فكّ الحصار على المسلمين، وكفاهم الله القتال، فعادوا لديارهم آمنين لم يصبهم سوء، وإن كان قد أضرّهم الحصار بالجوع، وطال بهم السهر في رباطهم، وعرفوا شدّة وعسرا في تلك الأيّام، ولكنّ خيبة المشركين في عودتهم لديارهم لم ينالوا خيرًا سَلَتْ قلوبهم، وفرحوا بنصر الله حتى قال الرسول صلّى الله عليه وسلّم: "نُصرت بالصَّبَا، وأُهلكت عاد بالدَّبُور"(أخرج البخاري) لقد كان ريح الصبا وراء ظهور المسلمين ومقابلا لوجوه الكفار فكانت ريح نصر ورحمة للمسلمين.

وزادهم الله تعالى من فضله فقد أرسلهم إلى المنافقين الذين ألّبوا المشركين عليهم، بني قريظة، فلم يرحلوا عن القرية حتى أورثهم الله تعالى حصونهم وديارهم وأموالهم وأرضهم فحقّق لهم غنائم كثيرة مع ما حققه لهم من إظهارهم على أعدائهم، ومن الأمن على حياتهم وأهليهم فكُتب لهم نصر آخر أنساهم ما لقوه من شدائد، وعلموا أنّ وعد الله حقّ، واِزدادوا مع إيمانهم إيمانا، وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في الحادثة مع بني قريظة: "نُصرت بالرعب".

وبدأت مع هذا النصر بشائر إظهار دين الله على الدين كلّه، وأذْنَت دولة الشرك إلى الأفول والهزيمة،وبدت بشائر الفتح المبين وظهور شوكة المسلمين التي قويت بتأييد من الله تعالى ونصره.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا **(28) :**

هذه الآية إلى الآية 34 في أحكام خاصّة ببيت النّبوّة بما يناسب مرتبة النّبوّة. وهذه الآية مع الآية الموالية في تخيير نساء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بين السّراح مع التمتيع بما يرغبن من الرّفاه أو البقاء في بيت النّبوّة على الشظف. وهذا لأنّه لمّا فتح الله تعالى على المسلمين أرض بني النّضير، ثمّ أرض بني قريظة وأموالهم وديارهم كسبوا غنائم وفيرة، ووسّع الله عليهم في



الرزق، فوسّعوا على أهليهم وعيالهم، ولم يكن لأزواج النّبيّ نصيب في هذه التوسعة. ورُوي أنّ بعض نساء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قد سألنه أشياء من زينة الدنيا، والاستكثار من النّفقة.

فنزلت هذه الآي لتخييرهنّ بين سراحهنّ وتمتيعهنّ بما يسألن من متاع الحياة الدنيا، أو أن يلزمن بيت النّبوّة فيكون لهنّ المقام العظيم اللاّئق بأزواج النّبيّ، وأن يتَعَلَّقْن بسيرة الصالحات، وقد اِخترن البقاء في بيت النّبوّة وشرّفهنّ الله تعالى بتسميتهنَّ أمهات المؤمنين.

ومعنى الآية : يا أيّها النّبيّ نادِ نساءك وخيّرهنّ بين أمرين: إذا كنّ يردن الحياة الدنيا وزينتها ومتاعها فأجب رغبتهنّ، أعطهنَّ ما يطلبن من نفقة وتوسعة جبرًا للخاطر، وطلقهنّ طلاقا بالمعروف وبالإحسان، وطلاقا دون كراهية أو غضب، فإنّ الأمر مُفَوَّضٌ إِلَيْهِنَّ.

- وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا **(29)**

وإذا كُنَّ يرغبن في بيت النّبوّة ويرغبن فيما عند الله تعالى في الآخرة، وشرف الانتساب لبيت النّبوّة على المتعة والسراح فإنّهنّ يظللن زوجات للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وإنّ الله تعالى يبشّر المحسنات منهنّ بالثواب الجزيل والأجر العظيم. وقد خيّرهن الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بين الأمرين فاخترنه على السراح والتّمتّع بالحياة الدنيا، ورضين بشظف العيش قانعات بما يجدن.

- يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا **(30)** :

هذه في ترغيب نساء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم للاستقامة على دين الله وفضائله وعلى العمل الصالح، وذلك بتحذيرهنَّ من إتيان المعصية. لفظ الفاحشة إذا جاء معرّفا دلّ على الزّنى، وإذا جاء في صيغة التنكير على نحو ما جاء في هذه الآية يدلّ على أيّ معصية، ولا يدلّ على الزّنى. ومعنى الآية: يا نساء النّبيّ اِحذرن المعاصي، إنكنّ أمهات المؤمنين، وإنّكن نساء للنّبيّ وهذه نسبة ترفع منزلتكنّ عند المؤمنين فلا تأتين أيّ معصية من مثل: فساد عشرة الزوج الذي هو نبيّ، أو عصيان أمره، ومن تعصه يضاعف لها العقاب يوم القيامة، وهذا من الأمر اليسير على الله عزّ وجلّ.

- وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا**(31)** :

والّتي تداوم على الخضوع لأمر الله، وعلى طاعة رسوله، وتعمل صالحا من الطاعات والعبادات، يُضاعَفُ لها الأجرُ والثّواب كرامة لها لحُسن الخلق، وطيب المعاشرة، ولقناعتها بما أوتيت وكان جزاؤها الجنّة حيث ترزق الرّزق الوفير الكريم الذي لا ينتهي. وقد عرف عن حفصة بنت عمر بن الخطّاب التي كانت إحدى نساء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بأنّها صوّامة قوّامة رضي الله عنها



وأرضاها. ورضي الله عن جميع نساء النّبيّ أمّهات المؤمنين وأرضاهنّ. كن قانتات طائعات صادقات.

- يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا (32) :

خطاب مباشر من الله عزّ وجلّ لنساء النّبيء، وهذه فضيلة عظيمة إذ رفع الله بهذا النّداء ذكرهنّ. ووصفهنّ بأنّهنّ لسن كأحد من النساء في الفضل والشرف ممّا يزيدهنَّ فخرا، وذلك لأنّهنّ من صحبة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، ولعظيم المحلّ منه صلّى الله عليه وسلّم، وذلك إن اِلتزمن بخشية الله تعالى بطاعته فيما يأمر، وإذا اِلتزمن بحسن صحبة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم. وقد جاءهنَّ الأمر في هذه الآية أن يكون قولهنَّ إذا تكلمن مختصرا وفي جدّ دون لين أو ترخيم ليحفظن قدرهنَّ الرّفيع فيدفعن بهذا القول طمع المنافق والذي في قلبه مرض من أن يطيل معهنّ القول والحديث الهزيل الذي لا نفع فيه. وأُمِرْن بأن يَقُلْن القول المعروف الذي هو الصواب الذي لا تنكره الشريعة، ولا تنكره النّفوس، والذي فيه النّصح والإرشاد لوجه البرّ، ولما فيه نهي عن منكر أو سوء من الفعل.

- وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا (33) وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (34) :

وقد جاءهنَّ الأمر ها هنا بملازمة بيوتهنَّ ولا يخرجن منها إلاّ لضرورة، وهذا للمحافظة عليهنّ من المخالطة في الأسواق أو غيرها ممّا يذهب بوقارهنَّ، وإنّ ملازمتهنَّ لبيوتهنَّ مما يزيد بيت النّبوة ونساءه حرمة. ونهاهنّ الله تعالى عن إظهار زينتهنَّ للانتهاء عن عادات النّساء في الجاهلية، وهذا لصيانة قدرهنَّ لأنهنّ أمّهات للمؤمنين وصيانة عِفّتِهِنَّ، ورفعا لقدرهنَّ وشأنهنّ. وأمرن بالمداومة على إقام الصلاة في أوقاتها على أكمل وجه لأنهنّ قدوات للنساء، وأمرن بالمداومة على الإنفاق خاصة النّفقة الواجبة التي هي الزكاة لأنّها عبادة تقرّب من الله عزّ وجلّ. وأمرن بالمثابرة على العمل بشرع الله في التكاليف، وبالمحافظة على سنن رسول الله وطاعة أمره في بيته. وما هذه الأوامر إلاّ لأنّ الله عزّ وجلّ يريد أن يبعد عنهنّ كلّ مظهر من مظاهر السوء والإثم لأنّهنّ أهل بيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فهنّ قدوات للنّساء. ولأنّ الله تعالى يريد أن يجعلهنّ بهذه الأوامر طاهرات من الذنوب، ورفيعات في منزلتهنَّ عند النّاس، وقدوات للنساء الصالحات. وأمرن أن يداومن على تلاوة القرآن الكريم في بيوتهنّ ليعمرنها بالذكر، وليكنّ ذاكرات، وأن يذكُرْن هَدْيَ النّبوّة وأحكام القرآن. وهذا ليشاركن في تبليغ نساء المؤمنين مواعظ الله



وأحكامه الشرعية وتبليغ سنن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم للنساء اللائي يراجعنهُنّ فيما يخصّ فقه النساء، وهذا من لطف الله بهن وكرمه.

ومن لطفه تعالى بهنّ أن جعلهنّ من أهل بيت النّبوّة، ويسّر لهنّ معاشرة رسوله صلّى الله عليه وسلّم وهذا فخر لهنَّ، وجعلهنّ ناقلات لسنّته لمن سأل عنها، وهو تعالى خبير بما يأمرهنّ به وينهاهنّ عنه ليكنّ أهلا أمّهات للمؤمنين وقدوات للمسلمات المؤمنات في سلوكهنَّ.

ولقد شاء الله تعالى أن يكنّ فعلا لأصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وللتّابعين بعد وفاة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم مراجعَ في أحكام النّساء، وفي أحكام الرجل مع أهله في بيته، وفي نقل سنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في قيامه وفي عمله في بيته للسائلين عنها، وهذا من عظيم فضل الله تعالى عليهنّ ومن كرمه.

- ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (35)﴾ :

هذه الآية ممّا يُستدِلّ بها على أنّ الشريعة الإسلامية بأحكامها ومواعظها ليست خاصّة بالرّجال دون النّساء، وإنّها لَمِمَّا يُستدلُّ بها كذلك على أنّ الشريعة الإسلاميّة تقرّر التسوية بين الجنسين في التّكاليف والأجر والثّواب، وإنّ في تعدّد ذكر صفات الجنسين على السواء في عشر صفات لدليلا على التّأكيد على هذه التّسوية حتّى لا يتوهّم وَاهِمٌ أنّ بين هذه الصفات ما هو خاصّ بجنس دون آخر. فالإسلام صفة مشتركة وتعني الإقرار بالتّوحيد والشهادة لله بوحدانيته وللرّسول محمد صلّى الله عليه وسلّم بالرّسالة، والجنسان مُطالبان بصدق الإيمان بالله وبرسله وبملائكته وبكتبه وباليوم الآخر وبالقدرِ: خيره وشرّه. وكلاهما مطالب بالقنوت، والقنوت هو الخشوع، والإقرار بالعبودية لله تعالى والقيام بالطاعة التي ليس معها معصية. ويجب أن يكون المؤمن والمؤمنة صادقَيْنِ. والصّادق والصادقة لا يكذبان، لأنّ الكذب من الغدر والخداع، وهو ضد الحقّ، وفي الحديث الشريف: "لا يكون المؤمن كذّابا" (أخرجه مالك في الموطإ) ويكون الصدق في الطاعة ويعني الإخلاص فيها، ويكون في المعاملة فلا يكون فيها غشّ أو خلف بالوعد والعهد، والصدق في التوجيه يكون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويكون في حسن الإرشاد، وفي النّصح. والصادق أمين في نقل الخبر أو في العلم. ومن صفات المؤمن والمؤمنة التحلّي بالصبر عند الشدّة وعند البأس، وعند الضرّ فيظهر بصبره وبصبرها اِحتسابهما ورضاهما بالقضاء والقدر. وإنّه من الخاشعين وهي من الخاشعات. والخشوع هو السكون عند ذكر الله



تعالى، قال تعالى (وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسًا)(طه الآية 108) أي خفتت الأصوات رهبة وتقديسا للرّحمان. والخشوع في الصلاة: سكون الجوارح، والركوع له والسجود ومناجاته في سكينة ورهبة.

والتّصدّق من خلق النّبل والعطف والشفقة ورقّة القلب، وهذا الخلق هو الذي يدفع بصاحبه لأن يبذل من ماله للمحتاج وللسائل الفقير المسكين إحسانا اِبتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم. والصائم هو النّاسك الذي يتقرّب إلى الله تعالى بالإمساك عن الطعام والشراب في زمن محدود. ومن الصفات الحميدة في المؤمن، وخصاله النبيلة أنّه لا يأتي الفاحشة. المؤمن والمؤمنة كلاهما يحفظان نفسيهما عن إتيان هذه الرذيلة، لأنّهما من أهل الطهر والعفاف. وإنّما يداومان على ذكر الله تعالى بتلاوة كتابه وبالتّسبيح وبالاجتهاد في اِلتزام الطاعات. المتّصف بهذه الصفات من الرّجال والنساء على السواء موعودون بالمغفرة من ربّهم، وأعدّ الله لكليهما ثوابا عظيما وأجرا كريما ومقاما محمودا نزلا عند ربّهم.

- وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا (36) :

نزلت هذه إلى الآية 40 في زواج زينب بنت جحش اِبنة عمّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: أميمة، على زيد بن حارثة الذي تزوّجها بمكة، وقد كان زيد يسمّى زيد بن محمد بالتبنّي، ثمّ هاجرا إلى المدينة، ولمّا نزل حكم الله بإبطال التبنّي، وصار زيد يدعى باسم أبيه حارثة، فسدت العلاقة بينهما فطلّقها زيد – كما سيأتي في الآيات الموالية – فأمر الله سبحانه رسوله أن يتزوّج زينب لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إبطالا لعادة من عادات الجاهلية في تحريم الزّواج من حلائل الأدعياء بعد طلاقهنَّ.

وفي هذه الآية دعوة للجنسين للانضباط لأمر الله تعالى ولأمر رسوله طاعة لله عزّ وجلّ. والمعنى: وليس للمؤمن ولا للمؤمنة إذا أمر اللهُ تعالى بأمر، أو أمر رسولُه أن يكون له أوْ لَها أن يختار أو تختار أمرا آخر على حسب إرادتهما. ومن يعص الله ورسوله في أمر فقد حاد عن السبيل القويم، وضاع عن الصواب ضياعا واضحا.

- وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا(37)

واذكر إذ قلت للذي أكرمه الله بهدايته للإسلام، والذي أنعمت عليه بإيوائه في بيتك وأنعمت عليه بالعتق، وبتزويجه بابنة عمّتك زينب – والمقصود به زيد بن حارثة الملقّب "بِحِبِّ رسول الله"

أمسك عليك زوجك، ولا تطلقها، وذلك حين جاءك يشكو من معاملتها له في بيته بعد أن أُستُبْدِلَتْ نسبته، وصار يدعى زيد بن حارثة. وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يدعوه لتقوى الله حتى لا يطلقها فيلحق بها عار الطلاق، وكان يدعوه للصبر عليها. وقد أوحى الله تعالى لرسوله أن يتزوّجها بعد طلاقها من زيد وبعد اِنقضاء عدّتها، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يخفي في نفسه ما أوحى الله به إليه، من خشيته ممّا سيشاع عنه لأنّه كان في عرف الجاهلية أن لا يتزوّج الرجل من زوجة من تبنّاه إذا طلّقها، كانوا يُعيبون على هذا ويقولون تزوّج فلان بزوجة اِبنه. وقضى الله تعالى أن يظهر هذا الأمر بتزويج رسوله ممن كانت زوجة المتبنّى ليشرّع حكما بإبطال عرف الجاهلية في هذه المسألة. وهكذا لمّا قضى زيد حاجته من زينب ثمّ طلّقها واِستغنى عنها ولم تعد له بها حاجة، دخلت في عدّتها حتى اِنقضت ولم يراجعها زيد، وصارت "أَيْمًا" تزوّجها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأمرٍ من ربّه، وبرضى زينب، وبهذا صارت من نساء النّبيّ ودخلت بيته.

وقد رُوِي أنّ زينب كانت تفخر بهذه الزيجة فكانت تقول: "أنا التي زوّجني الله من فوق سبع سماوات". ولم تكن هذه الزّيجة عن شهوة من النّبيّ، ولكن أرادها الله لتكون تشريعا للمؤمنين ليرفع عنهم الحرج من الزواج بطليقة رَعِيِهِ. بالتّشريع السابق أبطل الله تعالى التبنّي وما يتبعه من الانتساب لسيّده، وأبطل إرثه، وما يحرم بالمصاهرة والقرابة، وبهذا التّشريع أزال الله تعالى كلّ أثر ممّا تعارف عليه النّاس في الجاهلية من أحكام تابعة للتّبنّي. (وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولاً) وهكذا فإنّ أمر الله نافذ بما أمر به رسوله من الزواج بطليقة زيد، وكذا كان قضاء الله للمحافظة على نسبة كلّ مولود لأبيه.

كان من ولاة الدولة الأموية ومن قادة جندها قائد اِسمه زياد، لم يكن يعرف أباه، فكان يسمّى "زياد بن أبيه".

- **مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (38) :**

هذه في إعلام النّاس بأنّ ما أباحه الله تعالى لنبيّه محمد صلّى الله عليه وسلّم من التزوّج بعدد من النّساء هو من مثل ما أباحه لأنبياء من قبله لغايات معيّنة كالذي أباحه لداود، ولسليمان ولغيرهما فكان لهم نساء عديدات. وقد جاء هذا الإخبار لرفع الحرج عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم الذي تكلّم فيه المنافقون والذين في قلوبهم مرض بما لا يعلمون من حكمة الله تعالى في تدبير أمر تزويجه للتأليف بين القلوب أو للمحافظة على كرامة مهاجرة فقيرة ولغيره من الأغراض. هذه سنّة الله مع الأنبياء، وكان زواج الأنبياء من نسائهم من تقدير الله عزّ وجلّ على حكمة قدّرها تقديرا فكان هذا التزويج من المقدور.



• ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ **(39)** :

هذه في الردّ على الذين يتكلّمون في الرّسل بما لا يعلمون من حكمة الله في التقدير.

تذكّرهم الآية بأن الرّسل مكلّفون بتبليغ رسالات الله فيما يقولون وفيما يشرّعون لأقوامهم، وهم يخشون الله ولا يخشون أحدا إلاّ الله سبحانه، وهو الذي يحاسبهم على أعمالهم ويقيّمها وليس النّاس، ويكفي أن يكون الله تعالى هو الذي يحاسب خلقه على أعمالهم ليحقّق العدل.

• ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾**(40)** :

ليس النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أبًا لِمَنْ لَمْ يولد من صلبه لتحرم عليه زوجه، ولكنّه رسول الله، خُتِمت ببعثته النّبوّة، فهو آخر الأنبياء صلّى الله عليه وسلّم، وهذا يعني أنّه لا يجوز لأيّ إنسان أن يقيّم عمله بالقياس على شأنه أو شأن النّاس، فإنّ للرسول وللنبيّ شأنا آخر، فاسمعوا له وأطيعوه، ولا تتكلّموا فيه، ولا تنادوه باسمه، وإنما نادوه بصفته: رسول الله، أو نبيّ الله، وكان الله بغمز الغامزين وبطعن المتكلّمين في سلوك النّبي عليما، وسوف يحاسبهم عما قالوا وعمّا يقولون.

ومن المُستفاد من هذه الآية التّحذير من تشويه صورة النّبيّ للطعن في عفّته وطهره وخلقه إذا تُحُدِّثَ عن أزواج النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وعن بيت النّبوّة، ومن الناس من يقدّمه في صورة الإرهابي حيث يتحدّث عن الغزوات، إنّه رسول الله، وهو نبيّ الله فليتق الله فيه من كان في قلبه مرض عن إصطفاء هذا الرسول بختم النّبوّات.

• ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا﴾ **(41)** ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلاً﴾ **(42)** ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمًا﴾ **(43)** ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرًا كَرِيمًا﴾ **(44)** :

لو سُئِلْتَ عن الاستظهار بأوضح الآيات دلالة على رحمة الله بعباده المؤمنين، وأكثرها وضوحا في بيان عظيم فضله وكرمه عليهم لاستشهدت بهذه الآي، وبخاصّة الآيتين 43 و44 مقابل أمر هيّن عليهم ليس فيه جهد ومشقّة، وهو الأمر الذي جاء في الآيتين 41 و42.

يا أيّها الذين آمنوا داوموا على ذكر الله في أنفسكم بالعمل بالطاعات، واجتناب اِنتهاك المحرّمات، مع الحذر من المنهيات دون غفلة أو تهاون. وداوموا على تسبيحه أطراف النّهار، وتسبيحه طرفي النّهار يعني إقام الصلاة تقديسا وذكرا وتعظيما.

(هُو) إنّه الله سبحانه جلّ وعلا يصلّي عليكم وملائكته إذا اِلتزمتم بالمداومة على ذكره وإقام الصلاة له لتسبيحه. وصلاة الله تعالى على عباده المؤمنين تعني هدايتهم لإخراجهم من ظلمة



الشّرك والإلحاد، ومن ظلمة الإغراق في المعاصي، ومن ظلمة الضلالات، واِتّباع الهوى وغواية الشيطان، ومن ظلمة التولّي عن ذكر الله للفوز برحمته وللنّجاة من عذابه، ومن ظلمات أخرى لا يعلمها إلاّ الله. ومن خرج من هذه الظلمات اِستنار عقله، ورقّ قلبه، ورطب لسانه بالذكر، وبهذا يهتدي للصواب في عبادته، وفي عمله، وفي قوله، وفي سلوكه عند تعامله مع النّاس ليكون رفيع القدر والذكر عند النّاس، ولينال خيرا عند ربّه جزاء حسن عبادته وحسن عمله، وهذا من فضائل الاهتداء الذي يُنير البصائر، وينير طرق الحقّ والصواب. وكلّ هذا من إنعام الله تعالى على عباده المؤمنين بصلاته تعالى عليهم. صلاة الله تعالى على عباده المؤمنين تشريف وتكريم وإنعام بعظيم الفضل. ومن صلّى الله تعالى عليه اِهتدى ورُحم وكُرّم.

وأمّا صلاة الملائكة عليهم السلام على عباد الله المؤمنين فقد ذكر الله تعالى صيغتها ونصّها في قوله تعالى (ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ)(غافر الآية 7). فدعاء الملائكة للمؤمنين هو دعاء لهم ليغفر الله تعالى لهم، وليتوبوا، وليستقيموا على دينه وطاعته وعبادته، ولينجيهم الله من عذاب الجحيم. ما أجلّ هذا الفضل إذا سخّر الله تعالى ملائكته حملة العرش ومن حوله، وهم الملائكة المقرّبون ليدعوا لعباده المؤمنين وإن كانوا نياما أو هُم في شغلهم عاملون، وفي كلّ وقت وحين. أليس هذا من فضل الله تعالى على عباده المؤمنين، ومن عظيم كرمه وأجلّه؟

(وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا) هذه الجملة إنشائيّة وتدلّ على الاستغراق في رحمة عباده المؤمنين، لا تنقطع عنهم رحمته بهم في دنياهم وفي آخرتهم. ومن رحمته تعالى: اللّطف بهم عند شدائدهم.

ويتجلّى فضل الله على عباده المؤمنين يوم القيامة حين يُؤَمّنُهم على أنفسهم من العذاب عند لقائهم. يلقون تحية من عند الله عزّ وجلّ، وتحيته تعنى الإنعام عليهم بالأمان من أهوال يوم القيامة وأهوال الحساب. قال تعالى (سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ)(يس الآية 58).

ثم يُنعم الله تعالى عليهم بالأجر الكريم. وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدلّ على أصناف هذا التكريم الذي يلقونه في جنّات النّعيم والرّضوان. ربّنا اِجعلنا من عبادك المؤمنين الصادقين الذاكرين لعزّتك وفضلك ذكرا كثيرا. والمداومين على تسبيحك بالغدوّ والآصال. آمين.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا **(45)** وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا **(46)** :

الآيتان مع الآيتين المُواليتين في مهمّة النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم. (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ) نداء ثالث بهذه الصيغة في هذه السورة، وفي هذا توجيه لعامّة المؤمنين إذا نادوه أن يذكروه بصفته



على نحو الكيفيّة التي جاء بها نداؤه في القرآن الكريم، ولا ينادى الرّسول صلّى الله عليه وسلّم باسمه كما كان يفعل المشركون عمدا لأنّهم لم يكونوا يقرّون له بنبوّته، ولا برسالته. وجاء في الآيتين بإخباره بأنّه قد أرسل ليكون شاهدا على أمّته بأنّ الله عزّ وجلّ قد أرسل إليهم رسولا منهم يدعوهم بلغتهم إلى الاهتداء لعبادة الله الواحد الأحد ولنبذ الشرك وللعمل بأحكامه لطاعته، وأنّه تعالى قد أرسل معه كتابه فيه إرشادهم لصراطه المستقيم وفيه هديه ومواعظه وأحكامه، فمن اِتّبعه من أمّته كان شاهدا له على الاقتداء به والسمع له، ومن تولّى عنه وأعرض عن الاستجابة لدعوته كان شاهدا عليه يوم القيامة بأنّه قد كفر به وبما جاءه به من عند ربّه. ومن مهام النّبيّ أنّه مدعوّ لتبشير المصدقين بالله ووحدانيته والمصدّقين برسوله وبما جاءهم به من عند ربّهم وعملوا بأحكام الله طاعةً وطمعا في رحمته وخوفا من عذابه بأنّ الله سيمنحهم أجرا عظيما وأنّه يعدهم بالفوز بنعيمه الواسع يوم لقائه. وفي المقابل هو مرسل لإنذار الكافرين بالله وبوحدانيته والمكذّبين برسوله وبكتابه بعذاب الله تعالى يوم القيامة ولتحذيرهم من سوء عاقبة المعصية.

ولقد أرسل هذا النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ليدعو النّاس كافّة لعبادة الله وحده بأمر من عند ربّهم عزّ وجلّ، وبوحي منه، وبتكليف منه تعالى ليكونوا من المهتدين لصراط الله المستقيم، وحتى لا يكونوا من الضالّين. وإنّه صلّى الله عليه وسلّم بما يدعو النّاس إليه من عبادة خالصة لله وحده ومن الاستقامة على طاعته وعبادته وعلى العمل بأحكامه هو السّراجُ المضيءُ الوقّادُ الذي يُنير السبيل القويم الذي يحفظ سالكه من التّيه ومن الضلال ومن الوقوع في المتاهات والمزالق والزلّات لئلا يُصاب بمكروه أو يفاجأ بسوء العاقبة، فهو الذي بما يدعو إليه يبدّد الظلمة وينشر نور الهدى.

- وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا **(47)** :

وأمر الله تعالى رسوله بأن يبشّر الذين يتّبعونه فيما يدعوهم إليه من عقيدة وطاعة وعمل بالخير، فإنّ الله تعالى سينعم عليهم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على بال بشر من الفضل والتكريم والإحسان. هذه الآية في تبشير المؤمنين خاصّة، والآية السابقة كانت في الإخبار عن تبشير من يتّبع رسوله بالخير والفضل، وهو إخبار عام قصد الترغيب. أمّا في هذه الآية فالتبشير بالفضل الكبير للمؤمنين من وعد الله الحقّ.

- وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا **(48)** :

ولا تسمع لما يطلبه منك الكافرون والمنافقون من الكفّ عن دعوة النّاس للدّين الحقّ، ولا تبال بما يقولون وبما يتوعدون ويهدّدون، ولا تأبه بما يصفونك به وبما يطعنون في صدقك، أو

بهزئهم بوعيدهم. اِستعن بالله فيما تدعو الناس إليه من الهدى وواصل في تبليغ ما أمرت به. والله كافيك أذاهم. ويكفيك أن يكون الله مناصرك وداعمك.

- **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا (49) :**

هذه في حكم المطلّقة قبل البناء، ليس عليها عدّة إن لم تمسّ. والآية تحدّثت عن "النكاح". و"النّكاح" تسمية "للعقد" الذي سيعقبه زواج وبناء. إذا عقد أحدهم على اِمرأة نوى البناء بها، ثمّ لسبب ما عزم على فسخ عقد الزواج، فإن فسخه سُمّيَ هذا الفسخ طلاقا. والمرأة التي تُطلَّقُ بفسخ العقد ولم يقع وطْؤها وملامستها ومباشرتها فما لها من عدّة تعْتَدُّهَا، وعلى الرّجل أن يهبها عطاءً لجبر خاطرها، وذلك إذا لم يُسَمِّ لها مهرا، أمّا إذا سمّى لها مهرا فعليه أن يدفع لها نصف ما سمّى لها. وقد تقدّم تفسير هذا في قوله تعالى (لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ)(البقرة الآية 237). (وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا) أي فارقوهنّ فراقا يحفظ لهنّ كرامتهنّ وحقوقهنّ وليس فيه ما يؤذيهنّ من القول.

- **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا (50) :**

لمّا خيّر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نساءه بين البقاء معه وتسريحهنّ فاخترنه، جاءت هذه الآية فحرّمت على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم التّزوّج بغيرهنّ، أو الاستبدال بهنّ، وذلك مكافأةً لهن على اِختيارهنَّ، وهذا معنى قوله تعالى (لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ) في الآية 52 التابعة لهذه الآية والتي تليها. وتعتبر هذه الآيات الثلاث خاصّة بالنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأزواجه من أهل بيته.

ومعنى الآية: يا أيّها النّبيّ قد أحلّ الله تعالى لك أزواجك اللاّتي أعطيتهنّ مهورهنّ، وكذلك اللاتي ملكتهنّ بالسبيّ وهنّ الإيماء. وقد كان يحلّ لك أن تتزوّج اللاتي هاجرن معك من بنات عمّك، وبنات عمّاتك، وبنات خالك، وبنات خالاتك، وهذا تقدير لشأن القرابة وشأن الهجرة. ومن النّساء اللاّتي كان يُباح للرّسول صلّى الله عليه وسلّم خاصة أن يتزوّجها – وهذا غير مباح لغيره من المؤمنين – المرأة التي تجعل نفسها هبةً للرّسول دون مهر. وكان هذا الصنف من الهبات



من عادات العرب في الجاهلية مع عظماء العرب. والواهبة نفسها للنّبيّ يجب أن تكون مؤمنة وجوبا. وبالنسبة لعامّة المؤمنين فإنّ شرط صحة الزواج بالمرأة أن يسمّى لها مهر وصداق، وأن تتسلّمه، ذلك لأنّ صداق المرأة ركن أساسي من أركان الزّواج الذي فرضه الله تعالى. وممن تزوّجها الرّسول صلّى الله عليه وسلّم من الواهبات له أنفسهنّ: زينب بنت خزيمة الهلالية تدعى في الجاهلية أم المساكين، ولم تلبث عنده إلاّ قليلا ثمّ توفّيت. ولم يكن لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم من الواهبات غيرها.

(قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ) هذه الجملة خاصّة بالمؤمنين، ولذلك كان الضمير فيها للجمع الغائب (هم) ومعناها: وإنّ المؤمنين لا يحلّ لهم من النّساء إلا ما شرع لهم من أحكام الزواج التي فرضها عليهم، ولا يحلّ لهم الزّواج بأكثر ممّا هو مباح لهم: أربع نساء، ويحلّ لهم ما ملكت أيمانهم من السبيّ في الحروب، وقد اِنقضت هذه الإباحة بنصوص العقود الدوليّة في تجريم سبي النّساء في الحروب.

(لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ) عودة لما شرعه الله تعالى لنبيّه من التّوسعة من عدد الأزواج، وتزوّج الواهبات أنفسهنّ دون مهر، هو من اِمتنان الله عليك، فلا يضيق صدرك بما يتقوّله فيك المتقوّلون من المنافقين والذين في قلوبهم مرض. وما يزال البعض حتى عصرنا الحاضر يتكلّم أو يكتب عن زيجات النّبيّ بما لا يناسب مقام النّبوّة، وبما لا يناسب مع ما خصّ الله تعالى به نبيّه من تشريع خاصّ به دون غيره. (وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا) للذين أخطؤوا في شأن النّبيّ وشأن أهل بيته من أزواجه، ثمّ تابوا، واِستغفروا ممّا قالوا، وكفّوا عن الكلام في هذا الموضوع.

- **تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (51) :**

وهذه في علاقة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بنسائه لرفع الحرج عنه في أوضاع معيّنة. والمعنى: لك أن تؤخّر إحدى نسائك عن ليلتها المعيّنة، فلا تبيت معها، وتضمّ إليك ما تشاء منهنّ، أو تبيت مع التي كنتَ قد أرجيتَها وتأخّرت عنها. لا مؤاخذة عليك، وهذا من الأمر الذي يسرّها لعلمها بأنّه من حكم الله عزّ وجلّ، فلا يحزنّ عمّا كان ويرضين بما قسمتَ لهنّ من النّفقة أو الإيثار بالمبيت. والله عليم بما في الصدور.

والله عليم بكلّ ما يجري من حول الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وحليم لا يؤاخذ أحدا من أقربائه، واللاّتي في بيته عن الأخطاء العفوية.



- لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا (52) :

ولم يعد يحلّ لك – يا أيّها النّبيّ – أن تتزوّج اِمرأة أخرى تكريما لنسائك اللاّئي اِخترنك على أن تمتعهنّ وتسرّحهنّ سراحًا جميلا، ولا يحلّ لك أن تستبدل واحدة أخرى ولو أعجبك حسنها إلاّ الإماء من السبيّ، وكان الله عليما بكلّ ما يجري في بيت النّبوّة.

- يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا (53) :

هذه مع الآيتين المواليتين في أدب زيارة بيت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وفي هذه الآية الأمر بالحجاب لنسائه. والمعنى: يا أيّها الذين آمنوا اِحترموا حرمة بيوت النّبيّ، فلا تدخلوها إلا إذا دعيتم لتناول طعام معه. وإذا دعاكم لطعام فلا تحضروا قبل نضجه وتهيئته، وإنّما عليكم أن تحضروه في موعده حتى لا تكونوا ثقلاء على أهل البيت. إذا دعاكم الرّسول لمائدته وأذن لكم بالدخول إلى بيته، ثم طعمتم وأتممتم طعامكم فاستأذنوا للخروج، ولا تطيلوا المقام بعد الطعام لتبادل الحديث، بل اخرجوا وانصرفوا حتى لا تؤذوا النّبي بمقامكم، وحتى لا تُضايقوه، إنّ مكثكم في بيته يضايقه وهو يستحيي أن يعبّر لكم عن ضيقه، والله يقول الحقّ، ويبيّن لكم ما يجب أن تكونوا عليه من أدب عند دخول بيت النّبيّ.

وإذا سألتم نساء النّبيّ شيئا من المتاع من مثل الأواني أو نحوها فأسألوهنّ من وراء حجاب، وهو الستر المرخي على باب البيت منعا للكشف، واِحتراما للحرمة. ويُلحق بهذا الأمر إذا أراد أحدهم أن يسألهنّ عن شأن من شؤون الدّين من سنن النّبيّ من بعد وفاته. وقد جاء في الصحيح عن أنس أنّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه قال لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "يا رسول الله يدخل عليك البرّ والفاجر، فلو أمرت أمّهات المؤمنين بالحجاب"، فأنزل الله آية الحجاب. وفي الصحيح عن ابن عمر قال: قال عمر "وافقتُ ربّي في ثلاث: في مقام إبراهيم، وفي الحجاب، وفي أسرى بدر".

وإنّ في الأمر بالحجاب حفظا للنّفس من التهمة، ونَفْيًا للريبة، وصيانة للحرمة، وطهارة للنفس وللقلب من الخواطر. وقد أُرِيدَ بهذه الأحكام تجنّب إيذاء رسول الله عند اِستضافته لكم



بطول المكث عنده، وبإطالة الحديث في بيته فتصرفونه عن قضاء حاجاته أو عن اِستراحته، ولحفظ حرمة بيته وحرمة نسائه.

ومن الأحكام الواردة في هذه الآية تحريم الزواج بإحدى نسائه من بعده لأنهنّ أمّهات للمؤمنين جميعهم تقديرا لهنّ فليس لنساء النّبيّ من بعده زوج أفضل منه مكانة وقدرا ومنزلة، وجعل الله تعالى هذا الأمر من جملة الكبائر، ومن أعظم الذنوب في قوله تعالى(إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا) عظيما في الذنب والإثم.

- إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا **(54)** :

هذه في وعيد من يقدح في زيجات النّبيّ، أو في نسائه، أو في ما يكون في بيته تأدّبا مع الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وحفاظا على أسرار بيته، والمعنى: واِعلموا أن كلّ ما يصدر عنكم من كلام يؤذي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأهل بيته أو تضمرونه في صدوركم فإنّ الله تعالى عليم به ومطلع عليه، وسيحاسبكم عليه، وهذا الخطاب موجّه للمنافقين والذين في قلوبهم مرض.

- لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا **(55)** :

هذه في ما يحلّ للمرأة أن تظهر له دون أن تكون من وراء حجاب، ولم يذكر في هذه الآية العمّ والخال لأنّهما في مرتبة الوالد، وقد يسمّى العم أحيانا أبا، ودليل ذلك قوله تعالى (نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ)(البقرة الآية 133) وإسماعيل عمّ يعقوب. والمعنى: لا إثم على النّساء أن يخاطبن دون حجاب آباءَهنّ وأبناءهنّ وإخوانَهنّ وأبناءَ إخوانهنّ وأبناءَ أخواتهنّ ونساء المؤمنين، والأيامى السبيات، وأن يظهرن في زينتهنّ. وعليهنّ أن يخْشَيْنَ الله تعالى في أنفسهنّ حتى يظهرن في مظهر لائق غير فاضح، والله مطّلع على كلّ ما يجري في خلقه، وهذا للتّحذير من معصيته حتّى لا يظهرن في مظهر فاتن يثير شهوة الرّجال، ويلفت إليهنّ أنظارهم غير المشروعة، والتي توقعهم في المعصية بالنّظر أو بالقول أو بالقذف.

- إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا **(56)** :

هذه الآية شرّف بها رسوله صلّى الله عليه وسلّم في حياته، وبعد مماته، وذكر فيها علوّ منزلته عنده سبحانه. وفي أمر المؤمنين بالصلاة والسلام على نبيّه دون بقية أنبيائه هو من التّعظيم لقدره، ولمزيد تشريفه على سائر الخلق. وجاءت هذه الآية بعد تحذير المؤمنين من مضايقته وهو الذي يستحيي منهم ولا يحبّ أن يحرجهم، ووردت بعدها آيتان بوعيد الذين يؤذونه ويؤذون المؤمنين باللعنة وشديد العذاب.



وتشير الآية إلى ثلاثة معان مختلفة للفظ "الصلاة"، في غير معناه الأصلي ومعناه الاصطلاحي. الصلاة – لغة – هي الدعاء والاستغفار، وهي – إصطلاحا – عبادة مخصوصة يراد بها تعظيم الله عزّ وجلّ بالقيام والركوع والسجود، وبالدعاء والتّسبيح، وهي من أعظم الفرائض الدينيّة.

أمّا صلاة الله سبحانه على نبيّه فتعني: رحمته والثناء عليه. وصلاة الملائكة عليه هي الدعاء له، والاستغفار. وأمّا صلاة المؤمنين على نبيّهم فتعني: تعظيمه في الدنيا بإعلاء ذكره، وإظهار دعوته، وإبقاء شريعته، وفي الآخرة بتشفيعه في أمّته ومضاعفة أجره ومثوبته، وهذه الصلاة لا تكون إلاّ له، ولا تكون لغيره.

وأمّا السّلام عليه فيعني إجلاله بالتّحية والتقدير والإكبار لأنّ السلام في هذه الآية جاء مقرونا بالمفعول المطلق (تَسْلِيمًا) الذي يعني تحية الإجلال والتّقدير.

وقد عرضت قناة تلفزية عربية في برنامج يدّعي فيه صاحبه تقديم مفاهيم جديدة ودقيقة للمصطلحات الدينية بعنوان مفهوم الصلاة على النّبيّ، قدّم فيه مفهوما لهذه الصلاة غير المفهوم المتعارف عليه بين النّاس لغةً واِصطلاحا، معتمدا على مفهوم صلاة الله على المؤمنين التي جاء ذكرها في الآية السابقة عدد 43. وما أرى قراءته إلاّ تعسّفية، وليته قد تفحص لسان العرب لابن منظور (ج8 ص 275-276) وغيره من القواميس، وكتب التفسير وكتب اللّغة ليصحّح معلوماته ويدقّق شرحه للفظ الصلاة على النّبيّ ومعناها. وحُقّ للعلماء أن يشترطوا في المفسّر للقرآن الكريم ولشرّاح الحديث وللفقهاء المجتهدين في اِستنباط الأحكام أن يكونوا من أساطين علماء اللّغة وفقهها وأساليبها.

ويقتضي الأمر في هذه الآية أن يصلّي المؤمن على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وجوبًا اِمتثالا لأمر ربّه على الأقلّ مرّة في حياته. وفي رواية مالك عن أبي مسعود الأنصاري أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حين سأله بشير بن سعد كيف نصلّي عليك يا رسول الله؟ فسكت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ثم قال: قولوا: اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنّك حميد مجيد".

وليت ذاك الذي جاء يتفلسف في مفهوم الصلاة على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في ذاك البرنامج التلفزي، قد اِطلع على ما كتب في الصحاح وفي كتب التفسير على هذا النّصّ الصحيح الوارد عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في بيان صيغة الصلاة عليه للعلم أولا، وليكفّ عن بلبلة أذهان النّاس فيما علموا بالتّواتر من عمل السّنّة.

• إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا (57) :

لا أحد بقادر على أن يؤذي الله سبحانه وتعالى، وما هذا إلاّ تعبير على أنّ الله سبحانه لا يحبّ أن يُعصى بانتهاك المحرّمات، ولا يحبّ أن يفترى عليه حين ينسب إليه الصاحبة والولد، أو النّد والشّريك، وهو الله الغنيّ عن الصاحبة والولد، وعن الشريك والنّد، ولا يرتضي أن يكذّب أحد من عباده بما أنزل عنادا واستكبارا وتماديا في ظلمه لنفسه وإعراضا عن ذكر ربّه، وتولّيا عن الاستقامة على دينه وعن العمل بشرعه، ولا يرتضي أن يكذّب أحد برسله، أو يسْتَهزئ بوعده ووعيده. فمن أتى هذه الأعمال التي لا يرتضيها الله تعالى فقد جحد فضل ربّه عليه ليهديه سبيل السلام وسبيل الهدى، ورضي لنفسه الكفر، فليس لهذا العبد إلاّ أن تحلّ عليه لعنة ربّه التي تخرجه من رحمة الله إلى سخطه، ومن كذّب برسول الله محمد صلّى الله عليه وسلّم وكذّب بالقرآن وبالوحي، وهزأ به اِحتقارا ومكابرة، وهزأ بالوعد والوعيد فإنّه واقع كذلك في لعنة الله عليه في دنياه وآخرته لأنّه آذى رسوله بالهزء والتكذيب وبالإيذاء بالقول وبالكيد له للإساءة إليه. من آذى الله بالمعاصي وآذى رسوله بالتكذيب فإنّه سيلقى في آخرته العذاب الذي يُذلّه بعد كبريائه ومكابرته مع ما لحقه من لعنة الله في دنياه.

وقد جاء هذا الوعيد الشديد لمن يؤذي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيما جاء به من عند ربّه من كتاب لمزيد تشريف النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ورفع قدره ومنزلته عند المؤمنين ليطيعوا الله ويطيعوا رسوله، وليحذر من لعنة الله وعذابه المنافقون والذين في قلوبهم مرض من الإساءة لرسوله.

• وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا(58) :

وهذا وعيد آخر ليكفّ الكافرون والمكذّبون والمنافقون ألسنتهم وأيديهم عن المؤمنين وعن المؤمنات. والمعنى: والذين يعيبون على المؤمنين والمؤمنات إسلامهم بعد أن كانوا في ضلالة الشرك، ويسخرون منهم لفقرهم أو ضعفهم، ويشتمونهم ويلمزونهم دون أن يكون قد صدر عن المؤمنين والمؤمنات ما يسيء إليهم من شتيمة أو تعيير، فإنّهم يحمّلون أنفسهم ذنبا واضحا بسبب الكذب على المؤمنين والمؤمنات ولمزهم، وسيلقون جرّاء ذلك عذابا. أمّا إيذاء المؤمنين والمؤمنات بالتّعنيف أو التقتيل فلها أحكام أخرى.

• يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (59) :

هذه في حكم لباس المؤمنات إذا خرجن لقضاء حاجاتهنّ خارج بيوتهنّ. والمعنى: يا أيّها النّبيّ آمر نساءك وبناتك خاصّة، ونساء المؤمنين عامّة بارتداء الجلباب وسَدْلِهِ على كامل

الجسم صيانة لهنّ من الأذى، وليعرفن بأنّهن عفيفات ومحافظات فلا يتعرضن للغمز أو لما لا يليق بهنّ من القول والوصف. والجلباب هو الثوب الذي يستر جميع البدن، ويستر الصدر. ولم تكن الإماء في الجاهلية يلبسن اللباس الذي يستر كامل البدن. وفرض الجلباب على نساء النّبيّ وبناته وعلى نساء المؤمنين ليعرفن به أنهنّ من الحرائر، فتنقطع عنهنّ الأطماع.

وكان الله كثير المغفرة وكثير الرحمة للنساء اللاّئي لم يكن يلبسن الجلابيب قبل نزول هذا الحكم.

- لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا **(60)** مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا **(61)** :

وهذه في وعيد الذين يشيعون الأخبار الباطلة والأقوال الكاذبة، ووعيد المنافقين والذين لا يرضيهم شيء من أحكام الله تعالى، وأحكام رسول الله ويتكلّمون فيها في الخفاء بما يدلّ على أنّ الإيمان لم يدخل قلوبهم بعد، ولم يكونوا مخلصين في الطاعات. وجاءهم هذا الوعيد لينتهوا عن إشاعة أراجيفهم، وهي إشاعة الكذب والباطل لإثارة الفتنة في أوساط المؤمنين والمؤمنات، وإثارة الاضطرابات فيهم والشكوك لتفريق صفوفهم، ولزرع الغمّ في قلوبهم بعد صفائها، وبعد المؤاخاة. وتمثّل الوعيد في تسليط المؤمنين عليهم لقتلهم، وتسليط الرّسول صلّى الله عليه وسلّم على الذين يتكلّمون في نسائه لاستئصالهم، ثمّ لا يبقون في المدينة إلاّ مدّة يسيرة حتى يهلكوا مطرودين. أينما وجدوا أُسِرُوا أو قتّلوا شرّ قتلة، وهذا الوعيد الشديد لينتهوا عن إشاعة الأكاذيب، وللكفّ عن الكلام في أعراض النساء وشرفهنّ وعفتهنّ، ولينتهوا عن زرع الفتنة في أوساط المؤمنين لتفريق صفوفهم وإفساد مؤاخاتهم.

- سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا **(62)** :

هكذا كان حكم الله من قبلُ في المنافقين وفي الذين يشيعون الأكاذيب في صفوف المؤمنين لإفساد علاقاتهم ببعض وتفريق كلمتهم وصفوفهم، حكمه فيهم أن يؤخذوا أسرى لتأديبهم، أو تقتيلهم لكفّ أذاهم عن المؤمنين. وليس في سنّة الله في هذه المجموعة تغيير أو تحويل وبهذه الآية يُختتم الحديث عن بيت النّبوّة، وآل البيت، وعن آداب التعامل معهم حفاظا على منزلة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وتقديرا لمقامه وشأنه، وحظوته عند ربّه لأنّه رسوله للنّاس كافّة.

وما أحوج الكثير من المرجفين في وسائل الاتصال الاجتماعي للاتّعاظ بهذه الموعظة لينتهوا عن اِنتهاك الأعراض، ولينتهوا عن إشاعة ما يثير الفتنة في أوساط مجتمعاتهم بما يفرّق بين النّاس، ويثير فيهم القلق والاضطراب خوفا على مستقبل أعمالهم أو على أمنهم وأمن مكتسباتهم،

وما يزرع فيهم اليأس والغمّ، أو بما يفسد وحدة الأمّة ونظامها السياسي وما إلى ذلك من المآسي غير المنتظرة.

- يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا(63) :

الآية في السؤال عن الساعة، وهو سؤال أزلي يسأل عنها كلّ النّاس ماضيا وحاضرا ومستقبلا. فالمؤمن بقيام الساعة يسأل عن موعدها للعلم ورجاء ألاّ يشهد أهوالها المفزعة. وأمّا المكذّبون بها فيسألون عنها لاستبعادهم حصولها ووقوعها، متوهّمين أنّها لن تكون. ولمّا كانت الآيات الموالية إلى غاية الآية 71 في الوعد والوعيد، فإنّ السّائلين عنها كانوا من الذين يؤذون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالتّكذيب، ولم يكن سؤالهم للعلم بزمنها، ويعلم المؤمنون أنّ الله تعالى اِستأثر بعلم زمن حدوثها ولكنّهم حين يسألون عنها إنّما يسألون عن أشراطها للحذر، ولطلب الأمن والأمان من شهودها.

والمعنى: يسألك المنافقون والذين في قلوبهم مرض عن الساعة متى تقع، وهم يستبعدون حدوثها فأجبهم بأنّ علمها عند الله تعالى، وليس من شرط النّبوّة أن أعلم بالغيب، فلا علم لي إلاّ بما علّمني ربّي، قد اِستأثر الله تعالى بعلم زمن حدوثها، وما يشعرك بالاطمئنان أيّها السائل عنها عن اِستبعاد وقوعها، فلعلّها تأتي في زمن قريب.

وإنّما أخفى الله تعالى عن خلقه وعن أنبيائه العلم بوقتها ليكون الإنسان، وخاصة المؤمن، مستعدّا لها في كلّ وقت، ونسأل الله السلامة والأمن والأمان من شهود أهوالها.

- إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (64) خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (65) :

الآيتان فيما أُعِدَّ للمكذّبين بالساعة وبالوعد والوعيد. أطردهم من رحمته لكفرهم وتكذيبهم بكلام الله ولهزئهم بوعيده، وأعدّ لهم جهنّم ذات نار ملتهبة ومستعرة ليقيموا فيها إقامة أبدية لا يخرجون منها، ولا يجدون يوم القيامة من ينقذهم منها، ولا من ينصرهم لينجيهم من الوقوع فيها.

- يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ (66) :

حين تأويهم جهنّم ويقلّبون فيها على كلّ جانب لتنضج وجوههم وجلودهم وتحرق بلهب النّار، يومئذ يندمون على كفرهم وهزئهم ويتمنّون لو كانوا قد أطاعوا الله فيما أمرهم، وأطاعوا الرّسول فيما نصحهم به، وأرشدهم إليه، ووعظهم به.

- وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ (67) رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (68) :

وقال الأتباع والذين كانوا أنصارا لسادتهم وزعمائهم: ربّنا قد اِقتدينا بسادتنا وكبرائنا فأطعناهم فيما أرشدونا إليه فأبعدونا عن طريق الهدى وسواء السبيل. اللهم عذّبهم عذابا مضاعفا لأنّهم



كانوا سببا في ضلالتنا وإبعادنا عن الهدى ولأنّهم أجبرونا على اِتّباعهم، ولا ترحمهم وأبعدهم عن رحمتك بعدا كبيرا.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا(69) :

هذه دعوة المؤمنين حتى لا يشاقّوا الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بمعصية أمره – كما حدث في غزوة أحد، وقد روي أنّ أحدهم قد قال له حين وزّع الغنائم على جماعة المؤمنين: "ما عدلت" وقد سبق لبني إسرائيل أن آذوا نبيّهم موسى عليه السلام بعصيان أمره حين دعاهم للقتال فقالوا له: "اِذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون"، وحين أمرهم بذبح البقرة لكشف القاتل فقالوا له: "أتتّخذنا هزُؤا" وأكثروا عليه من الأسئلة. ومعنى الآية: يا أيّها الّذين آمنوا وقِّرُوا نبيّكم، وتأدّبوا عند لقائه وعند الحديث معه، ولا تعصوه، أو تشاقّوه، ولا تكونوا كطائفة من بني إسرائيل شاقّوا نبيّهم موسى بعصيان أمره، ورَمْيِهِ بالطيش، فهذا ممّا لا يناسب مقام النّبوّة والرّسالة. (وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا) الوجيه عند العرب هو العظيم في قدره، وعالي المقام والمنزلة، وهو صاحب الوجاهة الذي يلقى حسن القبول عند النّاس، وعظيم الاحترام.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا (70) يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا (71) :

هذه في موعظة المؤمنين. دعاهم الله تعالى لتقواه: للخشية منه في السرّ والعلانية، فلا يأتون من الأعمال ما فيه معصيته، ودعاهم لأن يقولوا – إذا تحدّثوا أو تكلّموا أو سألوا – القول الصادق الذي ليس فيه جور ولا باطل، القول الذي فيه حكمة ورشاد وحسن الطلب وحسن الأدب. وفي المقابل يلهمهم الله تعالى الرشاد لصالح الأعمال ويدلّهم عليها ويعينهم عليها، ويمنحهم مغفرة ذنوبهم، ومن غُفرت ذنوبه لم يعذّب ويكرم يوم الحساب بالفوز بالنعيم.

ومن يُثابر على طاعة الله فيما أمر به، وفيما نهى عنه، ويثابر على طاعة رسوله فيما سنّه للمؤمنين ولما أرشدهم للاستقامة عليه فإنّه مبشّر بالظَّفَرِ بالكرامة العظمى والفوز الكبير بكلّ نعيم.

- إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا (72) لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا (73) :

خُتمت هذه السورة بهاتين الآيتين في موضوع ظلم الإنسان لنفسه بحمله الأمانة. ومن يجتهد في تدبّر هذه الآية عن الأمانة تعترضه جملة من الصعوبات: أولها: كيف يفسّر قوله تعالى(إِنَّا عَرَضۡنَا) الذي يفيد التّغيير، وكيف يجوز لبعض مخلوقاته أن "يأبين" حمل ما يعرض عليها

حملُه؟ ومن الصعوبات: تحديد مفهوم "الأمانة"، والمقصود بها. والصعوبة الثالثة: لماذا كان الإنسان ظلوما جهولا باختياره حمل الأمانة؟

ولتذليل هذه الصعوبات فإنّا نرى أنّ في الآية تعبيرا مجازيا، فإنّا إذا قِسْنَا ثقل الأمانة بقوة السماوات، أو قوّة الأرض، أو قوّة الجبال رأينا أنّها لا تطيقها، وأنّها لو تكلّمت لأبت حمل هذا الثقل، وأشفقت من حملها، وهذا من معنى (فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا).

وأمّا قوله تعالى (إِنَّا عَرَضْنَا) فيعني التخيير، وقد خُيّرت هذه الكائنات لأن تحمل الأمانة، فتكون مسؤولة عن عملها فيها، فأبت هذه الكائنات تحمّلها، وأرادت أن تكون مسخّرة لأمر الله عزّ وجلّ، ما شاء فيها فعل، وهي خاضعة لأمره ولتدبيره، وبهذا اِختارت أن تكون مُسَيَّرَةً، لا مخيّرة. واِختار الإنسان أن يكون مُخَيَّرًا، لا مسيّرا، فلذلك اِختار أن يحمل الأمانة، فكان باختياره هذا مسؤولا عن عمله فيها، وعن عمله بها، وكلّ مسؤول عن أمر هو خاضع للمحاسبة عليه، وعند المحاسبة يكرم بالجزاء والمثوبة، أو يهان، ولذا جاءت الآية الثانية بالوعيد والوعد لمن اِختار حمل الأمانة، ولا تخضع الكائنات الأخرى التي أبت حمل الأمانة للمحاسبة، وليس لها جزاء ولا عقاب.

وأمّا "الأمانة" قد تعدّدت الأقوال في مدلولها. منهم من قال فيها: هي جميع وظائف الدين، ومنهم من قال: هي الفرائض التي ائتمن الله عليها العباد، ومنها من رآها في أمانات الأموال كالودائع، ومنهم من رآها في حفظ الأهل والولد. وهي –عندي– المسؤولية. الإنسان حُمِّل مسؤوليته عن نفسه: عن معتقده، عن عمله، وعن قوله، وعن مَنْ هم في عُهدته: الأهل والولد، وعن جوارحه ونواياه، وعن حياته، فكان بتحمّله مسؤوليته عن كلّ هذه العناصر وما يتبعها من العناصر المكمّلة قد اِختار أن يكون حرّا في خياراته، وشاء أن يكون مخيّرا، لا مسيّرا، وشاء أن يكون مكلّفا، لا مسخّرا، فارتقى بتحمّله هذه المسؤولية عن جميع الكائنات المخلوقة المسيّرة والمسخّرة في القدر، وفي المنزلة، وكان حقيقا بأن يكون كائنا مستخلفا في الأرض فأكرمه تعالى بأن جعل له كلّ ما في الأرض مسخّرا لإرادته. الإنسان بحمله المسؤولية عن اِختياراته صار صاحب إرادة، وليس مسلوب الإرادة، قَبِلَ بتحمّله المسؤولية عن أفعاله أن يكون محاسبا عن أعماله واِختياراته، وحقّ له أن يطمع في الجزاء والمثوبة إذا نجح في إدارة خياراته، وحُقَّ للحاكم الذي يحاسب الإنسان عن أعماله وخياراته أن يعاقب من فشل في خياراته، وعبث بمسؤوليته وعبث بالأمانة، فكان الجزاء والعقاب نتيجة حتمية تفرضها الخيارات.

لذا فإنّ الذي يقصّر في أداء مسؤوليته سواء أكان في عمله، أو في أقواله، أو في التحكّم في جوارحه، وفي أهوائه وشهواته، وغلبته غواية الشيطان وأهواؤه فإنّه كثير الظلم لنفسه حقّا لأنّه

بغلبة الشيطان وأهوائه عليه قد جعل نفسه مُسَيّرا، مسلوب الإرادة، غير مميّز لما يصلح له ولما يضرّه فجرّ نفسه لأن يكون في موقف المؤاخذة والمهدّد بالعقاب الذي يذلّه لأنّه أذلّ نفسه باتباعه شهواته وإضاعة الأمانة التي حُمّلها، وهذا من كثرة جهله وغفلته عن العواقب. بهذا كان الإنسان ظلوما جهولا. وأمّا من اِهتدى للعمل بالتكاليف ولحفظ الأمانة في نفسه وفي أهله وفي ولده وفي دينه وفي عرضه وفي خلقه وفي معاملاته، وفي أقواله فإنّه مثاب على حسن أدائه للأمانة التي كُلِّف بحملها في حياته.

لذا جاء التّعقيب على حمل الأمانة بأنّ الذي نافق في معتقده وعمله والتي نافقت في دينها والذي أشرك بالله تعالى وخالف فطرته والتي أشركت فلم تؤمن فإنّه سيعاقب بعذاب مهين أليم، وأمّا المؤمنون والمؤمنات الذين أحسنوا في أداء التكاليف المفروضة عليهم في حياتهم سواء أكانت في الدين أم في الحياة العامة وفي الشرف والعرض وفي التعامل مع النّاس بالخلق الحسن فإنّهم مبشّرون بالتوبة عليهم في ما أخطؤوا من الصغائر والله كثير المغفرة لمن آمن وتاب وعمل صالحا، والله كثير الرحمة بعباده المؤمنين والمؤمنات لا يعذبّهم يوم يلقونه، وسيلقون كلّ مظاهر النّعيم والتكريم.

ولمن شاء أن يتوسّع في موضوع الأمانة فإنّي أنصحه بقراءة ما كتبتُ في كتابي (التنوير المستنير في بيان معاني البيان ج6 ص ص 67–72) ففيه إفادات أخرى.

وإنّه لِزَامٌ عليّ أن أنصح كلّ من يتصدّر لتفسير هذه السورة أن يتحرّى كثيرا في ما يقوله لأنّه يتحدّث عن بيت النّبوّة وأسراره، وعليه أن يتحرّى أكثر فيما يستشهد به من الروايات التي نسبت للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم أو التي نسبت لبعض الصحابة، ففي الكثير منها ما يُطعن في صحّته.

آياتها	ســــورة سبـــــــأ	رقمها
54	ـــــ مكيّة ـــــ	34

سمّيت بسورة "سبأ" لانفرادها بذكر هلاك قرية سبأ بسبب الجحود. وهي سورة في التأكيد على صدقية الرّسول صلّى الله عليه وسلّم لدعمه وتثبيته، وفي التأكيد على البعث، وهي في التحذير من الاتباع لأهل الكفر والضلالات والهزء بالرسول للتوقّي من عذاب الآخرة شأن كلّ السور المكية. وفيها دعوة للتّوحيد، ووعد للمؤمنين بالمغفرة والرزق الكريم، مع جملة من المواعظ، وفيها عرض لمظاهر من صفاته الحُسنى ودلائلها.

- ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ **(1)**

هذه في الثناء على الله عزّ وجلّ. وتشير الآية إلى إستغناء الله عزّ وجلّ عن حمد من لم يحمده من عباده، فإن لم يكونوا يحمدونه فإنّه تعالى محمود في السماوات وفي الأرض، وهو تعالى محمود كذلك في الآخرة كما هو محمود من جميع خلقه من الكائنات في الدنيا. كلّ ما هو موجود في السماوات، وكلّ ما هو موجود في الأرض من الكائنات الحيّة وكذلك الجمادات يسبّح بحمد الله، ولكنّ النّاس لا يفقهون تسبيحهم. وفي الآخرة هو محمود، وهو سبحانه حامد لذاته العلية، فإن لم يحمده الحامدون فقد حمد الله ذاته فوصف ذاته العلية بأنّه "الحميد"، وهو سبحانه "الحكيم" الذي يرشد النّاس لما ينفعهم ولما يجلب لهم الخير، فمن حمد الله على فضله زاده من فضائله قال تعالى (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)(إبراهيم الآية 7) وهو تعالى "الخبير" الذي يحسن تدبير كلّ أمر، وهو العليم تمام العلم بما يجري في ملكوته، وبما يصلح لعباده، ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون فضائل حمد الله تعالى على نِعَمِهِ، ولو علموا فضيلة "الحمد لله" ما اِنقطعوا عن ذكرها في كلّ وقت وحين، وفي كلّ أمر.

- يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ**(2) :**

هذه في بيان سعة علم الله. إنّه تعالى عليم بكلّ ما يدخل في الأرض من مولود، من جنس البشر أو من جنس الحيوان، وكلّ ما ينتج فيها من نبات وثمر، أو ما يدفن فيها من جثث ونفايات، وهو تعالى عليم بكلّ ما يخرج منها من ثروات باطنية من معادن أو غيرها، وما يخرج منها من زرع أو شجر، ويدخل في هذا العلم ما يُصَنَّعُ فيها وما يحدث فيها من أحداث من هلاك أو دمار

أو إنشاء وتعمير وتصنيع، وهو تعالى عليم بما ينزل من السماء من ماء وثلوج وصواعق وشهب، ويعلم ما يصعد إليها من أرواح الميّتين ومن أخبار الخلق أجمعين ومن ذكر وتسبيح وصالح الأعمال ومن سيّء الأفعال، فالله عليم بكلّ ما يجري في الأرض: على سطحها أو في باطنها، وبما ينزل من السماء أو يصعد إليها، علم شامل لا يفوته شيء ممّا يجري في ملكوته. وهو سبحانه كثير الرّحمة بعباده، وهو كثير المغفرة لمن آمن وتاب وعمل صالحا. وجاء هذا التّذكير بعد بيان سعة علمه تعالى ليعلم النّاس أنّ الله تعالى مطّلع على أعمالهم، فعليهم أن لا يغفلوا عن طلب مغفرته ورحمته، فهذه الجملة للترغيب في الدعاء، والله تعالى عليم بما يدعون.

- **وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ (3) :**

بعد الثناء على الله تعالى ترغيبا لعباده لنيل مزيد فضله، وبعد تنبيههم لسعة علمه ليخشوا أن يطّلع على سوء أفعالهم ففتح لهم باب المغفرة ليتوبوا عن سوء الفعل وباب الرحمة ليطمئنّوا جاءت هذه الآية للتّأكيد على قيام الساعة للحساب، وبهذا ناسبت الآيتان السابقتان لتكونا مقدّمة تمهّد للإيمان بهذه العقيدة: الإيمان بالبعث للحساب.

وإنّ من أهمّ ما يزعج الكافرين العتاة الظالمين والمجرمين تذكيرَهم بأنّه آتيهم يومٌ لمحاسبتهم عن أعمالهم، فإنّ هذا التّذكير من أعظم ما يكرهون، ولذلك تجد فريقا منهم يهزؤون بيوم الحساب وبالوعد والوعيد تهرّبا من القناعة به لسوء أفعالهم. ومنهم من يَسْتَشِيطُ غضبا، ويثور عند تذكيره به، ويتحدّى الرّسول بأن يَعْجَلَ به إن كان صادقا، وهذا من عنادهم ومكابرتهم ومن جبروتهم، وهذا عند الطغاة وزعماء القوم. وما هذا وذاك إلاّ من اِضطراباتهم النّفسية لأنّ الإنسان، من فطرته، لا يزعجه شيء أكبر من الخوف من الامتحان ومن الحساب ومن تقييم عمله مع غيره من النّاس خوفا من السقوط وفضيحة الفشل.

وجاءت هذه الآية إلى الآية 9 للتّأكيد على قيام الساعة لمحاسبة النّاس على أعمالهم بالقسم بربّ العزّة. وما يكفر بهذا اليوم مع هذا القسم إلاّ الفاسقون الخارجون عن الدّين، والكافرون بكلام الله تعالى ووعده الصادق.

والمعنى: لا يؤمن الذين كفروا بوحدانية الله عزّ وجلّ، ولا يؤمنون بقيام السّاعة ولا بالبعث، ولا بعودة الحياة للأموات، ويستبعدون الوعد والوعيد، ويرون أنّه ما يهلكهم إلاّ الدهر، ومن مات أخذه الفناء، أخبِرْهم – يا نبيّ الله – أنّ الأمر ليس كما يتوهّمون، السّاعة واقعة حقّا وصدقا وحتما – وربّ العزّة – ستأتيكم، إنّه تعالى عالم بما يغيب عنكم علمُه، وبما يغيب عليكم فهمُه وتصوّره، وإنّه تعالى لا يغيب عنه ولا يخفى عليه شيء ممّا يجري في ملكوت السماوات وملكوت

الأرض وإن خفّ ثقله وصغر حجمه ودقّ ولا أصغر ممّا تتصوّرون أنّه أصغر شيء ممّا لا يكاد يرى عندكم، فإنّه تعالى عليم به ولا يخفى عليه أمره من مثل ما يسمّى بالجرثومة، أو الفيروس، من مثل ما لا يغيب عنه ما يجري فيما هو كبير الحجم من مثل ما ترون وما تعرفون من حجم كوكب الشمس فإنّ في السماوات كواكب أكبر حجما من شمسكم، لا يغيب على الله تعالى ما يجري فيها من أحداث أو حركة أو تفاعل، أو تأثير في المناخ وفي مدارات الكواكب والنّجوم، فتعرّفوا على الله تعالى واِخشوه وآمنوا به وصدّقوا بما جاءكم من موعظة وخبر عن طريق الوحي إلى رسوله. واِعلموا أنّ كلّ ما يجري في حياتكم ووجود الكائنات مُثْبَتٌ عند الله في سجلّ يبيّن حالها وعملها ونهايتها.

- لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ **(4)** :

إنّ الساعة ستأتيهم ليجزي الله المؤمنين العاملين الصالحات بما يستحقّون من المغفرة حتى لا يُؤاخذوا على صغائر ذنوبهم، وبما يستحقّون من الثواب والأجر الواسع لتكريمهم، وهذا ليقوم العدل فيجد المؤمن الصالح ثوابه وأجره والتكريم، ويعاقب الفاسق الفاجر الظالم...

- وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ **(5)** :

والذين يكذّبون بما جاءهم من البيّنات من عند ربّهم ليؤمنوا ويعملوا صالحا عنادًا ومكابرة، فإنّهم سيلاقون عذابا سيّئا مؤلما. و"المعاجزون" هم الذين يحاولون أن يؤثّروا في أتباعهم حتّى لا يؤمنوا، ولئلا يصدّقوا بما جاءهم من عند ربّهم. وأمّا "الرّجز" هو العذاب السيّء الكريه المزعج.

- وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ **(6)** :

هذه في تمجيد أهل العلم. وأهل العلم هم أهل العقل والفهم وتدقيق النّظر في حجج ما يقرؤون أو ما يسمعون وفي الدلائل، فإذا ثبت لديهم صحّتها وقوّتها صدّقوا بها. هؤلاء لمّا سمعوا ما أنزل على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من الوحي، ونظروا فيه بالعقل والبصيرة رأوْا أنّه حقا من عند الله، ورؤيتهم هذه تعني العلم بصدقه، ورأوْا فيما أنزل من مواعظ وإرشاد هاديا إلى الطريق الذي يبلّغهم رضوان العزيز، وهو العظيم الغالب، والحميد الذي يشكر عباده المؤمنين الشاكرين بإكرامهم بجزيل الثواب وعظيم الأجر. ورأى بعض المفسّرين أنّ المقصود بالذين أوتُوا العلم خاصّة أهل الكتاب، وما أرى هذا الرأي لأنّ النصّ القرآني حينما يقصد أهل الكتاب ينعتهم بهذه الصفة دون غيرها، ويستحسن التّعميم في تفسير هذه الآية ليشمل كلّ ذي عقل رشيد وواعٍ، سواء أكان من أهل الكتاب أو من غيرهم.

- وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ**(7)** :

وقال الّذين كذّبوا بالبعث والوعيد وبالحساب لأتباعهم ولمن كان يأتيهم من خارج مكّة: هل ندلّكم على رجل – ويقصدون النّبيّ محمدا صلّى الله عليه وسلّم – يحدّثكم عن أنّ الإنسان حين يموت وتتفتّت عظامه وتبلى ويفنى جسده يُعاد لخلق جديد كما كان في دنياه على هيأته. وقصدهم من هذا الإرشاد الإشارة إلى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حتى لا يقربوه، ولا يسمعوا له أو يجالسوه، ولصدّهم عنه. لم يكتفوا بالتكذيب بل كانوا يعمدون إلى تنفير النّاس من الجلوس إليه والسماع منه.

- أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ(8) :

ومن يستمع لقول هؤلاء يقل عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: ما لهذا الرجل؟ أيختلق على الله الكذب أم أصابه مسّ من الجنون ليقول ما يقوله؟ ليس الأمر كما يدّعون ولكنّ الذين لا يؤمنون بالآخرة التي ستكون لمحاسبة النّاس على أفعالهم ينكرون البعث، وهم بهذا بعيدون كلّ البعد عن الصواب، وتائهون عنه، وسيلقون عن تكذيبهم بما جاءهم به رسولهم من عند ربّه العذاب الذي يستحقّون.

- أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ(9) :

هذه في تحذير هؤلاء المكذّبين من إهلاكهم. أفلا يرون عظمة الله تعالى وعظيم قدرته في ما أنشأ لهم من بين أيديهم من الخلق وممّا لا يعلمون من خلفهم في الأرض، وفي عظيم مخلوقاته في السماء ممّا يبصرون وممّا لا يبصرون وممّا يأتيهم منها وممّا يغيب عليهم علمه؟ أفلا يقدر هذا الخالق العظيم أن يزلزل بهم الأرض ويشقّها من تحتهم شقّا تبتلعهم فيه ثمّ ترتطم عليهم فتذهب بهم وبديارهم فلا يبقى لهم ومنهم أيّ أثر، أو نسقط عليهم من السماء قطعا منها فتهلكهم هلاكا يستأصلهم من الوجود. إنّ في هذا التّحذير تنبيها لكلّ إنسان راجع إلى ربّه بالتّوبة والإقلاع عن الكفر لينجو بنفسه من العذاب والضلال البعيد.

- وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ (10) :

هذه الآية مع الآيات الموالية إلى الآية 14 في بيان فضائل الله تعالى على النبيّين: داوود وسليمان عليهما السلام بما آتيناهما من بين أيديهما من الأرض ومن السماء ومن خلفهما من عالم الجنّ. وهذا في مقابلة للتّحذير السابق لبيان أنّه مثلما يأتي السوء من بين أيدي النّاس ومن خلفهم من السماء والأرض كذلك يأتي فضل الله تعالى لعباده المؤمنين المكرّمين من بين أيديهم ومن خلفهم ومن السماء والأرض – والله على كلّ شيء قدير – وهذا هو المقصد من هذا العرض ومن ذاك التحذير، والغرض المنشود أن ينيب الغافل إلى ربّه وليعمل صالحا ليحمي نفسه من الهلاك ولينال خيرا من عند ربّه من حيث لا يعلم ومن حيث لا يحتسب.

والمعنى: ولقد أنعمنا على داوود من فضلنا ومن تكريمنا له لإخلاصه في دينه، وقد كان كثير الذكر والتّسبيح فأمرنا الجبال بأن تُرَجِّعَ معه تسبيحه فيسمع فيها صدى ترديد صوته ليأنس به، وكذلك يُردّد معه الطير بصيغة لا يعلمها إلاّ الله وحده. وعلمه الله كيف يليّن الحديد حتى يصير مطاوِعًا له، لا يستعصي عليه في تصنيعه على النّحو الذي يشاؤه.

- أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ(11) :

وعلّمه الله تعالى كيف يصنع (سَٰبِغَٰتٖ) وهي الدروع الواسعة التي تحمي الجند من الطعن من بين أيديهم ومن خلفهم، و(وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِ) أي وأُمِرَ – لتعليمه وتوجيهه وهذا من فضل الله عليه، وكان هذا الأمر عن طريق الإلهام – أُمِرَ بأن يَثْقُبَ في الحِلَقِ، ويغرس فيها (ٱلسَّرۡدِ) وهي المسامير، وذلك ليحكم صنع الدروع لتكون على مقاس كلّ جندي حسب حجمه. (وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا) هذا أمرٌ لجميع الخلق موعظةً من الله تعالى لينالوا خيرا وفضلا من عند ربّهم، والأمر ليس فيه عناء، وإنّما فيه الالتزام بأنْ يعمل الجميع الصالح من الأعمال. والله سبحانه مطلع على أعمال عباده ويبصر ما يفعلون، فليخشوا ربّهم فيما يعملون حتّى لا يعصوه وهو يبصرهم في ما يأتون من أعمال تغضبه ولا تُرضيه.

- وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ(12) :

ومن فضل الله تعالى على نبيّه سليمان أن سخّر الله له الريح تجري بأمره في نهار بسفنه عند إبحاره كجري مسيرة شهر بسفن غيرها، وكذا في الرواح، وبهذا يقضي شأنه بسرعة وبغير مشقّة ولا تعب، وبدون مخاطر. وعلّمه الله تعالى كيف يذيب النحاس ليصنّعه فجرى له النّحاس وسال. وسخّر الله تعالى له الجنّ لخدمته بأمره سبحانه، ومن ينحرفْ عن أمر سليمان ويعْصِه يعذّبه الله تعالى في نار مستعرة.

- يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ (13) :

ويصنع له الجنّ صدر مجالسه ومساجد وتماثيل من زجاج ونحاس ورخام، وكان التصوير في شرعه مباحا، لكنّه نسخ في شرع محمد صلّى الله عليه وسلّم. وكانوا يصنعون له قصاعا كبيرة، كلّ قصعة كالجابية، والجابية هي الحفرة الكبيرة التي يجمع فيها الماء. وكانوا يصنعون له قدورا من نحاس ثوابت لا تُحمل ولا تحرّك لعظمها. تفضّل الله تعالى على آل داوود بهذه النِّعَم ليعملوا وليداوموا على شكر الله تعالى على نعمه وفضائله. والشكر في النّصوص القرآنية لا يقتصر على حمد الله باللسان، فإنّ أداء طاعاته من الشكر من مثل الصلاة والصيام والإنفاق في

الإحسان وقليل من عباد الله الذين يشكرون ربّهم بالذكر وبالطاعات وبأعمال البرّ. وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يقوم من الليل حتى تفطر قدماه، فقالت له عائشة: أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ فقال: "أفلا أكون عبدا شكورا".

- **فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ (14) :**

هذه في التأكيد على أنّ الجنّ لا يعلمون الغيب. ومن ادّعى العلم به فهو من الدَّجَلِ والكذب. والمعنى: ولمّا بلغ سليمانَ أجلُه توفّي، ولم يشعر بوفاته أحد من الجنّ الذين كانوا يعملون تحت امرأته، وكان سليمان يجلس على أريكة من وراء زجاج شفّاف يطلع منه على عمل جنده من الإنس والجنّ ويشرف عليهم من شرفة عالية يراه العملةُ من فوق رؤوسهم فيجدّون في عملهم، وكان في جلسته وإشرافه من شرفته على عملته يتّكِئُ على عصاه، وفي ذات يوم خرّ جسم سليمان وانكبّ على وجهه، فلمّا أسرع إليه رؤساء الجند والعملة ودخلوا عليه في مجلسه وجدوه ميّتا، وقد اِنقضت أيّام على موته، ولم يَخِرَّ جسمُه على الأرض إلاّ حين تسوّست عصاه التي كان يتكئ عليها واِنقسمت وثقل عليها الجسم. وتبيّنت الجنّ وتأكّد لديهم أنّهم لو كانوا يعلمون كلّ ما يجري من حولهم –ناهيك عن علم الغيب– ما لبثوا طول مدّة وفاة سليمان وهم يعملون الأعمال الشاقّة بجدّ.

- **لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) :**

هذه إلى الآية 21 للاتّعاظ والاعتبار بسوء عاقبة مدينة سبإ. "سبأ" قبيلة كانت تقيم "بمأرب" ببلاد "اليمن"، كانوا في رغد عيش فلم يشكروا، بل كفروا وبطروا بالنّعمة فأرسل عليهم سيل جارف فذهب بخيراتهم، وأفقرهم بعد غناهم. وجاء هذا التّذكير ليعتبر به العرب الذين يعيشون في بلد آمن فيه حرم آمن ولكنّهم لم يشكروا ربّهم حين جاءهم نبيّهم بكتاب من عند الله تعالى بلسانهم فكفروا به وكذّبوا بالكتاب، وهذا من الجحود وبطر النّعمة.

والمعنى: لقد كانت بلاد سبإ علامة على النّعيم، ودليلا على فضل الله على ساكنيها لما كانوا عليه من رفاه ورخاء. كانوا يقيمون بين منطقتين عظيمتين زراعيتين فيهما من كلّ الخيرات والثمرات، إحداهما شرقية، والأخرى شمالية. كانوا يأكلون منها من كلّ الخيرات، وينعمون بجمالهما، وكانت بلدتهم جميلة: هواؤها طيّب ومناخها معتدل، وكانوا مدعوين لشكر ربّهم على فضله وعلى ما هو من نعيم من كلّ جانب. كانوا سعداء بما هم فيه وعندهم ربّ كثير المغفرة لعباده المؤمنين الشاكرين.



- فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ (16) :

(فَأَعۡرَضُوا) ولكنّهم بعد إيمان بلقيس زمن سليمان وإيمان آبائهم بربّهم الواحد الأحد عادوا لعبادة الشمس، وكفروا، فعاقبهم الله تعالى بأن أرسل عليهم سيلا جارفا أغرق خيرات الأرض، وأهلك بساتينهم ومزارعهم، وخرّبَ دورهم. وقد جرى السيل تبعا لهطول المطر بغزارة حتى اِمتلأ سدّ مأرب ففاض عليهم فيضانا حمل معه الحجارة فأمات من هلك وفرّ هاربا من البلد والدّيار من فرّ حتى خلا المكان منهم جميعا. وكان من أثر هذا السيل (ٱلۡعَرِم): الجارف أن تحوّلت البساتين والمزارع إلى أراض خربة وقاحلة لا تُنبت من الشجر إلاّ الشجر العضاة المرّ، وشجر الشوك من صنف السِدْر الذي لا يُنتفَعُ به ولا يصلح إلاّ لأن يكون مأوى للزواحف السامّة، وما عاد البلد طيّبا تستطاب فيه الإقامة.

وكان هذا العقاب جزاءً لهم على اِرتدادهم من الإيمان إلى الكفر وعبادة الشمس، ومن بعد الشكر صاروا جاحدين، وكذا يكون الجزاء من جنس العمل وهل يُقَابَلُ الكافر بغير هذا الجزاء ليعرف ما كان عليه من نعمة فخرج منها بجحوده إلى ضدّها. لم يشكر على غناه فصار فقيرا، ولم يشكر الله على حسن الإقامة فجعله متشرّدا بلا مأوى، وبعد شَبَعِه صار جوعان، والمقصود بهذه الموعظة أن يكون المؤمن شكورا، ولذلك قيل: قيّدوا النّعمة بالحمد والشكر لله المنعم، وقيل أيضا: من كان في نعمة ولم يشكر خرج منها ولم يشعر.

- وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ (18) فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ (19) :

ومن فضل الله على سبإ أن ذلّل لهم السير في ربوع البلاد على سعتها، وجعل الطريق إلى القرى المجاورة مُمَهّدَةً لسفرهم للتجارة والكسب في أمن ودون عناء. كان القوم يخرجون من مأرب إلى بلاد الشام في قوافل تجاريّة زاخرة بالخيرات، وكان يأتيهم العرب شتاءً للتسوّق، وكان أهل سبإ يسلكون طريق تهامة ثمّ الحجاز حتى مشارف الشام، ولم يكونوا يتعرّضون لقطّاع الطرق لأنّ الأرض ممهّدة ومكشوفة ومأهولة بالقرى ولم تكن القرى بين هذه المناطق متباعدة، وكانوا يجدون أماكن للاستراحة، فما كان السفر يطول عليهم، وما كانوا يتعبون، وإذا أصابهم مكروه كانوا يلقون نجدة سريعة.

ولمّا كثرت خيراتهم، ونعموا بالأمان ومتعة السّفر في غير مشقّة قالوا (رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا) ويجد المرءُ صعوبة في تعليل طلبهم هذا الغريب، كيف يدعو قوم على أنفسهم بالشقاء وهم

ينعمون بالسُّبُلِ الميسّرة لقضاء شؤونهم بغير عناء؟ سوى أن نُقَدِّرَ بأنّ واعظا قد قام فيهم لدعوتهم للإيمان بالله ولشكره على فضائله وبما كان هذا الواعظ نبيّا أرسله الله إليهم – وقد قال بعض المفسّرين بأنّ الله تعالى قد أرسل إليهم أنبياء من بعد سليمان ومن بعد عيسى، ذلك لأنّ هلاك سبإ كان في الزمن الذي جاء بين عيسى عليه السلام ومحمد صلّى الله عليه وسلّم.

قد تكون موعظة واعظهم الذي دعاهم لشكر الله تعالى على نعمه وفضائله قد اِستفزّت كبرياءهم وبطرهم فقالوا متحدّين هذا القول الغريب، فدعوا على أنفسهم بأن يباعد الله بينهم وبين المدن التي كانوا يسافرون إليها للتّجارة. طلبوا أن يجعل الله لهم في أسفارهم مَفَاوِزَ وصحارى، وتمنّوا أن يركبوا الرّواحل، فظلموا أنفسهم بهذا الطلب الغريب الذي يدلّ على شدّة صَلَفِهِمْ، فكان لهم ما أرادوا حتّى شقّ عليهم السفر، واِنقطعت بهم السُّبُلِ، وعزلوا بالجبال الوعرة، والوديان الخطرة، وصار خبرهم هذا متداولا بين النّاس للاعتبار، وللتّلهِي به في الحديث في مجالسهم، صار يُضرب بأخبارهم المَثَل، ومزقّهم الله كلّ ممزّق فتفرّقوا في الأرض تفريقا، ونراهم لليوم فرقا متناحرة يتقاتلون فيما بينهم، ويستعينون بالغير ليقتل بعضهم بعضا ولتشريد جموعهم، وصدق فيهم قول الله تعالى. وإنّ ما حدث فيهم يعتبر به كلّ من يكثر صبره على تحمّل مشقّة الطاعات، وليكثر بهذا الاعتبار شكره لله تعالى على فضله.

- وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ **(20)** :

حين أطرد إبليسُ من ملكوت الله العلوي بسبب عصيانه لأمر الله بالسجود لآدم لمّا خلقه الله تعالى أقسم إبليسُ اللّعين بأن يقعد عند كلّ صراط الله المستقيم ليضلّ بني آدم عنه، إلاّ عباد الله المؤمنين لم يجعل الله له عليهم من سلطان. وقد غوى إبليس قوم سبإ فاتّبعوا غوايته وضلّوا عن صراط الله المستقيم، ولم يجعلهم لله شاكرين، فبهذا نجح إبليس في تنفيذ قسمه إذ كانوا عند ظنّه إلاّ فريقا من المؤمنين لم يقدر على غوايتهم لأنّهم كانوا لله تعالى مخلصين في المعتقد والعبادة والطاعة.

- وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ **(21)** :

هذا الفريق من المؤمنين لم يقدر إبليس على غوايتهم، ولم يفلح في ردّهم للكفر بعد إيمانهم، ولم تكن له قوّة لإجبارهم على المعاصي. ولقد أُبتلي هؤلاء المؤمنون بوساوس إبليس لتمحيصهم في صدق إيمانهم وصدق طاعاتهم طمعا في رحمة الله في آخرتهم وطمعا في رضوانه ونعيمه، ولتمييزهم عن الشاكّين في وعد الله تعالى ووعيده، والمرتابين في البعث بعد الموت. والله تعالى يحفظ كلّ شيء على العبد حتى يجازيه عنه خيرا أو عقابا بحسب ما جاء به من الطاعات وأعمال البرّ أو المعاصي.

- **قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (22) :**

هذه الآية لغاية الآية 27 في عقيدة التّوحيد، ونبذ الشّرك: العقيدة الباطلة. وقد جاءت لموعظة مشركي العرب ليعلموا أنّ الآلهة المزعومة التي تعبد من دون الله لا قدرة لها على نصرة عُبّادِها، ولا قدرة لها على إنقاذها من عذاب الله إذا أصابهم. والمعنى: أخبر المشركين –يا محمّد– بأنّ الآلهة المزعومة التي تدعونها وتطلبون نصرتها وشفاعتها لا تملك شيئا ممّا في السماوات وممّا في الأرض ولو كان بمثقال ذرّة لا تساوي شيئا، وليس لها أيّ شراكة فيما خلق في السماوات وفي الأرض، وإنّ الله تعالى الذي أدعوكم لعبادته وطاعته ليس له من معين على الخلق والتّدبير، بل الله هو المنفرد بالإيجاد، فهو الحقيق بالعبادة والطاعة.

- **وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ (23) :**

إنّ الله أحكم الحاكمين، العدْلُ الحكَمُ لا يردّ حكمُه أحدٌ، ولا يشفع عنده في حكمه على عبد إلاّ من أذن الله له من الأنبياء والمرسلين– ومحمّد صلّى الله عليه وسلّم صاحب الشفاعة الكبرى– والملائكة المقرّبين ورضي له قولا، وأن ما تدّعون من أنّ آلهتكم المزعومة قد تشفع لكم بين يدي الله فهو وَهمٌ باطل. حتى إذا ذهب الخوف والفزع عن قلوب الذين ضلّوا في عبادتهم واتخذوا من دون الله آلهة أخرى تساءلوا فيما بينهم فقال بعضهم لبعض ماذا قال لنا تعالى من قبل أجاب بعضهم: قد جاءنا الحقّ من ربّنا أنّه لا شفاعة عنده إلاّ لمن أذن له لأنّه لا حاكم غيره، ولا إلاه غيره، وهو العليّ الكبير الذي لا يردّ حكمه، وهو العظيم لا أحد يتكلّم عنده حتّى يأذن له.

- **قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (24) :**

اِسألهم عمّن يرزقهم من السماوات من ماء ومن الأرض من خيراتها أهي آلهتهم أم الله تعالى؟ إنّه الله عزّ وجلّ هو الرّزاق فاعبدوه وأشكروا له، وأُتركوا عبادة أحجار أصنام لا ترزقكم بشيء ولا تنفعكم. ويقول أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم للمشركين: لسنا على أمر واحد: إنّا أو إيّاكم على الحقّ والصواب، والآخرون على ضلالة واضحة. هذه في تعليم المسلمين أسلوب المحاجّة الهادئة المقنعة. إذا أجاب المشركون عن من يرزقهم من السماوات ومن الأرض بأنّه "الله" فقد قامت عليهم الحجّة. فإن سكتوا عنادا ومكابرة قالوا لهم: (وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)(الجاثية الآية 24) على نحو ما يقول أحدهم لخصمه: أحدنا مخطئ، وهو يعلم أنّه على صواب، وأنّه ما أخطأ، ويسمّى هذا في علم المناظرة إرخاء العنان للمناظر لأنّ الحجّة عليه واضحة.

- قُلۡ لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ (25) :

وقولوا لهم: لا تسألون عمّا اِرتكبنا من ذنوب وآثام – وحاشا المسلمين أن يكونوا عصاة مذنبين، ولكنّه من إرخاء العنان لتكون المجادلة هادئة غير مستفزّة – كما لا نسأل عمّا تعملون من أعمالكم، وهذا كقوله تعالى: (لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ)(الكافرون الآية 6).

- قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ (26) :

أخبرهم بأنّ الله سيجمع بينكم للفصل بينكم بالعدل، ويقضي فيكم وهو القاضي الحاكم العالم تمام العلم بأفعال الجميع. وهذا لختم الجدال العقيم مع المعاندين، بمثل قول القائل: "الله بيننا".

- قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (27) :

وقل لهؤلاء المشركين: أروني هذه الآلهة التي جعلتموها شركاء لله تعالى في استحقاق العبادة والطاعة والدعاء. عرّفوني بخلقها وبشرعها وبماذا تسمع وكيف تجيب دعوة الداعي إذا دعاها. (كَلَّا) ليس الأمر كما زعمتم، ليس لله شركاء، بل هو الله العظيم الذي لا يبلغه أحد، ولا يردّ أمره أحد، وهو الحاكم والحكيم الذي يقدّر الأشياء بحكمة، ويضع الأمور موضعها.

- وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ (28) :

هذه الآية مع الآيتين الواليتين في التّأكيد على رسالة النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم، وفي التّأكيد على وقوع البعث، وهو من أشدّ ما ينكره المشركون. والمعنى: وما أرسلناك يا محمد، إلاّ للنّاس أجمعين، فمن صدّق بك، وآمن بما جئت به من عند ربّك من عقيدة وأحكام وشريعة فبشّره برضوان ربّه، وبالإنعام عليه بالجنّة والنّعيم، ومن كذّب بك وبما جئت به من عقيدة وشرع وموعظة، وكفر فحذّره من العذاب. ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون ما عند ربّهم من فضل وتكريم وخير عميم لمن آمن وصدق في طاعته وأخلص في عمله، ولا يعلمون شدّة العذاب الذي ينتظر الكافرين والعصاة المذنبين، ولو علموا لسابقوا لمغفرة من ربّهم ورضوانه.

- وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (29) :

ويسأل المكذّبون بالبعث والحساب وبالوعيد متى تقوم الساعة ويكون هذا البعث إن كنتم صادقين– أيّها المسلمون المؤمنون بالبعث وبالحساب– وما كان سؤالهم إلاّ لاستبعاد وقوعه ومن إنكارهم له، ومن تكذيبهم بالوعيد، وهم القائلون (وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ).

- قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٍ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةً وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ (30) :

أخبر –يا محمد– هؤلاء المكذّبين بأنّ لهم موعدا مع هذا البعث ومع الحساب يوما، ولن يتأخّروا عن الاستجابة للقيام له ساعة، ولا يُقَدَّمُ على نحو ما يرجون، لأنّ أجله عند الله تعالى، فانتظروه، ولن تفلتوا منه.

• وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ (31) :

لمّا جاء إخبار المكذّبين بالبعث بأنّ يومه واقع حتما، جاءت هذه الآية، وما بعدها لغاية آية 42 في مشاهد لوقائع الآخرة في الذين كانوا يكفرون بها قصد الاتّعاظ والإنذار والتّحذير، فمن كذّب بعد هذا فهو الظالم لنفسه بتكذيبه بقول الله الحقّ ووعده الصادق. (وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا)(النساء الآية 87)

والمعنى: وقال المشركون المكذّبون بالرسول وبما جاءهم به من عند ربّه من كتاب: لن نؤمن بهذا الكتاب ولن نصدّق به، ولا بالوحي، ولا نصدّق بالكتب التي سبقته: التوراة والإنجيل. وما هذا التّكذيب الذي جمع بين جميع الكتب السماوية إلاّ دليل على شدّة عناد هؤلاء وعظيم مكابرتهم من جهلهم وكبريائهم. (وَلَوۡ تَرَىٰٓ) أسلوب يدلّ على عجيب ما سيحصل مستقبلا من عظيم الأمر عند ما يساق هؤلاء الظالمون أنفسهم بالكفر والتكذيب إلى ربّهم للحساب على أعمالهم وأقوالهم، ويُحبسون في الموقف منتظرين حسابهم، لو قُدِّرَ لك أن تراهم في ذاك الموقف لرأيت بعضهم يردّ على آخرين اللوم، ويَعْتُب بعضُهم على بعض. ويومئذ تسمع الأتباع الخدم المستضعفون يعتبون على أسيادهم المستكبرين العتاة: لولا أنتم الذين أكرهتمونا على الكفر لكُنّا مؤمنين، ولكُنَّا ناجين اليوم من هذا الموقف العسير ومن سوء عاقبته.

• قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ (32) :

ويومئذ يتبرّأ المستكبرون من صدّهم عن الهدى ويقولون لهم: أنحن الذين منعناكم عن الاهتداء للإيمان بربّكم وبرسوله وبشرع الله بعدما جاءكم من العلم به لصلاحكم، بل كنتم تفضّلون الكفر على الإيمان، وتفضّلون المعاصي على الاستقامة.

• وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (33) :

وردّ المستضعفون عليهم قولهم بتذكيرهم بأنّهم كانوا يُغْرُونهم بالليل والنّهار بِاتّباعهم والإعراض عن الإيمان بالله وحده لِنَنْسِبَ إليه الأنداد والشركاء مماثلين له في التقديس والدعاء. وأخفى كلّ فريق عن الفريق الثاني شعوره بالنّدامة والحسرة لمّا عاينوا العذاب ورأوْا ما ينتظرهم منه، ثمّ قيّدوا بالسلاسل وجعلت أيديهم مغلولة إلى أعناقهم لإذلالهم بعد كبريائهم واِستكبارهم



وهزئهم وهل يلقى المستكبر والمتعاظم جزاءً غيرَ جزاءِ الإذلال والعذاب المهين لمقابلة أعمالهم التي كانوا يعملون مع المعاصي والاستخفاف بالوعيد.

- وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ (34) وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (35) :

الآيتان في استكبار المتعاظمين بالمال وبالرجال الأعوان. وقد جاءتا لتسلية الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ليعلم أنّ ما يلقاه من سادة قريش وزعمائها قد لقيه كلّ رسول وفي كلّ قرية كثر فيها طغاتها، فإنّهم في اعتدادهم بأنفسهم وفي طغيانهم سواء في كلّ قرية. والمعنى: وما أرسلنا في قوم من الأقوام من رسول لينذرهم من بطش الله تعالى إذا تمادوا في كفرهم وطغيانهم إلاّ وَوَاجههم المتعاظمون برفض دعوتهم، وبتكذيبهم، وباستخفافهم بالوعيد، وجاهروهم بتمسّكهم بكفرهم. وقالوا لهم نحن برضى آلهتنا صِرْنا أكثر النّاس مالا وولدا وأعوانا، وبرضاء آلهتنا عنّا لا نعذّب، ولا يُصيبنا مكروه. يحسبون أنّ من كان ذا وجاهة في دنياه سيكون وجيها في آخرته إذا آمن بها، ويحسبون أنّ آلهتهم تمنع عنهم كلّ إصابة بسوء.

- قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (36) :

أخبرهم أنّ الرّزق الذي ينعمون به هو من عند الله الرّزاق، وهو المنعم الذي يبسط الرزق لمن قدّر له التوسعة في الرّزق، وهو الذي يعطي غيره على قدر ما يستحقّ، ولكنّ أكثر هؤلاء المتعاظمين لا يعلمون أنّ ما أوتوه هو من عند الله، ولذلك لا تجد أكثرهم شاكرين، ويتوهمّون أنّ ما رزقوا به من مال وبنين هو من عند أنفسهم كالذي قاله قارون: (قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ)(القصص الآية 78).

- وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ (37) :

وهذه في الردّ على هؤلاء الأثرياء المتعاظمين غير المؤمنين والذين هم لما آتاهم الله من نعمة جاحدون ليعلموا أنّ التّقرّب إلى الله تعالى يكون بصدق الإيمان به، وبالإخلاص له في الطاعة، وفي ما يعملون من أعمال البرّ والإحسان تثبيتا من أنفسهم وابتغاء وجه الله. هؤلاء يجزون جزاءً مضاعفا تكريما لهم بما عملوا، ويُؤْوَوْنَ يوم القيامة في الغرفات العالية آمنين من العذاب ومن كلّ مكروه. وفي هذه الآية ردّ على مشركي مكة الذين كانوا يتقرّبون إلى آلهتهم بالذبائح وبما يدّعون من السائبة والوصيلة والحام، فهذه الأعمال لا تقرّبهم من الله زلفى ما لم ينبذوا الشّرك وما لم يصدقوا في إيمانهم بالله وحده وما لم يعملوا بطاعاته. قال تعالى: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ)(الحجرات الآية 13).



- وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ (38) :

والذين يحسبون أنفسهم أنّهم فائتون من العذاب وهاربون منه لأنّهم من أهل الوجاهة في دنياهم، ولظنّهم الخاطئ بأنّ آلهتهم تشفع لهم، فإنّهم واهمون. ستحضرهم ملائكة العذاب للحساب، وستَسُوقُهم إلى جهنّم.

- قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (39) :

هذه في الردّ على الذين يظنّون أنّ ما بلغوا إليه من جاه في قومهم لكثرة أموالهم وأولادهم كان من مباركة آلهتهم التي يدعون ليعلموا أنّ الرّزق من عند الله ليصحّحوا معتقدهم. وجاءت هذه الآية في الترغيب في الإحسان، وفي البذل. والمعنى: أخبرهم أنّ الله هو الذي يبسط الرّزق لمن يشاء من عباده ويوسّعه له، وهو الذي يقدّره له على قدر حاجته إليه، وهذه من قضائه تعالى ومن مشيئته، ومن تدبيره ليكون بعضهم لبعض خدما وعمّالا وأعوانا. وكلّ ما ينفق الإنسان من ماله في طاعة الله، وفي أعمال البرّ، وفي صالح الخدمات العامّة للنّاس فإنّ الله تعالى يَعِدُ المنفق بالتّعويض له، والله خير الرّازقين لأنّه الجواد الكريم، وبيده الرّزق.

قال ابن العربي الفقيه الأندلسي في تعويض نفقة عمل البرّ والإحسان: "قد يعوّض مثله أو يزيد، وقد يعوّضه ثوابا، وقد يُدَخَّرُ له وهو كالدعاء في وعد الإجابة". وقال شيخنا ابن عاشور: "وقد يُعَوِّضُ صحّةً، وقد يعوّض تعميرا، ولله في خلقه أسرار". وعموما فإنّ التّعويض وعد ثابت.

- وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ (40) :

كان العرب في جاهليتهم يدّعون أنّ الملائكة بنات الله من سروات الجنّ – سبحانه وتعالى عمّا يصفون– وخاصّة حيّ من خزاعة. وكانوا يسمّونها (اللاّت والعزّى ومناة). ونحتوا لها صورا من الحجارة وجعلوا يقدّسونها متوهمّين أنّها ستقرّبهم بعبادتهم لها من الله، وأنّها ستكون لهم شافعة من كلّ عذاب. وجاءت هذه الآية لإبطال معتقدهم. والمعنى: ويوم القيامة حين نحشر للحساب عبّاد الأصنام التي يدّعون أنّها صورا للملائكة، ثمّ ندعو الملائكة فنسألهم: أكان هؤلاء يعبدونكم؟

- قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ (41) :

فتتبرّأ الملائكة من عبادتهم وتقول: تنزّهْتَ ربّنا عن الصاحبة والولد، وتعاليت، أنت الذي نواليه ونطيعه، ولا نعبد سواك، وإنّا لا نُوَالِي هؤلاء، بل كان هؤلاء يعبدون شياطينهم التي كانت توسوس لهم لعبادة مَنْ سِواك. وأكثر هؤلاء مطيعون للشياطين يصدّقون وساوسهم.

- فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (42) :



فيقال عندئذ للكافرين المشركين: اليوم لا تقدر لكم الملائكة أن تنفعكم بشيء أو أن تضرّكم بشيء، ولا أنتم قادرون أن تشفعوا لبعضكم أو أن تنجوهم من العذاب. ويُقْضَى على الذين ظلموا أنفسهم بالشّرك وباتّباع أوهامهم بأن يؤخذوا إلى جهنّم ليعذّبوا بنارها التي كانوا لا يصدّقون بها، وكانوا لا يصدّقون بالبعث والوعيد.

- وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (43)

هذه مع الآيات الموالية إلى الآية 50 في تثبيت الرّسول صلّى الله عليه وسلّم الذي طعن المشركون في صدقه وصدق ما أوحِيَ إليه من القرآن، واِتّهموه بالجنون، وباعتماد صدّهم عن دينهم.
والمعنى: وإذا قُرئت آيات من القرآن على المشركين واضحة الدّلالة على إعجازها وعلى أنّها من عند الله تعالى لما فيها من براهين واضحة على وحدانيته، وعلى ضلالتهم فيما يعتقدون، اِتّهموا الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بأنّه رجل يريد أن يصرفهم عن عبادة آلهتهم التي كان آباؤهم يعبدونها، واِتّهموه بالكذب على الله بادّعائه أنّ ما يقرأه عليهم هو وحي من عند ربّهم، وقالوا في كلام الله الحقّ إن هو إلاّ من كلام مختلق من عند محمد صلّى الله عليه وسلّم. وحينما تصدمهم الحجج في الآيات البليغة المعجزة التي اِستمعوا إليها قالوا في هذا الكلام الحقّ والصادق في الهدى والرّشاد وفي الدلائل والحجج، ما هذا الكلام إلاّ سحر ظاهر لمن يتأمّل فيه.

- وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ (44) :

وما أنزل الله عليهم من قبل من كتب تدارسوها فعلموا أنّ ما جاءهم كذب ومن الافتراء، ولم يأتهم من قبلك – يا محمد – من رسول ينذر الكافرين والعصاة بعذاب الله ليميّزوا بينك وبينهم ليعلموا أنّك مجنون وأنّك تصدّهم عن دين آبائهم.

- وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (45):

هذه في تسلية النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وهي في الآن ذاته في إنذار مشركي العرب.
والمعنى: ولقد كذّب الذين من قبلهم رسل الله، كذّبوا نوحا وهودا وصالحا وإبراهيم.. وكانوا أكثر سطوة وبطشا وقوّة من هؤلاء الذين كذّبوا بك. لم يبلغ هؤلاء عشر ما كان عليه سابقوهم، كان أوائلهم أكثر منهم مالا وقوّة وكبرياء وسطوة، وكانوا أكثر منهم فهما وعلما وأقوى حجّة، ولينظروا كيف كان عاقبة المكذّبين وكيف كانت نهايتهم المأسوية المهلكة المدمّرة لأنّهم أنكروا الحقّ وكذّبوا به.

- قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (46) :

لمّا كثر جدال أهل مكة حول بعثة الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وحول اِصطفائه رسولا، وفي دعوته للإسلام، وكثر تحاورهم حول البعث والوعد والوعيد، واِختلفت آراؤهم حول التوحيد وتعدّد آلهتهم، وكثر جدالهم حول القرآن ووحيه أُمِرَ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم أن يعظهم بموعظة واحدة أو بكلمة واحدة لينظروا فيها فرادى أو جماعات مثنى، وهي كلمة التوحيد: لا إلاه إلاّ الله. وهذا كقوله تعالى في أمره لأهل الكتاب حين تحوّل إلى المدينة المنوّرة. قال تعالى (قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا)(آل عمران الآية 63).

وقوله تعالى (أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ) : أي القيام إلى طلب الحقّ: هل الله واحد، أم لكم آلهة. فكّروا في هذا فرادى أو جماعات: اثنين اِثنين، وناقشوا الأمر. ثمّ تفكّروا وتحاوروا فيما بينكم هل علمتم بمحمد جنونا يوما كما تزعمون. إن هو إلاّ منذر لكم يحذّركم من عقاب الله الشّديد لمن كذّب بوحدانيته، وبرسوله وكتابه ولمن عصى أمره.

هذه الآية في الدعوة للعقلانية، وللدعوة للتفكّر الهادئ الرّصين في خاصّة أنفسهم أو في جماعات.

- قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ **(47)** :

أخبرهم – يا محمد – أنّ ما تدعوهم إليه للإسلام ولتوحيد الله ولطاعته هو لفائدتهم، لا لفائدتك، قل لهم: ما أريد أن أنتفع منكم بشيء، أنتم الذين ستنتفعون بإيمانكم بإنقاذكم من عقاب الله، وأمّا أجري فهو على الله تعالى، والله هو الرّقيب عليّ وعلى عملي وهو عليم بما أفعل وبما أدعوكم إليه، وهذا لإثبات صدقه، وهو الصادق الأمين صلّى الله عليه وسلّم.

- قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ **(48)** :

أخبرهم أنّ الله يبيّن لكم في كتابه أدلّة الحقّ القاطعة الواضحة التي تفضح الباطل وتردّه، وهو تعالى الذي يطّلع على النّوايا، وهو العليم بسرائركم، وهو العليم بمن يصطفيهِ لحمل رسالته إلى النّاس.

- قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ **(49)** :

قل قد أتاكم القرآن بالهَدْيِ من الله تعالى لتميّزوا به بين الحقّ والباطل، وجاءكم بالأدلّة التي تبطل الشرك وتذهب به حتى لا يبقى له أثر، والحمد لله قد صدق وعده إذ ذهب الشِرك وانتهت دولته وما عاد النّاس يعبدون الأصنام إلاّ الذين لم تبلغهم بعدُ دعوةُ الإسلام.

- قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ**(50)**

هذه في الرّدّ على الذين يعتبون على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لترك دين آبائه، ولدعوته للنّاس بالانصراف عنه. والمعنى: إن كنت قد تركتُ دين آبائي فضللت فإنّي أتحمّل جريرة



ضلالتي، وإن كنت على الحقّ، والدّين الذي يجب الاستقامة عليه فهذا بما تفضّل الله به عليّ بما أوحي إليّ من الهدى والرّشاد. إنّه سميع لمن يدعوه وقريب ممن يعبده ويناجيه، فتقرّبوا منه بطاعته وعبادته ليسمع مناجاتكم ودعاءكم.

- وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ(51) :

هذه إلى آخر السورة في مشهد من مشاهد فزع الكافرين يوم القيامة حينما يقومون للحساب، وهذا للتّحذير من سوء العاقبة، ولإنذار الكافرين. والمعنى: ولو كان لك أن ترى ما يحدث يوم القيامة للكافرين حين يقومون للحساب لرأيتهم يقومون منزعجين وخائفين حين يبعثون، ولرأيتهم يحاولون الهرب من الموقف، ولكن لا مهرب لهم منه ولا نجاة لهم من دفعهم للميزان، ومن فرّ منه فإنّه سرعان ما يُمْسَكُ به، ويُساق للمحاسبة قبل أن يبعد عن الموقف.

- وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ (52) :

يومئذ يقرّ المكذّبون بالبعث وبالحساب بأنّهم يصدّقون بيوم القيامة، ولكن لا ينفعهم ذلك التّصديق به فكيف لهم أن يرجعوا لدنياهم ليتوبوا عن تكذيبهم وليصدّقوا بما جاءهم من خبر يوم القيامة، فبينهم وبين الدنيا مسافة بعيدة في المكان والزّمان، قد بعدت عنهم دار العمل والتّوبة.

- وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ (53) :

لقد كفروا بالبعث وبالوعيد وبالحساب من قبلُ حينما كانوا في دنياهم، دار العمل والتّوبة ودار الإيمان والعبادة، وكانوا يهزؤون بالبعث وبالوعيد ويتكلّمون بالتّكذيب والإنكار في ما لا يعلمون من أمور الآخرة الغيبية، وبينهم في دنياهم وبين آخرتهم مسافة بعيدة.

- وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ (54) :

وحين دخلوا جهنّم بسبب كفرهم وهزئهم بالبعث وبالوعيد يئسوا من تحقيق رغبتهم في أن يعودوا لدنياهم ليتوبوا وليؤمنوا مثلما يئس من سبقهم إليها من الكافرين من الأمم السالفة من عودتهم للدنيا ومن رغبتهم في أن يكونوا ترابا. لقد كان هؤلاء غير مصدّقين بوحدانية الله تعالى، وكانوا يشكّون في صدق رسلهم، وكانوا يرتابون فيما جاءهم من خبر الآخرة وخبر الحساب فساءت عاقبتهم.

والمقصود من عرض هذا المشهد تحذير الشاكّين المرتابين من التّمادي فيما هم عليه ليُنْقِذُوا أنفسهم من هذه الأهوال.



آياتها	ســــورة **فاطـــــــر**	رقمها
45	ــــــ مكيّة ــــــ	**35**

سمّيت بسورة "فاطر" في المصاحف، واِسمها في صحيح البخاري وسنن التّرمذي وفي بعض المصاحف سورة "الملائكة" وهي سورة مكيّة.

بدأت بالثناء على الله عزّ وجل لعظيم خلقه، ووفرة نعمه، وجاء فيها ما يثبّت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم للتّصديق به. وحذّرت من الكفر والتّكذيب بالبعث ونقض العهد. وأثنت على المؤمنين المقيمي الصلاة والمنفقين، وعلى حفظة كتاب الله عزّ وجلّ. وختمت بالتحذير من سوء عاقبة الكفر. شأنها في هذا شأن السور المكيّة.

- ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ **(1)** :

الثّناء على الله الثّناء الجميل، وهو المستحقّ للحمد والشكر والثّناء في كلّ وقت وحين، وفي كلّ حال. إنّه مبدع السّماوات والأرض ومخترعها وموجدها من غير مثال سابق. وقد جعل الملائكة رسله إلى من يشاء من عباده. من الملائكة: الحَفَظةُ، ومنهم رسلُ الرحمة لنصرة المؤمنين عند قتالهم لأعدائهم الكافرين، ومنهم ملائكةُ العذاب الذين يرسلون لعذاب القرى الكافرة. ومنهم ملكُ الوحي: جبريل. ومنهم ملك الموت. ومنهم إسرافيلُ. وهناك أصناف أُخَر ورد ذكرهم في سور "الصّافّات، الذّاريّات والنازعات". وهناك ملائكة ليسوا رسلا من مثل حملة العرش ومن حوله. وعموما إنّهم يمثّلون عالما من الخلق لا نراهم. والملائكة –كما جاءنا في الخبر– هم خَلْقٌ من نور قادرون على التشكّل في أيّ صورة، مسكنهم السماوات، شأنُهُمْ طاعةُ الله فيما يأمرهم به. والملائكة من خلق الله. منهم ذوو أجنحة مثنى مثنى، ومنهم ذوو أجنحة ثلاث ثلاث، ومنهم ذوو أجنحة رباع رباع. لا نعرف هيئاتهم، ولا كيف ينتقلون، ولا ما يطعمون، ولا كيف يحيون؟ هذا ممّا يغيب علينا علمه وهم أحياء صفتُهم أنهم يسبّحون بحمد ربّهم، ولا يعصون الله فيما أمرهم. إذا كان ما هو موجود في عالمنا من خلق الله لا نعلم عنه شيئا إلاّ ما أخبرنا به الله فكيف لنا أن نعلم ما سيزيد الله في خلقه، ولم يخلق بعدُ؟ لذلك فإنّ جملة (يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُ) ممّا يَغْلُقُ علينا تصوّره وإدراكه، وهذه الجملة كقوله تعالى (وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ)(النحل الآية 8). هذه الجملة يُسأل عنها علماء الفلك لأنّهم ما فَتِئُوا يخبروننا من حين لآخر عن كشف جديد لنجم ظهر،

ولآخر اِندثر أو اِنفجر فصار شهبا. أو ليسْأَلْ عنها علماء الجينات والباحثين في كشف الجراثيم والفيروسات ليحدّثوه عن تطوّر الأحياء، وعن النّشوء. لقد سمعنا من بعضهم حديثا عجبا عند اِنتشار فيروس (كوفيد 19 المستجدّ) من سلالة فيروس "كورونا"، فيروس مستجد لم يكن لأيّ عالم وطبيب وباحث في الأمراض المعدية أيّ دراية به، ولم يجد مصنعو الأدوية والأمصال له دواء ولا مصلا، وهو فيروس لا يُرى بالعين المجرّدة، ولا يُعرف إلاّ بأثره القاتل، اِنتشر في العالم اِنتشارا فظيعا أذهل جميع الخلق وأرعبهم وأسكنهم في بيوتهم زمنا ودمّر اِقتصاد بلدان ومصانعها وعطّل عمالا عن أعمالهم. ألم يكن من المزيد في الخلق ليعلم العالم مهما أوتي من العلم أنّه لا يعلم إلاّ قليلا، وليعرف الباحث أنّ ما غاب عن علمه أكثر ممّا علم. وليعلم جميع المؤمنين أنّ قدرة الله تعالى على خلقه عظيمة وشديدة عليهم، ولكنّها يسيرة على الله عزّ وجلّ، الله قادر على أن يبعث على عباده ما لا يُرى ليذكّرهم به وبقدرته عليهم ليردّهم إليه ردّا جميلا. واِسألوا علماء الحيوان عن معنى هذه الجملة ليحدّثوكم عن أصنافٍ من الحيوان اِندثرت، وأخرى ظهرت بتناسل أصناف مختلفة من سلالة محدّدة فتولّد عن هذا التناسل حيوانات ذات خصائص أخرى مميّزة. ومثله عالم البنات. قد كان أجدادنا يعرفون صنفين أو ثلاث من البرتقال، واِسأل اليوم عن أصنافه واِختلاف مذاقاتها لتعلم ما زاد عمّا كان يعرفه أسلافنا، ومثل ذلك في حبّ القمح وحبّ الزيتون وأصناف الخضر والحشائش. يزيد الله في خلقه ما يشاء، جملة لو تدبّرها كلّ إنسان لأدرك بعضا من عظيم القدرة للخالق المبدع المبتكر. وهذا هو موضوع الآية أن تعلم شيئا من معاني أنّه تعالى فاطر الخلق مَبْدَئِيًا.

ومن المعاني المُستفادة من هذه الجملة خاصّة، ومن الآية عموما، ومن لفظ "فاطر" أنّ خلق الله في السماوات وفي الأرض لا يتوقّف، إمّا بإيجاد الشيء الجديد يُتَعَرَّفُ عليه بالكشف العلمي المتطوّر، أو بالتجارب النّاجحة في تطوير أصناف المخلوقات ممّا يخرج من الأرض، أو من أصناف الحيوان، وممّا يطعمه الإنسان لغذائه أو لعلاجه أو لِتَجَمُّلِهِ، أو لتطوير أسلوب حياته في سكنه ولرفاهه.

أُلمُستفاد عموما من هذه الجملة أنّ الحياة خاصّة، والوجود عموما في حركة دائمة، وتطوّر، ونموّ، واِزدياد، ليس من خصائص الحياة والوجود والخلق الرَّتَابَة، الكلّ في حركة، والجمود في الموت. لا توقّف مع الحركة، وليس مع الزّيادة والنموّ عودة للخلف. لا عودة للخلف وللوراء مع منطق الحركة والزيادة. الحالمون بالعودة لحياة السّلف، ولطبائع الأسلاف ونمط الحكم عندهم، وأساليب التعليم عندهم غير واعين بخاصية الحياة والحركة والمسيرة إلى الأمام. الدعوة إلى السلفية دعوة للجرّ إلى الخلف، ودعوة للتّوقّف عن الزّيادة في الخلق، والزّيادة في الخلق من صفات فاطر السماوات والأرض. لا رجوع للخلف مع هذا المبدإ. الكلّ يجب أن يكون في حركة

دائمة. كذا الوجود في كلّ يوم يظهر، يظهرُ معه الجديدُ: اُلمُكتشَفُ، أو المُبْتَكَرُ بالتّجربة، أو بالتّصنيع. وما يُنْتِجُهُ العقلُ البشري من إختراعات مدهشة في وسائل النقل، أو وسائل الاتّصال، أو في وسائل التّعمير والبناء، أو في وسائل التّصنيع هي في أصلها من خلق الله تعالى، لأنّ العقل البشري من خلق الله، وإنّ الإلهام هو ممّا غرسه الله في النفس البشريّة، وإنّ حبّ الإنسان للابتكار هو من خاصية الاستخلاف في الأرض، وقد جعل الله له كلّ ما على الأرض مسخّرا لفائدته. لكم أودّ أن يتدبّر كلّ مؤمن في ساعة من وقته في مفهوم هذه الجملة (يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ) ويتدبّر في أبعادها، فسَيَبْحرُ بعقله في خواطر كثيرة.

إذا تدبّر القارئ هذه الآية وأدرك معانيها وأبعادها فسَيَبْلُغُ بنفسه لأن يقول (إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) الغاية المقصودة من الآية أن يدرك هذه الحقيقة.

- مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ **(2)** :

ما يعطي الله النّاس من نعمة وفضل من السماء من مثل الغيث والرّياح اللواقح ومن ضوء الشمس ونورها أو من خزائن الأرض من مثل النّفط أو المعادن أو من الأنعام وخيرات الزرع والشّجر، ويَهَبَهَا لهم خالصة من عنده فلا رادّ لفضله وهو الجواد الكريم، وإذا حبس عنهم الغيث وأجدبت أرضهم ونفقت أنعامهم وجاعوا أو عطشوا فلا أحد يستطيع أن يمنحهم ما يستحقّون من النّعم لتحيا أرضهم ولتكثر ثمارهم وتنتج أنعامهم، لا أحد يستطيع أن يمنحهم ما حبسه الله عنهم. إنّه تعالى الحاكم الذي لا يُرَدُّ حُكْمُهُ ولا يُمْنَعُ، وهو الحكيم الذي يعلم ما يفعل ويعلم نتائجه ويقدّرها تقديرا.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ **(3)** :

يا أيّها الناس اشكروا الله تعالى على نعمه وفضائله عليكم، ولا تجحدوها، وتفكّروا هل عندكم من إلاه غير الله يمنحكم الخيرات من السماء ومن الأرض. إنّه الله وحده هو الرزّاق وهو المنعم، وليس لكم من إلاه غيره، لا إلاه إلاّ هو فكيف تنصرفون عن توحيده وعن عبادته وعن طاعته وعن شكره، وعن ذكر آلائه ونعمه عليكم، فتوبوا إلى الله ولا تعبدوا سواه. وهذا هو الغرض المقصود بهذا التّذكير.

- وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ **(4)** :

هذه في تسلية الرّسول صلّى الله عليه وسلّم حتى لا يحزن لتكذيب قومه له بالافتراء على الله تعالى الكذب. والمعنى: وإن يكذّبوك فلا تحزن فهذا من طبع الكافرين المشركين في كلّ قوم، ما

جاءهم من رسول إلاّ كذّبوا به حين دعاهم للتوحيد ونبذ الشّرك وحين أنذرهم بعذاب الله في الدنيا وفي الآخرة. وإلى الله يرجع أمر الخلق كلّهم، فمنهم من يقذف الله في قلبه الإيمان فيتهدي، ومنهم من يعاند ويكابر فيظلّ على كفره.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ **(5)** :

هذه مع الآيات الثلاثة الموالية في موعظة النّاس حتى لا يغترّوا بالحياة الدنيا وبتغرير الشيطان لينقذوا أنفسهم من عذاب الله تعالى. والمعنى: يا أيّها النّاس إنّ أمر قيام الساعة للبعث وللحساب أمر واقع حقّا وهو أمر ثابت، وهذا وعد من الله ليثيب المؤمنين وليعاقب الكافرين، فلا تجعلوا الدنيا أكبر همّكم تلهيكم بمشاغلها ولهوها وزينتها عن طاعة الله تعالى وعن العمل للآخرة. لا تنخدعوا بحياتكم الدنيا واعلموا أنّ من بعدها حسابًا وحياة أخروية، ولا تنخدعوا بوساوس الشيطان ليُلْهيَكُم عن طلب الآخرة بالانغماس في لهوها وإتيان المعاصي، ويصرفكم عن ذكر الله وعن العمل للآخرة.

- إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ **(6)** :

اِحذروا وساوس الشيطان وإغراءاته فإنّ الشيطان عدوّ للإنسان لا يحبّ له الخير، فاحذروه، واجعلوه عدوّا لكم، وحاربوا في أنفسكم وساوسه. إنّه يجرّ أتباعه ليكونوا من أهل الجحيم ليعذّبوا بنارها المستعرة.

- ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ **(7)** :

اِعلموا أنّ الكافرين بالله وبرسله وبما أنزل عليهم من ربّهم: أتباع الشيطان سيلقون في آخرتهم عذابا موجعا وقاسيا في آلامه. وأمّا الذين آمنوا بالله وبرسله وبكتبه وعملوا بشرع الله وبالطاعات وآتوا أعمال برّ فإنّهم سيحْظَوْنَ بمغفرة من ربّهم حتّى لا يُؤَاخذُوا عن سيّئاتهم، وسينعمون بثواب كبير ينقذهم من العذاب ويجعلهم في منازل التّكريم يحْيَوْن فيها حياة أبدية آمنة.

- أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ **(8)** :

أفمن حَسَّنَ له الشيطان أعماله السيّئة ومعاصيه فرأى نفسه في حال حسن كالذي قاوم الشيطان وأطرد وساوسه من نفسه، لا يستويان. إنّ من اِتّبع الشيطان فقد ضلّ عن سبيل الله، والله لا يهدي من ضلّ عن سبيله وغفل عن طاعته، فيتركه لضلالته، وأمّا من اِهتدى إلى الله وعمل بطاعته فإنّ الله يزيده هدى. فلا يشتدّ حزنك – يا رسول الله – على الكافرين الضالّين، ولا تهلك نفسك حسرةً عليهم. إنّ الله عليم بما يفعلون، وبما يقولون، وبما يأتون من المعاصي، وعليم بما يكذّبون، وسيحاسبهم على أعمالهم.



- وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ (9) :

هذه إلى الآية 14 في التوحيد، في دلائل القدرة والإنعام، والمعنى: الله هو الذي يرسل الرياح بأمره لتُنْشِئَ السحاب وتحرّكه فتسوقه إلى بلد مجدب للإنبات فيه ولإحياء أرضه حتى تخصب بعد جدبها وجفافها وتنبت الزرع والشجر وتنتج الثمر لطعام ساكنيه وفاكهتهم. ومثل ما يُتِمُّ إحياءَ الأرض يكون إحياء الموتى لبعثهم للحساب.

- مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ (10) :

من كان يريد الشرف والمنعة والمكانة الرّفيعة فليطلبها من الله تعالى لأنّه هو العزيز ذو العزّة الذي يَقْهِرُ ولا يُغْلَبُ، وهو العظيم، ولا ينال هذا الطلب إلاّ بطاعته والدعاء له، ولا تكون العزّة بالانتساب لآلهة مزعومة كما يفعل العرب. إلى الله تعالى يصعد الدعاء والذّكر والتّهليل عن عقيدة صادقة، والأصنام صمّاء لا تسمع ولا تُجيب. وهو تعالى عليم بعمل العابد الذي يعمل صالحا من الطاعات وأعمال البرّ، فيرفع به صاحبه. وأمّا أهل الرّياء، والذين يمكرون بالنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ليلحقوا به الأذى، والذين يعملون السيّئات في دنياهم فلهم عذاب موجع وأليم في آخرتهم، وأمّا مكرهم فذاهب وباطل ولا يفلحون في تحقيقه.

- وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ (11) :

هذه في الاستدلال على اِنفراد الله بالخلق، وعلى كمال علمه وتقديره، وقد جاءت لحفز همم المشركين للتدبّر في خلق أنفسهم، وفيما يتعلّق بشؤون حياتهم. والمعنى: الله هو الذي خلقكم، وأصل خلق الإنسان من تراب، ثمّ تكاثر النّاس بالتناسل من نطفة (وهو اِلتقاء ماء الرّجل ببويضة المرأة)، ثمّ لمّا كثرتم واِنتشرتم جعلكم أزواجا يحتاج ذكوركم للإناث، وتحتاج الإناث للذكور لعمارة الأرض، واِستمرار الحياة. والله عليم بما تحمل كلّ أنثى، وهو الذي يحدّد جنس المخلوق في رحمها، ولا تضع الأنثى إلاّ في الأجل الذي حدّده الله لوضعها، وحياة الإنسان محدّدة بأجل كتبه الله له يوم خلقه، فلا يموت الإنسان إلاّ بأجله. وإذا طال عمر إنسان فلأنّ الله تعالى قد قدّر له أن يعمّر وأن يطول عمره، وإذا مات أحدهم صغيرا فلأَنَّ الأجل الذي قُدِّر له قد قَصُر لتقديرٍ قد قدّره الله له. إنّ خلق الأجنّة في الأرحام، وتحديد جنس كلّ مولود، وتحديد أجله ورزقه كذلك أمر هيّنٌ على الله تعالى، فتعرّفوا بهذا على تقدير الله وتدبيره لشؤون خلقه، ولتعلموا أنّ الله هو الخالق، وأنّه هو صاحب الفضل عليكم في إيجادكم وإحيائكم وتقدير آجالكم، وليس

للأصنام التي تعبدون وتدعون أيّ فضل عليكم في الخلق والتقدير، فدعوا عبادتها واعبدوا ربّكم صاحب الفضل عليكم ولا تعبدوا سواه.

- ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ **(12)** :

هذه للدّلالة على بديع الصُنع والخلق في الجمع بين المتناقضين دون أن يؤثّر أحدهما على الآخر، وهذا من حسن التّقدير. والمعنى: وما يستوي البحران في نوع الماء وطعمه: أحدهما بحر ماؤه عذب طيّب حلو، يُذْهِبُ العطشَ ويروي وشُرْبُهُ سهل المرور في الحلق. والآخر ماؤه شديد الملوحة والمرارة، لا يُشرب لأنّ النّفس لا تقبله، وتمجُّه. يلتقيان في المصبّ دون أن يؤثّر أحدهما في الآخر رغم إختلافهما في الخواصّ، وهذا من بديع الخلق وعظيم القدرة. ومثل هذا : اِلتقاء البحرين دجلة والفرات العذبين ببحر خليج العجم الملح الأجاج، وكذلك مصبّ نهر النيل العذب بالبحر الأبيض المتوسط الملح الأجاج. لا يحصل عند اِلتقاء المتضادّين تأثير ولا تأثُّر.

ومن الصنفين: العذب والمَلِح تُخرج الحيتان الطريّة للطعام، ويُستخرج اللؤلؤ والمرجان لصناعة الحلية للباس المرأة وزينتها. وفي كليهما تجري السفن للسفر وللتّجارة وللصيد. كلّ هذا من تسخير الله تعالى لفائدتكم، وهذا من فضائله عليكم لشرابكم وطعامكم وزينتكم وعساكم تشكرون ربّكم على فضله ونعمته.

هذه آية عظيمة تُنبِّهُ لآيةٍ كونية دالّة على تعطيل النّواميس المعهودة والمعقولة في الماء: يلتقي المختلفان دون أن يؤثّر أحدهما على الآخر، بل يحافظ كلّ منهما على خواصّه ومميّزاته، وهذا من بدائع الخلق والتّقدير.

- ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ **(13)** :

ويدخل الليل في النّهار – وهما متناقضان – ويدخل النّهار في الليل ليجد الإنسان زمنا لراحته وسَكَنِهِ ونومه، ووقتا لعمله ونشاطه وطلب رزقه وحاجته، وهذا من حكمة الله تعالى في التّقدير لفائدة الإنسان.

وذلّل لكم الشّمس لتنتفعوا بالضياء والنّور أو الدفءِ ومنافع أخرى، وجعل القمر للأنس ولتعلموا عدد السنين والحساب. وكلّ هذا وذاك قائم لزمن محدّد موقوت يعلمه الله تعالى، فإذا بلغ أجله كان الفناء. هذا خلق الله تعالى فتدبّروا خلقه، وتدبّروا حكمة ما سخّره لكم لحياتكم ومعاشكم لتعرفوا ربّكم الحقّ ولتتعرّفوا عليه من تدبّر آياته المختلفة والمعجزة، وكلّ ما تعيشون فيه وما

ترون هو من مِلك الله عزّ وجلّ، وهو المالك لكلّ ما في السماوات وما في الأرض. وأمّا الذين تدعون من آلهتكم المزعومة من دون الله سبحانه وتعالى فإنّهم لا يملكون شيئا ممّا على الأرض ولو كان بقدر القشرة الرّقيقة التي تغلّف نواة التمرة، وهو من أحقر المخلوقات لخفّته ورقّته ولقلّة أهميته. فَلِمَ تعبدونها وتغفلون عن عبادة الخالق الحقّ، الربّ القدير، المالك لكلّ شيء.

- إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٍ **(14)** :

إنّ آلهتكم التي تدعونها لا تسمع أدعيتكم لأنّها أصنام من حجارة صمّاء، وهي صور لآلهة مزعومة لا وجود لها، ولو أُفْتُرِضَ أنّها تسمع فإنّها لا تملك القدرة للاستجابة لأدعيتكم، لذا فلا نفعَ لكم من تقديسها ودعائها. ويوم القيامة ستتبرّأ من عبادتكم لها وتقديسها لأنّها لم تأمركم بشيء، ولم تكن قد دعتكم لعبادتها، وستكفر بعبادتكم لها. ولا يخبرك بمثل هذه الأخبار الموثوقة مثل العليم الخبير بها وبأحوالها. بعد هذه البيانات الواضحة يكون من العجب أن يظلّ أحد على شركه.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ **(15)** :

هذه الآية مع الآيات الثلاثة الموالية في موعظة النّاس للتوجّه إلى الله تعالى وحده بالدعاء، وطلب العون والفضل لتزكية النّفس من الشّرك لحمايتها من حمل الوزر يوم الحساب.

والمعنى: يا أيّها النّاس أنتم المحتاجون إلى الله تعالى لنيل رحمته، وتحصيل فضله، والله هو الغنيّ عنكم وعن عبادتكم له، والشكر له، فإنّه محمود في السماوات وفي الأرض، (وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ)(الإسراء الآية 44).

- إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٍ جَدِيدٍ **(16)** وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ **(17)** :

والله قدير عليكم إن يشأ يفنيكم جميعا لكفركم، ويستبدلكم بخلق جديد يؤمنون به ويعبدونه، ويطيعونه فيما يأمرهم به، ولا يعصونه فيما أمرهم. وهذا الوعيد لإنذار الكافرين ليستقيموا على دينه وطاعته. وإنّ الذهاب بكم إلى الفناء، والإتيان بغيركم ليس بالأمر العسير والشاقّ على الله تعالى. إنّه أمر سهل ويسير، فاخشوا ربّكم، وأطيعوه خيرًا لكم.

- وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ **(18)** :

الموعظة لتذكير المؤمنين بالعمل للآخرة وللحذر من إتيان الذنوب. والمعنى: ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى، فكلّ إنسان مسؤول عن نفسه، وإذا جاءت نفس مثقلة بذنوبها فلن يحمل



عنها أيّ أحد شيئا من ثقل ذنوبها ولو كان من أحبّ الأقرباء إليها. قال تعالى (فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ)(عبس الآيات 33-37). وفي هذا تنبيه للعرب الذين يتوهّمون بأنّ تقليدهم لآبائهم في عبادتهم – من بِرِّهم بِهم – سيشفع لهم عند الله، وقد كانوا يقدّسون البرّ بالوالدين، وهذا ليعلموا أنّ آباءهم لن يشفعوا لهم ليتحمّلوا مسؤولياتهم عن أنفسهم وعن أعمالهم.

وإنّما ينتفع بهذه الموعظة الذين يخافون عقاب الله وعذابه ويخافون غضبه حين يذكرونه في خلواتهم في أنفسهم، الذين يثابرون على إقام الصلاة خوفا وطمعا في رضوانه ورحمته.

وكلّ من يطهّر نفسه من الكفر ومن الشرك، ويأْتِ يوم القيامة بقلب سليم فإنّما ينفع نفسه بنقاوة سريرته. واِعلموا أنّكم جميعا عائدون إلى الله تعالى للحساب.

- وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ (19) وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ (20) وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ (21) وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ (22) إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ (23) :

هذه الآيات لتسلية الرّسول صلّى الله عليه وسلّم الذي أحزنه كفر قومه وعنادهم ومكابرتهم وإعراضهم عن السماع له. وقد جاء في هذه الآيات وصف الجاهل المعاند الذي يغمض عينيه عن إبصار دلائل الحقّ بأنّه أعمى، وبأنّه يعيش في ظلمات: ظلمة الجهل، وظلمة تغميض عينيه عن إبصار نور الحقّ، والذي يرضى لنفسه أن يعيش في هذه الظلمات فهو كالميّت المقيم في ظلمة القبر الذي لا يرى ما يجري من حوله، ولا يسمع صوتا لأنّه مدفون فيه. هذه صفات لكلّ من أبى أن ينظر في دلائل الحقّ، وأبى أن يسمع ما جاءه من الحقّ من عند ربّه، وأبى أن يتخلّص من عناده ومن جهالته ومن مكابرته تقليدا لآبائه أو لإصراره على الكفر وعبادة الأصنام.

وأمّا من أبصر فيما جاءه من عند الله تعالى عن طريق رسوله وتدبّر آياته ودلائله وآلائه فآمن فهو كالذي أبصر بعد عماه، وكالذي خرج من الظلمات إلى النّور المضيء المشرق فأبصر ما حوله بوضوح، وعرف طريقه وحدودها، وبهذا يكون كائنا حيّا، هذا الإنسان الحيّ المبصر المستنير لا يستوي مع الميّت الأعمى الذي يعيش في الظلمات والذي لا يسمع. والإنسان الذي لا يرغب في أن يعيش في ظلّ الجنّة ونعيمها، ويرضى لنفسه أن يستقرّ في (ٱلۡحَرُورِ): في النّار ذات الحرّ الشّديد لا يستوي مع طالب الجنّة ونعيمها.

وإنّك يا رسول الله مُرْسَلٌ لإنذار من يعقل ومن يسمع من عذاب الآخرة ومن سوء عاقبة الكفر ليستقيم على دين الله، وأمّا اِهتداء النّاس إلى الإيمان بتطويع أنفسهم لقبول دعوتك والسماع

لك فأمره إلى الله عزّ وجلّ، وإنّك لن تقدر على أن تسمع صوتك سكّان القبور، فامضِ لما كلّفت به، وأمّا أمر العباد فعند ربّ العباد.

- إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ (24) :

هذه الآية مع الآيتين المواليتين في تكريم النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم بإثبات صدقه وصدق رسالته. والمعنى: إنّا أرسلناك – يا نبيّ الله – بالحقّ. فأنت بالحقّ رسول الله إلى النّاس كافّة، وأنت بالحقّ نبيّ الله، وبالحقّ ينزل عليك الوحي، وجئت النّاس بالدّين الحقّ. ولفظ (إِنَّآ) جاء للتوكيد مع نون العظمة الذي هو لله عزّ وجلّ. وأنت – يا رسول الله – مكلّف بتبشير المؤمنين العاملين الصالحات بوعد الله الحقّ، ومكلّف بإنذار الكافرين المعرضين عن ذكر الله تعالى وطاعته بالعذاب إن هم لم يتوبوا ولم يؤمنوا ولم يعملوا صالحا. ولم تكن – يا رسول الله– رسولا مُفْرَدًا، بل لم تَخْلُ أمّة من داعٍ يدعوها للإيمان بالله وطاعته وعبادته وليحذّرهم من معصية الله والإشراك به. وفيها تعريض للمشركين الذين كانوا يظنّون أنّ رُسُل الله لا يكونوا إلاّ ملائكة، وما كانوا ليؤمنوا لأنّ رسولهم كان بشرا مثلهم.

- وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ(25) :

وإن يكذّبوك – يا رسول الله – فلا تحزن أو تَغْتَمَّ، فقد كُذِّبَ جميعُ الرّسل من قبلك رغم أنّهم جاؤوهم بالمعجزات، وبالكتب المقروءة التي فيها ذكر الله تعالى وهديه، وبالكتاب الذي فيه شرعه وأحكامه ونواهيه، فلا تأبَهْ بتكذيبهم، وثابر على تبليغ رسالتك، والأمر بعد ذلك لله.

- ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ (26) :

ثمّ عاقبتُ الذين كفروا بعذاب الاستئصال، فانظر كيف كان هلاكهم فاعتبروا يا أولي الألباب.

- أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ (27) :

هذه مع الآية الموالية في عقيدة التّوحيد. والمعنى: ألم ترَ أنّ الله تعالى هو الذي أنزل من السماء الماء الذي تشربون، وتسقون منه أنعامكم، وتروون أرضكم! هل لكم من إلاه غيره ينزل عليكم من السماء ماءً؟ ولقد أنعم الله تعالى عليكم بهذا الماء الذي أنزله عليكم من السماء فأنبت لكم به الشجر المثمر، وجعل لكم، من فضله عليكم، الثمراتِ مختلفةَ الطعم واللون والمذاق والحجم لتنعموا بما آتاكم. وهو تعالى الذي جعل لكم في الجبال طرقا مختلفة الألوان بحسب تلوّن صخورها وتربتها. في الجبل ذي الصخور البيضاء تكون الجُدَّةُ – وهو الطريق الجبلي –

بيضاء. وفي الجبل ذي الصخور الحمراء تكون الطريق حمراء التُربة والصخر. وفي الجبل ذي الصخور السوداء حالكة السواد (غَرَابِيبُ) تكون الطريق سوداء.

- وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28) :

والله تعالى خلق النّاس أجناسا، منهم البيض، ومنهم السمر، ومنهم الصفر، ومنهم الشّقر، وجعل الدوابّ والأنعام على أجناس مختلفة، مختلفة في أحجامها، ومختلفة في طرائق حياتها، ومختلفة في طرق الانتفاع بها كذلك. والعلماء العقلاء المتدبّرون في خلق الله هُم أفضل عباد الله إدراكا لعظيم خلق الله، ولتنوّع خلقه، وعظيم مخلوقاته، وهم أقدرهم على إدراك شدّة بطش الله من غيرهم، وهم الأكثر خشية لله تعالى من بقية العباد، إنّ الله عظيم المكانة وهو القاهر الذي لا يغلب، وهو كثير المغفرة لعباده التّائبين المؤمنين المنيبين والمستغفرين. (أُنظر الفصل الّذي كتبناه في تفسير قوله تعالى (إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ) في كتابنا: تنوير المستنير في بيان معاني البيان ج6 ص 146-148 للتوسّع في معناها).

- إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ (29) :

هذه الآية إلى الآية 35 في تكريم القرّاء، وفي ما أعدّ الله تعالى من عظيم الفضل جزاءً وثوابًا. والمقصود بالقرّاء هم الذين يحملون في صدورهم وفي ذاكرتهم كتاب الله حملا متقنا، ويكرّرونه بانتظام حتى لا يفلت منهم، وهم الذين يفقهون الأحكام الشرعية التي وردت فيه.

وهي كذلك في وعد الذين يتلون كتاب الله، ويداومون على الصلاة، والذين هم محسنون بحسن العاقبة في آخرتهم. والمعنى (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ) هم الذين يقرؤون كتاب الله مرّة بعد أخرى، ويتبعون ختم قراءة كامل الكتاب بختم آخر، وسُمِّيَت قراءة القرآن مرّة بعد مرّة تلاوة، لأنّ التّلاوة تعني التَّعَبُّد بقراءته طلبا للأجر والمثوبة ذلك لأنّ قراءة الحرف منه بعشر حسنات، ولأنّ القرآن من الذِكْر، والذِّكْرُ من التّعبّد الحسن، وعند قراءته تعرض للقارئ سجدة تلاوة، والسجود لله للشكر أو للتّعظيم هو من التّعبّد، وفيه الدعاء والتّسبيح وهذا من التعبّد، وفيه الموعظة وهذا من التّعبّد والذِكْر، والقارئ قد يتدبّر أحكامه ويجتهد للعمل بأحكامه وهذا من العمل الصالح، والدين قائم على عقيدة الإيمان، وعلى العمل بالشريعة الذي يسمّى عملا صالحا، وفي التّلاوة كلّ هذه العناصر، فوجب على القارئ لكتاب الله ليتّصف بصفة التّالين لكتاب الله الذاكرين أن يستحضر هذه المعاني عند قراءته للقرآن، وأن لا تكون قراءته قاصرة على قراءة أحرفه دون

تدبّر فيفرّط في هذه الفضائل، وليعلم قارئ القرآن أن تدبّر آياته قد أوجبه الله تعالى، وقد جاء في سورة "ص" (الآية 29) ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

والذين يقيمون الصلاة، وقد جاء (في كتاب عفيف طبارة – روح الصلاة في الإسلام ص 23) فصل في تعريف الصلاة فذكر : "الصلاة عبادة مشتركة بين الديانات، وهي لون من ألوان الابتهال إلى الله. وكلمة الصلاة لم يستحدثها الإسلام، بل اِستعملها العرب قبل الإسلام بمعنى الدعاء والاستغفار، وهي مشتقّة من الصلة لأنّها تصل الإنسان بخالقه وتقرّبه من رحمة ربّه.

أمّا الإسلام فأطلق لفظ الصلاة على الصورة المعهودة من العبادة التي علّمها الرسول للمسلمين وهي: أقوال وأفعال يُقصد بها تعظيم الله، مفتتحة بالتّكبير (الله أكبر)، ومختتمة بالتّسليم (السّلام عليكم) بشروط خاصّة وضَعها لذلك. وقد فرض الله الصلاة على المسلمين للثّناء عليه بما يستحقّه من حمد وتمجيد على نعمه التي لا تُحْصَى، كما فرضها عليهم ليذكّرهم بأوامره، وليستعينوا بها على تخفيف ما يلقونه من أنواع المشقّة والبلاء في الحياة الدنيا..."

وعموما فإنّ الصلاة عماد الدّين، ولا دين من غير صلاة، والمداومة على الصلاة من صفات المؤمن الذي يطلب القرب من ربّه، ويطلب رضوانه ورحمته. وإنّ الصلاة بقيامها وركوعها وسجودها وبقراءة كلام الله في خشوع، وبتسبيحها تقديسا لله وتعظيما، وبدعائها بما يَرْجو المصلّي من الله أن يحقّقه له فيها عروج روحي إلى الذات العليّة ذي القوة والجلال والقدرة، وفيها خضوع إرادي للنفس بجميع الجوارح عند أداء الحركات لله خوفا وطمعا ممّا يبعث في النّفس الطمأنينة، فإذا كانت هذه النفس مريضة أو في أزمة أو في ضائقة نفسيّة كانت الصلاة لها علاجا، وكانت لها متنفّسا لرفع شكواها إلى الله العليّ القدير، أو كانت لها بلسما يمنحها القوة المعنوية بالصبر وبما دعت وبما رجت من تحقيق لرغبتها فترتاح وتسكن في اِنتظار الفرج. الصلاة ليست فقط طاعة وعبادة، الصلاة هي الرباط الوثيق الذي يجعل العبد متعلّقا في جميع أوقاتها بالله عزّ وجلّ، وهذا الرباط هو الذي يحمل النّفس على أداء الطاعات الربانية الدينيّة طواعيّة ولا يشعر فيها مشقّة الأداء وهي التي تحصّنه من اِرتكاب الآثام والذنوب خشية من الله تعالى. قال عزّ وجلّ ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (العنكبوت الآية 45). فلذلك كانت مداومة العبد على صلاته إن خلت من الرّياء دليلا على خشيته من ربّه، ودليلا على تعلّقه برحمته تعالى، وكانت له حصنا منيعا من الوقوع في الآثام والمعاصي إن أحسن أداءها.

والذين ينفقون ممّا رزقهم الله تعالى سرّا وعلانية إحسانا ودَعما لذوي الحاجة بما به صلاح حالهم، وتحقيقا للمُوَاساة التي هي أصل فيما يدعو إليه الدين الإسلامي من مبادئ الإخاء

والمؤاخاة، والتآزر، والتعاون تجسيما لقوله تعالى (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)(الحجرات الآية 10) ولقوله تعالى (وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا)(الإنسان الآيتين 8-9).

وقد رغّب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في الإنفاق والبذل في وجوه البرّ والمعروف فجعل المتصدّق بماله مع السبعة الذين يظلّهم بظلّ شرعه، فذكر منهم : "ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه". وقد سمّي الإنفاق في وجوه البرّ والإحسان وفي مشاريع المصلحة العامّة للأمّة : صدقة، وقد أُشتقّ هذا الاسم من الصدق لأنّ الصدقة تدلّ على صدق إيمان صاحبها.

هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات الثلاثة عدّهم الله تعالى تُجَّارًا مع الله عزّ وجلّ يطلبون بتجارتهم الربح الوفير من عند ربّهم. إنّهم يطلبون بتلاوتهم للقرآن وبصلاتهم وبنفقاتهم في وجوه البرّ والإحسان مقابلا لأعمالهم من عند الله تعالى وأجورًا متنامية لا تكسد ولا تنقطع.

- لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ(30) :

أرادوا بتجارتهم مع ربّهم أو يوفّيهم الله تعالى في الأجر والثواب مقابل أعمالهم في الطاعات، وإنّهم يطمعون في أن يزيدهم فوق ذلك من فضله ممّا يشاء وممّا يقدّر، ويَعِدُهُم الله تعالى بأن يحقّق لهم ما يرجون: سيضاعف لهم الأجر والثواب عمّا عملوا، وسيَهَبُهم من فضله ممّا لم يخطر على بالهم، ويعدهم بمغفرة ذنوبهم لأنّه الغفور، وإنّه تعالى (شَكُور) يقبل القليل من العمل الخالص ويثيبُ عليه بالجزيل من الثّواب.

- وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ(31)

هذه للتأكيد على صدق النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فيما يبلّغ عن ربّه من قرآن، والمعنى: وما أوحى الله به إليك – يا رسول الله – من قرآن تقرأه على النّاس هو حقّا كلام الله. وهذا الكتاب مصدّق لما سبقه من الكتب المنزلة على رسله السابقين: صحف إبراهيم والتوراة والإنجيل. إنّ الله سبحانه خبير بما يصلح للنّاس لإقامتهم على صراطه المستقيم، وبما ينفعهم لموعظتهم ولما يقرّبهم من ربّهم بالطاعات، وهو بصير بما يعملون من طاعات أو من معاص، ومطلّع عليهم، وعليم بما يفعلون.

- ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ(32) :

هذه الآية ممّا يفخر بها كلّ من حمل القرآن الكريم في صدره لما بُشّر به من تحصيل لفضل كبير من عند ربّه، وقد جاءت الآيات الثلاثة الموالية ببيان صفة هذا الفضل الكبير. والمعنى:



(ثُمَّ) أي وقدّرنا أن نجعل هذا (ٱلۡكِتَٰبَ): القرآن الكريم يورث في هذه الأمة الإسلامية جيلا بعد جيل في كلّ زمن حتى لا يضيع من صدور الرجال الذين اصطفيناهم من عبادنا لوراثة حمله لنقله للنّاس كما أنزل من غير تحريف قارئا عن قارئ. وممّا يفخر به كلّ قارئ أن جعله تعالى (وارثا) أي آخذا ممن سبقه من القرّاء الثقات المصطفين لهذه المهمّة كتاب الله قراءة صحيحة كما نزل على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الذي تولّى تحفيظه وتعليمه لبعض من صحابته الشبّان الحفظة كما تقبّله من جبريل عليه السلام الملك الأمين بأمرٍ من الله عزّ وجلّ كما جاء في اللوح المحفوظ. وهذا الحمل لا يستطيعه إلاّ من اِصطفاه الله واِختاره لنيل هذا الشّرف ومكّنه من ذاكرة قويّة وحافظة جيّدة وحسن التلقّي وحسن الضبط، ويسّر له التّكرير والمراجعة اليومية لما حفظ في ذاكرته وتلقّاه من معلّمه القارئ الحافظ الضابط.

وصُنِّفَ القرّاء إلى ثلاثة أصناف: منهم الظالم لنفسه، ومنهم المقتصد، ومنهم سابق بالخيرات. واِختلف المفسّرون من تحديد صفة كلّ صنف وتعدّدت أقوالهم وآراؤهم. وما أطمئِنُّ إليه في تعريف هذه الأصناف بحسب معرفتي لجماعة من القرّاء الذين يحملون في صدورهم كلام الله تعالى – وكلّهم عندي محلّ تقدير وإكبار لأنّهم من عباد الله المصطفَيْن – إلاّ أنّ منهم من كان عصبي المزاج، سريع الغضب وعنيفا في ردوده وفي تعامله مع النّاس ممّا يجعلهم ينفرون منه، فلعلّ مثل هذا من صنف الظالم لنفسه بسبب غلظة طبعه ونفور النّاس منه. ولعلّ المقتصد هو الذي ينعزل عن النّاس، ولا يُعْرَف عنه عمل يدلّ على أنّه من القرّاء، لم يسمع منه النّاس موعظة، ولا إرشادا، ولا يذكرون عنه أعمالا كثيرة من الطاعات، فهو قليل الإفادة بعلمه لمن يحيط به. وأمّا الصنف الثالث: السابق بالخيرات، فهو القارئ الذي يحفظ النّاس ذكره حتى بعد موته، والذي كان يحظى في حياته في محيطه الاجتماعي بكثير من الاحترام والتقدير لأنّهم كانوا يرون الكثير من طاعاته في تحفيظ القرآن للصبية وفي تأديبهم على الطاعات، ورأوْا عفّته، ورأوْا أعماله في النوافل في صلاته وصيامه، وكان يُرَى وقورا ومهيبا، إذا تكلّم كان قوله نصحا وإرشادا، وفي الخلاف كان قوله في الخصمين توفيقا وموعظة. الناس يرون في سلوكه الأخلاق العالية، وفي مظهره نظافة، ويرونه في خلوته ذاكرا (بِإِذۡنِ ٱللَّهِ) ولم يكن هؤلاء القرّاء بقادرين على حمل القرآن في صدورهم كما أُنزل على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلاّ لأنّ الله تعالى قد اِصطفاهم لهذا الأمر، ووفّقهم فيه. ولولا توفيق الله ما كانوا يستطيعون حمله. وكم من إنسان قد رغب في حفظ القرآن، وثابر على حضور حصص الإملاء ولكنّه لم يتمكّن من تحقيق رغبته لأنّ ما يحفظه في حصص الإملاء سرعان ما يفلت منه، ذلك لأنّ الله تعالى لم يأذن له بهذا الفضل،

لم يأذن له إلاّ بما يتيسّر له منه لصلاته، وفي كلّ حال عليه أن يشكر فضل ربّه عليه إذ حمل في صدره ما يسّره الله له من كتابه.

(ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ) أمِنْ فضل أكبر على العبد أن يكون من عباده المصطفَيْن، ثمّ أن يكون وريثا لحمل كتاب الله في صدره ليكون مؤتمنا عليه حتى ينقله لغيره بأمانة على ما نزل به الوحي كي لا يضيع من صدور النّاس على مرّ الزّمان. هذا شرف عظيم وائتمان عظيم الأهمية.

ولقد عمد الصليبيون عند إحتلالهم للمسجد الأقصى بالقدس لحرق جميع المصاحف ظنّا منهم أنّ بفعلهم هذا سيمحون ذكر ما نزل به الوحي على النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم من القرآن، ولم يكونوا يعلمون أنّه محفوظ في صدور القرّاء، فلمّا ذهبوا بعد هزيمتهم أعيد نسخ المصاحف من إملاء القرّاء.

- جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ **(33)** :

وقد أعدّ الله تعالى لهؤلاء لآخرتهم بساتين يقيمون فيها الإقامة الدائمة، ويلبسون فيها لباس الملوك: أساور من ذهب ولؤلؤا بزنودهم على عادة الملوك في العصور الماضية، ويلبسون ملابس فاخرة من الحرير تكريما لهم وتشريفا وتعظيما لقدرهم، إلى جانب ما نالوا من عظيم الشرف والتقدير في دنياهم. وهذا عام للأصناف الثلاثة من القرّاء، وقد جاء في الحديث الشريف عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول في تعقيبه على هذه الآية : "كلّهم في الجنّة: سابقنا سابق، ومقتصدنا ناجٍ، وظالمنا مغفور له". فهنيئا لهم بذاك التشريف والاصطفاء وبهذا الوعد الصادق ذي الفضل العظيم.

- وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ **(34)** :

وحينما يفوزون بهذا النّعيم وعلوّ المقام يظلّون يحمدون الله تعالى على فضله حين أذهب عنهم كلّ ما يحزن ويغمّ وكلّ ما يُخيف يوم القيامة. ويقرّون يقينا بأنّ الله كثير المغفرة بعباده المؤمنين، وهو (شَكُورٌ) لأنّه يقابل القليل من العمل الخالص بالثّواب الجزيل العظيم.

- ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ **(35)** :

يحمدون الله تعالى إذ أنزلهم الجنّة: دار الإقامة الدائمة، لا يرون فيها (نَصَبٌ) أي تعبا ومشقّة، ولا يجدون فيها (لُغُوبٌ) وهو الإعياء والفتور من بعد التّعب والمشقّة والعناء، إنّهم واجدون فيها كلّ راحة ورفاه وعظيم القدر والتكريم.

- وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ **(36)** :



هذه الآية مع الآية الموالية في وعيد الكافرين لتحذيرهم من سوء عذاب الآخرة ليتوبوا، وهذا الوعيد مقابل للوعد السابق بتكريم المؤمنين على عادة القرآن في الجمع بين الوعد والوعيد. فالذين كفروا موعودون بعذابهم في نار جهنّم لا يموتون فيها ليستريحوا من عذابها، ولكنّهم يظلّون أحياء فيها ليستمرّ عذابهم، ولا يخفّف عنهم من عذابها لأنّهم محرومون من رحمة الله بسبب كفرهم به، وكذا يكون جزاؤهم على كفرهم.

- **وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (37) :**

وهم يضجّون فيها، ويصرخون، ويستغيثون من شدّة ما يلاقون من العذاب يقولون ربّنا أخرجنا من هذا العذاب، ورُدَّنا إلى دنيانا لنعمل صالحا غير الذي نعمله سابقا وحسبناه صالحا، ولكن لا يستجاب لاستغاثتهم ويقال لهم: قد طالت أعماركم لترشدوا وتتوبوا وتستغفروا ربّكم، كانت مدّة طويلة لتعتبروا ولتتوبوا لرشدكم وليتذكّر من يرشد منكم، ولقد جاءكم رسول من عند ربّكم لينذركم من هذا العذاب ويحذّركم منه لتقلعوا عن الكفر، ولتؤمنوا، فما آمنتم، وأصررتم على الكفر فذوقوا هذا العذاب الذي أنكرتموه ولم تخشَوْهُ، وليس لكم اليوم أيّ ناصر أو معين أو مغيث ومنجد.

- **إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (38) :**

عودة مع هذه الآية إلى آخر السورة لعقيدة التّوحيد، مع ذكر خلف عهد المشركين مع ربّهم ليكونوا أهدى الأمم إذا أرسل الله إليهم رسولا، وفيها وعيد بالمستكبرين في الأرض. والمعنى: إنّ الله تعالى عليم بما يخفى على البشر علمه من خبر السماوات وما يجري فيها لنفع النّاس فضلا من عند ربّهم، أو ممّا يُعدُّ للكافرين من سوء يأتيهم منها، وعليم بما يخفى عليهم علمه من خبر الأرض ممّا يخرج منها من خيرات لرزق العباد، وما يمكن أن يحدث فيها لهلاك من يكون على سطحها في بقعة منها. إنّه تعالى عليم بخفايا النّفوس من إيمان، أو كفر أو تدبير مكائد. والآية في علم الله التامّ بخفايا الأمور ليعلم النّاس أنّه لا يخفى على الله شيء، وأنّه تعالى محيط بكلّ شيء علما من الحادثات وممّا سيكون ومن الغيبيات.

- **هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (39) :**

هو تعالى الذي جعلكم خلفا بعد خلف، ولكلّ جيل خصائصه، ولكلّ قرن خصائصه، وكلّ إنسان مسؤول عن معتقده وعن عمله. فمن كفر فإنّه سيلقى عقابا وعذابا شديدا عن كفره وعصيانه. وإن تمادى في كفره دون أن يراجع نفسه، أو يثوب لرشده ويتوب، ثمّ يموت على كفره



فإنّ تماديه في الكفر وفي الباطل لا يزداد به إلاّ بُعْدًا عن رحمة الله، وما يزداد به إلاّ عقابا. ولا يزيد بعدُ الكافر عن إنابته لربّه بالتوبة إلاّ هلاكا.

- قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (40) :

هذه في مطالبة المشركين بإحضار شواهدهم وحججهم لإثبات ألوهية آلهتهم التي يشركون بها. والمعنى: أيّها المشركون أحضروا شواهدكم ممّا خلق آلهتكم التي تشركون بها ربّكم الخالق الحقيقي، بيّنوا ماذا خلقت من الأرض؟ أم عندكم شاهد على أنّها شاركت في خلق شيء في السماوات؟ أم جاءكم من عند ربّكم كتاب يخبركم بهذه الشركة في الألوهية والخلق، ويأمركم بعبادتها، فأنتم على بيّنة وثقة وعلم بهذه الشركة فلذلك عبدتموها. كلاّ! ليس لهم أيّ شيء من هذه الدلائل والحجج والبيّنات، إنما هي أباطيل وأوهام يعتقدونها خطأ، بل إنّ المشركين يوهِمُون بعضهم بعضا بوعود فيها تغريرهم، يوهمون بأنّ آلهتهم تشفع لهم من العذاب، وتنصرهم.

- إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (41) :

دُعِيَ المشركون في الآية السابقة لأن يستظهروا بآية من الأرض ومن السماوات لتدلّ على ألوهية آلهتهم أو على شراكتهم في الخلق، فناسب ذلك أن يبيّن الله تعالى آية من آيات خلقه وقدرته في السماوات وفي الأرض تدلّ على ألوهيته ووحدانيته. وتتمثّل هذه الآية في أنّه تعالى هو الذي يحفظ السماوات والأرض من الارتطام، ومن الانفجار والانفطار، هو الذي يحفظ السماوات من أن تقع على الأرض فتحطّمها، بل جعل لها السماوات سقفا محفوظا، ولو لم يحفظها من الارتطام ببعض لفسدتا، فهل يمسكهما أحد غيره سبحانه؟ إنّه تعالى رفيق بخلقه وبعباده، وكثير المغفرة لمن أناب إليه، وثاب إلى رشده، وتاب إليه، وأقلع عن شركه وضلالته.

- وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (42) :

كان العرب قبل بعثة الرسول صلّى الله عليه وسلّم يأملون أن يكونوا أمّة كتاب مثلما جاء اليهود والنّصارى، فكانوا يقسمون بأغلظ الأيمان ويجتهدون في الحلف بأنّه لو جاءهم رسول من عند ربّهم ليكونون أكثر هداية، وأكثر تمسّكا بدين الله من أهل الكتاب: اليهود والنّصارى. فلمّا جاءهم رسول الله محمد بن عبد الله صلّى الله عليه وسلّم يدعوهم للإسلام ونَبْذِ الشّرك حَنَثُوا في يمينهم ولم يبَرُّوا به، بل ما زادتهم بعثة الرّسول إليهم إلاّ هروبا، وتباعدا عن الدّين وعن الحقّ.



- ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا **(43)** :

وما زادهم مجيء الرّسول صلّى الله عليه وسلّم إليهم إلاّ مزيدا من المكابرة: إصرارا على الشّرك، ورفضا للدعوة للتوحيد، وكيدا للرّسول للتآمر على قتله أو نفيه، ولكن لا يحلّ المكروه الذي يدبّرونه للنّبيّ إلاّ بمن يدبّره ويخطّط له. فماذا ينتظر هؤلاء الذين لا يبرّون بأيمانهم، ويتصدّون لدعوة رسول الله، ويصمّون آذانهم عن سماع كلام الله، ثمّ هم يفترون على الله الكذب ويشركون بالله ما لم ينزّل به سلطانا، ويتمسّكون بضلالتهم، ثمّ يمكرون المكر السيّء، بما جاءهم بالهدى غير أن يحلّ بهم عذاب الله الذي لا يُرَدّ على عادته في عقاب أمّة الكفر كالذي حدث في الأمم السالفة، ولا تبديل لسنّة الله في إنزال العذاب على الكافرين، ولا تغيير لها، ولا تُحَوَّلُ من قوم إلى غيرهم من غير مستحقّي العذاب.

- أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا **(44)** :

أو لم يكونوا يسافرون في بقاع الأرض ليروا ما كان قد حلّ في أمم من قبلهم من آثار الخراب والدمار والهلاك ليعتبروا بسوء مآل سابقيهم بسبب كفرهم وشركهم من مثل قوم عاد وثمود، وقد كانوا أشدّ منهم قوّة في المال والأبدان والبنيان، هلك جميعهم وأُستُؤْصِلوا ولم تبق منهم إلاّ آثارهم المدمَّرة، إنّ الله تعالى متمكّن من كلّ شيء، لا يصعب عليه أيّ أمر أو شأن، كلّ شيء في السماوات وفي الأرض في قبضته. إنّه تعالى عليم بما يفعل عباده وبما يمكرون ومطّلع على سرائرهم، وإنّه عظيم القدرة للتمكن منهم لعذابهم فاحذروه.

- وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا **(45)** :

هذه في حِلْمِ الله تعالى بعباده فإنّه تعالى يمهل العُصاة المذنبين، ولا يعجّل لهم بالعذاب ليتوبوا فيتوب الله عليهم لأنّه هو التوّاب، وليغفر لهم لأنّه الغفور الرّحيم. والمعنى: ولو يؤاخذ الله عباده على معاصيهم حين يأتونها لعجّل لهم بالعقوبة وبالهلاك، وحينئذ تخلو الأرض بمن عليها من العباد والدوابّ، ولكنّه سبحانه قضى أن يمهل العصاة المذنبين المداومين على المعاصي حتى الوقت المعلوم: يوم الحساب يوم القيامة. ويومئذ يفصل الله بينهم فيُثيب المؤمن العامل الصالحات بما يستحقّ من التكريم، ويعاقب من يستحقّ العقاب على قدر جرمه.